إحياء أركان الإيمان



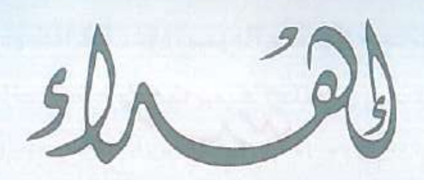
خالد أبو شادي

اســـــم الكتاب	إحياء أركان الإيمان
اســـــم المؤلف	خالد أبو شادي
عـدد الصفحات	640 صفحة
عـــــدد الألوان	4 لون
الإيـداع القانوني	2019 / 26398
البريد الإلكتروني	shadybooks@gmail.com

توزيـــــع



(002) 0100 139 02 93



إلى كل مسلم

يريد أن يفهم دينه في هذا الزمن الذي التبس فيه الحق والباطل

وإلى كل مصلح وداعية

أراد أن يُفند الشبهات التي تتردد على مسامعنا كل يوم وكل ساعة

حتى أصبحنا في زمن الفتن

وإلى كل ذي بصيرة

أراد أن يفهم مفاهيم العقيدة الصحيحة

بشكل مُبسط وواقعي ومتجدد

أهدي هذا الكتاب

يُفند الشبهات ويوضح الحقائق

يُعمق الإيمان ويوثق الصلة بالرحمن

أسأل الله أن ينفع به كل مسلم



مقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾. [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾. [الاحزاب ٧٠، ٧١].

أما بعد...

تراودني منذ فترة ليست بالقصيرة فكرت الكتابة عن أركان الإيمان، وتبرز أهمية الكتابة في هذا الموضوع أنها تُمثل رجوعًا إلى الأصول، وتثبيتًا لأساس الإيمان والأركان كما هو واضح من اسمها..

- وظيفتها أن نبني عليها كل ما تقوم به في حياتك من أفكار ومبادئ وأعمال، فإذا كانت متينة راسخة، كان بناء روحك متينًا قويًا صامدًا في وجه العواصف والشدائد، وإذا كانت أركان إيمانك مفككة غير راسخة، كان البناء عُرضة للانهيار مع أول شدة، وعند أول اختبار تواجهه.

- الأركان ستة: بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وعند عدم إحكام أي ركن منها، فإن البناء يكون عُرضة للانهيار، لذا.. وجب الاهتمام بكل ركن منها، وإعطائه حقه والرعاية به، فقد يتسلل الشيطان من ثغره واحدة نشأت من عدم إحكام رُكن من الأركان، فتكون الفتنة وتؤدي إلى السقوط.

والإيمان يتجه -أول ما يتجه- إلى عالم الغيب، ويسلّط الضوء على عالم الملكوت الغائب عن الأبصار، وقد جعل الله الاتصال بعالم الغيب سبب صلاح عالم الشهادة، وسعادة الروح سبب انتعاش البدن، والمعاني سبب قيام المباني، والصانع أدرى بصنعته، ونحن صُنع الله..

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

ودوري في هذا الكتاب أن أشرح و أبسّط، وأشوّق، وأجذب القلوب إلى أركان الإيمان، وفي سبيل بلوغ هذه الغاية، تناولت الأركان بأسلوب فيه اختلاف يُناسب اختلاف العصر، وعلامات هذا الاختلاف:

① تناولت كل ركن من الأركان الستة على هيئة مجموعة من الأسئلة، بحيث تُشكل الإجابة على هذه الأسئلة، إحاطة بالحد الأدنى من المعرفة المطلوبة من الأركان.

② في الكتاب إجابة على كثير من الشُبهات المعاصرة والإشكالات المُثارة، لا سيما ما كان على صفحات التواصل والشبكات الإجتماعية، إنطلاقًا في قاعدة أركان الإيمان.

③ البرنامج العملي: لأربط الأفكار النظرية بالتطبيقات العملية، ما وجدت إلى ذلك سبيلاً، فليس الإيمان بالتمني، ولا بجدليات اللسان، بل هو أحوال ناطقة ونماذج قائمة شاهدة.

④ البُعد عن مسائل الخلاف: فهي تتعلق بالفروع التي تشغل المتخصصين، ولا تمس أصل أركان الإيمان، فالمُخاطَب بهذا الكتاب جمهور المسلمين وشريحته: الشباب المقبل على الدين، وهؤلاء يهمهم فكر الأركان والعمل بها دون الاستغراق في مَواطن الخلاف.

⑤ الإسقاطات الواقعية: وأعرض فيها للنماذج والتطبيقات الواقعية، سواء كانت إيجابية أو سلبية، فبالمثال يتضح المقال، وإن ربط الموعظة بالسلوك يجعلها أكثر وضوحًا وإلزامًا للقارئ فينطلق من القراءة إلى التنفيذ.

وأملي وطموحي أن ينتشر هذا الكتاب بين الناس، ليسدَّ ثغرة مهمة في جدار التربية الإيمانية المنشودة، ويمزج القديم الأصيل بالمُعاصر الحديث، فيتلقنه الشباب لأنه خاطبهم بلسانهم، وهم اليوم يواجهون طوفانًا من الأفكار الرخيصة والمبادئ الهدامة، وهذه تستهدف زلزلة ثوابت

الإيمان، وتمييع مبادئ الإسلام، وتحويل الحرام المستقبح إلى سائغ مُستحب، وما أيسر هذا اليوم في ظل غياب القدوات الصالحة، وتطور وسائل التواصل التي جعلت العالم لا أقول قرية صغيرة بل غُرفة صغيرة.

قبل أن أدعك أخي القارئ مع هذا الكتاب..

أسألك دعوة لي بظهر الغيب، هذه الدعوة هي مكافأتي التي أنتظارها من وراء كتابتي، وأنا هنا عامل بحديث النبي ﷺ الذي قال: «من أتى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له»[1]. وأنا مكافأتي الدعاء، وشكري ليس بنشر كلمات الثناء، بل برجاء العفو والثواب من ربٍّ كريم واسع العطاء.

والله أسأل أن يطرح في هذا الكتاب القبول والبركة..

وأن ينفع به كل من قرأه..

ويُثيب كاتبه حين يطوى وحيدًا في حفرة القبر..

حيث لا أهل ولا نسب، ولا مال ولا ذهب..

يرحل كل هذا، ولا يبقي إلا عمله الذي كسب..

ربي ولي ذلك والقادر عليه.



(١) صحيح: رواه الطبراني عن الحكم بن عمير كما في صحيح الجامع رقم ٥٩٣٧.



عرفتُ الله

أولا: هل عرفتَ الله حقا؟

ثانيا: ما أدلة وجود الله ؟

ثالثا: ما حقيقة القول بالمصادفة؟

رابعا: أسماء الله وصفاته ؟

خامسا: ما معنى لا إله إلا الله ؟

سادسا: ما آيات وأحاديث الصفات

سابعا: ما علامات الإيمان بالله ؟

ثامنا: ما طرق زيادة الإيمان؟

تاسعا: ما الفارق بين العبودية والعبادة؟

عاشرا: حديث قدُسيٌ مُذهِل!!

هل عرفتَ الله حقا؟!

هل قدرتَ الله قدْرَه؟! هل رجوتَه؟ هل من القلب دعَوْتَه؟!

لو عرفتَه ما عصيتَه.

عصيتَ الذي يرعاك.. وبارزتَ بالذنوب مولاك

ويحك! ماذا دهاك؟!

حتى بِعْتَ هداك بهواك.

ويحك!

ألا يفيق من عرف الطريق؟! ألا يعلم أنَّ بعد سعة الدنيا ضيق؟

فكيف وحتى نِعَم الدنيا تَغَصُّ بالريق؟

إن لم تعرف الله حقا، فأنت غريق غريق..

ولن ينفعك غدًا حبيب ولا صديق.

فإذا زارك الموت على هذه الحال، فإلى أي فريق؟!

هذا قد وضح الطريق..

فإما جنة نعيم.. أو عذاب حريق.



أولاً

هل عرفتَ الله حقا؟

عَرِفتُ الله



كان أحمد بن عاصم الأنطاكيُّ يقول:

«أحبُّ أن لا أموتَ حتّى أعرفَ مولاي، وليس معرفتُه الإقرار به، ولكن المعرفة التي إذا عرفته بها استحييت منه».

ومعلومٌ أن شرف العلم تابع لشرف المعلوم، ولا شك أن أجلَّ معلوم وأعظمه وأكبره هو الله رب العالمين، فالعلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم.

وقد أجمع أطباء القلوب على أن محرِّكات القلوب إلى الله ﷻ ثلاثة:

المحبة والخوف والرجاء، وهذه الثلاثة لا ينالها إلا من عرف الله حقًا، فمن عرف الله حقًا أحبه وخافه ورجاه.



ومعرفة الله التي أعنيها ليست المعرفة العامة، أيْ معرفة الإقرار بوجود الله، فهذه يشترك فيها البَرُّ والفاجر، لكنها المعرفة الخاصة التي توجب الحياء من الله، ومحبته، والتوكل عليه، والأنس به سبحانه.

ومعرفة الآمِر ضرورة لازمة قبل تنفيذ الأمر، لأنها التي تؤدي إليه، وتُسلِّم زمام المرء إلى ربِّه، فمستحيلٌ أن تعرفه ثم لا تحبه، وأن تحبه ثم لا تطيعه، وأن تطيعه ثم لا تسعد بالقرب منه في الدنيا والآخرة، بل كلما قويت معرفتك بربك قويت محبتك له، وتلذذت بطاعته وخدمته.

نعم.. معاملة العباد لربهم بحسب معرفتهم به، فكلما زادت المعرفة بالله ارتقت المعاملة معه، وانظر ما حدث مع موسى ﷺ حين رأى آثار تجلي الله على الجبل الذي اندكَّ، فخرَّ موسى صعِقًا، فلما أفاق ماذا قال لربه؟!

﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

هذا قوله حين رأى آثار تجلي الله على الجبل، فكذلك القلب لو رأى آثار تجلي صفات الله على أرجاء هذا الكون.

وبحسب معرفة الله تتحدد درجات العباد في الجنة، حتى قال أبو حامد الغزالي:

«الجنة بقدر حب الله تعالى، وحب الله تعالى بقدر معرفته، فأصل السعادات هي المعرفة التي عبَّر الشرع عنها بالإيمان».

وهي معرفة تصاعدية، وعلى هيئة مدارج، ينتقل معها العبد من درجة إلى درجة أعلى منها، وكلما زدت قربا من الله قرَّبك، فزدت معرفة له وطاعة لأمره واجتنابا لنواهيه.

وما أجمل هذا القول لابن عباس ﷺ:

«حجَب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال، فإن العبد يترقى من معرفة الأفعال إلى معرفة الصفات، ومن معرفة الصفات إلى معرفة الذات، فإذا شاهد شيئا من حسن جمال الأفعال استدل به على جمال الصفات، ثم استدل بجمال الصفات على جمال الذات».



أي أن المؤمن يرى الله في كل ما يجري حوله، وينسب كل شيء حدث حوله إلى إرادة الله وتقديره.

1 ترى لطف الله بك في محنة، فتستدل بصفة (اللطف) عليه.

2 ترى مكر الله بالمجرمين، وإمهاله للظالمين، فتطمئن وتشفي غيظك وأنت ترى تحقق قول ربك:

﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾.

3 تتعرض لخصومة أو عداوة أو ظلم، فتنظر من وراء أحجبة الغيب إلى من سلَّط عليك أعداءك، فتستريح. قال ابن تيمية: «العباد آلة؛ فانظر إلى الذي سلَّطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، لتستريح من الهم والغم».

4 تسعى في صلح بين زوجين متخاصمين، فتنسب هذا التوفيق لربك لا لبراعتك وسعيك: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾.

5 تضحك يوما فيمتلئ قلبك سرورًا، فتنسب هذا الفضل لله وحده:

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم:٤٣].

6 تركب دابة أو سيارة أو طائرة، فلا تراها غير سبب لا قيمة له من دون الله، فهو الذي سخَّرها لك لتحملك، وفي الحديث:

«على ذروة كل بعير شيطان، فامتهنوهن بالركوب، فإنما يحمل الله تعالى»(١).

وهكذا في سائر الأحداث اليومية ومواقفك الحياتية.

ومن المؤسف أن الناس اليوم صاروا ينسبون ما يمرون به من أحداث إلى أسبابها، مقطوعة عن مُقدِّرها سبحانه، لذا ارتحل خوف الله من قلوب الكثيرين، وحلَّت المادية مكان الروحانية.

(١) صحيح: رواه الحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٠٣٠.



لكن المؤمن حمى قلبه من عواصف المادية الشرسة، فاحتفظ ببصيرته، ولم يعلِّق قلبه بالأسباب الأرضية، بل تعرَّف بالسبب على المسبِّب؛ وبالخلق على الخالق، فخاف ربه ورجاه، ولم يركن لأحد سوى مولاه، وصاحِب هذا القلب بين الناس قليل الذنوب، فإن أذنب فسرعان ما يتوب، لأن التزامه بالأمر من معرفته بالآمر، والتهاون بالأمر دائما ما يكون سببه: قلَّة معرفة الآمر.

قيل للفضيل بن عياض: ما أَعْجَبُ الأشياء؟ فقال:

«قَلْبٌ عَرَفَ اللَّهَ عزَّ وجل ثُمَّ عصاه».



ثانيًا

مـا أدلــة وجود الله؟!

عَـرِفـــتُ الـلـــه

إنها أربع مجموعات من الأدلة:

- دلالة الفطرة.
- دلالة العقل.
- دلالة الهداية.
- دلالة الخلق.



الدليل الأول: دليل الفطرة

قال رسول الله ﷺ:

«ما من مولود إلا يولَد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تُحِسّون فيها من جدعاء»[1].



(١) صحيح: رواه الشيخان وأبو داود عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٨٤.

فمعناه أنه يولد على الفطرة، ثم بعد ذلك تعمل فيه الأيدي التي تربِّيه، وهو ما أشار إليها بعض السلف بقوله:

«عرفتُ ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي».

ومعنى الحديث أن كل إنسان لو تُرِك من وقت ولادته دون مؤثِّرات لأوصله ذلك إلى الدين الحق، وكما أن البهائم تولد بأعضاء كاملة غير منقوصة، ثم يقوم أهلها بقطع آذانها لتمييزها، فكذلك الإنسان يولد على الفطرة، ثم يؤثِّر فيه أهله والبيئة المحيطة به.

ولم يقل في الحديث: (أو يُسلِمانه)؛ لأن الفطرة هي الإسلام، والحديث احتج به القائلون بأن أولاد اليهود والنصارى الذين ماتوا قبل أن بلوغ الحُلُم في الجنة.

وفي الحديث:

«وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم»[1]، أي عندما خلقتُهم كانوا مستعدين لقبول الحق، والميل عن الضلال إلى الاستقامة، حتى أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم، أي صرفتهم عنه.

قال ابن القيم في كلام قيِّم له عن الفطرة:

«بل الطفل يختار مصَّ اللبن بنفسه، فإذا مُكِّن من الثدي وُجِدَت الرضاعة لا محالة، فارتضاعه ضروري إذا لم يوجد معارِض، وهو مولود على أن يرضع؛ فكذلك هو مولود على أن يعرف الله، والمعرفة ضرورية لا محالة إذا لم يوجد معارِض».

لكن قد يحجب هذا الشعور الفطري وجود الرخاء والعافية، لكن نزول الشدائد والمحن، يرُدُّ العبد إلى فطرته، فينقلب الملحد ضارعًا لربه منيبًا إليه.

قال تعالى:

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان:٣٢].

(١) صحيح: رواه مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي كما في صحيح مسلم رقم: ٢٨٦٥.



لذا لما سأل رجل الإمام جعفر الصادق عن الله، فقال له: ألم تركب البحر؟، قال: بلى، قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة؟، قال: نعم، قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟

قال: نعم، قال: فهل خطر ببالك وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم، قال جعفر: فذلك هو الله.

ويروي الشيخ عائض القرني في كتابه (لا تحزن):

«ارتحلتُ مع نَفَرٍ من الناسِ في طائرةٍ من أبها إلى الرياضِ في أثناءِ أزمةِ الخليجِ، فلما أصبحْنا في السماءِ أُخبِرْنا أننا سوف نعودُ مرةً ثانيةً إلى مطار أبها لخللٍ في الطائرةِ، وعدْنا وأصلحوا ما استطاعوا إصلاحه، ثم ارتحلْنا مرةً أخرى، فلما اقترينا من الرياضِ أبتْ العجلاتُ أنْ تنزل، فأخذ يدورُ بنا على سماء الرياضِ ساعةً كاملةً، ويحاولُ أكثر منْ عشرِ محاولاتٍ، يأتي المطار ويحاولُ الهبوط فلا يستطيعُ، فيرتحلُ مرةً أخرى، وأصابنا الهلعُ، وأصاب الكثير الانهيارُ، وكثُر بكاءُ النساءِ، ورأيتُ الدموع تسيلُ على الخدودِ، وأصبحْنا بين السماءِ والأرضِ ننتظرُ الموت أقرب منْ لمحِ البَصَرِ، وتذكرتُ كلَّ شيءٍ فما وجدتُ كالعملِ الصالحِ، وارتحل القلبُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وإلى الآخرةِ، فإذا تفاهَةُ الدنيا، ورخصُ الدنيا، وزهادةُ الدنيا، وأخذْنا نكرِّر: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو كلِّ شيءٍ قديرٌ)، في هتافٍ صادقٍ، وقام شيخٌ كبيرٌ مسنٌّ يهتفُ بالناسِ أن يلجؤوا إلى اللهِ وأنْ يدعوهُ، وأنْ يستغفروه وأنْ ينيبوا له.

ودعونا الذي يجيبُ المضطر إذا دعاه، وألححْنا في الدعاءِ، وما هو إلا وقتٌ، ونعودُ للمرةِ الحادية عشرة والثانية عشرة، فنهبطُ بسلام، فلما نزلْنا كأنا خرجْنا من القبورِ، وعادتِ النفوسُ إلى ما كانتْ، وجفتِ الدموعُ، وظهرتِ البَسَماتُ، فما أعظم لطف اللهِ سبحانه وتعالى.

كمْ نطلبُ الله في ضُرٍّ يحِلُّ بِنا ... فإنْ تولَّتْ بلايانا نَسِينَاهُ
ندعوه في البحرِ أنْ يُنْجِي سفينتَنا ... فإنْ رجعنا إلى الشاطي عصيناهُ
ونركبُ الجوَّ في أمنٍ وفي دَعَةٍ ... وما سقطْنا لأنَّ الحافظ اللهُ





ثانيا: دليل العقل

ومن أهم هذه الأدلة: الاعتماد على مبدأ السببية في إثبات الإيمان، فلا يوجد شيء في الكون إلا بسبب، ولا خلق إلا بخالق، كما قال الأعرابي قديمًا: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فأرض ذات فجاج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحارٌ تزخر، أفلا يدل ذلك على السميع البصير؟

وهو ما كاد أن يطير له قلب **جبير بن مطعم**، ومن أسباب إسلامه، فقد جاء يفاوض في أسرى بدر، ومنهم أبوه **مطعم بن عدي**، فانتهى إلى النبي ﷺ وهو يؤم الناس في صلاة المغرب، فقد روى **البخاري** في صحيحه عن **جبير بن مطعم** قال:

«سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٧]

كاد قلبي أن يطير»[١].

وهذه الآية استفهام إنكاري يقول الله تعالى فيه:

هل وُجِدوا من غير مبدع؟

أم هم الخالقون لأنفسهم؟

والنتيجة معلومة بالفطرة والضرورة، لذا انزعج **جبير بن مطعم** عند سماع هذه الآية لفهمه معناها، لما فيها من بليغ الحجة، فآمن من آية واحدة!



(١) صحيح البخاري رقم: ٤٨٥٤.



وكيف يمكن لعاقل أن يجحد هذه الحقيقة وقد شهد بها حذاؤه الذي يرتديه، والثوب الذي يلبسه، والسيارة التي تُقِلُّه، بل وطعامه وشرابه وكل شيء حوله، فكل ما حولك يدل على أن لكل فعل منها فاعلاً لا محالة.

يقول ستيفن ماير، مؤلف كتاب (توقيع الخالق في الخلية) وهو ينقل عن بيل جيتس (مؤسس مايكروسوفت) قوله:

«إن جُزَيء DNA يشبه برنامجًا حاسوبيًا، ولكنه أكثر تطورًا بدرجة هائلة من أي برنامج استطاع الإنسان إنتاجه».

ثم يقول:

«إن هذه الملاحظة مثيرة تمامًا، لأننا نعلم أن البرامج تأتي دائمًا من مُبرمِجين، كما نعلم أن المعلومات لا تأتي إلا من مصدر ذكي عاقل، إذن عندما نجد معلومات مضمَّنة في "DNA"، فإن الاستنتاج الأكثر منطقية هو أنها جاءت من مصدر ذكي عليم».

وعند الفراغ من قراءة الجينوم البشري كان ما نجح العلماء في اكتشافه من حقائق ومعلومات قد ملأ ربع مليون صفحة من صفحات كتاب متوسط الحجم.

عندها قال البروفسور فرانسس كولِنْز، مدير مشروع الجينوم، كلمته الشهيرة:

«الآن علّمنا الله اللغة التي خلق بها الحياة»، ثم قال: إنني أشعر بالإثارة والذهول عندما أفكر بالأمر؛ لقد ألقينا للتوّ النظرة الأولى على "كتاب التعليمات البشري" (كتالوغ الإنسان) الذي كتبه الله ولم يطّلع عليه من قبلُ سواه.

هذه الاكتشافات الحديثة دفعت واحدا من أكبر ملحدي القرن العشرين إلى الإيمان، فما لبثت الأوساط العلمية أن فوجئت في عام ٢٠٠٤ بخبر مثير نشرته وكالة أنباء أسوشيتدبرس: «ملحد شهير يؤمن بالإله اعتمادًا على الأدلة العلمية».

وجاء في تفاصيل الخبر: «بعدما أمضى معظمَ حياته مصرًا على نفي وجود الخالق يقول أنتوني فلو، وهو في الحادية والثمانين من العمر اليوم: لا بد أن (قوة ذكية ما) هي التي خلقت الكون، إن (الذكاء الخارق) هو التفسير الجيِّد الوحيد لنشأة الحياة وتعقيد الطبيعة».





ثالثا: دليل الهداية

قال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

قال ابن الجوزي: «وفي قوله: ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: هدى كيف يأتي الذَّكَرُ الأنثى، رواه الضحاك عن ابن عباس، وبه قال ابن جبير.

والثاني: هدى للمنكح والمطعم والمسكن، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.

والثالث: هدى كل شيء إلى معيشته، قاله مجاهد».

وهذه الهداية هي هداية النحل لاتخاذ الشجر والجبال بيوتا.

وهداية الطفل لالتقام ثدي أمه؟!

وهداية الأم لغريزة الأمومة وحب الولد؟!

وهداية الطيور للهجرة في مواسم معينة ولأماكن محددة؟!



وهداية أسماك السالمون التي تولد في الأنهار، ثم تأخذ طريقها نحو البحار، حيث يكتمل نموها حتى تصل لمرحلة النضج الجنسي، ثم ترجع إلى موطنها الأول في الأنهار لإنجاز مهمة التناسل والموت على أرض الوطن.

وذكروا في سبب هذا: الذاكرة الكيميائية التي وهبها الله لأسماك السالمون، فسمك السالمون يتذوق رائحة ماء النهر التي تعبر فمه وخياشيمه، ثم يقارنها بما احتفظ به أرشيف ذاكرته من رائحة وطعم للماء الذي وُلِد فيه، وبعد التأكد من تماثل الرائحتين، ينطلق سمك السالمون في مساره الذي لا يحيد عنه حتى يرجع إلى وطنه.

فمن الذي علَّم هذا الخلق كل هذا؟! ومن هداه؟! إنه الله رب العالمين.



من عجائب الهدايات!

في كتابه الماتع (غريزة أم تقدير إلهي) يعرض الأستاذ شوقي أبو خليل عشرات النماذج لهداية الله للحيوان والطير، وهي نماذج تثير الدهشة حقا، ومنها على سبيل المثال:

- متى شعَر الماعز الجبلي الأمريكي بدنو أجله، لتقدمه في السن، أو لمرضه، ترك رفقاءه، وتوغَّل داخل أحد الكهوف، ويصبح هذا الكهف قبرا له، ولذلك قلَّما يعثر أحد على رفات هذا الماعز، فكيف أحسَّ بدنو أجله؟!

- يُجهِز الدب القطبي على فريسته، وكل ما يريده منها هو قدر من الجلد والطبقة الدهنية، وبعد ذلك يمضي في سبيله تاركا اللحم والعظام، والثعالب القطبية تعرف هذا جيدا، لذلك ترقب الدب القطبي وتتبعه، لأنها تقدِّر القيمة العظيمة للطعام المتروك.

- سرب طائر الزرزور Starling يسير وراء قائده كأنه فرقة مدربة من الجند النظاميين، لا يشذ فرد عن النظام، فكلها تسير بسرعة واحدة، وترتفع ثم تنخفض بتوافق لا نشاز فيه، وتدور وتلف في الفضاء دون أن يخرج أحدها عن مكانه، حتى ليتوهم الناظر، أن السرب كله مسيَّر بعقل واحد، يُصدِر أوامره، فيتحرك الجميع كأنه جسم واحد.

- قد يقع للبطة البرية حادث أثناء بحثها عن الأسماك المحاريَّة، فتطبق على منقارها فلقتا محارة (الموسل)، فلا تستطيع البطة التخلص منها مهما دقَّت بالمحارة فوق الصخور، ولكن تفكيرها الحكيم يهديها إلى التوجه إلى بركة من الماء العذب، وهناك تغطِّس الحيوان الذي لا يعيش إلا في الماء المالح، وعندئذ تضعف قوته، فتنفرج فلقتا المحار، وإذا سلَّمنا أن البطة وصلت إلى هذا التفكير السليم بالتجربة، فكيف نعلِّل انتقال هذه المعلومات الحكيمة إلى الأبناء دون أن يجروا التجربة بأنفسهم؟





رابعا: دليـــل الخلـــق

قال تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت:٥٣].

وهذه الآيات تزداد يوما بعد يوم، فكلما تقدم الإنسان في مناحي العلوم المختلفة، تبين له ملامح الإعجاز في الخلق حتى قال لينوس باولنج الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء:

«إن خلية حية واحدة من بدن الإنسان هي أشد تعقيدا من مدينة نيويورك».

وإليك بعض الأرقام الطريفة عن عجائب خلق الله في جسم الإنسان كمثال، وخلق الله لا يُعَدُّ ولا يُحصَى:

- يتكون جسم الإنسان من حوالي ٨٠ ألف مليار خلية بدأت كلها بانقسام خلية واحدة داخل الرحم.
- يظل الجسم في حالة مستمرة من بناء وإصلاح الخلايا في ما عدا خلايا الجهاز العصبي والقلب.
- يموت في كل دقيقة ٣٠٠ مليون خلية.
- ينتج الجسم يوميا ٣٠٠ مليار خلية.

المخ:

- يتكون المخ من ١٠٠ مليار خلية عصبية.
- تحتوي كل خلية على مليون مضخة للملح لازمة لعمل الخلية وإرسال الإشارات العصبية، ولا يتوقف أي منها عن العمل حتى وأنت نائم.
- يمر بالمخ ٣٥ - ٥٠ فكرة في الدقيقة أي قرابة ٥٠ ألف فكرة يوميا.
- يستطيع المخ أن يحتفظ بمعلومات تقدر بخمسة أضعاف الموسوعة البريطانية.
- تسير الإشارات العصبية بسرعة ٢٧٠ كيلو متر في الساعة.



القلب:

- تنقبض عضلة القلب مائة ألف مرة يوميا، أي ٣٥ مليون مرة سنويا، وقرابة ٣ مليارات مرة في العمر المتوسط بدون أي توقف أو راحة.
- يضخ القلب ٨ آلاف لتر من الدماء يوميًا أي مليون برميل في العمر المتوسط.
- يسير الدم ما مقداره ١٩٠٠٠ كيلو متر يوميا، وهو ما يعادل أربعة أضعاف عرض القارة الأمريكية.
- طول الشرايين والأوردة والشعيرات الدموية حوالي ٩٥ ألف كيلومتر.
- تقوم خلية الدم بدورة كاملة في الجسم خلال دقيقة واحدة أي ١٤٤٠ دورة في اليوم، و٦٠ ألف دورة خلال دورة حياتها المقدرة بأربعين يوما، قبل أن يقوم الجسم باستبدالها بغيرها.

الرئتان:

- تتكون الرئتان من ٦٠٠ مليون حويصلة هوائية، يبلغ مقدار مساحتها مجتمعة ٧٠ مترًا مربعًا، أو ما يعادل ملعب تنس أرضي.
- يمشي في جدرانها شعيرات دموية بطول ١٢٠٠ كيلو متر.
- يتنفس الإنسان حوالي ١٧٠٠٠ شهيقًا وزفيرًا يوميا تلقائيا بلا تفكير.

العين:

- تتكون شبكية العين من أكثر من ١٠ ملايين خلية ضوئية موزعة بكثافة؛ بمعدل ٢٠٠ ألف خلية لكل مليمتر مربع.
- تقوم كل خلية منها بتحليل الضوء بصورة أفضل من أكثر أجهزة الكمبيوتر تعقيدا، حيث يتم ما يوازي ١٠ مليون عملية حسابية في جزء من الثانية لتحويل الصورة إلى إشارة عصبية يتم إرسالها إلى المخ، وهو ما يستغرق في الكمبيوتر عدة دقائق لعمله.



الجهاز الهضمي:

- تقوم الغدد في الفم بإفراز لتر ونصف من اللعاب يوميا، وبدونه يجف الفم وتنتشر به البكتيريا.
- تقوم الخلايا المبطنة لجدار المعدة بإفراز مادة قلوية كل جزء من الثانية لتعادل الأحماض التي تفرزها المعدة، وبدون هذه المادة ستقوم المعدة بهضم نفسها.
- يقوم الجسم بتجديد الخلايا المبطنة للمعدة بالكامل كل أربعة أيام.
- يبدأ الجهاز الهضمي عمله قبل أن يدخل الطعام الفم، وبمجرد شم رائحة الطعام يقوم الفم بزيادة إفراز اللعاب لبدء عملية الهضم.
- يتناول الإنسان العادي قرابة ٥٠ طن من الطعام في متوسط عمره.

الكُلى:

- هل تعلم أن كل كلية تحتوي على مليون فلتر دقيق تعمل سويا لفلترة ١٨٧٢ لتر في اليوم الواحد، وتقوم الكليتان في الوقت نفسه بطرد ١.٤ لتر من البول يوميا، لتقوم بدور أساسي في ضبط نسبة الأملاح في الدم.
- هل تعلم أن الكلى تقوم بإفراز هرمونات لها دور أساسي في تجديد كريات الدم الحمراء وتؤثر في ضغط الدم.

الجلد:

يحتوي كل سنتيمتر مربع من الجلد على:

- مليون خلية.
- ٥٠٠ خلية عصبية.
- ٢٠٠ مستشعر للألم.
- ١٥ مستشعر للحرارة.
- ٢٥ مستشعر للضغط.
- ٣٠٠٠ نهاية عصبية.
- ٣٥ غدة عرقية.
- ٣٠ سم من الشعيرات الدموية.



إن القول بأن هذا الكون خلق مصادفة من غير خالق ليس قولا بعيدا عن الصواب فحسب، بل بعيد عن المعقول، ويُدخِل صاحبه في عداد من فقدوا عقولهم، فهم يكابِرون في الدليل الذي لا يجد العقل بُدًّا من التسليم به.

يقول عبد الله بن صالح العجيري في كتابه القيِّم (شموع النهار) وهو يسوق أقوال العلماء المعاصرين في دقة خلق هذا الكون:

- مارتن ريز عالم الفلك البريطاني الشهير وصاحب كتاب (مجرد ستة أرقام) يرى أن الجاذبية الأرضية لو كانت أقوى قليلا مما كانت عليه، فإن النجوم كانت ستحترق، وتستنفد طاقتها بشكل سريع جدا مما يعجل باندثارها، فالشمس مثلا لو زادت قوة الجاذبية إلى الضِّعْف، فسينخفض عمرها الممكن من ١٠ مليار سنة إلى أقل من ١٠٠ مليون سنة فقط، وتقديرات علماء الفلك أن عمر الشمس ٤,٦ مليار سنة، وأن لديها مخزونا هيدروجينيا يمكِّنها من البقاء لأكثر من ٥ مليارات سنة قادمة.
- القوة الموجودة التي في نواة كل ذرة دقيقة جدا، بحيث لو كانت أضعف بمقدار ٢٪ مما هي عليه، فإن ذرات الهيدروجين ستتنافر، ولن تتمكن من الاندماج حتى تشكل موادًا أخرى، بل سيكون الكون كله مؤلفا من ذرات الهيدروجين فقط، ولو كانت هذه القوة أقوى بمقدار ٢٪ فإن ذرات الهيدروجين ستتجاذب وتندمج بشكل متسارع بحيث

تتشكل منها ذرات الهيليوم، والتي ستكون لها وحدها السيطرة على عالم المادة في الكون، فهذا التوازن العجيب هو سبب بقاء الدنيا، ولولاه لما استقامت الحياة.

ويمكننا أن نفهم شيئًا عن قانون الصدفة من المثال التالي:

(لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من ١ إلى ١٠، ثم رميتها في جيبك وخلطتها جيدا ثم حاولت أن تخرجها من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي، بحيث تلقي كل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى.. فإمكان أن تتناول الدرهم المكتوب عليه (٦، ٧) في المحاولة الأولى هي واحد على عشرة؛ وإمكان أن تتناول الدرهمين (١، ٢) بالترتيب واحد في المائة، وإمكان أن تخرج الدراهم (١، ٢، ٣، ٤) بالترتيب هو واحد في العشرة آلاف.. حتى إن الإمكان في أن تنجح في تناول الدراهم ١ إلى ١٠ بالترتيب واحد في عشرة بلايين من المحاولات!

لقد ضرب هذا المثال العالم الأمريكي الشهير (كريسى موريسن)، ثم استطرد قائلاً: (إن الهدف من إثارة مسألة بسيطة كهذه، ليس إلا أن نوضح كيف تتعقد (الوقائع) بنسبة كبيرة جدا في مقابل (الصدفة).

بول ديفيز المختص في مجال الفيزياء النظرية، وهو صاحب عبارة (الحياة متزنة على حافة سكين)، وهي عبارة تبدو تعبيرا موغلا في التسطيح، إذ لا وجود لسكين في الكون لها حد بهذه الدقة، ولتقريب الصورة وحتى ندرك دلالة الاتزان على حافة السكين، نسأل سؤالا: ما مدى احتمالية أن تلقي بموس على خيط دقيق فيتزن الموس؟!

ثم تعمد إلى إلقاء ملعقة على الموس فتتزن عليها؟!

ثم تضع بيضة فوق الملعقة، فلا تقع؟! ثم تضع فوق البيضة قلما؟

وفوق القلم دبوسًا؟!

وهكذا، إن الأمر يبدو مستحيلاً بلا شك.

وقام فريد هويل بتوضيح استحالة ظهور أبسط شكل من أشكال الخلايا للوجود من خلال العشوائية والصدفة المحضة، فقال: إن الأمر أشبه بإعصار ضرب ساحة خرداوات، فكوّنتْ لنا طائرة بوينج ٧٤٧ قابلة للطيران، أو قول مايكل ترنز المختص في مجال الفيزياء الفلكية بأن الأمر أشبه بسهم أطلق من طرف الكون؛ ليصيب هدفا بمقدار مليمتر في طرف الكون الآخر.



لكي نؤمن بالله حقًا، لابد أن نتعرف عليه، وأفضل ما نتعرف به عن الله هو أسماؤه الحسنى.

قال الإمام قوام السُنة الأصبهاني في (الحجة في بيان المحجة) حول قوله تعالى ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: «فينبغي للمسلمين أن يعرفوا أسماء الله وتفسيرها، فيعظِّموا الله حق عظمته.

ولو أراد رجل أن يتزوج إلى رجل أو يزوّجه أو يعامله طلب منه أن يعرف اسمه وكنيته، واسم أبيه وجده، وسأل عن صغير أمره وكبيره، فالله الذي خلقنا ورزقنا ونحن نرجو رحمته ونخاف من سخطه أولى أن نعرف أسماءه ونعرف تفسيرها».

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«إن لله تسعة وتسعين اسما، مائة إلا واحدا، من أحصاها دخل الجنة»[1].

(١) صحيح البخاري رقم: ٢٧٣٦.

الفارق بين الإحصاء والعدِّ:

قال النبي ﷺ:

«من أحصاها»، فالإحصاء يختلف عن العدِّ، لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا﴾، ولا ترادف في ألفاظ القرآن، فمن أحصاها فقد استوفاها، أي أنه لم يقتصر على بعضها، لكن يدعو الله بها كلها، ويثني عليه بجميعها، ويعمل بمقتضاها، فيستوجب بذلك الجنة.

والأمر يشبه حفظ القرآن، فقد جاء في الحديث أن الماهر بالقرآن مع السَّفَرة الكرام البررة،

لكن..

ماذا لو أن منافقًا حفظ القرآن؟!

هل ينفعه حفظه لكتاب الله؟!

القرآن هنا يصبح حجة عليه لا له، وكذلك الأسماء الحسنى، حين يحفظ العبد حروفها وتغيب عنه معانيها ويضيِّع أهدافها.

معنى الدعاء بالأسماء الحسنى؟!

هو أن يسأل العبد ربه في كل مطلوب له باسمٍ يكون مقتضيًا لهذا المطلوب، فيكون السائل متوسِّلا إلى الله بهذا الاسم، وهذه العبارة أوْلى من عبارة: التخلق بأسماء الله، وحديث: «تخلَّقوا بأخلاق الله»، لا أصل له في كتب السُّنة، وأحسن من ذلك عبارة: التعبد بأسماء الله الحسنى، وأحسن من كل هذا استعمال التعبير القرآني: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾، وهو الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال.



أقسام الدعــاء!



الدُّعاء ثلاثة أقسام:

الأول: أن تسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته.

والثاني: أن تسأله بِذُلِّك وبحاجتك وبافتقارك، فتقول: أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، ونحو ذلك.

والثالث: أن تسأل الله حاجتك، ولا تذكر واحدا من الأمرين الأول والثاني.

فالدعاء الأول أكمل من الثاني.

والدعاء الثاني أكمل من الثالث، فإذا جمع الدُّعاء الأمور الثلاثة كان أكمل الدعاء وأفضله على الإطلاق.

وقد اجتمع الثلاثة في الدُّعاء الذي علَّمه النبي ﷺ لِصِدّيق الأمة، حين قال له أبو بكر رضي الله عنه: علِّمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال له النبي ﷺ:

«قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم»(١).

فقوله: «ظَلَمْتُ نفسي ظلما كثيرا»: إشارة إلى حال السائل وتذلُّله لله وافتقاره إليه.

وقوله: «وإنه لا يغفر الذنوب إلَّا أنْت»: إشارة لصفة المسؤول سبحانه.

وقوله: «فاغفر لي مغفرة من عندك»: فيه ذكر حاجته.

(١) صحيح: رواه الشيخان والترمذي والنسائي عن ابن عمر وأبي بكر كما في صحيح الجامع رقم: ٤٤٠٠.



ثـم ختـم هـذا الدُّعـاء باسـمين مـن الأسـماء الحسـنى تناسـب مطلوبـه غايـة المناسـبة وتقتضيـه: «إنـك أنـت الغفـور الرحيـم».

عدد الأسماء الحسنى:

ليسـت أسـماء الله محصـورةً في تسـعةٍ وتسـعين، بـل هـي كثيرةٌ جدًّا، لا يُمكـن عدُّهـا، فـلا تدخلُ تحـت حصرٍ، ولا تُحدُّ بعددٍ؛ فإنَّ لله تعالى أسـماءً وصفاتٍ اسـتأثر بها في علـم الغيب عنده، لا يعلمُها مَلَكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسَـل؛ كما جاء في الحديث الصحيح:

«أسـألُك بكُلِّ اسْـمٍ هـو لـك؛ سـمَّيْتَ بـه نَفْسَـك، أو عَلَّمْتَـه أحَـدًا مِـنْ خَلْقِـك، أو أنزلْتَـه في كتابك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك»؛ فجعـل أسـماءَه ثلاثـةَ أقسـام:

- قسم سمَّى به نفسَه، فأظهره لمن شاءَ من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزل به كتابه.
- وقسمٌ أنزل به كتابه، فتعرَّف به إلى عباده.
- وقسمٌ استأثرَ به في علم غيبه، فلم يَطَّلِعْ عليه أحدٌ من خلقه، ولهذا قال: «استأثرتَ به» أي انفردتَ بعلمه.

الفـارق بيـن صفـات الله وصفـات الخلق!

يقول الشيخ حافظ بن أحمد حكمي:

«ولا يلـزم مـن اتفـاق التسـمية اتفـاق المسـميات، فـإن الله تعـالى قـد سـمَّى نفسـه: سـميعًا بصيرًا، وأخبرنـا أنـه جعـل (الإنسـان سـميعا بصيـرا).

وسمَّى نفسه الرؤوف الرحيم، وأخبر أن نبيه ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾.

وسـمَّـى نفسـه الملـك، فقـال: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾، وسـمَّى بعـض خلقـه ملـكا فقـال: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِي﴾.

وهو العزيز، وسمَّى بعض عباده عزيزًا، وغير ذلك، فلا يلزم من اتفاق التسمية اتفاق الأسماء ومقتضياتها، فليس السمع كالسمع، ولا البصر كالبصر، ولا الرأفة كالرأفة، ولا الرحمة كالرحمة، ولا العزة كالعزة، كما أنه ليس المخلوق كالخالق».

أسرار التكرار تغري الأبـــرار!

إن تكرار أسماء الله الحسنى بهذا العدد الوفير في القرآن والأحاديث لهو دليل قاطع على أهمية تدبر العباد لها، ليتعرفوا بها على ربهم، ويدعوه بها، ويتعبَّدوا الله تعالى بها أفضل ما تكون العبادة.

وإن لكلِّ اسمٍ من أسماء الله تعالى أثرٌ من الآثار في الخلق والأمر، وأثر كل اسم يختلف عن الآخر وله مذاق خاص، وسأعرض هنا لبعض أسماء الله وصفاته، وقد اخترت منها عشرة أسماء على سبيل المثال، وإلا فلا يسع الكلام عن أسماء الله وصفاته آلاف الصفحات وعشرات المجلدات.

الاسم الأول: اسم الله الرحمن

ولو ولم يكن لهذا الاسم فضل إلا أن الله بدأ به كتابه، لكفاه فضلا وشرفا، فلا يقرأ مسلم القرآن إلا واستفتح بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم.

فذكَر الله صفة الرحمة عند بداية كلامه، ولم يبدأ بصفة القوة أو العزة أو غيرهما، ونحن هنا نقدِّم ما قدَّم الله.

قال الإمام الرازي:

«كتب عارف من العارفين لما دنا أجله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

وأوصى أن تُجعَل في كفنه، فقيل له:



أي فائدة لك في هذا؟ قال:

أقول يوم القيامة:

إلهي..

بعثت إلينا كتابًا، وجعلتَ عنوانه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، فعامِلني بعنوان كتابك».

إلهي
بعثت إلينا كتابا، وجعلت عنوانه:
بسم الله الرحمن الرحيم
فعاملني بعنوان كتابك"

وقد جاء اسم الرحمن في القرآن في سبعة وخمسين موضعًا، بينما جاء اسم الرحيم في مائة وأربعة عشر موضعا.

ومع أن دواعي غضب الرب من عبده أكثر بمئات المرات من دواعي رضاه عنه، ولا أقول هذا عن العبد الكافر أو الفاجر، بل حتى عن العبد الصالح، يأتي من دواعي غضب الله عند غفلته أو ضعفه ما يوجب غضب الله، ومع كل هذا فإن الله قضى أن رحمته سبقت غضبه.

قال رسول الله ﷺ: **«لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»**[1].

قال ابن القيم في الحكمة من سبق رحمة الله لغضبه:

«ورحمته سابقة على غضبه غالبة له، فإنه سبحانه لا يكون إلا رحيما، ورحمته من لوازم ذاته، فيستحيل أن يكون على خلاف ذلك، وليس كذلك غضبه، فإنه ليس من لوازم ذاته، ولا يكون غضبانًا دائمًا غضبًا لا يُتصَوَّر انفكاكه، بل يقول رسله وأعلم الخلق به يوم القيامة: (إن ربي قد غضِب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله).

ورحمته وسعت كل شيء، وغضبه لم يسع كل شيء.

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢١٤.



وهو سبحانه كتب على نفسه الرحمة، ولم يكتب على نفسه الغضب.

ووسع كل شيء رحمة وعلما، ولم يسَعَ كل شيء غضبًا وانتقامًا، فالرحمة وما كان بها ولوازمها وآثارها غالبة على الغضب وما كان منه وآثاره، ولهذا كانت الرحمة أحب إليه من العذاب، والعفو أحب إليه من الانتقام».

جاء في الصحيح أنه قُدِمَ على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي، إذ وجدت صبيًا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال رسول الله ﷺ:

أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟

قالوا: لا والله.. وهي تقدر على أن لا تطرح، فقال رسول الله ﷺ:

للهُ أرحم بعباده من هذه بولدها[١].

وقد عُرِف من سياق الحديث أنها كانت امرأة فقدت صبيها، وتضررت باجتماع اللبن في ثديها، فكانت كلما وجدت صبيًا أرضعته؛ ليخفَّ عنها، فهذه رحمة المرأة بولد ليس بولدها، فكيف رحمتها بولدها؟! فرحمة الله بنا أعظم من رحمة هذه المرأة بولدها، وبالتالي يورثك استشعارك لرحمة الله: محبة الله، ومحبة الله تورثك امتثال أمر الله، وعدم مخالفة نهيه.

رحمة الله بك منبع السكينة.

آيــة مطمئنة

قال تعالى:

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾

آيةٌ لو استقرت في قلب العبد، لصمد كالطود أمام الأحداث والأشخاص والقوى، ولو تضافر عليه الإنس والجن، فهم لا يفتحون رحمة الله إن أمسكها، ولا يمسكونها إن أرسلها، فلا رجاء في أحد من الخلق، ولا خوف من أحد، فأي طمأنينة تسكبها هذه الآية في القلوب!

---

(١) صحيح: رواه البخاري رقم: ٥٦٥٣ ومسلم رقم: ٢٧٥٤.

وإليك بعض ملامح الرحمة الربانية:

1) الهداية والعصمة من الضلال رحمة:

من تولاه الله ورحمه منعه وحجزه عن الضلال، ويمنع من أراد إضلاله من أن يضله، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء. قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء:١١٣].

2) الوقاية من السيئات رحمة:

قال تعالى: ﴿وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ [غافر:٩].

من رحمه الله يوم القيامة وقاه السيئات، ومن حجَب عنه رحمته وقع في السيئات، وعوقب بها.

ووقاية السيئات من أعظم علامات رحمة الله، ومعنى الوقاية من السيئات: عدم الوقوع فيها ابتداءً، فإن وقع العبد فيها فرحمة الله تكون بتيسير توبة العبد منها وقبولها، وبالتالي عدم معاقبته عليها في الدنيا أو الآخرة.

ولذا كان من الدعاء النبوي المأثور:

«اللهم! ارحمني بترك المعاصي أبدا ما أبقيتني».

إن الحول والقوة من الله وحده، فمن حفظه الله ورعاه وعصمه فهو المرحوم، ومن وقع في السوء فهو الشقي المحروم، وهو من أمسك الله عنه رحمته.

قال تعالى:

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف٥٣].

لم استعمل هنا ﴿مَا﴾ لغير العاقل بدلاً مِن (مَن) مع أن الحديث عن النفس وهي عاقلة؟

والجواب: التعبير ب ﴿مَا﴾ يفيد العموم، أي: إلا ما رحمه ربي من النفوس، وعصم به من الأوقات.

③ شرع الله رحمة:

قال رسول الله ﷺ:

«حَدٌّ يُعمَل به في الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يُمطَروا أربعين صباحا»[1].

فرحمة الله ظاهرة في شريعته، وهي ممتزجة بحكمته، ورحمة الله ليست رقة مطلقة، بل لا تكون إلا في الموضع الصحيح الذي يعلمه العليم الخبير بما ينفع العباد، وهذه الرحمة قد تكون بقتل قاتل أو رجم زانٍ أو قطع يد سارق، لأنها زواجر تزجر الفاعل وتردع غيره، فالمعتدي إذا علِم أنه إن قتل سيُقتَل، وإن زنا سيُرجَم؛ انزجر عن جريمته، وبذا يتطهَّر المذنب وتتطهر الأمة بأسرها.

④ بلاؤه رحمة!

البلاءُ في حدِّ ذاتِهِ رحمةٌ من رحماته لو عَقَلَ الناسُ وفهِموا ما فيه من الخير والرفعة، اسمع بشارة النبي ﷺ:

«لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وماله وولده حتى يلقى الله تعالى وما عليه من خطيئة»[2].

ولذا جاء في الأثر: «إن المبتَلى إذا دُعي له: اللهم ارحمه، يقول الله سبحانه: كيف أرحمه من شيء به أرحمه!».

فكم من مستاءٍ من حال وهو مرحومٌ به، ومسرورٍ بحال وهو مستدرَج به.

قد يُنعِم الله بالبلوى وإن عَظُمت ... ويبتلي اللهُ بعضَ القوم بالنِّعَمِ

⑤ مغفرة الذنوب رحمة!

قال تعالى:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

(١) حسن: رواه النسائي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٤٤١.
(٢) حسن: رواه النسائي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣١٣٠.



قال سهل التستري:

«قال لهم: لا تقنطوا من رحمتي، فلو رجعتم إليَّ في آخر نفَسٍ من حياتكم قبلتكم».

ورآها عبد الله بن عمر أرجى آية في القرآن، فقد أبى الله إلا أن يتودّد إليهم بقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾، ومقام العبودية مقام نفيس جدًا، حتى افتخر به النبي ﷺ، فقال:

«إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله».

وانظر كيف نسب الله العبد المسرف على نفسه بالمعاصي إليه، وكأنه يقول له: أنت عبدي مهما أخطأت وأسرفت.. فسبحانه ما أرحمه!!

وحسبك أن الله سبحانه قد جعل القنوط من رحمته هو سبيل أهل الضلال، فقال:

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾..

فطوبى لمن عمل مع الرجاء، فمن أتى ربه بالرجاء كان الله له أرجى، ومن أتاه بالقرب كان الله إليه أقرب.

يقول العز بن عبد السلام ﷺ: «اليأس والقنوط استصغار لسعة رحمة الله عز وجل ومغفرته، وذلك ذنب عظيم، وتضييق لفضاء جوده».



6 إنزال المطر وإحياء الأرض رحمة:

جعل الله الماء من علامات رحمته، فبه يحيي الموات، فالأرض الميتة ينزل عليها الماء، فيحييها بإذن الله، فإذا هي جنان تؤتي ثمارها وأكلها، وأيضا آية على إمكانية إحياء الله لموات الإنسان يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠].

فرحمة الله هي الغيث، وأثرها هو النبات، ولو انقطع المطر، لحدثت المجاعات الناتجة



عن نقص المياه، ولاندلعت الحرائق الهائلة نتيجة ارتفاع درجات الحرارة المرافقة لانقطاع المطر، ولزادت العواصف الترابية، نتيجة لما تسبب به قلة المطر من جفاف وتصحر وتعرية، ولتدهور الغطاء النباتي الطبيعي، وتراجع قطاع الزراعة.

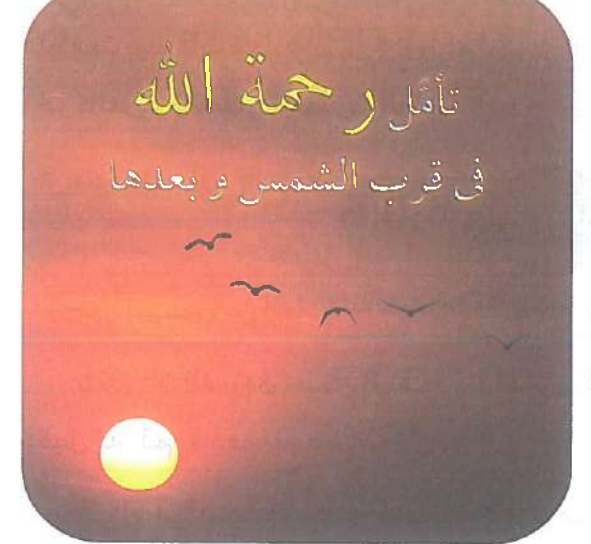
⑦ الرحمة الخفية:

يقول الدكتور مصطفى مسلم في كتابه: (مباحث في إعجاز القرآن):

«وهذه الشمس تبلغ حرارة سَطحها (٦٠٠٠) درجة مئوية، وحرارة جوفها تبلغ (٢٠) مليون درجة مئوية، وألْسنة اللَّهب ترتفع عن سطحها إلى نصف مليون كيلومتر، وهي تبتعد عن الأرض قريبًا من (٩٣) مليون ميل، ولا يصِل إلى الأرض من حرارتها إلَّا شيء قليل لا يتجاوز جزءًا من مليون جزء من حرارتها، وهو القَدْر الملائم لحياة البشَر، ولو كانت أقرب إلى الأرض بقليل لاحترقَت الأرضُ وانصهرتْ، أو استحالَتْ بخارًا يتصاعد إلى الفضاء، ولو كانت أبعد من ذلك لأصاب التجمُّدُ ما على سطح الأرض، فمَن الذي برحمته جعلها كذلك؟

والقمر في حجمه وبُعده عن الأرض من أظهر ما يدلُّ على رحمة الله، فلو كان أكبر من ذلك بقليل أو أقرب لكان المد الذي يَحدث في البحار كافيًا لغَمْر الأرض بطوفان يعمُّ كلَّ ما عليها».

وهذا مجرد نموذج واحد لرحمة الله عرفناه، فكيف بما غاب عنا وجهلناه؟!



⑧ رحمات يوم القيامة:

قال رسول الله ﷺ:

«جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه»[(١)].

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٠٩٥.

قال المناوي:

«القصد بذكره ضرب المثل لنا لنعرف به التفاوت بين القسطين في الدارين، لا التقسيم والتجزئة، فإن رحمته غير متناهية، وحصرها في مائة جزء على سبيل التمثيل، وتسهيلاً للفهم، وتقليلاً لما عند الخلق، وتكثيرًا لما عند الله سبحانه وتعالى».

ولذا كان من جميل رجاء أبي أيوب السختياني وحسن ظنه بربه أن قال:

«إن رحمة واحدة قسمها سبحانه في دار الدنيا وأصابني منها الإسلام، إني لأرجو من تسع وتسعين رحمة ما هو أكثر من ذلك».

وأما مناسبة هذا العدد الخاص، فقال ابن أبي جمرة:

«ثبت أن نار الآخرة تفضل نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا، فإذا قوبل كل جزء برحمة زادت الرحمات ثلاثين جزءا، فالرحمة في الآخرة أكثر من النقمة فيها، ويؤيده قوله تعالى في الحديث القدسي: غلبت رحمتي غضبي».

وما أروع تأمل الزركشي في كتاب الله، حين قال: «أذهلني يوما قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

فقلت: يا لطيف! علمت أن قلوب أوليائك الذين تتراءى لهم تلك الأهوال لا تتمالك؛ فلطفت بهم فأضفت ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ إلى أعم اسم في الرحمة فقلت: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾! ولو كان بدله اسمًا آخر كالعزيز والجبار؛ لتفطَّرت القلوب».

الكاذب حين يرجو رحمة الله

قال أبو عمرو بن العلاء:

بلغني أن الفرزدق جلس إلَى قوم يتذاكرون رحمة الله، فكان أوسعهم في الرجاء صدرا، فقيل له: لم تقذف المحصنات؟!

فقال: لو أذنبت إلى ولديَّ مَا أذنبته إلى ربي عز وجل، أتراهما كانا يطيبان نفسا أن يقذفاني في تنور مملوءا جمرا؟!

قالوا: لا، إنما كانا يرحمانك.

قال: فأني أوثق برحمة ربي منهما.

قال ابن الجوزي في ما قال ردًا عليه:

«وهذا هو الجهل المحض؛ لأن رحمة الله عز وجل ليست برقة طبع، ولو كانت كذلك لما ذبح عصفورا، ولا أميت طفل، ولا أُدخِل أحد إلَى جهنم.

وخطأ هذا الرجل من وجهين:

أحدهما: أنه نظر إلى جانب رحمة الله ولم ينظر إلَى جانب العقاب.

والثاني: أنه نسي أن الرحمة إنما تكون لتائب كما قال ﷻ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ وقال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وهذا التلبيس هو الذي أهلك عامة العوام».

الاسم الثاني: اسم الله الحكيم

هو الحكيم سبحانه، له الحكمة البالغة، وحكمته أوضح ما تكون في ثلاث: خلقه، وأمره، وشرعه، فلا يخلق خلقا إلا لحكمة، ولا يأمر أمرا إلا لحكمة، ولا يشرع شرعا إلا بما فيه المصلحة والحكمة، علِمها من علمها، وجهِلها من جهلها.

ولو فهمنا معنى اسم الله الحكيم، لرأينا في كل شيء حولنا حكمة، وحتى أذية الخلق لنا التي نتألم منها ونتعجب، لا تخلو من حكمة، تأمل فيها ابن عطاء، ثم استخرج لنا بعض قطوفها فقال: «إنما أجرى الأذى على أيديهم، كي لا تكون ساكنا إليهم، أراد أن يُزعِجَك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء».

وقال في تأمل الحكمة من فراق الأحباب بالموت أو غيره:

«إنما ابتُلِيَ الخلق بالفراق؛ لئلا يكون لأحدٍ سكونٌ مع غيرالله تعالى».



ولو تأملتَ في الأحداث اليومية الجارية، وأبرزها الرزق، لرأيتَ لله حكمة بالغة في كل بسط رزق وقبضه، فيُوسِّع الرزق امتحانًا للعبد؛ هل يشكر أم يكفر.

ويضيِّق ابتلاءً للعبد؛ هل يصبر أم يسخط.

والغِنى والفقر لم يدلا يوما على رضا الله أو سخطه، وإنما الشكر والصبر هما علامة الرضا الإلهي.

ومع هذا فلابد أن نشير إلى أن معرفة الناس بحكمة (الحكيم) محدودة، وقد تغيب عنهم حكمته مهما بلغوا من درجات القرب منه، ومهما كانت درجة إيمانهم، والدليل: أن الملائكة مع شدة قربهم من الله وعلمهم بجلاله وقدرته، لم يعلموا حكمته سبحانه في خلق من يفسد في الأرض، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، والبشر أَوْلى أن لا يعلموا كثيرًا من حكمة الله.

وكذلك موسى ﷺ -وهو من أولي العزم من الرسل- لم يفهم حكمة الله في قتل الغلام ولا خرق السفينة، ولا صنع المعروف في غير أهله.

إن الرضا والتسليم للحكمة الإلهية في مُرِّ القضاء من أشرف الأحوال، وهو أشقُّ على النفس من شديد الأهوال؛ لأن الإنسان بطبيعته البشرية ينظر إلى الحال، وحكمة الله تدور مع العاقبة والمآل: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾.

إن علم الإنسان محدود وعقله قاصر عن الإحاطة بكافة تفاصيل الحكمة الربانية، لذا قال ابن الجوزي في رائعة من روائع كتابه (صيد الخاطر):

«يرى (العبد) من أفعاله (الله) ما يدل على وجوده، ثم تجري في أقداره أمور، لولا ثبوت الدليل على وجوده، لأوجَبَت جحوده؛ فإنه فرق البحر لبني إسرائيل -وذلك شيء لا يقدر عليه سوى الخالق- وصيَّر العصا حيَّةً، ثم أعادها عصا، فلما آمنت السحرة، تركهم مع فرعون يصلبهم ولم ينقذهم.

والأنبياء يُبتَلون بالجوع والقتل.



وزكريا يُنشَر.

ويحيى تقتله غانية.

ونبينا ﷺ يقول كل عام: «من يؤويني؟ من ينصرني».

فيكاد الجاهل بوجود الخالق يقول: لو كان (الله) موجودًا، لنصر أولياءه!

فينبغي للعاقل ألا يمكّن عقله من الاعتراض على الله في أفعاله، ولا يطلب لها عِلّة؛ إذ قد ثبت أنه مالك وحكيم، فإذا خفي علينا وجه الحكمة في فعله، نسبنا ذلك العجز إلى فهومنا.

وكيف لا، وقد عجز موسى ﷺ أن يعرف حكمة خرق السفينة، وقتل الغلام، فلما بان له حكمة ذلك الفساد في الظاهر؛ أقرَّ؟!

فمتى رأيت العقل يقول: لم؟ فأخرِسْه بأن تقول له:

يا عاجز! أنت لا تعرف حقيقة نفسك، فما لك والاعتراض على المالك؟!

وربما قال العقل:

أي فائدة في الابتلاء، وهو (الله) قادرٌ أن يثيب، ولا بلاء؟!

وأي غرض في تعذيب أهل النار، وليس ذلك عن تشفٍّ؟!

فقل له: حكمة الله فوق مرتبتك، فسلِّم لما لا تعلم؛ فإن أول من اعترض بعقله إبليس، رأى فضل النار على الطين، فأعرض عن السجود.

وقد رأينا خلقًا كثيرًا يقدحون في الحكمة؛ لأنهم يحكِّمون العقول على مقتضاها، وينسون أن حكمة الخالق وراء العقول.

فإياك أن تُفسِح لعقلك في تعليل، أو أن تطلب له جواب اعتراض، وقل له: سلِّم تسلم، فإنك لا تدري غَوْرَ البحر، إلا وقد أدركك الغرق قبل ذلك، هذا أصلٌ عظيم، متى فات الآدمي، أخرجه الاعتراض إلى الكفر».

وواجب العبد تجاه اسم الله (الحكيم) أن يطمئنَّ إلى كلِّ أمرٍ أمَرَ به (الحكيم)، وينتهي عن كل ما نهى عنه، فلا يُقدِّم العبد على شرع ربه قولاً، ولا عقلاً، ولا حكمًا، ولا رأيًا.





الاسم الثالث: اسم الله العظيم:

قال الحليمي في معنى (العظيم):

«إنه الذي لا يمكن الامتناع عليه بالإطلاق، ولأن عظيم القوم إنما يكون مالك أمورهم الذي لا يقدرون على مقاومته ومخالفة أمره، إلا أنه وإن كان كذلك، فقد يلحقه العجز بآفات تدخل عليه في ما بيده، فيوهنه ويضعفه حتى يُستطاع مقاومته، بل قهره وإبطاله، والله تعالى جلَّ ثناؤه قادرٌ لا يعجزه شيء، ولا يُمكن أن يُعصى كرهًا، أو يُخالَف أمره قهرًا، فهو العظيم إذًا حقًّا وصدقًا، وكان هذا الاسم لمن دونه مجازًا».

والعظمة الربانية يذكِّرك الله بها كل صلاة عن طريق:

١ - التكبير:

وهو الشعار المتكرر عشرات المرات في كل يوم وليلة في الأذان والصلوات، والكبرياء أكمل من العظمة؛ لأنّه يتضمَّنها ويزيد عليها في المعنى، وفي التكبير يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وفي قوله (الله أكبر) إثبات عظمته، فإن الكبرياء تتضمَّن العظمة، ولكن الكبرياء أكمل، ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول: (الله أكبر)، فإن ذلك أكمل من قول (الله أعظم)، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما عذَّبْتُه)، فجعل العظمة كالإزار والكبرياء كالرداء، ومعلوم أنَّ الرداء أشرف، فلما كان التكبيرُ أبلغَ من التعظيم صرَّح بلفظه، وتضمَّن ذلك التعظيم».

أخي الكريم..

يلاحقك التكبير من المهد إلى اللحد، فأين علامات التعظيم في قلبك وعملك يا رجل؟!

أين امتثال أمر الله واجتناب نهيه والمسارعة في إرضائه؟!

إن التكبير التزام ذاتي يجعله العبد على نفسه تجاه ربه، ولذا ما كان عمر بن الخطاب ﷺ مبالغًا حين قال في فضل التكبير: «قول العبد: الله أكبر، خيرٌ من الدنيا وما فيها».

ومن دقيق الملاحظة أن أول ما يطرق أذن الوليد: تكبير الأذان في أذنه اليمنى، وتكبير الإقامة في أذنه اليسرى، وعند موته نكبّر جميعا للصلاة عليه، فهل وصلت الرسالة؟!

يلاحقك التكبير من المهد إلى اللحد

٢- الركوع:

وفيه يظهر التعظيم خاصة عند قولك: سبحان ربي العظيم.

قال ابن القيم:

«فأفضل ما يقول الراكع على الإطلاق: سبحان ربي العظيم، فإن الله سبحانه أمر العباد بذلك، وعيَّن المبلِّغ عنه: السفير بينه وبين عباده هذا المحل لهذا الذكر، لما نزلت: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، قال: (اجعلوها في ركوعكم)، وبالجملة فسرُّ الركوع: تعظيمُ الرب جل جلاله بالقلب والقالب والقول؛ ولهذا قال النَّبي ﷺ: (أما الركوع فعظِّموا فيه الرب)».

لكن.. ماذا عن أدعية الركوع، وعلاقتها بالتعظيم؟!

من أدعية الركوع التي تغرس العظمة في جذر القلب:

«سُبّوح قُدّوس رب الملائكة والروح».

فقولك «ربُّ الملائكة والروح» يساعدك على تعظيم الرب عن طريق التأمل في عظمة خلقه، وليس أعظم من خلق الملائكة؟! والروح هو جبريل ﷺ، ويكفيك قراءة هذا الحديث لتعلم العظمة الربانية في خلق مَلَك واحد من الملائكة، قال رسول ﷺ:

«أُذِن لي أن أحدِّث عن ملَك من حملة العرش، رجلاه في الأرض السفلى، وعلى قرنه



العرش، وبين شحمة أذنه وعاتقه: خفقان الطير سبعمائة عام»[1].

وكأن المعنى: كيف لا تخضع له وأنت العبد الضعيف؟! وقد خضع له من هو أعظم منك خلقا حتى ازدحمت بهم السماوات، فما من موضع قدَم في السماء إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله.

لقد رأى النبي ﷺ جبريل في هيئتـه الملائكية مرتين، فإذا هو قد سدَّ الأفُق، فسقط النبي ﷺ مغشيًا عليه. قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل في صورته التي خلق فيها مرتين وله ستمائة جناح، وقد سدَّ الأفق بعظمته».

ورغم هذه العظمة الملائكية، فقد رأى النبي ﷺ جبريل ﷺ ليلة أسري به في أخشع حال، فرآه كالحلس البالي من خشية الله، يعني كالكساء الذي يُلقَى على ظهر البعير.

إن التأمل في خلق الله من أعظم ما يفجِّر ينابيع تعظيم الرب في قلب العبد.

قال ابن مسعود رضي الله عنه:

«بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كلِّ سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسيِّ خمسمائة عام، وبين الكرسيِّ والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم».

وفي الحديث الصحيح: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»[2].

فإذا استحضر المسلم في قلبه عظمة المخلوقات من سموات وأرض وكرسي وعرش، ثم أحضر في قلبه عجز عقله عن الإحاطة بهذه المخلوقات، حصل له معرفة ثالثة من ذلك، وهي عظمة الخالق سبحانه.

إن العقول والأفهام لتعجز عن أن تدرك الكثير عن مخلوقات الرب تبارك وتعالى، فكيف بالرب سبحانه؟!

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٨٥٣.

(٢) صحيح: رواه محمد بن أبي شيبة في كتاب العرش كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٠٩.



ولذا قال ابن الجوزي: «من تفكَّر في عظمة الله عز وجل، طاش عقله».

ولابد لمعرفة عظمة الله من ثمرة، ولابد مع التعظيم من دليل، وثمرة تعظيم الله: البعد عن معصية الله واجتناب نواهيه.

قال بشر بن الحارث الحافي: «لو تفكَّر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل».

الاسم الرابع: اسم الله العليم

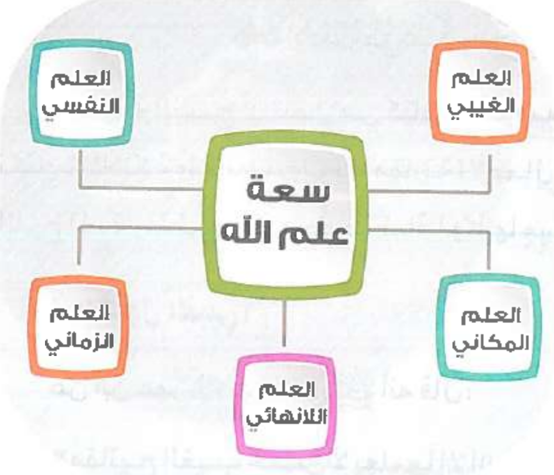
أثبت الله ﷻ لنفسه العلم الكامل الشامل في قوله تعالى:

﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام:٨٠].

وفعل ﴿وَسِعَ﴾ يفيد الإحاطة التامة؛ ولفظ ﴿كُلَّ﴾ يفيد العموم، ومهما تقدَّمنا، فلن تحيط عقولنا المحدودة بعلم الله غير المحدود، وبين يديك هنا محاولة للتعرف على بعض جوانب العلم الإلهي.

① العلم اللانهائي:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.



أي لو كانت أشجار الأرض كلها أقلاما، ومع البحر سبعة أبحر ما كان لينفد علم الله، فكلمات الله هي معلوماته، وعلم الله لا يتناهى، فكذلك الكلمات التي تشكل معلوماته لا تتناهى.

ومعلوم أنه كلما زاد العلم زادت القدرة، لذا رأينا جني سليمان الذي كان عنده (علم) من الكتاب، استطاع أن



ينقل عرش بلقيس في لمح البصر من اليمن إلى العراق، وما كان هذا الجني غير جندي واحد تحت نبي الله سليمان، فما بالك بعلم الله وقدرة الله رب العالمين؟!

ورغم أننا اليوم نعيش حالة انفجار معرفي هائل، ومخزون المعرفة الإنسانية يتضاعف بصورة مذهلة، لكن مع كل هذا العلم الهائل المتزايد، فقد قرر الله في كتابه هذه الحقيقة الباقية إلى يوم الدين: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾.

ما أثر علمك بمحدودية علمك؟!

أثرها: تواضع بعلمك، واحذر أن تكون بعلمك (أبا شبر)، فقد قال الإمام الشعبي:

«العلم ثلاثة أشبار: فمن نال شبرا منه شمخ بأنفه، وظن أنَّه ناله.

ومن نال منه الشبر الثاني، صغرت إليه نفسه، وعلم أن لم ينله.

وأما الشبر الثالث، فهيهات لا يناله أحد أبدا».

② الشمول الزماني:

فالله تعالى يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ويستوي في علمه الماضي والحاضر والمستقبل.. لذا يقول الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ما يكشف عن دقة علمه:

﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

وحقيقة النسخ أن تنقل من كتاب يُنظَر فيه، فإن أعمال العباد من أقوال وأفعال ونيات تكتبها الملائكة وتقيِّدها، ولو تم مقارنة الأعمال التي سجَّلتها الملائكة على ابن آدم مع ما في اللوح المحفوظ لوُجِدت متطابقة تمامًا وكأنها مستنسخة منها!

③ الشمول الغيبي:

عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال:

«مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما

في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[(١)].

وهي التي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾.

ولا يُفهَم من الآية أن الغيب محصور في هذه الأمور الخمسة، بل هي بعض أوجه الغيب الخفية، ويوجد غيرها الكثير.

وأثر هذا العلم عليك:

أن يستقر في يقينك: ألا أحد يعلم الغيب إلا الله، وبطلان كل علم يدعي صاحبه معرفة الغيب كالتنجيم والكهانة.

قال النبي ﷺ: «من أتى عرَّافا أو كاهنا، فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد»[(٢)].

وقال: «من أتى عرَّافا، فسأله عن شيء، لم تُقبَل له صلاة أربعين ليلة»[(٣)].

والعرَّاف: الذي يتعاطى معرفة الشيء المسروق، ويخبر بمكان ما أُخفِي من الأمتعة، وهو مختصٌّ بالأمور الماضية، وأما الكاهن، فيتعاطى علم ما يكون في المستقبل.

وجاء الوعيد لمن أتى الكهنة والعرَّافين بعدم قبول صلاته، أي لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه، ولا يحتاج معها إلى إعادة.

عليم
لا تسقط ورقة إلا يعلمه

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه رقم: ٤٦٩٧.
(٢) صحيح: رواه أحمد والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٩٣٩.
(٣) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن بعض أمهات المؤمنين كما في صحيح الجامع رقم: ٥٩٤٠.



④ الشمول المكاني:

فيشمل علم الله الأماكن كلها، فلا تسقط ورقة في مكان إلا بعلمه، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه، يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء تحت طبقات الأرض في الليلة الظلماء، ويرى تفاصيل خلقها ومخها وعروقها وحركتها، ويرى مدَّ البعوضة لجناحها في ظلمة الليل البهيم.

وقد أخبرنا القرآن أن سليمان سَمِع نملة تنادي قومها، ولم يَخْفَ عليه صوتها، فإذا كان عبد من عباد الله يسمع صوت النملة، فكيف بالله رب العالمين؟!

وأثر هذا عليك:

أن الله يسمع دعوةَ المظلوم، ويرى دمعة المكلوم، ويشهد بطش الظالم، ويراقب علو المجرم، ولا يخفى عليه شيء من هذا، وليس معنى أنه علِمَه أنه رضِيَه، لكن معنى علمه أنك لستَ وحدك، وأن علمه بحالك ينطوي على حكمة ورحمة ولطف.

⑤ الشمول النفسي:

يعلم الله دبيب الخواطر في القلوب التي لا يطلع عليها حتى المَلَك، ويعلم تقلب قلب عبده، واختلاف أحواله، ويعلم السر وأخفى من السر، فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد ولم تتحرك به شفتاه، والأخفى من السر: ما لم يخطر بباله بعد، فيعلم الله أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا في وقت كذا وكذا.

وأثر هذا عليك:

أن يترسَّخ جذر شجرة الإخلاص في قلبك، وينفي عنك داء الرياء، الذي هو في غاية الخفاء، وقد جاء في الحديث: «الشِّرك فيكم أخفى من دبيب النمل، وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره، تقول: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم، تقولها ثلاث مرات»[١].

---

(١) صحيح: رواه الحكيم عن أبي بكر كما في صحيح الجامع رقم: ٣٧٣١.



بعض آثار إيمانك باسم الله العليم:

- هل يخفى على الله معاصيك؟! فيورثك ذلك مراقبة الله وتقواه في خلوتك.
- هل يخفى على الله مآسيك؟! فيورثك علم الله بحالك الثقة برعايته ولطفه.
- هل يخفى على الله مكر أعدائك؟! فيورثك علم الله المحيط بهم مع حذرك منهم: طمأنة قلبك وتقوية ضعفك في مواجهة خصمك، ويمنحك قوة نفسية هائلة تتجاوز بك محطات الفشل وتفتح آفاق العمل، لذا خاطب الله نبيه:

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

- هل يخفى على الله شيء مما ينفعك وما يضرك؟! فيورثك هذا العلم الرضا بقضائه.

يقول عبدالقادر الجيلاني:

«وافِقوه وارضوا بأفعاله فيكم وفي غيركم.

ولا تتعالوا على من هو أعلم منكم.

فكيف إذا لم تعلموا في الأصل شيئًا:

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾؟!».

وقال أبو حامد الغزالي في صفة من آمن باسم الله (العليم):

«يصدِّق تصديقا يقينيا لا ضعف فيه ولا ريب، أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم، وخلَق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم، وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها، ثم زاد مثل عدد جميعهم علمًا وحكمة وعقلاً، ثم كشف لهم عن عواقب الأمور، وأطلعهم على أسرار الملكوت، وعرَّفهم دقائق اللطف، وخفايا العقوبات حتى اطَّلعوا به على الخير والشر والنفع والضر، ثم أمرهم أن يدبِّروا الملك والملكوت بما أُعْطوا من العلوم والحكم، لما اقتضى تدبير جميعهم -مع تظاهرهم عليه- أن يزاد فيما دبَّر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة!

ولا أن يُنقَص منها جناح بعوضة!

ولا أن يُرفَع منها ذرة.

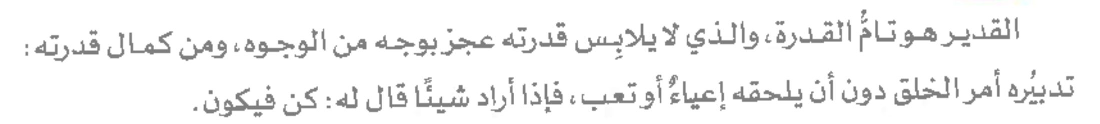


ولا أن يُخفَض منها ذرة.

ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضر عمن بُلِي به.

ولا أن يزال صحة أو كمال أو غنى أو نفع عمن أنعم الله به عليه، بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجّعوا فيه البصر، وطوّلوا فيه النظر، ما رأوا فيها من تفاوت ولا فطور.

وكلُّ ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل، وسرور وحزن، وعجز وقدرة، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، فكله على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي، وكما ينبغي، بالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه، ولا أتمّ، ولا أكمل».



الاسم الخامس: اسم الله القدير

القدير هو تامُّ القدرة، والذي لا يلابِس قدرته عجز بوجه من الوجوه، ومن كمال قدرته: تدبيُره أمر الخلق دون أن يلحقه إعياءٌ أو تعب، فإذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون.

إن الله لا يحتاج إلى أسباب لإنفاذ أمره، إنما يقول: «كن»، فينقاد له كل شيء، وهو قادرٌ سبحانه على أن يجعل من السبب عدمًا، وأن يخلق من العدم سببًا، فليس للسبب عند الله قيمة، وحتى كلمة (كن)، لا يتوقَّف إنفاذ أمر الله عليها، لكن لما كانت أقصر كلمة في قاموس البشر، فقد خاطبنا الله بما نفهم، وكل أمر أراده الله موجودٌ منذ الأزل، فأمر: (كُنْ) ليس لإيجاده من العدم، بل لإظهاره إلى عالم الواقع.





وقدرة الله ﷻ فوق الأسباب، فقد خلق الله سبحانه وتعالى حواء بلا أم، وخلق عيسى بلا أم، وخلق آدم بلا أب ولا أم، ورزق زكريا ﷺ بالولد مع كبر سنه وعقم زوجته، فليس هناك مستحيل على قدرة الله، وليس هناك أمام قدرة الله صعب ولا سهل، ولا قريب ولا بعيد.

وانظر كيف عرض القرآن لعظمة قدرة الله بصورة غير مباشرة لمن تدبر وتأمل، فقد قال الذي عنده علم من الكتاب لسليمان ﷺ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ﴾.

يأتي بعرش ملكة سبأ من اليمن إلى الشام قبل أن يطرف جفن سليمان ﷺ! وهي قدرة مخلوق، فكيف بقدرة خالق الخلق وملك الملوك؟! والله لا تتناهى مقدوراته.

ومن قدرته: إحياء الموتى، ولقد قصَّ الله علينا في سورة البقرة وحدها خمس حوادث تتضمن إحياء الموتى في الدنيا، وهي دلائل على إمكانية البعث يوم القيامة لمن طلب الدليل، وما أهون البعث على الله ﷻ.

القصة الأولى:

قصة السبعين الذين اختارهم موسى ﷺ للقاء الله، فلما سمعوا كلام الله مع موسى، طلبوا رؤية الله، قائلين: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾ [البقرة:٥٥] فعاقبهم الله، فأخذتهم الصاعقة، فماتوا، فتضرع موسى إلى ربه: يا إلهي.. اخترتُ من بني إسرائيل سبعين رجلاً ليكونوا شهودي على قبول توبتهم، وماذا أقول لهم إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم؟! فلم يزل يناشد ربه حتى أحياهم الله من موتهم.

القصة الثانية:

قتيل من بني إسرائيل، قتله ابن عم له، فاتهموا به قبيلة أخرى وخاصموهم فيه، فأمرهم موسى بوحي من الله تعالى أن يذبحوا بقرة، ويضربوا القتيل بجزء منها، ففعلوا بعد التعنت، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى وأخبر عن قاتله، وهذا من عظيم القدرة الإلهية! يضربون (ميتا) بجزء من بهيمة (ميتة)، فتنبعث فيه الحياة، وفي هذا إشارة إلى أن قدرة الله فوق الأسباب، وأن الله لو أراد شيئا يأتي به من أبعد نقطة تتصورها العقول.



القصة الثالثة:

قوم نزل في ديارهم وباء فخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذرا من الموت، فأراهم الله تعالى ألا فائدة في الفرار من الموت، فأماتهم ليعلموا نفوذ قدرته، ثم أحياهم ليستكملوا آجالهم، فقال ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٣].

القصة الرابعة:

وهي قصةٌ تفيض بملامح قدرة الله: مرَّ رجل على قرية وهي خاوية على عروشها، فاستبعد أن تعود على ما كانت عليه من الحياة، فأماته الله مائة عام، وكان معه حماره يحمل طعامه وشرابه، فمات الحمار وتحلل جثمانه، وبقي الطعام والشراب لم يتغيرا في طعم ولا لون ولا رائحة خلال مائة عام، ثم بعثه الله.

وهنا خمس معجزات تعرض قدرة الله:

- الأولى: أن الله أماتَ عزيرًا مائة عامٍ ليتحلل جسده بالكلية، ثُمَّ بَعَثَه بعد الموت في سابقة لا تحدث إلا يوم القيامة.
- الثانية: أن الله لم يُشعِره بطول الزمان، فمرَّت عليه مائة عام كأنها يوم أو بعض يوم، فجعل الله عشرات السنوات كأنها ساعات.
- الثالثة: حفظ الله للطعام عشرات الأعوام دون تغيُّر، والطعام عظيم المسارعة إلى الفساد.
- الرابعة: قدرة الله جعلت الزمن يحدِث أثره على الأبدان، ومنعت تأثيره على الطعام، فالسبب واحد، لكن تأثيرالأسباب ليست بذاتها، بل بإذن ربها.
- الخامسة: إعادة خلق حماره بعد تحلله.

القصة الخامسة:

سأل إبراهيم الخليل ربه أن يُريه كيف يُحيي الموتى، فأمره الله تعالى أن يأخذ أربعة من الطير فيقطعهن أجزاء فيفرِّقها على الجبال التي حوله، على كل جبل جزء من هذه الطيور،

ثـم يناديهـن، وحينئـذ تلتئـم هـذه الأجزاء الممزقـة المفرَّقـة في الجبال، ويأتـين إلى إبراهيم مشـيًا لا طيرانـا، وقـد كان.

فسـأل إبراهيـم ربـه أن يرقِّيـه مـن علـم اليقـين إلى عـين اليقـين، وهـي أعلـى وأكمـل، فأجابـه الله إلى مـا سـأل.

وقفات مع بعض آيات القدرة!

الآية الأولى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

كـرَّر الله ذكـر المشـيئة في آيـة واحـدة أربـع مـرات، ثـم ختـم الآيـة بذكـر قدرتـه المطلقـة، لينزع أوهـام القـوة الزائفـة مـن عقـول الخلـق، فلا يقـدر أحد منهم علـى شيء أصلا إلا بمـا خوَّله الله من قـدرة، فقـدرة العبـاد وهـم، وإنمـا القـدرة كلهـا لله، ولا يقـدر علـى إيتـاء الملك أو نزعـه إلا الله، فلا أحـد يملـك قـوة رغمـا عـن ربـه، حـتى أقوى الجبابـرة لا يملـك ذرة إلا بإذن الله.

وفي الجمع بين قوله: ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُ﴾ و ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ إشارتان مهمتان:

الأولى: أن كل قضـاء الله خـير، فـلا يُنسَـب الشـر المطلق إلى الله، فـإن الله لا يفعـل إلا خـيرًا، ولـذا قـال الزمخشـري:

«إن كل أفعـال الله تعـالى مـن نافـع وضار صـادر عن الحكمـة والمصلحـة، فهو خير كلـه كإيتـاء الملك ونزعه».

الثانية: كل مـا في هـذا الوجود من أسـباب وأشـياء ومخلوقـات لا تخرج عن قـدرة الله وإرادتـه، مهمـا ظـن النـاس غير ذلك.

ثم دلَّل الله على قدرته بأحد نواميس الكون التي يراها الناس بأعينهم كل يوم، فقال:

﴿تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾.



الآية الثانية:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

الخلق كلهم من جملة أملاك الله، ولذا فهو القادر عليهم جميعا، فهم مملوكون مقهورون تحت سلطانه، وهو وحده قاهر هذا العالم، يتصرف فيه كيف يشاء: إيجادًا وعدما، وإحياء وإماتة، وعقوبة وإثابة، وهو على كل شيء قدير، فلا يُعجِزُه شيء، ولا يدفع عقابه دافع، ولا يمنع عقابه مانع، فأطيعوه ولا تخالفوه، فهو على كل شيء قدير، والخلق كله تحت قدرته، وبهذا خَوَّفَ الله من عانده، وأطمع من اتقاه وطاوعه.

وجاءت الآية في سياق الحديث عن الذين يفرحون بما أتوا ما يستحقون به العذاب، لبيان أن الله قادر عليهم، وأن عذابا أليما ينتظرهم من مالك السموات والأرض، فكيف يرجو الهرب مَنْ كان معذِّبه هذا القدير الغالب؟!

إن التذكير الدائم بامتلاك الله لكل شيء، وقدرته على كل شيء، هو خير دواء لأمراض النفوس من قلق وحسد وجشع وظلم.

الآية الثالثة:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

تعرض هذه الآية لملمح مختلف من ملامح القدرة الإلهية:

إن يمسسك الله بخير فلا مانع له؛ لأنه على كل شيء قدير، واستعمل كلمة المس مع الخير؛ لأن خير الدنيا يذهب عاجلا، وتمر أوقاته سريعة، ولأن العبد في الدنيا لا ينال كل الخير، إنما يمسه فيها بعض الخير؛ أما الخير الأعظم فمدخَرٌ له في الآخرة، ذلك أن خير الدنيا يزول عنك بالتحول إلى غيرك، أو تزول عنه بالموت، بعكس خير الآخرة.

وجاء التعبير عن الضر بالمسّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، للإشارة إلى أن الضر عابر لا يستقر، حتى وإن طال، فإن الله قادر على أن يخفِّف أثره على المؤمنين بنسائم الرضا يودعها في قلوبهم، وقادر على كشف الضر عنهم بالكلية بآثار رحمته.

لكن لماذا استعمل الله كلمة (الضر) بدلاً من كلمة (الشر) مع أنها عكس كلمة (الخير)؟!

قال صاحب المنار: «نكتة المقابلة أن الضر من الله ليس شرًا في الحقيقة، بل هو تربية واختبار للعبد يستفيد به من هو أهلٌ للاستفادة أخلاقا وأدبا وعلما وخبرة».

ونسب الله الضر إليه؛ ليكون هذا أهون على الحبيب وأعذب، فالحبيب لا يعذِّب حبيبه، وكُلُّ ما يفعل المحبوب محبوب، وقد قيل قديما: الحنظلة من كفِّ من تُحِب مُسْتَعْذَبَة!

ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، ليستقر في قلب كل مؤمن أن الله إذا أراد به خيرا، لن يقدر أحد على وجه الأرض من منعه عنه، وأن الله إذا نقلك إلى حال حسنة، فهو قادر على أمثالها، وما لك لأضعاف أضعافها.

الآية الرابعة:

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾:

وملمح آخر للقدرة الإلهية هنا، وهو تقليب القلوب من شدة العداوة إلى شدة المحبة، فالذي يقذف العداوات هو الله، والذي يقذف المحبات في القلوب هو الله، وقد ظهر أثر هذه القدرة الإلهية في تقليب القلوب على كثير من الصحابة.

فضالة بن عمير المشرك الذي امتلأ قلبه حقدًا وبغضًا للنبي ﷺ حتى عزم على قتله عام الفتح، فلما دنا منه وهو يطوف بالبيت وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فسكن قلبه، فكان **فضالة** بعدها يُحدِّث عن هذا اللحظة الفارقة قائلاً:

«والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إلي منه!!».

وثمامة بن أثال ما إن نطق بالشهادتين حتى انطلق لسانه مفصحًا عن الثورة التي اجتاحت كيانه كله بإسلامه، ثورة قلبية كشفت عن قدرة ربانية خارقة، أخبر ثمامة بتفاصيلها حين قال:

«يا محمد! والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي».



وهند بنت عتبة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: «يا رسول الله.. والله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليّ من أن يُذِلَّهم الله من أهل خبائك، ولا أصبح اليوم على ظهر الأرض خباء أحب إلي من أن يعِزّوا من أهل خبائك».

عرفنا الله بنقض العزائم، وصرف الهمم!

هذا قول مأثور عن بعض الأعراب، وهو دليل دامغ على قدرة الله سبحانه، ومعناه:

أحيانا يعزم العبد على أمر من الأمور، ويظن أن الدنيا لا تستقيم إلا به، فيجتهد غاية الاجتهاد في تحصيله، ثم فجأة تتغير همته، ويخور عزمه، وتتغير رغباته وقناعاته، فعندها يستقر في قلب العبد أنه ليس إله نفسه، ولا رب شؤونها، ولا مغير أحوالها، بل لها ربٌّ قدير متصرف فيها، ومتحكم في رغباتها، يغيِّر أحوالها إن شاء، فيعلم العبد أنه متصرَّف فيه لا متصرِّف، واقع تحت تدبير الله ولا يدبِّر!

وبالرغم من تكرار هذا مع الخلق جميعا -أي نقض العزائم وتغير الهمم- فإن معرفة الخلق لهذه القدرة الإلهية قليل نادر، لشدة قربهم منها، وكثرة تقلبهم فيها، وقد قيل: القرب حجاب، يعني من الممكن ألا نرى الأشياء لأنها قريبة منا جدا، وأمام أعيننا باستمرار، وهذا مثال.



الاسم السادس: الهادي

الهداية.. أكبر نعمة أنعم بها الله على عباده، وكل نعمة غير نعمة الهداية زائلة؛ لذا كان الراسخون في العلم أكثر الناس حرصًا على الدعاء بدوام هذه النِّعمة وعدم زوالها:

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨].

وهداية الله للعبد أنواع ودرجات، فالله يهديك أولا هداية علم وبيان، فتعلم طريق الخير وطريق الشر عن طريق كتبه ورسله، ثم يهديك فيمنحك القدرة على فعل الخير، ثم يهديك لإرادة فعل الخير ومحبته، ثم يهديك ويوفقك لفعله، ثم يهديك للثبات عليه، ثم يهديك



لصرف الموانع والشواغل التي تصرف عنه، ثم يهديك لإتقانه والإحسان فيه، ثم يهديك لشهود شدة افتقارك واحتياجك للهداية الربانية.

ويتفاوت الناس في تحصيل هذه الهداية، ما بين مستقل ومستكثر، فكلما سعى العبد للسير في طريق الهداية أعانه الله وأمدَّه، وكلما سار في طريق الذنوب والغواية مدَّ الله له في الضلالة مدًّا، فالذنوب سبب الحرمان من الهداية، وهذا الحرمان أعظم العقوبات الربانية.

ومن أعظم الذنوب: الظلم، وكثيرًا ما يتساءل الناس:

لماذا لا يتوب الظالمون ولا هم يذَّكرون؟!

والجواب لأن الظلم من أكبر موانع الهداية، وفي القرآن ست آيات ختمها الله بقوله:

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وأربع آيات خُتِمَت بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

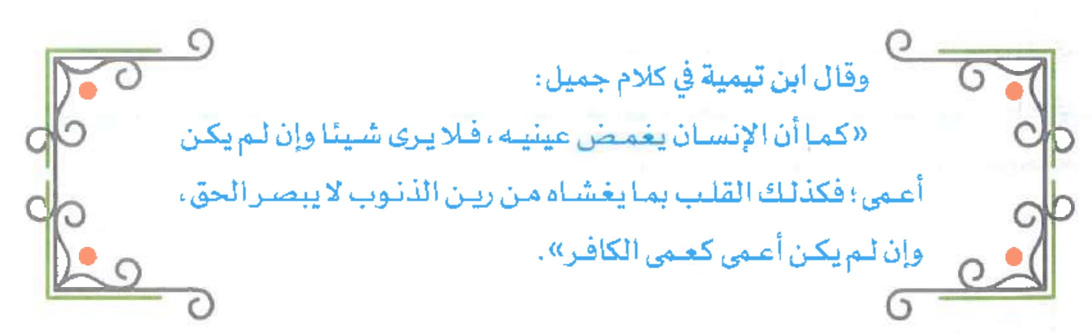
فعشر آيات في كتاب الله تقرِّر عقوبة (حرمان الهداية) للظالم بسبب ظلمه، فالله لا يهدي الظالمين للندم والتوبة، بل يذرهم في طغيانهم حتى يأخذهم بعذاب أليم.

ولذا قلَّما تاب ظالم، أو ردَّ المظالم.

وهذا والله من شؤم الظلم، بل هو أشد عقوباته على صاحبه.

قال ابن الجوزي:

«الذنوب تغطِّي على القلوب، فإذا أظلمت مرآة القلب لم يبن فيها وجه الهدى».



وقال ابن تيمية في كلام جميل:

«كما أن الإنسان يغمض عينيه، فلا يرى شيئا وإن لم يكن أعمى؛ فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب لا يبصر الحق، وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر».

ولا وجه للمقارنة بين عقوبة الظالم الدنيوية وعقوبة حرمان الهداية، لأن عقوبته



الدنيوية تزول بالموت، بينما الحرمان من الهداية هو سبب عقوبته الأخروية، وهي أشد وأدوم، وكلما أخَّر الله عقوبة العبد إلى الآخرة، كان هذا أدلَّ على بُعْده عن الله، وبغض الله له.

قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»(١).

الاسم السابع: اسم الله الخالق

الخالق هو مبدع الخلق، المخترع له على غير مثال سابق. قال سبحانه: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣].

ولم ينازع أحد الله في خلق أحد من الخلق، ولن ينازعه أحد، وهذا من أدلة تفرد الله بالخلق.. لذا لما جاء وفد من اليمن للنبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله.. جئناك لنتفقَّه في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر -يقصدون الخلق- فقال لهم النبي ﷺ: «كان الله، ولم يك شيء غيره».

هل فهمتَ الآن معنى دعاء النبي ﷺ الذي كان يردِّده كل ليلة إذا أوى إلى فراشه:

«اللهم ربَّ السموات السبع ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، مُنزِّلَ التوراة والإنجيل والقرآن، فالق الحبِّ والنوى، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين، وأغنني من الفقر»(٢).

نردد هذا الدعاء عند كل نومة وقبضة روح؛ لنزداد إيمانا بالخالق سبحانه، فهو الأول الذي لم يكن قبله شيء، ولاحظ أنك تستعين بخالق (كل شيء) ليعيذك من شر (كل شيء)، فالذي خلق الأشياء كلها هو وحده القادر على حمايتك من شرها كلها، وليس غير الخالق سبحانه يصلح أن تحتمي به من شر خلقه.

(١) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن أنس كما صحيح الجامع رقم: ٣٠٨.
(٢) صحيح: رواه الترمذي وابن ماجة وابن حبان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٤٢٤.



تحدٍّ قائم إلى يوم القيامة!

لقد تحدى الخالق سبحانه الخلق أجمعين بأهون شيء في نظرهم: أن يخلقوا ذبابة، وهو تحدٍّ إلهي باقٍ إلى يوم القيامة، فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾.

حكم الله منذ ألف وأربعمائة عام بأن أي قوة علمية وأي مجموعة بحثية -ولو اجتمعوا- لن تستطيع خلق ذبابة واحدة، ثم ترقَّى مستوى التحدي إلى ما هو أعلى من ذلك، فانتقل من تحدي خلق الذبابة إلى تحدي الإتيان بما تسلبه الذبابة: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾.

وأي شيء أهون من الذباب حتى يفضح الله بخلقه عجز الخلق؟!

إذا وقع الذباب على طعامك، فتناول منه شيئا ثم طار، هل تستطيع أن تسترد مما سلب شيئا مهما أُوتيتَ من قوة أو علم؟!

قال القرطبي: «وخصَّ الذباب لأربعة أمور تخصه: لمهانته، وضعفه، ولاستقذاره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره، لا يقدر من عبدوه من دون الله -تعالى- على خلق مثله، ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأربابا مطاعين».

ومن العجيب أن الأبحاث العلمية الحديثة أثبتت أن الذباب يفرز سوائل هاضمة على جزيئات طعامه، فيهضمه في مكانه قبل أن يمتصه بخرطومه، فلا يمتصه إلا متحوّلا؛ فمتى سلب الذباب شيئًا وامتصّه، تعجز كل وسائل العلم وأجهزته عن استنقاذه منه؛ لأنه تحوَّل إلى هيئة أخرى، حتى وإن قام العلماء باستخراج ما في بطن الذبابة، فلن يكون نفسَ الطعام الذي سلبته؛ وهذا قمة التحدِّي والإعجاز.

ما أثر إيمانك بالخالق ؟!

طاعة الأمر فورًا:

لأن الله وحده بدأ الخلق، فهو وحده الذي يملك سلطة الأمر:

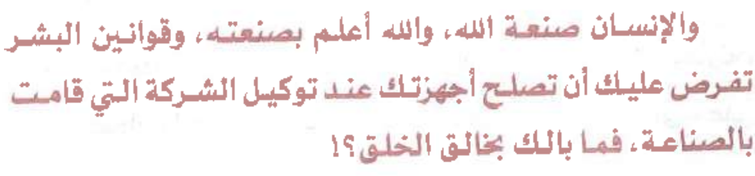
﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

ولاحظ أن الله بدأ الآية بقوله: ﴿أَلَآ﴾؛ ليستجلب اهتمام الغافل ويلفت انتباهه إلى اختصاص الله تعالى بالخلق والأمر معًا، وقد جمعت واو العطف بين الخلق والأمر، فلا يفترقان، وقرنتهما سويا فلا ينفكان.

فكما لم يخلق غيره، فلا يأمر غيره، وهو المطاع الذي يستحق وحده الطاعةَ المطلقة دون أدنى مراجعة، وإذا تعارضت طاعته مع طاعة غيره، قُدِّمت طاعة الله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وقد قضى الله أمرا، ألا راحة ولا سعادة ولا هناء إلا في طاعته، وأن شقاء البشرية وتعاستها في مخالفة أمره. قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

فمن خلق الخلق وأتقنه، كيف لا يعلم ما يصلحه وينفعه ؟!




والإنسان صنعة الله، والله أعلم بصنعته، وقوانين البشر تفرض عليك أن تصلح أجهزتك عند توكيل الشركة التي قامت بالصناعة، فما بالك بخالق الخلق؟!

هل يأمر إلا بما ينفع ويجلب الخير؟!

وهل ينهاك إلا عما يؤذيك؟!

لذا قال ابن القيم: «وليس في الشريعة أمر يُفعَل إلا ووجوده للمأمور خيرٌ من عَدَمه، ولا نهيٌ عن فعل إلا وعدَمه خيرٌ من وجوده».



إن من العبث أن نؤمن بالله خالقا، ثم لا نرضى به حاكما! فنتحاكم لقوانين بشرية تخالف الشريعة الربانية، وقانون صيانة الإنسان -كما أراده الله- فيه بنود محددة: «افعل» و«لا تفعل». فإذا حدَث عطب في آلة الإنسان، وجب عرضه على قانون الصانع الأول، وإنما تنشأ المتاعب من تناسي البشر أنهم صنعة الله، فيطلبون الراحة بعيدا عن منهجه، ويبحثون عن سعادتهم من أمثالهم من البشر، وهي قوانين قاصرة قصورَ العقل البشري، تخضع للتجربة والخطأ، والتبديل والتطوير، بعكس منهج الله، الذي لا يقبل أي زيادة أو تعديل، فليس لنا أنْ نتدخَّلَ فيه، أو نزيد عليه، أو ننتقص منه، فإن فعلنا، فقد أحدثنا في هذا الكون خرقا وفسادا لا ينصلح إلا بالرجوع إلى القانون الأول:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾.

ومن خرج عن قوانين الخالق، لابد له من عقوبة، دنيوية وأخروية، ولهذا فللمؤمن دائما تفسير إيماني للأحداث اليومية غير التفسير المادي، وهذا التفسير الرباني يعيد العباد متى انحرفوا إلى الجادة والصراط المستقيم، واسمعوا حديث رسول الله ﷺ:

«يا معشر المهاجرين..

خصال خمس إذا ابتُليتم بهن، وأعوذ بالله أن تُدرِكوهن:

لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يُعلِنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا.

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخِذوا بالسنين، وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم.

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القَطر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطَروا.

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلَّط الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم.

وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل، ويتحروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»[1].

(١) صحيح: رواه ابن ماجة والحاكم عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٧٩٧٨.



الاسم الثامن: اسم الله الرب

ولاسم الرب ثلاثة معان:

الأول: الرب بمعنى المالك، ومنه قولهم: رب الدار، أي: صاحب ومالك الدار.

والله هو مالك الملك، ورب العالمين، نصدح بذلك كل يوم في سورة الفاتحة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولا تصح صلاتنا إلا بهذا الإقرار، فقول: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يشمل ربوبية الله للعالم بأسره، بما يتضمن تصرفه فيه، وتدبيره أمره، ونفاذ قدره في كل وقت فيه، يخلق ويرزق؛ ويميت ويحيي، ويخفض ويرفع؛ ويعطي ويمنع؛ ويعز ويذل.

والثاني: الرب بمعنى السيد المطاع: ومنه قول الرسول ﷺ: **«أن تلد الأمة ربتها»**، أي سيدها، وكما قال الصدِّيق يوسف ﷺ عن العزيز: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾.

والمعنى الثالث للرب: المربي والمصلح: قال الزجاجي:

«هو المصلح للشيء، تقول: ربيت الشيء أربه ربًا وربابة؛ إذا أصلحتَه وقمتَ عليه».

ومن هذا الإصلاح: تربية الله لأوليائه وعباده بإصلاح قلوبهم وأعمالهم وأخلاقهم، ولذا كان أكثر دعاء الصالحين بهذا الاسم الجليل (الرب)؛ فيسألون الله بربوبيته، وربوبيته تتضمن قدرته على تربيتهم وإصلاح شأنهم.

ولذلك نرى في أدعية أنبياء الله وأوليائه تكرار الدعاء بقولهم: ربنا، ربنا، ربنا، حتى بلغت في القرآن ثلاثا وتسعين دعوة.

ولاختصاص هذا الاسم بالله، فقد قال رسول الله ﷺ:

«لا يقولن أحدُكم: عبدي وأَمَتي، ولا يقولن المملوكُ: ربِّي وربَّتي، وليقل المالك: فتاي وفتاتي، وليقلِ المملوك: سيدي وسيدتي؛ فإنكم المملوكون، والربُّ اللهُ عز وجل»[1].

---

(١) صحيح أبي داود رقم: ٤٩٧٥.



والسبب في هذا النهي أن حقيقة الربوبية لله تعالى؛ لأن (الرب) هو المالك القائم بالشيء، فلا يكون ذلك حقيقة إلا لله تعالى.

أثر الإيمان باسم الله الرب

① الرضا

تردد كل يوم بعد كل أذان (رضيت بالله ربا)، وجاء هذا الذكر كذلك في أذكار الصباح والمساء.

تعلن بصيغة الماضي الجازمة رضاك عن الله مربيا ومصلحا، ولهذه التربية الربانية صور وأشكال، فيربي الله عبده بالسراء مرة ليجذبه إليه عن طريق الترغيب، ويربيه بالضراء على التوكل عليه والالتجاء إليه.

وكل شدة تقابلك، وكل محنة تنزل بك يصبِّرك عليها قول ربك:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾.

وبما أن ربك شاء ذلك، فلابد أن في إمضائه حكمة، وحكمة الله وإن غابت عنك، إلا أنك تثق في تربية ربك لك، فترضى بقضائه وتدبيره، فإذا رضيت عنه، فاعلم أنه قد رضي عنك.

إن الرضا بالقضاء أشق شيء على النفس، بل هو ذبحها في الحقيقة، لأنه مخالفة طبعها وهواها.

وكل قدَر يكرهه العبد، لا يخلو أن يكون عقوبة على ذنب، فهو دواء لمرض، ولولا تدارك الحكيم إياه بالدواء لأوصله المرض إلى الهلاك.

أو قد يكون المكروه سببا لنعمة لا تُنال إلا بذلك المكروه، فينقطع المكروه ويتلاشى، ويدوم ما ترتَّب عليه من النعمة ولا ينقطع، فإذا شهد العبد هذين الأمرين انفتحت له بوابات الرضا عن ربه في كل ما يقدره له.

وما أجمل قول عبد الله بن المبارك:

«إن لم تصلح على تقدير الله عز وجل، لم تصلح على تقديرك لنفسك».

2 محبة الله

فإن هذه الصفات تورث المحبة في قلب العبد لربه سبحانه، فإن الرب هو الذي يجلب المنافع، ويدفع المضار، ويصرِّف جميع أمورك، فكيف لا تحبه؟!

3 الإلحاح في الدعاء

البلاء يَسْتَخْرِج الدعاء، تجد الرجل لا يذكر الله، ولا يدعوه، ولا يقوم الليل أو يقرأ القرآن، فإذا نزل به البلاء فعل كل هذا.

وفي تكرار الدعاء بهذا الاسم (ربنا) مظنة الإجابة، فقد قال **جعفر الصادق**:

«من حزَبه أمر فقال خمس مرات: (ربنا) أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد.

قيل: وكيف ذلك؟

قال:

اقرءوا إن شئتم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾».

وهذا دليل على محبة الله لاسم الرب، ودليل على فضل الإلحاح على الله في الدعاء بهذا الاسم.

قال **الحسن البصري**:

«ما زالوا يقولون: ربنا، حتى استجاب لهم».



ولذا كان الإمام مالك بن أنس يقول:

«يُعجبني دعاء الأنبياء: ربنا، ربنا».



الاسم التاسع: اسم الله المجيب

سبحانه.. يجيب من دعاه، وإجابته للدعاء نوعان:

إجابة عامة:

وتشمل دعوة المضطر لقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]، ولم يفرّق في الآية بين مؤمن وكافر، فمن دعا الله وهو مضطر، استجاب الله له.

ومن الإجابة العامة: إجابة دعوة المظلوم، ولو كان كافرًا أو فاجرًا، لقول النبي ﷺ:

«دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرا، ففجوره على نفسه»[(١)].

وقوله ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا، فإنه ليس دونها حجاب»[(٢)].

وهذا دليل كرم المولى سبحانه، وشمول إحسانه البَرَّ والفاجر، ولا يدل على صلاح الداعي الذي أجيبت دعوته.

ويتساءل البعض: هل يجيب الله دعوة الكافر؟!

أجاب الإمام السمعاني فقال: «فإن قيل: وهل يجوز أن يجيب الله دعوة الكافر؛ حيث أجاب دعوة اللعين (إبليس)؟

قيل: يجوز على طريق الاستدراج والمكر والإملاء، لا على سبيل الكرامة».

وهكذا ترى أن إجابة الله لدعاء عباده ليست دائما علامة تكريم، بل قد تكون استدراجا، أو عقوبة؛ وابن القيم يقول: «فليس كل من أجاب الله دعاءه يكون راضيا عنه، ولا محبا له، ولا راضيا بفعله؛ فإنه يجيب البَر والفاجر، والمؤمن والكافر».

---

(١) حسن: رواه الطيالسي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٣٨٢.

(٢) حسن: رواه أحمد والضياء عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ١١٩.



ولا يظن ظان أن الأمر إذا كان كذلك، فلا فارق بين دعاء المؤمن ودعاء الكافر؛ فالفارق بينهما عظيم، ومن أوجهه:

1. أن الدعاء عبادة يثاب عليها المؤمن؛ سواء أُعطِي أم لم يُعْطَ، وثواب الدعاء المؤجَّل إلى الآخرة أعظم بكثير من إعطاء الداعي ما سأل، وليس هذا للكافر، فدعاؤه غير مقبول، ولا أجر له فيه.

2. أن المؤمن لا بد أن يجاب في دعائه، وليس ذلك الكافر، لكن إجابة الله تعالى له تكون بما هو أصلح للعبد، والله أعلم بما يصلح له، وحجة ذلك حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ: «ما من مسلم يدعو، ليس بإثم ولا بقطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث: إما أن يُعَجِّل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها»، فقال الصحابة: إذا نُكثِر! قال: «الله أكثر»[1].

وهذا معناه أن المجيب حكيم في إجابته، قد يعجِّل بها أو يؤجِّلها بحسب حال السائل ونوع السؤال، أو يلطف بعبده فيختار له غير ما دعا به؛ لأنه الأنسب لحالته، ولأن الإجابة بتحقيق ما دعا به مُضِرَّة له، أو تُنقِص درجته عند ربه، أو قد يدخر الله أجر دعائه بما ينقذه من عذابه عند مرجعه إليه ومآله، لكن الله تعالى -في جميع الأحوال- يجيب عبده، ولا يخيب رجاءه كما وعده.

وليست إجابة الدعاء دائما مستحبة، فالرجل إذا دعا على أهله أو ولده أو ماله وهو غضبان فاستجيب له؛ كان هذا بلاء وعقوبة، ولذا ورد النهي عن الدعاء على الأهل والمال والولد، فقال رسول الله ﷺ: «لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون»[2].

فلا تكُنْ عدوَّ نفسك، وتَدْعُ بما يكون سبب ضررك، واعلم أن المجيب سبحانه قد لا يجيب كثيرا من مسائلك؛ ليصرفَ عنه شرورًا لا تعلمها والله يعلمها، وما خفِيَ عنك كان أعظم.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد عن أبي سعيد كما في صحيح الأدب المفرد رقم: ٧١٠.
(٢) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن أم سلمة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٢٦٦.

إجابة خاصة:

وتشمل عباده الصالحين، الذين استجابوا لله، كما قال ربنا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة:١٨٦].

وقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ أي كما أجبتهم إذا دعوني، فليستجيبوا لي في ما دعوتهم إليه من الإيمان والطاعات.

أو معناه: أنهم يطلبون إجابة الله سبحانه لدعائهم باستجابتهم لأوامره، أي بالقيام بما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه.



والمجيب كريم، ولذا نوَّع أسباب الإجابة، ومنها: طول السفر، ودعوة المريض، ودعوة المظلوم، ودعوة الصائم، ودعوة الوالد على ولده أو له، وفي الأوقات والأحوال الشريفة، مثل أدبار الصلوات المكتوبات، والثلث الأخير من الليل، وبين الأذان والإقامة، وعند الأذان، وعند نزول المطر، وعند التقاء الصفوف في القتال.

لماذا لا يستجيب في الحال؟!

قال ابن الجوزي:

«رأيت من البلاء العجاب أن المؤمن يدعو فلا يجاب، فيكرِّر الدعاء وتطول المدة، ولا يرى أثرًا للإجابة، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر.

وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب (هو) مرضٌ يحتاج إلى طب.

ولقد عَرَض لي من هذا الجنس، فإنه نزلت بي نازلة، فَدَعَوْتُ وبالَغْتُ، فلم أرَ الإجابة، فأخذ إبليس يجول في حلبات كيده.

فتارة يقول: الكرم واسع والبخل معدوم، فما فائدة تأخير الجواب؟!

فقلت له: اخسأ يا لَعِين، فما أحتاج (مع الله) إلى تقاضي، ولا أرضاك وكيلا.



ثم عدت إلى نفسي فقلت:

إياك ومساكنة وسوسته، فإنه لو لم يكن في تأخير الإجابة إلا أن يختبرك في محاربة العدو لكفى بذلك حكمة.

قالت: فَسَلِّني عن تأخير الإجابة في مثل هذه النازلة.

فقلت: قد ثبت بالبرهان أن الله عز وجل مالك، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء، فلا وجه للاعتراض عليه.

والثاني: أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة، فربما رأيت الشيء مصلحة، والحقُّ أن الحكمة لا تقتضيه، وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب، من أشياء تؤذي في الظاهر يقصد بها المصلحة، فلعل هذا من ذاك.

والثالث: أنه قد يكون التأخير مصلحة، والاستعجال مضرة، وقد قال النبي ﷺ: (لا يزال العبد في خير ما لم يستعجل، يقول دعوت فلم يستجب لي)[1].

والرابع: أنه قد يكون امتناع الإجابة لآفة فيك، فربما يكون في مأكولك شبهة، أو قلبك وقت الدعاء في غفلة، أو تزاد عقوبتك في مَنْعِ حَاجَتِك لِذَنْبٍ مَا صدقتِ في التوبة منه، فابحثي عن بعض هذه الأسباب، لعلك توقنين بالمقصود.

والخامس: أنه ينبغي أن يقع البحث عن مقصودك بهذا المطلوب، فربما كان في حصوله زيادة إثم، أو تأخيرٌ عن مرتبة خير، فكان المنع أصلح.

وقد روي عن بعض السلف أنه كان يسأل الله الغزو، فهتف به هاتف: إنك إن غَزَوْتَ أُسِرْتَ، وإن أُسِرتَ تنصَّرتَ.

والسادس: أنه ربما كان فقد ما تفقدينه سببًا للوقوف على الباب واللجأ (إلى الله)، وربما كان حصوله سببًا للاشتغال به عن المسؤول (سبحانه).

وهذا (هو) الظاهر، بدليل أنه لولا هذه النازلة، ما رأيناك على باب اللجأ.

(١) صحيح مسلم رقم: ٢٧٣٥.



فالحقُّ - عز وجل - عليم من الخلق اشتغالهم بالبرعنه، فلذعهم في خلال النعم بعوارض تدفعهم إلى بابه، يستغيثون به، فهذا من **النِّعَم في طي البلاء**».



الاسم العاشر: اسم الله المقدِّم المؤخر

المقدِّم هو الذي يقدِّم ما شاء من الخلق والأعمال، فمن استحقَّ التقديم قدَّمه، ومن استحق التأخير أخَّره.

الله هو الذي يقدِّم، وكل تقديم غير تقديم الله لا قيمة له، فلا مُقدِّم لما أخَّر الله، ولا مؤخِّر لما قدَّم الله، وكل تقديم وتأخير رباني إنما يقع لحكمة بالغة.

قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

ولم يَرِد هذا الاسم في القرآن، إنما جاء في الأحاديث، فكان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء:

«اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدَّمتُ وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، وأنت على كل شيء قدير»(١).

والمقدِّم والمؤخِّر من الأسماء المزدوجة المتقابلة، والتي لا يطلق واحد منها على الله إلا مقرونا بالآخر، فإن الكمال في اجتماعهما.

أنواع التقديم!

① تقديم الخلق:

فقد قدّم الله بني آدم على كل الخلائق، وجعلهم خلفاءه في الأرض.

(١) صحيح: رواه مسلم عن علي بن أبي طالب كما في صحيح مسلم رقم: ٢٧١٩.





قدَّمك الله على سائر خلقه، فكيف لا تقدِّمه على سائر خلقه؟!

وقدَّم على الخلق خير الخلق: الأنبياء والمرسلين.

وقدَّم بعض الأنبياء على بعض، ورفع بعضهم درجات فوق بعض، فجعل محمدًا ﷺ أشرف الأنبياء والمرسلين.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وقدَّم الله الصحابة على سائر المسلمين.

وقدَّم من الصحابة: المهاجرين والأنصار.

وقدَّم من المهاجرين والأنصار: أصحاب بدر وأصحاب بيعة الرضوان.

وقدَّم من هؤلاء: العشرة المبشَّرين بالجنة.

وقدَّم من العشرة: الخلفاء الراشدين.

وقدَّم من الراشدين: أبا بكر وعمر رضي الله عنهما.

وكما قدَّمهم الله، فقد قدَّمهم رسول الله ﷺ.

قال الحسن البصري:

حضر باب عمر بن الخطاب سهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، وأبو سفيان بن حرب، ونفر من قريش من تلك الرؤوس، وصهيب وبلال، وتلك الموالي الذين شهدوا بدرا، فخرج إذن عمر فأذن لهم، وترك هؤلاء، فقال أبو سفيان: لم أر كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه ولا يلتفت إلينا.



قال سهيل بن عمرو، وكان رجلا عاقلاً:

«أيها القوم، إني والله لقد أرى الذي في وجوهكم إن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم، دُعِي القوم ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دُعوا ليوم القيامة وتركتم، أما والله لما سبقوكم إليه من الفضل مما لا ترون أشد عليكم فوتا من بابكم هذا الذي تنافسهم عليه»، ونفض ثوبه وانطلق.

قال الحسن: «وصدق والله سهيل.. لا يجعل الله عبدًا أسرع إليه كعبد أبطأ عنه».

وقدّم الله كذلك العبد الصالح على الطالح، وقدّم العالم على الجاهل، وقدّم البر على الفاجر.

وقدّم أحبابه على غيرهم، لأنهم قدّموا الله على غيره.

قال الإمام النووي:

«قدّم من يشاء من خلقه إلى رحمته بتوفيقه، ويؤخر من يشاء عن ذلك لخذلانه».

وقدّم الله المصلح على الصالح، فقال رسول الله ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[1].

وقدّم الله أهل القرآن في الحياة وحتى بعد الممات، ففي غزوة تبوك أمر النبي ﷺ الأوس والخزرج أن يحمل راياتهم أكثرهم أخذا للقرآن، بل وقدّمهم حتى بعد موتهم، فروى البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: أيّهم أكثر أخذا للقرآن؟ فإذا أشير له إلى أحدهما قدّمه في اللَّحد.



تقدّم من تشاء لطاعتك، وتؤخر من شئت عن ذلك لبالغ حكمتك.

تقدِّم من شئت في مراتب الكمال وغايات الجلال، وتؤخِّر من شئت عن معالي الأمور إلى سفسافها.

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٦٥١.

② تقديم الأعمال:

قدَّم الله باذل الصدقة على آخذها، فقال رسول الله ﷺ:

«أفضل الصدقة مَا تَرَكَ غِنًى، واليد العليا خير من اليد السفلى»(١).

وقدَّم فضل العلم على فضل العبادة، فقال ﷺ:

«وفضل في علم خير من فضل في عبادة، وملاك الدين الورع»(٢).

وقدَّم الرباط في سبيل الله على الصيام والقيام، فقال ﷺ:

«رباط يوم خير من صيام شهر وقيامه»(٣).

وقال ﷺ: «رباط شهر خيرٌ من صيام دهر»(٤).

وقدَّم الجهاد في سبيل الله على قيام الليل، فقال ﷺ:

«قيام ساعة في الصف للقتال في سبيل الله خير من قيام ستين سنة»(٥).

الواجبات العملية لاسم الله المقدم والمؤخِّر

① إن قدَّمتَ الله قدَّمك، وتتأخر عن الله باتباع هواك وشهوتك فيؤخرك، فالله سبحانه وتعالى هو المقدِّم والمؤخِر، فمن اتقى الله هابه كل شيء، ومن أعرض عن الله انتزع الله هيبته من قلوب الخلق:

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾.

② ثق أن التقديم والتأخير من الله يحمل في طياته حكما عظيمة، فلا تحزن ولا تيأس إن تأخر رزق أو عافية أو فرَج، وكما قيل: كل تأخيرة وفيها خيرة.

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١١١٤.
(٢) صحيح: رواه البيهقي عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ١٧٢٧.
(٣) صحيح: رواه أحمد عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٣٤٨٠.
(٤) صحيح: رواه الطبراني عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٣٤٧٩.
(٥) صحيح: رواه ابن عساكر عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٤٢٩.



كان عمر بن عبد العزيز كثيرا ما يدعو:

«اللهم رضِّني بقضائك، وبارِك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل شيء أخَّرتَه، ولا تأخير شيء عجَّلتَه».

3 إذا قدَّمك الله لطاعة، فهذا من توفيقه، وإذا أخَّرك، فهذا عقوبة على سوء عملك وتقصيرك.

4 اجعل تقديم الآخرة أهم! إذا كان تقديمك في نعيم الدنيا يجلب سعادة النفوس، فكيف إذا قدَّمك في درجات الآخرة؟!

﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

5 كم من عبد في ظاهره من المبعدين، ثم يظهر في الآخرة أنه من المقربين، وكم من مغمور بين الناس لا يكاد يُبين، ثم هو غدا في أعلى عليين.

قال عمر بن الخطاب ﷺ يومًا عن أخيه زيد بن الخطاب:

«رحم الله زيدًا.. سبقني إلى الحُسنَيين: أسلم قبلي، واستُشهِد قبلي».

6 احذر تقديم ما أخَّره الله ولو اجتمع الخلق على تقديمه، وإياك وتأخير ما قدَّمه الله، ولو اجتمع الناس على تأخيره.

7 إذا قدَّمك الله على غيرك بفضل دنيوي، فاجتهد أن تتقدَّم عليه كذلك في الأجر الأخروي.

دخل ابن السماك على هارون الرشيد، فقال:

«يا أمير المؤمنين، إن الله لم يجعل أحدًا فوقك، فلا ينبغي أن يكون أحد أطوع منك لله عز وجل».

خامسًا

آيات الصفات وأحاديثها؟!

في القرآن الكريم والسنة المطهرة آيات وأحاديث يوهم ظاهرها مشابهة الله تعالى لخلقه، وقد حدث جدل كثير حول هذه الآيات والأحاديث، وسأورد بعضها هنا على سبيل المثال، ثم أعرض للطريقة الصحيحة للتعامل معها في ضوء ما وصل إليه جمهور العلماء.



أولا: بعض آيات الصفات

قال الله تعالى:

① ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧].

② ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ [طه:٣٩].

③ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح:١٠].

④ ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤].

⑤ ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].



⑥ ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢].

⑦ ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢].



ثانيا: أحاديث الصفات

ومنها قول النبي ﷺ:

«لا تزال جهنم يُلقَى فيها وتقول: هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قَطْ قَطْ، بعزتك وكرمك»[١].

وانقسم الناس حول هذه المسألة إلى:

① فرقة أخذت بظاهر النصوص:

فنسبت لله وجوها كوجوه الخلق، ويدا كأيديهم، وضحكا كضحكهم، وهؤلاء هم المجسِّمة والمشبهة، وليسوا من الإسلام في شيء، ويكفي في الرد عليهم قول الله تبارك وتعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

② فرقة عطلت معاني هذه الألفاظ:

وقصدوا بذلك نفي مدلولاتها مطلقا عن الله ﷻ، فالله تبارك وتعالى عندهم لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر، لأن ذلك لا يكون إلا بجارحة، والجوارح يجب أن تنفى عن الله تعالى، فبذلك عطّلوا صفات الله، وهم يتظاهرون بتقديسه، وهؤلاء هم المعطّلة، وأطلق عليهم بعض علماء تاريخ العقائد الإسلامية: (الجهمية)، وهذا قول متهافت، فقد ثبت الكلام والسمع والبصر في القرآن والأحاديث لله رب العالمين.

(١) صحيح: رواه الشيخان والترمذي وأحمد كما في صحيح الجامع رقم: ٧٢٨٦.



③ أما المنهج الصحيح والذي سار عليه جمهور علماء الأمة وسلفها الصالح

فقالوا:

نؤمن بهذه الآيات والأحاديث كما وردت، ونترك بيان المقصود منها لله تعالى، فهم يُثبتون لله اليد والعين والاستواء والضحك والتعجب، ويتركون له الإحاطة بعلمها، مع قطعهم بانتفاء المشابهة بين الله وخلقه، فكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، ولاسيَّما وقد نهينا عن التفكر في ذات الله في قول النبي ﷺ:

«تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله»(١).

ولأن أمتنا أمة الوسط بين الأمم، فكذلك أفرادها وسطٌ في التعامل مع صفات الله بين المشبهة والمعطِّلة، فأثبتوا بلا تشبيه، ونزَّهوا بلا تعطيل، كما قال ﷻ:

﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾..

فأثبتوا لله السمع والبصر كما أثبت الله ذلك لنفسه، ولم يُعطِّلوها، ومع إثباتهم نزَّهوا الله ولم يُشبِّهوه بأحد من خلقه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾.

قال ابن القيم يصف حال الموحِّد مقارنة بغيره من أصحاب العقائد الباطلة:

«فالمشِّبه يعبد صنما، والمعطِّل يعبدُ عدما، والموحِّد يعبدُ إلها واحدا صمدا».

وأفضل ما جاء في التعامل مع آيات وأحاديث الصفات ما رُوِي عن الإمام مالك، حين سئُل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾، فقال:

«الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

والحق أن الحديث عن (ذات الله)، والتعمق في آيات الصفات مما نُهينا عنه شرعا، لأنه يُقحِم العقل في ما لا يستوعبه العقل، فعن عائشة ﵂، قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي

---

(١) حسن: رواه أبو نعيم في الحلية عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٢٩٧٦.

﴿قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.. قالت: قال رسول الله ﷺ:

«فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمَّى الله فاحذروهم»[١].

ومعنى «فاحذروهم» أي لا تجالسوهم ولا تكلِّموهم؛ لأنهم طالبون لفتنة الناس في عقائدهم، كالحديث عن تفاصيل القدر، والخوض في أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله، وعلم الصفات التي لم يطلعنا عليها الله.

وبيَّن الله في الآية موقف ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أنهم قالوا: آمنا به كل من عند ربنا، لذلك كان عامة السلف إذا سئلوا عن آيات وأحاديث الصفات قالوا: أَمِرُّوها كما جاءت بلا كيف.

وضرب الإمام ابن تيمية مثلاً لذلك، فقال:

«أخبر (الله) أن في الجنة لحما ولبنا وعسلا وخمرا ونحو ذلك، وهذا يشبه ما في الدنيا لفظا ومعنى، ولكن ليس هو مثله ولا حقيقته، فأسماء الله تعالى وصفاته أَوْلَى».

وحذَّر الإمام مالك من أصحاب الخوض في هذه الآيات، فقال: إياكم وأهل البدع، فقيل: يا أبا عبد الله: وما البدع؟

قال:

«أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله وصفاته وعلمه وقدرته، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان».

والبعض يظن أن التعمق في باب الصفات يزيد الإيمان، والحق أنه حوَّل العقيدة إلى مناكفات بين المتكلمين، وجدالا بين المختلفين، بدلا من أن تكون العقيدة طاقة حركية تؤجج الإيمان في الصدور، وتزيد الإنابة والخشية في القلوب، فرجل العقيدة كما وصفه الأستاذ الداعية المُربِّي محمد عبد الحميد:

«رجل العقيدة جندي عامل، لا فيلسوف مجادل».

(١) صحيح البخاري رقم: ٤٥٤٧.



لذا كان غير واحد من العلماء يتمنى أن يتوفاه الله على إيمان العوامّ، فرُوِي عن أبي المعالي الجويني أنه قال عند موته:

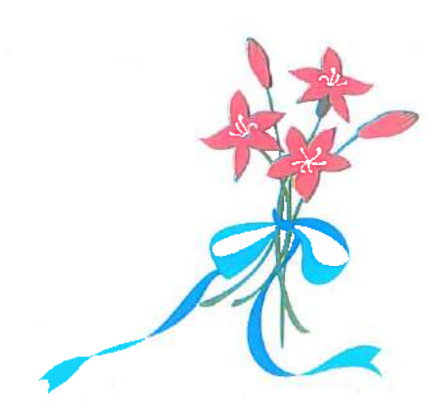
وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي، أو قال: «على عقيدة عجائز نيسابور».

وجاء عن الإمام الرازي أنه كان يقول:

«من التزم دين العجائز فهو الفائز».

وجاء رجلٌ إلى عمر بن عبدالعزيز، فسأله عن شيء من الأهواء، فقال:

«الزم دين الصبي في الكُتّاب والأعرابي، والْهُ عما سوى ذلك».





هذه العبارة مدخل الشهادة، ومفتاح دخول العبد إلى الإسلام، وهي نفيٌ وإثبات.

فالنفي: (لا إله)، وهو براءةٌ من الطواغيت حجرا كانت أو بشرا، أو معنى أو وثنا، أو عادةً جاهلية أو تشريعا يخالف شرع الله.

والإثبات:

(إلا الله)، وهو توحيد الله بكل معاني الطاعة والعبودية.

لكن..

من أول من شهد ألا لا إله إلا الله؟!

إنه الله سبحانه:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ومعلومٌ أن قيمة الشهادة تتعلق بقيمة الشاهد، فكلما عظم قدر الشاهِد عظمت شهادته، فكيف لو كان الشاهد هو الله رب العالمين؟

والشاهد الثاني: الملائكة الذين شهِدوا هذا الموقف، وحضروا شهادة الله لنفسه، فهم أصحاب شهود ومعاينة، فعلمهم بالتوحيد ليس حصيلة النظر في الأدلة، وإنما حاصل من التجلي الإلهي، وهو أقوى العلوم وأصدقها، لذا قدَّمهم الله في الذكر على أولي العلم.

والشاهد الثالث: أولو العلم، وشهادتهم قائمة على أدلة وحدانية الله، وأعظم أولي العلم: الأنبياء، وهي رؤية بصائر لا رؤية أبصار كالتي شهدتها الملائكة.

ومطلوب منك أن تكون أنت الشاهد الرابع، فتنطق بشهادة التوحيد (لا إله إلا الله) عن يقين لا عن ظن، فلابد من حضور قلبك ومعاينته ومشاهدته، لا مجرد تحريك لسانك بقول: لا إله إلا الله.

عرف العرب معنى كلمة التوحيد وما وراءها، لذا حاربوا النبي ﷺ وأبوا أن تذل ألسنتهم بها، وهي كلمة!

لأنهم يعلمون أنها عقد يحتاج إلى وفاء، ولا بد من العمل بها، وسيترتب عليها تغييرات جذرية في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل وفي أخلاقهم وعاداتهم، ومن ثَمَّ سيحدث تغيير تام للمجتمع، وبقي أن نعلم نحن اليوم ما علمته العرب بالأمس، ثم نعمل بما علمناه!

شروط لا إله إلا الله السبعة

قيل لوهب بن منبِّه:

أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتِح لك، وإلا لم يفتح لك.

فما هي أسنان (لا إله إلا الله)؟!

قال الشيخ حافظ الحكمي في منظومته (سلم الوصول) وهو يفصِّل صفة أسنان شهادة التوحيد:

العلم واليقين والقبول ... والانقياد فادْرِ ما أقول
والصِّدق والإخلاص والمحبة ... وفَّقك الله لما أحبَّه



أسنانها إذن سبعة:

شروط لا إله إلا الله: ١ العلم، ٢ اليقين، ٣ القبول، ٤ الانقياد، ٥ الصدق، ٦ الإخلاص، ٧ المحبة

الأول: العلم

يجب على كل مسلم أن يعلم معنى (لا إله إلا الله) علما ينافي الجهل بها، فهذه الكلمة تنفي الألوهية عن غير الله، وتثبتها لله سبحانه، لكن ما معنى كلمة (إله)؟!

من حيث اللغة:

الألَه والوله وصف يقع على الحزن الشديد أو الحب الشديد، فيقال: امرأة ولوه، أو امرأة والِهة إذا حزنت حزنا شديدا، أو أحبّت حبًا شديدًا.

ومنه:

ألِه الفصيل، والفصيل هو وَلَدُ الناقة بعد فطامه وفصله عن أُمِّه، فيحصل له الشوق إلى أمه، فيبكي أو يصدر منه ما يشبه الأنين، فيقال: ألِهَ الفصيل.

فالله هو الإله الذي تألهه القلوب، أي تنجذب إليه حبا وتعظيما، ولا صلاح للقلوب حتى تُفرِد المحبوب الحق بالمحبة والرجاء والتذلل والسؤال.

فإذا قلتَ: (لا إله إلا الله)، فكأنك قلتَ:

لا أتعلق إلا بالله، ولا ألجأ إلا إلى الله، ولم أَخَفْ، ولم أرجُ إلا الله، وبهذا (العلم) تجد في قلبك حلاوة التوحيد ولذة الإيمان.

وأما معنى (الإله) من حيث الشرع، فقال عنه ابن تيمية:

«(الإله) هو المعبود المطاع؛ فإن الإله هو المألوه، والمألوه الذي يستحق أن يُعبَد».

والدليل على وجوب العلم كأول شرط من شروط: (لا إله إلا الله) قول الله تعالى:

﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾.



وهذه الآية رأى فيها سفيان بن عيينة إشارة إلى فضل العلم، فقال حين سئل عن فضل العلم: «ألم تسمع قوله حين بدأ به: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، فأمر بالعمل بعد العلم».

والعلم كشرط من شروط شهادة التوحيد خطير جدا، لأن عليه مناط الإيمان، ولذا قال الإمام السيوطي:

«وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر، وإبطال التقليد في العقائد، ومن قال بأن أول الواجبات، المعرفة قبل الإقرار».

ووردت الإشارة إلى هذا الشرط (العلم) في صحيح مسلم عن عثمان رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»[١].

الثاني: اليقين

فلا يكفي مجرد العلم بالشهادتين بل لابد من أن يكون القلب موقنا بها ومصدقا، ومبتعدا كل البعد عن الشك والظنون.

قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ، غير شاكٍّ فيهما، إلا دخل الجنة»[٢].

وفي رواية: «لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فيهما، فيُحجَب عن الجنة»[٣].

فاشترط في دخول قائلها الجنة أن يكون مستيقنا بها قلبه، غير شاك فيها.

ولم يعلِن أحد في هذا الكون منازعة الله في ألوهيته، ولم يعارضه أحد فيها، فثبتت لله الألوهية وحده: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾..

(١) صحيح مسلم رقم: ٤٣.
(٢) صحيح مسلم رقم: ٤٤.
(٣) صحيح مسلم رقم: ٤٥.



قال ابن عباس في تفسيرها: «يريد منازعة وقتالاً؛ كما يفعل ملوك الدنيا».

ولما كان هذا غير موجود، فعُلِم يقينا ألا إله إلا الله.

الثالث: القبول

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

فمن ردَّ شهادة التوحيد ولم يقبلها فهو كافر، سواء ردها استكبارا أو حسدا أو عنادا أو غير ذلك من أسباب الرفض، وقد كان المشركون لا ينكرون ألوهية الله، لكنهم أشركوا معه غيره.

ولذا كان عبد القادر الجيلاني يقول:

«كيف تقول لا إله إلا الله وفي قلبك كم إله، كل شيء تعتمد عليه وتثق به دون الله فهو صنمك، لا ينفعك توحيد اللسان مع شرك القلب، لا ينفعك طهارة القالب مع نجاسة القلب».

- 🚫 إن اعتقدت أن القوة المادية وحدها تنصرك على عدوك.
- 🚫 إن اعتقدت أن الطبيب هو الذي يجلب لك الشفاء.
- 🚫 إن اعتقدت أن الدواء يطيل عمرك خلافا لما قدَّره الله.
- 🚫 إن أخذت بالأسباب، ورأيتَها وحدها تفتح الأبواب، وغاب عنك تقدير رب الأسباب.
- 🚫 إن اعتقدت أن ملكا أو أميرا أو مسؤولا ينفعك أو يضرك، فأطعته في ما يُغضِب الله.
- 🚫 إن فسَّرتَ الأحداث حولك تفسيرًا ماديًا، بعيدًا عن السنن الإلهية والقوانين الربانية.
- 🚫 إن ظننت -كما ظن بعض التجار- أنك بالغش والتدليس والتعامل الربوي، تروِّج بضاعتك وتضاعِف أرباحك.

إن فعلت شيئا من هذا، فاعلم أن في قلبك آلهة أخرى، وأنك محاطٌ بأصنام تحتاج منك إلى تحطيم.

إن (لا إله إلا الله) تنفي أن تشرك مع الله إلها غيره نفيا مطلقا وبأقوى الصيغ، ولذا كانت أول ما أوحى الله به إلى موسى ﷺ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾.



وما يبدو لك من أن شخصا أو جماعة أو دولة أو جهة تحرِّك الأمور وتسيِّرها بعيدا عن إرادة الله، فهذا لقصور نظرك وضعف بصيرتك، فالأمر كله لله، وهذا المعنى كفيل بأن يحرِّرك من أسر أي قوة بشرية، ولا يشتت قلبك، وأنت المستفيد: سيجتمع شمل نفسك، فلا تخاف إلا الله، وهذا سيكسبك شجاعة، فلا تهاب الموت؛ لأن الأعمار بيد الله، الذي لا إله إلا هو.

ولا تخاف المرض، لأن الصحة والمرض بأمرٍ وحكمة الله، الذي لا إله إلا هو.

ولا تخشى أحدا مهما بلغت قوته؛ لأن أمرك وأمره وأمر كل الخلق بيد الله، الذي لا إله إلا هو.

ليتنا فهمنا معنى الأذان!

المؤذن

إلام يدعو الناس؟

المؤذنون يؤذنون اليوم وكل يوم خمس مرات في اليوم والليلة، وينادون بأعلى أصواتهم:

(أشهد ألا إله إلا الله)، فهل فهم المؤذن: إلام يدعو الناس؟

وهل فهم الناس ما تضمنته هذه الكلمة من معان، يهتف بها المؤذن كل يوم بعزم وإصرار؟!

والله لو فهمها الناس لارتدوا ثياب الشجاعة، وتعلقت قلوبهم بالله وحده، وما أذلوا أنفسهم لأحد من البشر في طلب رزق أو تحصيل مكانة، ولتبدلت الأرض وتغيرت أحوال الأمة وزالت الغمة.



الرابع: الانقياد

ويتحقق الانقياد بإسلام الوجه لله تعالى كما قال ربنا:

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان:٢٢].

ومعنى ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي ينقاد لأمر الله، وخصَّ الوجه لأنه أشرف الأعضاء، فإذا خضع، كان هذا علامة خضوع سائر الأعضاء لرب العالمين، وعدّى بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليفيد أن هذا العبد سلَّم نفسه إلى الله تسليما كاملا كما يُسلِّم المتاع إلى صاحبه، ولذا قرأ علي بن أبي طالب ﵁: ﴿وَمَن يُسَلِّمْ﴾ بالتشديد، ومعنى الآية:

من لم يستسلم مثل هذا الاستسلام ويسلِّم نفسه لله يفعل به ما يشاء، فهذا لم يستمسك بالعروة الوثقى.

وأما العروة الوثقى ففسرها ابن عباس بقوله:

«أي بلا إله إلا الله».



والعروة الوثقى من باب التمثيل، فمَثَّل حال المتوكل على ربه كحال من أراد أن يتدلى من جبل شاهق، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين، فهو لا يخاف انقطاع الحبل وهلاكه، وكذلك المستسلم لأمر الله، لا يخاف يوم القيامة من العذاب أو الهلاك، ولا يخاف في الدنيا من الضياع.

من ملامح الانقياد!

عندما تصدر الشريعة حكما، يكون من العبث وضع افتراضات لتبرير هذا الحكم الشرعي بآراء البشر.

فإذا حرَّمت الشريعة أكل لحم الخنزير، فمن التقول على الله أن نقول أنه حرَّمه لأنه يحتوي على الديدان الشريطية الضارة، أو لأن الخنزير حيوان قذر يتغذّى على القاذورات،



فالأصل في العبادات التعبد وعدم التعليل، فمن أين جاء هذا التعليل الذي لم يرد في القرآن أو في السُنَّة؟!

ومثل هذا أن نقول أن الله أمرنا بالصلاة لتحسين أخلاقنا.

أو نهانا عن الخمر لأنها تفسد العقول.

أو شرع لنا الصيام ليحسَّ الأغنياء بالفقراء.

أو نهى عن الزنا دفعا لاختلاط الأنساب.

فهذه كلها علل (تسويقية) مخترعة، لم يذكرها الشرع، وتفتح بابا لارتكاب الحرام إن وجدنا وسيلة نتقي بها ما يترتب عليها من الأضرار والآفات.

ولقد أنزل الله الأحكام وسكت في أكثرها عن ذكر الحكمة، فالأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني، والأصل في العادات الالتفات إلى المعاني.

وإذا سلَّمت أن الله مالك الملك، وأنك من جملة ما ملَك الله، فإن له أن يأمر وينهى دون تبيين علة، كما أمرك بصلاة ركعات معينة لكل صلاة، وعدد أشواط معين في الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة، وجعل نصابا محددا للزكاة ومقدارا ثابتا، ولم يكن لديك إشكال في التسليم لهذه الأحكام، وهذه تمثِّل أركان الإسلام، الذي يعني الاستسلام.

فهل تسلِّم بهذا أم ننقل الخلاف معك إلى خلاف حول أصل من أصول الإسلام:

هل للإله أن يأمر وينهى كما يشاء أم لا؟!

إن المغالاة والإسراف في التفتيش عن الحكم من وراء الأحكام، توقِع العبد في تضعيف التسليم لما لم يستبن حكمته من أحكام رب العالمين، وإن افتراض وجود علل للأحكام لم يأت بها الشرع، سيوقعك حتما في الخطأ، كما حدث مع المفكر الألماني المسلم مراد هوفمان الذي رأى أنه يمكن تطبيق (فرض) الحجاب دون تغطية الرأس! خاصة في أمريكا وأوربا؛ حيث لا يسبب شعر المرأة إثارة للرجل!! وأضاف أنه يعتقد (أن غطاء الرأس يصبح ضروريًّا فقط عندما يؤدي كشفه إلى إحداث إثارة جنسية)!



احذر عِلَلا توهِن الانقياد!

حين تعرض ابن القيم في مدارج السالكين لشرح منزلة التعظيم، جعل منها: تعظيم الأمر والنهي، ثم شرحها فقال:

«هو أن لا يعارَضا بترخص جاف، ولا يعرضا لتشدد غال، ولا يُحمَلا على علة توهِن الانقياد».

ثم عرض لهذا تفصيلا لطيفًا أورده هنا بتصرف يسير:

«أن لا يتأول في الأمر والنهي علة تعود عليهما بالإبطال، كما تأوَّل بعضهم تحريم الخمر بأنه مُعلَّل بإيقاع العداوة والبغضاء، والتعرض للفساد، فإذا أمن من هذا المحذور منه جاز شربه! كما قيل:

أدِرْها فما التحريم فيها لِذاتِها ... ولكن لأسبابٍ تضمَّنها السُّكرُ
إذا لم يكن سكرٌ يُضِلُّ عن الهدى ... فسِيَّان ماءٌ في الزجاجة أو خمرُ

وقد بلغ هذا بأقوام إلى الانسلاخ من الدين جملة، وقد حمل طائفة من العلماء أن جعلوا تحريم ما عدا شراب خمر العنب معللا بالإسكار، فله أن يشرب منه ما شاء، ما لم يُسكِرا!

ولهذا كانت طريقة القوم (أي السلف الصالح) عدم التعرض لعلل التكاليف، خشية هذا المحذور.

وفي بعض الآثار القديمة:

يا بني إسرائيل. لا تقولوا: لم أمر ربنا؟ ولكن قولوا: بم أمر ربنا؟.

وأيضا فإنه إذا لم يمتثل الأمر حتى تظهر له علته، لم يكن منقادا للأمر، وأقلُّ درجاته: أن يضعف انقياده له.

وكل هذا من ترك تعظيم الأمر والنهي».

الخامس: الصدق

يجب أن يواطئ القلب اللسان، فإن المنافقين قالوا كلمة التوحيد بألسنتهم، دون أن يطابق قولهم ما في قلوبهم، فصار قولهم كذبا وادعاء وخداعا، فمن قالها بلسانه، وأنكر مدلولها بقلبه فهذا لا ينجو، وبهذا تعلم: لماذا المنافقون في النار؟ لأن قلوبهم مكذِّبة.

وإنما يكون العبد قائلاً في الحقيقة لا إله إلا الله إذا كان قالها بقلبه قبل لسانه، لأن الكلام محله القلب، ثم ينطق به اللسان، كما قال الأخطل:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جُعِل اللسانُ على الفؤاد دليلا

السادس: الإخلاص

وهو ألا يشوب التوحيد شرك، ولا يخالطه نفاق ولا سمعة ولا رياء.

في الحديث:

«إن الله تعالى قد حرَّم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»[١].

وفي صحيح البخاري: قال رسول الله ﷺ:

«أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال لا إله إلا الله، خالصا من قلبه، أو نفسه»[٢].

أي إنما يفوز بشفاعتي يوم القيامة من نطق بالشهادتين معتقدا معناهما، عاملاً بمقتضاهما إجمالاً، ولو كان عاصيًا؛ لقوله ﷺ:

«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي».

ولفت ابن رجب النظر إلى أن النصوص النبوية التي جاء فيها (خالصًا من قلبه) تفيد أهمية أعمال القلوب.

(١) صحيح: رواه الشيخان عن عتبان بن مالك كما في صحيح الجامع رقم: ١٧٩٣.
(٢) صحيح البخاري رقم: ٩٩.



ومن لطائف الإشارات: أن كلمة الشهادة حروفها جوفية ليس فيها شيء من الحروف الشفهية أي التي تخرج من الشفاه، للإشارة إلى ضرورة الإتيان بها من أعماق الجوف، وهو القلب، لا من الشفتين.

وإشارة أخرى: كل حروفها مجرَّدَةٌ من النُّقَط، إشارة إلى تجرد قائلها من كل ما لا يرضي ربه.

السابع: المحبة

حب الله تعالى من أعظم مقامات العبودية، بل هو الأصل فيها، كما قال ابن القيم:

«أصل العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يُحَبُّ معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه».

بمعنى أنك إذا أحببت ولدك وأهلك، فلأن الله أمرك بهذا الحب، ولأن هذا الحب يعينك على طاعة الله.

ولمحبة الله علامات، كل من لم تتحقق فيه فمحبته زائفة أو منقوصة.

سئل ذو النون: متى أحب ربي؟ قال:

«إذا كان ما يبغضه عندك أمرَّ من الصبر».

وقال رويم:

«المحبة: الموافقة في كل الأحوال».

وقال يحيى بن معاذ:

«ليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده».

وقال ابن القيم:

«فإذا استقرت المحبة في القلب استدعت من المحب إيثار محبوبه على غيره، وهذا الإيثار علامة ثبوتها وصحتها».



قال الفضيل بن عياض: «ليس الإيمان بالتّحلّي ولا بالتّمنّي، ولكن ما وقر في القلب وصدّقته الأعمال».

فمن علامات الإيمان:

① الفرح بالطاعة والاستياء من الذنب

من علامات إيمانك أن تفرح بطاعتك التي أرضيت الله بها.

وأن تستاء عند وقوعك في الذنب، والحزن بعد الذنب إشعارٌ بالندم، والندم أعظم أركان التوبة.

قال رسول الله ﷺ: «إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن»[1].

(١) صحيح: رواه أحمد وابن حبان والطبراني عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٠٠.



ولذا لما وجد ابن الجوزي في قلبه قسوة وظلمة بعد ذنب، وظنَّ أنه طُرِد عن الباب، حدَّث نفسه بحديث يبث الأمل ويبعث الرجاء، فقال: «ينبغي لك الفرح بما وجدت من الظلمة عقيب ذلك؛ لأنه لولا نور في قلبك، ما أثَّر مثل هذا عندك».

وبضدها تتميز الأشياء!

الإيمان يزيد وينقص، فإذا زاد عصم صاحبه من السيئات ودفعه إلى الحسنات، وإذا نقص إيمانه سقط صاحبه في الذنوب، وحُرِم من كثير من الطاعات.

والوقوع في الذنب بمثابة إشارة تحذيرية صفراء، وهدفها تحفيز مقاومتك الإيمانية على التوبة والعمل الصالح، لتمحو به العمل السيئ، لكن إذا استمرأت الذنب، واستمررت في المعصية، فستتحول الإشارة إلى اللون الأحمر، وهذه مرحلة الخطر، وتدل على تزايد ضعف الإيمان، وسموم الذنوب تتضاعف إذا رافقها خمسة:



الأول: الإصرار

هو الاستقرار على المخالفة، والعزم على الرجوع إلى الذنب، وهو ذنب آخر، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير، وهذا من عقوبة الذنب: أن يوجب ذنبًا أكبر منه، وبذا يتزايد الوزر، وتتكرر المعاصي حتى يستحكم الهلاك، وقد قال النبي ﷺ في هؤلاء المُصِرّين على ذنوبهم:

«ارحموا تُرحَموا، واغفروا يُغفَر لكم، ويلٌ لأقماع القول، ويلٌ للمصرّين الذين يُصِرّون على ما فعلوا وهم يعلمون»[1].

والقمع تدخل فيه السوائل من جانب لتخرج من الجانب الآخر، وكذلك صاحب الإصرار على الذنب، تدخل أذنه الموعظة لتخرج من الأذن الأخرى دون أن تؤثر فيه أو يعلق بقلبه منها شيء.

---

(١) صحيح: رواه أحمد والبيهقي عن عبد الله بن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٨٩٧ والصحيحة رقم: ٤٨٢.



لذا قال ابن رجب عن التوبة الكاذبة للبعض في رمضان: «أنفع الاستغفار ما قارنته التوبة، وهي حل عقدة الإصرار، فمن استغفر بلسانه وقلبه على المعصية معقود، وعزمه أن يرجع إلى المعاصي بعد الشهر ويعود، فصومه عليه مردود، وباب القبول عنه مسدود».



الثاني: الإشهــــار

وهي المجاهرة بالذنب مع تيقن نظر الرب من فوق عرشه إليه، فإن جهر العبد بذنبه مع إيمانه بنظر الله إليه فذنبه عظيم، وإن لم يؤمن بنظر الله إليه فقد كفر، فهو دائر بين أمرين: قلة الحياء والانسلاخ من الدين.

وربما صاحَب الإشهار: عبارات الافتخار، فترى المجاهر بالذنب يفتخر قائلا: أما رأيتني كيف شتمته وسخِرت منه؟ وكيف غششته ودلّستُ عليه في هذه المعاملة، ونحو ذلك.



الثالث: الاستبشــــار

وهو الفرح بالذنب، وهو من علامات ضعف الإيمان وقسوة القلب وانتكاس الفطرة، فصاحبه يفرح بما يؤذيه، ويضحك مما سيكون سبب عذابه غدًا، وقد قال ابن عباس محذِّرًا مشفقًا: «من أذنب ذنبًا وهو يضحك، دخل النار وهو يبكي».



الرابع: الاغتــرار

ومعناه التعويل على رحمة الله دون النظر إلى عقوبته، أو الاغترار بسابق العمل الصالح للعبد، فيستخف بذنبه، ومن ثَمَّ لا يبادر إلى التوبة منه.

قال أبو علي الروذباري:

«من الاغترار أن تسيء فيُحسِن إليك، فتترك التوبة، توهُّما أنك تُسامَح في الهفوات».



قال ابن القيم يضب أمثلة لأصحاب الاغترار:

«وهذا الضرب من الناس قد تعلق بنصوص من الرجاء، واتكل عليها وتعلق بها بكلتا يديه، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها، سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء، وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب كقول بعضهم:

وكثِّر ما استطعتَ من الخطايا إذا كان القدوم على كريم

وقول الآخر: التنزه من الذنوب جهل بسعة عفو الله.

وقال الآخر: ترك الذنوب جراءة على مغفرة الله واستصغار.

وقال محمد بن حزم: رأيت بعض هؤلاء يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من العصمة».



الخامس: الاستصغار

واستصغار الذنب من علامات ضعف الإيمان، فإنك إن استصغرت ذنبك واحتقرته، دفعك هذا إلى أن تستزيد منه، وتحسبه هينًا وهو عند الله عظيم.

وقد حذَّر النبي ﷺ أحب الخلق إليه عائشة ﵂ من أن تحتقر ذنبًا، فقال لها:

«يا عائش، إيَّاك ومحقَّرات الذُّنوب؛ فإنَّ لها من الله طالبًا»[(١)].

وهو ما شاهده أنس بن مالك ﵁ واقعًا في جيل التابعين، وهم خير جيل بعد صحابة رسول الله ﷺ، فكيف به لو رآنا اليوم؟!

قال ﵁: «إنَّكم لتعملون أعمالاً هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعر، إن كنَّا لنعدُّها على عهد النبيِّ ﷺ من الموبقات».

قال البخاريُّ: «يعني بذلك: المهلكات».

(١) صحيح: رواه ابن ماجة والدارمي والبيهقي، وهو في صحيح ابن حبان رقم: ٥٥٦٨.



ولذا لما نزل الموت بمحمد بن المنكدربكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: «والله ما أبكي لذنب أعلم أني قد أتيته، ولكني أخاف أن أكون أذنبت ذنبا، حسبته هينًا وهو عند الله عظيم».

ومما يؤدي لاستصغار الذنب: صحبتك من هو أضعف إيمانا منك وأقل التزاما، فترضى عن حالك، وتقيم على سيئاتك.

استعاذة خماسية على لسان خير البرية!

كان من جميل دعاء النبي ﷺ: «قل: اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذ بك مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بصري، وَمِنْ شَرِّ لساني، وَمِنْ شَرِّ قلبي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي»(١).

والاستعاذة هي التجاء إلى الله، ليحميك من خطر محدِق بك، فتستعيذ بالله من شر سمعك، أي من كل ما حرَّمت السماع منه ولا ترضاه كالغيبة، والنميمة، والكذب، والزور، والبهتان، أو بألا أسمع إلا الحق من ذكر ونصح وموعظة.

وتستعيذ بالله من شرّ بصرك، فلا أبصر شيئًا لا ترضاه من المحرمات من النساء، ومنه النظر لأحد على وجه الاحتقار، أو إهمال النظر والاعتبار في خلق السماوات والأرض.

قال ابن القيم: «إطلاق البصر ينقش في القلب صورة المنظور، والقلب كعبة، وما يرضى المعبود بمزاحمه الأصنام».

وتستعيذ من شرِّ لسانك، كالكذب، والغيبة، والنميمة، والسبّ، والقذف، واللغو، وغيره من المحرّمات؛ فإن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه.

وتستعيذ من شرِّ قلبك، وسيئات القلب كالنفاق، والحسد، والحقد، والرياء، والكبر، وسوء الظن، وحُبّ الدنيا.

وتستعيذ من شر منيِّك، أي من شرِّ فرجي، بأن أوقعه في غير ما أحل الله له، من الزنا، واللواط، والاستمناء، ومقدمات الزنا من النظر، واللمس، والمشي، والعزم، خاصة في زمن استعار الشهوات وتسابق الشياطين في إضلال الرجال والنساء.

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي والنسائي عن شكل كما في صحيح الجامع رقم: ٤٣٩٩.



② التوكل على الله

من علامات القلب الحي أن صاحبه لا يتوكل إلا على ربه:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

أي إن كنتم مؤمنين بالله حقا، ومصدقين به، فلا تعتمدوا في كل أموركم إلا على الله وحده.

وتقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر؛ أي وعلى الله توكلوا، لا على غيره.

والآية تفيد أنه كلما قوِي إيمان العبد، كان توكله على الله أكبر، وإذا ضعُف الإيمان ضعُف التوكل.

والتوكل عمل قلبي، عبارة عن صدق اعتماد القلب على الله تعالى في استجلاب المصالح ودفع المضار في أمور الدنيا والآخرة.

والتوكل من أهم علامات الإيمان بل هو جماع الإيمان.

قال فيه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما:

«التوكل على الله عز وجل جماع الإيمان».

والارتباط بين الإيمان والتوكل واضح، فكلما زاد الإيمان، زادت المعرفة بالله وبقدرته وقوته، وبالتالي زادت الثقة به، ولذا كان المتوكل واثقا بما يفعله به سيده.

صاحب القلب الحي
لا يتوكل إلا على ربه

قال الحسن:

«إن من توكُّل العبد أن يكون الله هو ثقته».

قال تعالى في فضل التوكل:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]؛ أي: كافيه ما أهمَّه من أمور الدنيا وأمور الآخرة.



قال ابن القيِّم: «هو حسب من توكَّل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمِّن الخائف، ويُجير المستجير، فمن تولَّاه واستنصر به، وتوكَّل عليه، وانقطع بكُلِّيَّته إليه، تولَّاه وحفِظه، وحرسه وصانه».

ولذا فالأقوياء هم المتوكلون، والضعفاء ما عرفوا سر القوة الذي أرشدهم إليه ابن تيمية حين قال: «ومن سرَّه أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله».

ويستتبع هذا أن يقطع المتوكل تعلقه بالخلق بل وبالنفس، فبالتوكل على الله تتبرأ من حولك وقوتك، وحول غيرك وقوة غيرك، وهو معنى: (لا حول ولا قوة إلا بالله):

قال ابن القيم:

«فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فهو الذي بيده الحول كله والقوة كلها، فالحول والقوة التي يُرجَى لأجلهما المخلوق ويُخاف، إنما هما لله وبيده في الحقيقة، فكيف يُخافُ ويُرجَى من لا حول له ولا قوة؟!

بل خوف المخلوق ورجاؤه أحد أسباب الحرمان ونزول المكروه بمن يرجوه ويخافه، فإنه على قدر خوفك من غير الله يُسَلَّط عليك، وعلى قدر رجائك لغيره يكون الحرمان».

ميادين التوكل

وميادين التوكل كثيرة، فمنها:

- أن تتوكل على الله في استقامة نفسك وإصلاحها.
- وتتوكل عليه في دفع المحرمات والآثام والسيئات.
- وتتوكل عليه في جلْب حوائجك الدنيوية؛ كالرزق والزواج والذرية.
- وتتوكل عليه في الانتصار على عدوك، ودفع المكروهات والمصائب الدنيوية.
- وتتوكل عليه في إقامة الدين وهداية الغافلين ونصح المؤمنين ودفْع المفسدين، وهذا أشرف أنواع التوكل.



وليس فقط معرفتك بربك هي التي تدفعك للتوكل عليه، بل ومعرفتك بنفسك، فتشهد فقرنفسك وعجزها وقلة علمها بما ينفعها وما يضرها، وجهلها بالغيب، وتشهد أن اعتمادك على مخلوق مثلك، يجلب لك الضرر بعكس ما أمَّلتَ منه.

والتوكل علم وعمل، فالعلم علم القلب ويقينه بكفاية وكيله في ما توكل عليه فيه.

وأما العمل، فعمل القلب برضاه عن تصرُّف وكيله فوق رضاه عن تصرُّفه هو لنفسه، ولذا قال ابن القيِّم: «فإنه إذا توكَّل حق التوكل، رضِي بما يفعله وكيلُه».

③ عدم الخوف إلا من الله:

قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آلعمران:١٧٥].

الشيطان يخوِّف أولياءه الذين يطيعون أمره، وأما أولياء الله، فلا يخافونه إذا خوَّفهم بالفقر أو بالأذى في سبيل الله، ولا ينقادون لأمر الشيطان، ولا يصغون لتثبيطه ووسوسته، فمن شأن المؤمن الصادق ألا يتأثر بوساوس الشيطان، وإنما يتأثر بها ضعاف الإيمان.

وقول الله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي فلا تخافوا أولياء الشيطان، بل اجعلوا خوفكم مني وحدي، إن كنتم مؤمنين حقًا.

وفي هذا النهي والمقابلة بين الخوفين: دواء القلب من داء الخوف والفزع، فالذي يجعل خوفه من الله وحده لا يستطيع الشيطان أو أولياء الشيطان أن يخيفوه، وصدق الله إذ يقول: ﴿عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾.

وفي هذه الآية ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ توجيه إلى أهمية المواجهة مع النفس، ووقفة صادقة لقياس منسوب الإيمان في القلب:

أتخاف أولياء الشيطان، أم تخاف الله؟

إن الخوف من الله هو وحده القادر على دحر جميع أنواع الخوف من غير الله، والآية دليل على وجوب الخوف من الله، وأنه لا يجوز الخوف إلا منه وحده، وأن هذا الخوف من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من ربه.



كان العز بن عبد السلام جريئا في الحق يُعلنه في كل مناسبة، وينطق به في خطبه ودروسه، ومن ذلك ما نقله ابن السبكي عن والده أنه سمع شيخه الباجي (تلميذ العز) يقول: طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان (الصالح أيوب) في يوم عيد إلى القلعة، فشاهد العساكر مصطفين بين يديه، ومجلسَ المملكة، وما السلطانُ فيه يومَ العيد من الأُبَّهَة، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبِّل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان، وناداه:

«يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أُبَوِّئ لك مُلك مصر، ثم تبيح الخمور؟» فقال: «هل جرى هذا؟» فقال: «نعم، الحانة الفلانية يُباع فيها الخمور وغيرُها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة»، يناديه كذلك بأعلى صوته، والعساكر واقفون، فقال:

«يا سيدي، هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي»، فقال:

«أنت من الذين يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾»، فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة، قال الباجي: سألت الشيخ لما جاء من عند السلطان وقد شاع الخبر:

«يا سيدي كيف الحال؟» فقال:

«يا بُنيّ، رأيته في تلك العظمة، فأردت أن أُهينَه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه»، فقلت:

«يا سيدي أما خفته؟» فقال:

«والله يا بُني، استحضرت هيبة الله تعالى، فصار السلطان قُدَّامي كالقط».

وما أروع قول الفُضيل بن عياض وكأنه يعلِّق على موقف العز بن عبد السلام:

«مَنْ خاف الله لم يضرَّه أحدٌ، ومن خاف غيرَ الله، لم ينفعه أحد».

4 كثرة ذكر الله

إن كثرة ذكر الله ﷻ أمان من النفاق، فإن المنافقين يذكرون الله، لكن ذكرًا قليلاً.

قال الله ﷻ في شأن المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ولذا قال كعب:

«من أكثر ذكر الله عز وجل برئ من النفاق».



ولعل هذا سبب أن الله ختم سورة المنافقين بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

فإن في ذلك تحذيرًا من فتنة المنافقين الّذين غفلوا عن ذكر الله تعالى، فوقعوا في النفاق.

للشيطان دور بارز في استدراج الإنسان إلى مصرعه، فيجره إلى قلة الذكر، وقلة الذكر ستؤدي إلى تراجع الإيمان، ذكر ذلك ابن عباس ﷺ: «الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، فإذا ذكر الله تعالى خنس».

تزيد من ذكر الله، فيزداد إيمانك، وتهجر الذكر، فتذبل شجرة إيمانك، فالذكر هو الماء الذي يروي شجرة الإيمان في القلب، وهو جلاء القلب من آثار الغفلة والعصيان.



قال رجل للحسن: يا أبا سعيد.. أشكو إليك قسوة قلبي، فقال له:

«أذِبْه بالذكر».

وقال عمير بن حبيب: «الإيمان يزيد وينقص. فقيل: فما زيادته وما نقصانه؟

قال: إذا ذكرنا ربّنا وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيّعنا فذلك نقصانه».

وأعظم الذكر: القرآن.

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

فالقرآن شفاء لأمراض القلب التي تنال من إيمان العبد، وأمراض القلب نوعان: أمراض الشبهات والشهوات، والقرآن شفاء للنوعين، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبهات، بحيث يرى العبد الأشياء على حقيقتها، ويبصر الحق حقا، والباطل باطلا، ويميّز بينهما، وأما شفاء القرآن للشهوات، فذلك بما فيه من الحكم والمواعظ الحسنة، والتي تجعل العبد يصبر عن الشهوات المحرمة، بعد أن عالج

القرآن قلبه بالتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة.

5 الأمانة من الإيمان

قال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[1].

وجاء عن عروة بن الزبير أنه قال: «ما نقصت أمانة عبد قط إلا نقص إيمانه».

والمراد بالحديث نفي كمال الإيمان، لا نفيه بالكلية.

قال المناوي: «أي لا إيمان كامل، فالأمانة لب الإيمان، وهي منه بمنزلة القلب من البدن، والأمانة تشمل الجوارح السبع: العين والسمع واللسان واليد والرجل والبطن والفرج، فمن ضيّع جزءا منها سقم إيمانه وضعف بقدره، فإن ضيّع الكل خرج عن جملة الإيمان».

ومراد الحديث: النهي عن أن يفعل ذلك وهو مؤمن، وأن هذا لا يليق بالمؤمن، فإن المؤمن من أمنه الخلق على أنفسهم وأموالهم، فمن خان انتفى كمال إيمانه بانتفاء أمانته، لأن نقص إيمانه يؤدي لاستباحة الأموال والأعراض والنفوس، وهذه فواحش تنقص الإيمان إلى أن لا يبقى منه إلا أقله.

قال ابن العربي: «الأعمال السيئة لا تزال تُضعِف الإيمان حتى إذا تناهى الضعف لم يبق إلا أثر الإيمان، وهو التلفظ باللسان والاعتقاد الضعيف في ظاهر القلب».

ومن نبوءات النبي ﷺ أن تتراجع الأمانة في المجتمع، ويقل المؤتمنون، ففي حديث طويل جاء فيه:

«فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة، حتى يقال: إن في بني فلان رجلا أمينا! حتى يُقال للرجل: ما أجلده؟ ما أظرفه؟ ما أعقله؟ وما في قلبه حبة خردل من إيمان»[2].

أليس هذا الوصف يصدق في أحوال كثيرين من أفراد مجتمعاتنا؟

ألسنا نبحث اليوم عن الأمناء، فلا نكاد نحصي إلا الواحد أو الاثنين ممن نعرف؟!

---

(١) صحيح: رواه أحمد وابن حبان عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٧١٧٩.

(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي عن حذيفة كما في صحيح الجامع رقم: ١٥٨٤.



قال ابن التين في ظل تعليقه هذا الحديث، وفي تعريف جميل للأمانة:

«الأمانة: كل ما يخفى، ولا يعلمه إلا الله من المرء».

فآخذ الرشوة مثلا يحتاط لنفسه، ويقبض رشوته في الخفاء كي لا ينكشف، ويتناسى أن الله مطلع عليه، وعالم بكل صغيرة وكبيرة من أقواله وأعماله.

صلاح الجسد من صلاح الرأس!

لما فتح المسلمون المدائن، غنموا غنائم كثيرة وثمينة، وكان من جملة ما غنموه سوار كسرى وتاجه وكسوته وبساطه، وأعطى القائد سعد بن أبي وقاص ﷺ المجاهدين نصيبهم وأرسل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نصيب بيت المال من الغنائم، فأمر عمر بوضع الغنائم في بيت المال، ونظر وهو في صحبة علي بن أبي طالب إلى الغنائم وكثرتها وغلو ثمنها، فقال عمر كلمة عجيبة، رد عليها علي برد أعجب، فقال عمر يمدح رجاله: إنَّ قوما أَدَّوْا هذا لأمناء!

فقال له علي مبرزا دور الراعي في صلاح الرعية، وأثر صلاح الرأس في صحة الجسد:

يا أمير المؤمنين: عففت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا.

6 الإحساس بآلام الأمة

وهذا من أهم علامات الإيمان. قال رسول الله ﷺ:

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسَّهَر والحُمَّى»(١).

جعل النبي ﷺ المؤمنين كجسد واحد؛ لأن الإيمان يجمعهم كما يجمع الجسد الأعضاء، فكما يتأذى جميع الجسد بتأذي بعض جوارحه، كذلك أهل الإيمان، يتأذى بعضهم بتأذي البعض.

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير كما في صحيح الجامع رقم: ٥٨٤٩.

ومعنى (تداعى) أي دعا بعضه بعضا إلى المشاركة في الألم والسهر؛ لأن الألم يمنع النوم، وارتفاع حرارة عضو يشعل الحرارة في الجسد كله.

ولذا جاء في مسند الإمام أحمد عن سهلِ بن سعدٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قال:

«المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس»[١].

وصدق من قال يصف حال المؤمن الصادق:

إذا اشْتَكى مُسْلِمٌ في الصين أرَّقَنِي   وإنْ بكى مُسْلِمٌ في الهند أبكاني

لكن هذا الإحساس لابد أن يتبعه عمل، وإلا كان إحساسًا كاذبا، ففي صحيح البخاري ومسلم:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»، وشبَّك بين أصابعه[٢].

إن المواساة ليست مشاعر مجردة من الأفعال بل هي أعمال وأحوال، وقد نفى النبي ﷺ كمال الإيمان عن الذي بات شبعان وجاره جائع، فقال:

«ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه»[٣].

وأقسم رسول الله ﷺ -وهو لا يحتاج إلى قسَم-:

«والذي نفسي بيده، لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير»[٤].

أذكر قصة يروونها عن الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله يقولون: كانت أحزان الرجل وأفراحه بسبب ما يصيب المسلمين، فإذا سمع بنكبة نزلت بالمسلمين حزن، وظهر هذا على قسمات وجهه، فكانت أمه تعرف ذلك، فإذا رأته يوما من الأيام وقد أصيب بمرض، أو وعكة صحية، قالت: ما لك يا بني؟! هل قُتِل اليوم مسلم بالصين؟!

---

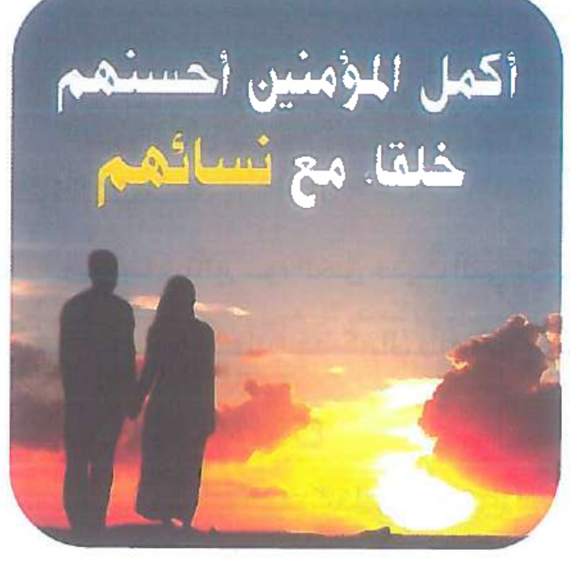
(١) حسن: رواه أحمد عن سهل بن سعد كما في صحيح الجامع رقم: ٦٦٥٩.
(٢) صحيح: أخرجه البخاري رقم: ٢٤٤٦ ومسلم رقم: ٢٥٨٥.
(٣) صحيح: رواه الطبراني والحاكم والبيهقي عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٥٣٨٢.
(٤) صحيح: رواه أحمد والنسائي عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٧٠٨٥.



⑦ حسن الخلق

حسن الخلق من علامات الإيمان. قال رسول الله ﷺ:

«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم»[1].



دلَّ الحديث على أن حسن الخلق من الإيمان، وغيابه علامة نقصان إيمان، وأن المؤمنين يتفاوتون في أخلاقهم وبالتالي في إيمانهم، ومن هنا كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا؛ لكونه أكمل الخلق إيمانًا، ثم ذكر النبي ﷺ ميدانًا عمليًا يظهر فيه حسن الخلق من سوئه، فقال: «وخياركم خياركم لنسائهم».

فكشف الرسول ﷺ عن أدقِّ الكواشف التي تفضح خُلق الإنسان، فأحسن الناس خلقًا، أفضلهم معاشرة لنسائهم، ومن المعلوم أن الإنسان قادر على تصنُّع الخلق الحسن والتظاهر بمكارم الأخلاق لفترة معينة، ومع بعض الناس، أما أن يفعل هذا في كل الأوقات، ومع أقرب الناس إليه؛ فهذا غير ممكن ما لم يكن صاحبه صاحب خُلُق حقيقي، فإذا أضيف لذلك أن تكون له عليه سلطة، وكان من الضعفاء كالنساء، مع ما قد تبادر به النساء من أفعال قد تُخرج الحليم عن حلمه، فإذا ظل الإنسان محافظًا على كماله الخلقي رغم هذه الصعوبات؛ كان لا شك من أحسن الناس خلقًا.

وما أجمل كلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو المشهور بشدته في الحق، لكنه يحثنا على اللين في مواضع اللين، ومنها ما كان مع أهلك:

«إني أحب أن يكون الرجل في أهله كالصبي، فإذا احتيج إليه كان رجلا».

---

(١) صحيح: رواه الترمذي وابن حبان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٢٣٢.



وقد نفى النبي ﷺ كمال الإيمان عن سيء الخلُق، فقال:

«والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، الذي لا يأمن جاره بوائقه»(١).

أي مكائده ومضاره وشروره، والبوائق كالموبقات في المعنى، وهنا يظهر ارتباط الإيمان الوثيق بالمعاملات، وكيف أن سوء الخلق يفسد الإيمان، ولذا قال يحيى بن معاذ:

«سوء الخلق سيّئة لا تنفع معها كثرة الحسنات، وحسن الخلق حسنة لا تضرّ معها كثرة السّيئات».

ويكفينا في تأثير سوء الخلق حديث النبي ﷺ:

«وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني في الآخرة: أسوؤكم أخلاقا»(٢).

⑧ الإذعان لأمر الشرع

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾.

هذه الآية قاعدة من قواعد الدين، لكن لا ينتفع بها غير المؤمنين، وخلاصتها أن ليس للمؤمنين من أنفسهم ولا من أمرهم شيء، فهم وما يملكون ملكٌ لربهم، يصرِّفهم كيف يشاء، ويختار لهم ما يريد؛ وهذا التصريف والاختيار يحقق مصالحهم وإن جهلوها.

جاء في سبب نزول هذه الآية ما أخرجه الطبراني عن قتادة:

رُويَ أنَّ النبي ﷺ خطب زينب وهو يريدها لزيد بن حارثة، فظنت أنه يريدها لنفسه، فلما علمت أنه يريدها لزيد أبت، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، فرضيت وسلّمت.

وقيل: نزلت في كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، وكانت أول امرأة هاجرت من النساء، فوهبت نفسها للنبي ﷺ، فزوّجها زيد بن حارثة، فسخطت هي وأخوها عبد الله بن جحش قالا: إنما أردنا رسول الله ﷺ، فزوّجنا عبده، فنزلت.

(١) صحيح: رواه أحمد والبخاري عن أبي شريح كما في صحيح الجامع رقم: ٧١٠٢.
(٢) صحيح: رواه أحمد وابن حبان والطبراني عن أبي ثعلبة الخشني كما في صحيح الجامع رقم: ١٥٣٥.

والأشهر والأصح أنها نزلت في زينب بنت جحش، والحكمة من هذا الحكم معها: إعادة ترتيب المجتمع الإسلامي وفق نظام يُبطل فيه ما كان من الموروثات السابقة من الفوارق الطبقية بين أفراد الأمة؛ قد جاء الإسلام ليرسي قواعد جديدة منها أنَّ الناس سواسية لا فوارق بينهم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ معناه: وما ينبغي، وهي أقوى في دلالة النفي من غيرها؛ بمعنى أنه لا يحل لأحد يؤمن بالله أن يتقدم بين يدي الله ورسوله برأي أو حكم، بل عليه سرعة امتثال أمر الله ابتغاء مرضاته واتقاء سخطه.

واستعمل النكرة في سياق النفي ﴿لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، لتعم كل من يؤمن بالله، وإن ذكر المفسرون أن المراد بالمؤمن هو عبدالله بن جحش؛ والمؤمنة أخته: زينب بنت جحش، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والقضاء هو الحكم، فبمجرد دخول العبد في الإسلام يخضع لحكم الله على حساب هوى النفس، وقوله: ﴿أَمْرًا﴾:

نكرة للتقليل، لتفيد أي أمر مهما صغر، فبذلك أوجبت الآية الطاعة في كل الأمور والانقياد والتسليم.

ولفظ ﴿مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ في قوله: ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾:

دلالة على أن المؤمن ليس له اختيار في طاعة الله ورسوله، وأن عليه الخضوع بين يدي ربه الذي يصرف له أموره ويدبر شؤونه، وهذا دليل إيمانه.

قال أحمد بن جعفر بن هانئ: سألت الجنيد: ما علامة الإيمان؟ فقال: «علامته: طاعة من آمنت به، والعمل بما يحبه ويرضاه، وترك التشاغل عنه بما ينقضي ويزول».

وقفات مع آية التحكيم والتسليم!

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.



فالإيمان ليس كلمات تُقال، حتى تُترجَم إلى واقع عملي، واختار الله لاختبار الإيمان أعنف ساعات الحرج في النفس البشرية، وهي ساعة الخصومة التي تولد اللدد والميل عن الحق والانتصار للنفس.

وإليك ملخص ما ساقه ابن القيم في هذه الآية من تأكيدات على وجوب التسليم لحكم الله ورسوله:

1. تصدير الجملة المقسم عليها بحرف النفي، والمتضمن لتأكيد النفي المقسم عليه، وهو تأكيد مثل تصدير الجملة المثبتة بإن.

2. أقسم الله سبحانه بأجلّ مقسم به -وهو نفسه عز وجل- على أنه لا يثبت لهم الإيمان، حتى يحكّموا رسول الله ﷺ في جميع موارد النزاع في جميع أبواب الدين.

3. جاء بلفظ ﴿حَتَّىٰ﴾ المشعر بأنه لا يوجد الإيمان إلا (بعد) حصول التحكيم.

4. أتى بكلمة التحكيم ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾، فكلام الله حكم ملزم، لا رأي نأخذ به أو لا نأخذ، ونعمل به أو لا.

وحكمه سبحانه يتناول:

الحكم القدري الكوني:

وهو ما يقع في هذا الكون من حياة أو موت، ومن صحة أو مرض، ومن غنى أو فقر، والصبر عليه واجب، والرضا به مستحب.

الحكم الشرعي الديني:

كقول الله ﷻ: هذا حلال وهذا حرام، والواجب هنا: امتثال الأوامر التي أمر الله بها، والانتهاء عما نهى عنه، ففيه ذلك خير، وإن جهلنا الحكمة من وراء الأمر والنهي.

5. لفظة ﴿فِيمَا﴾ دالة على العموم، وتقتضي وتوجب تحكيم رسول الله ﷺ في جميع ما تنازعوا فيه من الأمور الدقيقة والجليلة.

ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى يقابلوا حكم رسول الله في ما



تنازعوا فيه بأمرين:

6 انشراح صدورهم بحكمه حيث لا يجدون في أنفسهم حرجًا -وهو الضيق والمشقة- من حكمه، بل يقبلون حكمه بانشراح صدر، فسبحان الله! فكم من حزازةٍ في نفوس كثير من الناس من كثير من النصوص الشرعية، ويودُّهم أن لو لم ترِد؟

7 وأتى به نكرة في سياق النفي أي لا يجدون أي نوع من أنواع الحرج البتة.

8 التسليم والرضا وعدم معارضته بعقل ولا رأي ولا هوى، وهذه درجة فوق انتفاء الحرج، إذ قد ينتفي الحرج عنه في تحكيمه، لكن لا ينقاد قلبه ولا يرضى كل الرضا بحكم الله ورسوله.

9 أكّد فعل التسليم بالمصدر المؤكد ﴿تَسۡلِيمٗا﴾، فكأنه قال: ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾ مرتين، لأجل ألا يكون هناك أي نوع اعتراض، بل كمال الانقياد والرضا.

ولاحظ أن فرض تحكيم رسول الله ﷺ لم يسقط بموته، بل هو ثابت بعد موته كما كان ثابتا في حياته.

والآية تعرض لثلاث مراتب للعبودية:



الأولى: التحكيم.

والثانية والأعلى منها: سعة الصدر بانتفاء الحرج.

والثالثة والأعلى من الجميع: التسليم.

فالتحكيم: في مقام الإسلام.

وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان.

والتسليم: في مقام الإحسان.

ومن أراد أن يعلم مقامه عند الله، فلينظر في حاله، وليطالع حال قلبه عند ورود حكم من أحكام الله على خلاف هواه، ليعلم أي المقامات بلغ: الإسلام أم الإيمان أم الإحسان.

وعملك بهذه الآية معناه أنك إذا وجدت من نفسك خللا يتعلق بهذه المراتب الثلاثة فصحح إيمانك، وعالج قلبك.



بعض المسلمين اليوم يتحرج من الحدود الشرعية كحد شارب الخمر وحد الزاني أو المرتد، بل بعضهم يرى هذه الحدود غير مناسبة للعصر.

وكل هؤلاء على خطر عظيم مع عدم التسليم لحكم الله.

قال الإمام ابن القيم وكأنه ينظر إلى واقعنا المرير وتهجم البعض المتكرر على ثوابت الدين بغير نكير: «هل كان في الصحابة من إذا سمع نصَّ رسول الله ﷺ عارضه بقياسه، أو ذوقه، أو وجده، أو عقله، أو سياسته؟

وهل كان قط أحد منهم يُقدِّم على نصِّ رسول الله ﷺ عقلاً أو قياسًا، أو ذوقًا، أو سياسة، أو تقليد مقلِّد؟

ولقد حكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه على من قدَّم حكمه على نصِّ الرسول بالسيف، وقال: هذا حُكمي فيه، فيالله! كيف لو رأى ما رأينا، وشاهد ما بُلينا به من تقديم رأي كل فلان وفلان على قول المعصوم ﷺ، ومعاداة من اطَّرح آراءهم، وقدَّم عليها قول المعصوم؟!».

التسليم لأمر الله!

وانظر تسليم الصحابة لأمر الله في تحريم الخمر، وموقف نساء المؤمنين عند نزول أمر الله بارتداء الحجاب، واسمع هاتين الواقعتين اللتين تعبران عن شدة تسليم الصحابة لأمر الله ورسوله:

- جاء في حديث **النواس بن سمعان** رضي الله عنه في شأن الدجال: قلنا: يا رسول الله.. وما لبثه في الأرض؟ قال: **«أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم»**.

قلنا: يا رسول الله.. فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟! قال:

«لا اقدروا له»[1].

فلم يعارض الصحابة رسول الله ﷺ، ولم يسألوه كيف يكون يومٌ كسنة، وإنما سلَّموا

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم والترمذي عن النواس بن سمعان كما في صحيح الجامع رقم: ٤١٦٦.



له على الفور، وتجاوزوا إشكالية تمدد اليوم إلى مقدار سنة ليسألوا عن الصلاة فيه، فكان نهجهم الإيمان والتسليم، وسؤالهم عما ينفع.

عن ذكوان، مولى عائشة أنها قالت: دخل علي النبي ﷺ بأسير، فلهوت عنه، فذهب، فجاء النبي ﷺ، فقال: **«ما فعل الأسير؟»**.

قالت: لهوت عنه مع النسوة فخرج، فقال: **«ما لك قطع الله يدك، أو يديك»**، فخرج، فآذن به الناس، فطلبوه، فجاءوا به، فدخل عليَّ وأنا أقلب يدي فقال: **«ما لك، أجُنِنْتِ؟»**.

قلت: دعوتَ عليَّ، فأنا أقلِّب يدي، أنظر أيهما يقطعان، فحمد الله، وأثنى عليه، ورفع يديه مدا، وقال: **«اللهم إني بشر، أغضب كما يغضب البشر، فأيما مؤمن، أو مؤمنة، دعوت عليه، فاجعله له زكاة وطهورا»**[1].

فانظر شدة تصديق **عائشة** لدعاء النبي ﷺ، وكيف فحصت يديها بعد سماع دعائه ﷺ خوفًا من أن يقطعها الله استجابة لدعائه.

هذا التسليم لله أعظم ما رأيناه من **أبي بكر الصديق** ﷺ، ففي رحلة الإسراء قال للمشركين المكذِّبين بهذه الرحلة: «إن كان قال ذلك فقد صدق».

وفي صلح الحديبية قال **لعمر بن الخطاب**: «الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، وأن الحق ما أمر به، ولن نخالف أمر الله، ولن يضيِّعه الله».

وبعد انتقال النبي ﷺ للرفيق الأعلى أمر أبو بكر بإنفاذ بعث **أسامة** قائلاً:

«والذي نفس **أبي بكر** بيده! لو ظننت أن السباع أكلتني بهذه القرية لأنفذت هذا البعث الذي أمر رسول الله ﷺ بإنفاذه».

وفي حروب الردة صاح **الصِّدِّيق** صيحة الأسد:

«والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والذي نفس **أبي بكر** بيده! لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه حتى آخذها».

(١) صحيح: مسند أحمد رقم: ٢٤٢٥٩.



ولذا قال بكر بن عبد الله المزني:

«لم يفضل أبو بكر الناس بكثرة صوم ولا صلاة، إنما فضلهم بشيء كان في قلبه».

9 الولاء والبراء:

الولاء والبراء من أهم لوازم الإيمان.

قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢].

والآية دالة على نفي الإيمان عن قلب من وادّ من حارب الله ورسوله، وقاعدة الولاء والبراء تنص على أن: حبيب حبيبي: حبيبي، وعدو حبيبي: عدوي، وهو أمر منطقي وبدهي كما قال بشر بن السري: «ليس من أعلام الحب أن تحب ما يبغضه حبيبك».

فكيف تُحب من حارب الله ورسوله وعاداه؟!

وكيف تُوالي أعداء الله وأعداء مصطفاه؟!

وقد بيَّن النبي ﷺ أن الحب في الله والبغض في الله مِن أوثق عُرَى الإيمان، فقال ﷺ:

«من أحَبَّ لله، وَأبْغَضَ لله، وأعطى لله، ومنَع لله، فقد استكمل الإيمان»[1].

قال ابن تيمية: «فإن الإيمان علم وعمل، والعمل ثمرة العلم، وهو نوعان: عمل القلب حبًا وبغضًا، ويترتب عليهما عمل الجوارح، فعلا، وتركا، وهما العطاء والمنع.

فإذا كانت هذه الأصول الأربعة لله تعالى، كان صاحبها مستكمل الإيمان، وما



(١) صحيح: رواه أبو داود والضياء عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٩٦٥.



نقص منها فكان لغير الله، نقص من إيمانه بحسبه».

واستكمال الإيمان عند صاحب الولاء والبراء؛ لأن معناه أن القلب امتلأ إيمانا إلى درجة أنه لا يتجه إلا إلى حبيب الله، ولا ينقبض إلا عن عدو الله.

هذا الولاء للمؤمنين والبراءة من الكافرين هو الذي رفع **بلالا الحبشي** و**صهيبا الرومي**، ووضع **أبا لهب القرشي**.

لكن ماذا عن محبة الكافر لما أسداه للمؤمن من خير؟

وماذا عن محبة الزوجة غير المسلمة؟!

أو المحبة الفطرية للوالدَيْن الكافريْن؟!

أقسام المحبة!

المحبة نوعان:

الأول: المحبة الدينية

وهي المحبة لأجل الدين والمعتقد، فمن أحب الصالحين لصلاحهم وما هم عليه من التقوى والدين، رُجي أن يجمعه الله بهم في جنته، ومن أحب الكفار لكفرهم ومعتقداتهم، ووالاهم على ما هم عليه، كان ذلك سببا لدخوله النار معهم.

فالمحبة والمودة المنفية في آية سورة المجادلة هي المتعلقة بالدين.

وهو ما عناه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بقوله: «والله لو صمتُ النهار لا أفطره، وقمتُ الليل لا أنامه، وأنفقتُ مالي غلقًا غلقًا في سبيل الله أموتُ يوم أموت، وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما نفعني ذلك شيئا».

وقد ظهرت عداوة الكافرين بسبب معاداتهم للدين في خير جيل، وهذه بعض ملامح البطولة الإيمانية وآثار التربية النبوية:

- رأى **أبو عبيدة** أباه يقاتل في صف المشركين في بدر فقصده وقتله.



- قال سعد بن أبي وقاص: «ما حرصت على قتل أحد قط مثل ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص، إن كان ما علمته لسيء الخلق، مبغَضًا في قومه، ولقد كفاني فيه قول رسول الله ﷺ: (اشتد غضب الله على من أدمى وجه رسول الله ﷺ)».

- ورأى أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة أباه المشرك وهو يُسحَب ليرمى في القليب ببدر، دون أن ينكر ذلك.

- ورأى مصعب بن عمير أخاه أبا عزيز بن عمير، وكان أبو عزيز مشركًا خرج مع المشركين وأسر يوم بدر، فقال مصعب للأنصاري الذي أسر أخاه: اشدد يدك عليه، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفتديه منك، فقال له أبو عزيز: يا أخي! أهذه وصايتك بي؟ فقال له مصعب: إنه أخي دونك.

ولذا قال الله عن هؤلاء العظام: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة:٢٢] وانظر تعبير القرآن: ﴿كَتَبَ﴾، كأن الإيمان نُقِش نقشا في هذه القلوب، فلا ينمحي أبدًا ولا يضعف مهما توالت الخطوب!

الثاني: المحبة الطَّبْعية

التي يكون باعثها قرابة أو صداقة أو مصلحة مادية أو زواج أو غير ذلك من الأسباب الدنيوية، فلا يكون هذا سببًا للجمع في المحشر أو المصير، فالمسلم الذي يحب والدته أو زوجته غير المسلمة حبًا فطريًا، ولا ينسلخ من بشريته وإنسانيته، ولا يحشر معه.

يقسِّم ابن القيم هذا النوع من المحبة إلى أقسام، وذكر أنها لا تدخل في دائرة النهي، فقال رحمه الله:

«والمحبة المشتركة ثلاثة أنواع:

أحدها: محبة طبيعية مشتركة، كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء وغير ذلك، وهذه لا تستلزم التعظيم.

والنوع الثاني: محبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها، وهذه أيضا لا تستلزم التعظيم.



والنوع الثالث: محبة أُنس وإلف، وهي محبة المشتركين -في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر- بعضهم بعضا، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضا.

فهذه الأنواع الثلاثة هي المحبة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركا في محبة الله سبحانه».

ويعلّق الشيخ محمد بن الحسن ولددو على نوعي المحبة الدينية والطبيعية، فيقول:

«لا بد أن نميز بين المحبة في الدين وبين المحبة الطبيعية؛ فالمحبة الطبيعية: أن تحب إنسانا لأن شكله يعجبك، أو أن طبعه يلائم طبعك، أو أنه قريب لك، أو أنه أسدى إليك معروفًا؛ فهذه محبة طبيعية، كما تحب بعض البلدان وبعض الألوان وبعض الأطعمة وبعض الأشربة، ولهذا فمحبتك للكافر لأنه أحسن إليك أو لأن شكله يعجبك أو لأن خلقه يعجبك، لكن لا تحب دينه ولا ما هو عليه، فهذا لا ينافي الولاء للمؤمنين؛ ولذا أجاز الله أن يتزوج المسلم باليهودية والنصرانية إذا كانت محصنة، ولا يمكن أن يقع الزواج إلا مع المحبة، لا يمكن أن يقال له: يجب عليك أن تكرهها كراهة شديدة ومع ذلك تتزوجها، مستحيل! فهو يتزوجها بسبب المحبة، لكن هذه المحبة محبة طبيعية، وليست محبة في الدين ولا نصرة فيه؛ فلا تدخل في إطار الولاء، والرسول ﷺ كان يحب عمه أبا طالب، وقد قال الله له في كتابه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، فقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ، وكان يحب قومه قريشًا، ويكره أذاهم، وهذا من الحب الطبيعي، كما يحب الإنسان بعض الأمكنة دون بعض، ويحب بعض الأغذية دون بعض، وبعض الملابس دون بعض، فهو حب طبيعي لا علاقة له بالاعتقاد».



معاملة غير المسلمين غير المحاربين:

والنهي عن موالاة الكافرين لا يمنع إحسان معاملة غير المسلم المسالم. قال تعالى:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٩].



يقول شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبري:

«أولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: عنى بذلك: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [الممتحنة:٨] من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم؛ لأن الله عز وجل عمهم في الحكم، وذلك بقوله: ﴿ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [الممتحنة:٨] لأن ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول يفيد العموم، فتعم جميع من كانت تلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ».

وقد أمر الله موسى ﷺ وأخاه هارون أن يقولا لفرعون -وهو من نازعه الله ربوبيته- قولاً لينًا، فقال ﷻ:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

الاحسان وحسن الخلق
وبذل المعروف
مرغّب فيه لكل أحد ولو كان لغير المسلمين

وخلاصة القول:

أن الإحسان وحسن الخلق وبذل المعروف مرغَّب فيه لكل أحد ولو كان لغير المسلمين، يقول ابن المرتضى اليمني:

«المخالفة والمنافعة وبذل المعروف، وكظم الغيظ، وحسن الخلق، وإكرام الضيف ونحو ذلك يستحب بذله لجميع الخلق، إلا ما كان يقتضي مفسدة كالذلة، فلا يُبذل للعدو في حال الحرب».

معاملة عصاة المؤمنين:

لو وقع إنسان في المنكرات، فإنك تبغض فعله، لكنه يبقى أخاك في الإسلام، لا تيئس من هدايته، ولا تقصِّر في دعوته.



عن أبي قلابة أن أبا الدرداء مرَّ على رجل قد أصاب ذنبًا، فكانوا يسبونه، فقال: «أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟».

قالوا: بلى. قال: «فلا تسبوا أخاكم، واحمدوا الله الذي عافاكم». قالوا: أفلا تبغضه؟!

قال: «إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي».

التعامل النفسي مع صاحب الذنب!

أخرج البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب ﷺ:

أن رجلاً على عهدِ النبيِّ ﷺ كان اسمُه عبدَ اللهِ، وكانَ يُلَقَّبُ حِمارًا، وكان يُضحِكُ رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلَدَه في الشَّرابِ، فأُتِيَ بهِ يومًا فأمَرَ به فجُلِدَ، فقال رجلٌ من القوم: اللَّهُمَّ العَنْهُ، ما أكثَرَ ما يُؤتَى بهِ؟ فقال النبي ﷺ: «لا تَلْعَنُوه، فإنه يُحِبُّ الله ورسوله».

وعن أبي هريرة ﷺ قال: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بسَكرانَ، فأمَرَ بضَربِهِ. فمِنَّا مَن يَضرِبُهُ بيَدِهِ، ومِنَّا مَن يَضرِبُهُ بنَعلِه، ومِنَّا مَن يضربه بثوبه، فلما انصرف قال رجلٌ: ما لَه أخْزاهُ الله، فقال رسول الله ﷺ:

«لا تكونوا عَوْنَ الشَّيطانِ علَى أخيكم»(١).

وفي هذا الحديث وحده خمس عشرة فائدة:

1. عقوبات الشرع للتطهير من الذنب والتقويم، لا للتشفي والانتقام والثأر.
2. أهمية تدعيم الجانب الإيجابي:

وتوسيع مساحة الخيرية في نفوس المذنبين، فهذا رجل ذاق مرارة الجلد، ومرارة الفضيحة بإقامة الحد عليه بين الناس، فاجتمع عليه الأذى الحسي والمعنوي، ولذا هبَّت عليه نسائم الرحمة النبوية بكلمات المدح والإشادة به أمام الناس: «إنه يحب الله ورسوله»، وما أعظمها من شهادة، تنتشل صاحبها من ورطة الذنب، وتستدعي بقايا الخير الكامنة في باطنه.

---

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٣٣٣٣.

3 إرساء منهجيّة التعامل مع العاصي:

فلا ينبغي أن تخضعَ للعواطف الجَيَّاشة، أو الاجتهادات الفرديَّة؛ بل لابد أن تحكمها النُّصوص الشرعية من القرآن والسنة النبويَّة.

4 واجبنا نحو المذنب: عدم لعنه أو الدعاء عليه:

لأن اللعن دعاء بالطرد من رحمة الله، والدعاء عليه بالخزي يحقِّق مقصود الشيطان الذي أوقعه في الذنب ليحصلَ له الخزي، فإذا دعونا عليه بالخزي، فنكون قد أعنَّا للشيطان في تحقيق مقصوده.

5 واجبنا تجاه المذنب: التبكيت!

فقد قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«بكِّتوه»**، والأمر بالتبكيت معناه مواجهته بقبيح فِعله، وقد فسَّره هذا الخبر: «فأقبلوا عليه يقولون له: ما اتقيتَ الله، وما خشيتَ الله، وما استحييتَ من رسول الله ﷺ»[١].

6 واجبنا تجاه المذنب: الدعاء له!

ولذا جاء في رواية أبي داود قول النبي ﷺ بعد أن نهاهم عن الدعاء عليه قوله:

«ولكن قولوا: اللهُمَّ اغْفِر له، اللهم ارحمه».

7 لا تنافي بين الوقوع في الذنب وثبوت محبة الله ورسوله:

لأن النبي ﷺ أخبر بأن هذا المبتلى بشرب الخمر يحب الله ورسوله، وفيه إشارة إلى أن من تَكَرَّر منه الذنب لا تنزع منه محبة الله ورسوله.

8 من ندم على وقوع المعصية، وأقيم عليه الحد، كُفِّر عنه ذنبه:

بخلاف مَن لم يفعل، فيُخشَى عليه مع تكرار الذنوب أن يُطبَع على قلبه، أو يُسلَبَ إيمانه.

(١) صحيح: مشكاة المصابيح رقم: ٣٦٢١.



9 ضع نفسك دائما مكان أخيك المذنب:

ما أجملَ أن تضع نفسك مكان أخيك العاصي، فهذا يخفِّف لهجة نصحك، ويورثك تواضع الناصح، والرفق بالمنصوح، وقد كتب سعيد بن جبير إلى عمرو أبي السوار العدوي:

«... وإذا رأيتَ عاثرا؛ فاحمد الله الذي عافاك، ولا تأمن للشيطان أن يفتنك ما بقيت».

10 قربك من صاحب الذنب هو في الحقيقة محاصرة للشيطان، وتحجيم للعصيان، وإبعاد للمذنب عن دائرة العدوان.

11 ربما استشاطت النفوس غضبا إذا شاهدت تكرار الخطأ، وهو ما جعل صحابيًا يهتف غاضبًا: «لعنه الله! ما أكثر ما يؤتَى به»، فتكون هذه الغلظة سببًا لعناد العاصي وإصراره ومجاهرته بالذنب، ولذا أتى التوجيه النبوي صارمًا في النهي عن ذلك.

12 قد تكون من أعوان الشيطان دون أن تشعر!

إذا كنتَ تفرح بإساءة المسيء، وخطأ المخطئ، فأنت من أعوان إبليس، وهؤلاء لا يسترون عورة، ولا يقيلون عثرة، ويفرحون بكل زلة.

13 من دواعي الشفقة على المذنب ما ذكره الإمام ابن القيم في كتابه (طريق الهجرتين)، يوصي به كل ناصح: «أن يعاملَ عبادَه في إساءتهم إليه وزلَّاتهم معه بما يُحِبُّ أن يعامله الله به؛ فإنَّ الجزاء مِن جنس العمل».

إذا سترت المذنب، سترك الله.

إذا رحمتَ المذنب، رحمك الله.

إذا تلطَّفتَ بالمذنب، تلطَّف بك الله.

عامِل الناس اليوم بما تحب أن يعاملك الله به اليوم وغدا.

14 من أسباب الشفقة على المذنب!

تذكر ما ينتظره من عقوبة الآخرة إذا لم يتداركه الله برحمته. قال أبو سليمان الداراني: «إنما الغضب على أهل المعاصي؛ لجراءتهم عليها، فإذا تذكرتَ ما يصيرون إليه من عقوبة الآخرة؛ دخلت القلوبَ الرحمةُ لهم».



⑮ وأختم هذه الفوائد بتطبيق عملي لأحد معالم المعروف، وهو بالخير معروف، واسمه: معروف الكرخيّ، فبينما كان على نهر دجلة، إذ مر بها أقوامٌ أحداثٌ في زورق يغنون ويضربون بالدف! فقال له أصحابه: يا أبا محفوظ! أما ترى هؤلاء في هذا البحر يعصون الله عز وجل؟ ادع الله عليهم! قال: فرفع يده إلى السماء فقال: (إلهي وسيدي! اللهم إني أسألك أن تفرِّحَهم في الآخرة كما فرّحتهم في الدنيا). فقال له أصحابه: إنا سألناك أن تدعوَ عليهم، ولم نسألْك أن تدعوَ لهم! قال:

«إذا فرَّحهم في الآخرة؛ تاب عليهم في الدنيا، ولم يضركم شيء!».

⑩ الحياء من الإيمان

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما:

مرَّ النبي ﷺ على رجل، وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: إنك لتستحيي، حتى كأنه يقول: قد أضرَّ بك (الحياء)، فقال رسول الله ﷺ:

«دعه، فإن الحياء من الإيمان»[1].

فكأن الرجل كان كثير الحياء، فكان يمنعه حياؤه من استيفاء حقوقه، فعاتبه أخوه على ذلك، فقال له النبي ﷺ: دعه، أي اتركه مقيما على هذا الخلق الجميل، ثم زاد ترغيبا في الحياء، فوصفه بأنه من الإيمان، وإذا منع الحياء صاحبه من استيفاء حق نفسه، كان هذا سبب تحصيل الأجر على حقه الذي تسامَح فيه.



ومعنى أن الحياء من الإيمان أن الحياء يمنع صاحبه من المعاصي، كما يمنع الإيمان صاحبه من الفجور، فكأنه جزء منه؛ لأنه يعمل عمله، والحياء من أبرز علامات المؤمن، فالحياء انقباض، والمؤمن منقبض من خالقه إجلالاً لهيبته، وحذرًا من عقوبته، فصار الانقباض خلقًا ملازمًا للمؤمن، فاستحيا كذلك من أبناء جنسه.

---

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٦١١٨.



وأما ما قد يقع من ترك أمر شرعي أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر تحت مسمّى الحياء، فليس بحياء، إنما هو ضعف ومهانة، وهو المراد بقول مجاهد: «لا يتعلم العلم مستحْيي».

وقد قالت عائشة: نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[١].

وقال مجاهد: «لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر».

وقد مدحت عائشة رضي الله عنها نساء الأنصار، فقالت:

«نِعْمَ النساء نساء الأنصار، لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[٢].

والحياء مشتق من الحياة، والحياء سبب حياة الدنيا والآخرة، فمن لا حياء فيه ميت القلب في الدنيا، شقي في الآخرة.

وقلة الحياء من علامات ضعف الإيمان، وبين قلة الحياء وكثرة الذنوب صلة وثيقة، فالذنوب تُضعِف حياء العبد، فلا يتأثر برؤية الناس على معاصيه، ولا باطلاعهم على مساويه، بل كثير منهم يجاهر بعصيانه، ويُفاخِر بسوء أحواله، يُسبِل الله عليه ستره، فيكشف ستر الله عليه، وقد قال رسول الله ﷺ:

«إن الحياء والإيمان قُرِنا جميعا، فإذا رُفِع أحدهما رُفِع الآخر»[٣].

ونظرا لتفاوت الناس في الإيمان، يتفاوتون في الحياء، وهذا دليلٌ على زيادة الإيمان ونقصانه، لأن الناس ليسوا كلهم على مرتبة واحدة في الحياء، فمن كان إيمانه أزيد، كان حياؤه أعظم، ومن كان إيمانه أضعف، قلّ حياؤه.

ومما يدل على تفاوت الناس وتفاضلهم في الحياء قول النبي ﷺ في الحديث:

«الحياء من الإيمان، وأحيي أمتي عثمان»[٤].

أي أن عثمان من أكمل أمتي إيمانا.

---

(١) صحيح: رواه الجماعة إلا الترمذي.
(٢) صحيح: صحيح مسلم رقم: ٣٣٢.
(٣) صحيح: رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ١٦٠٣.
(٤) صحيح: رواه ابن عساكر عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣١٩٨.



قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله تعالى: أن يجدِّد الإيمان في قلوبكم»(١).

وهذا الحديث من جوامع الكلم، وهو على إيجازه يشتمل على حقيقة مؤكدة، وفيه أمرٌ صريح بتجديد الإيمان.

وفيه تشبيه غير المحسوس الغائب بالمحسوس الحاضر، فكما تحافِظ على ثيابك غسلا وإصلاحا، ثم تجديدًا كاملا لها إذا بليت، ويتكرر هذا بمرور الأيام والشهور والأعوام، ولا يتخلف عن هذا أحد، فلا شك أن (الإيمان) أوْلى بهذا التجديد.

وفي حديث آخر وتشبيه آخر، لعل الصورة تزداد في قلوبنا وضوحا: «ما من القلوب قلب إلا وله سحابة كسحابة القمر، بينما القمر يضيء، إذ علته سحابة، فأظلم، إذ تجلَّتْ»(٢).

فكما أن السحاب يحجب نور القمر عن الأرض، فكذلك تحجب سحب المعاصي نور الإيمان عن القلب، فإذا انقشعت سحب السماء عاد نور القمر إلى الأرض، وإذا انقشعت سحب

---

(١) صحيح: رواه الطبراني والحاكم عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ١٥٩٠.

(٢) حسن: رواه الطبراني في الأوسط عن علي كما في صحيح الجامع رقم: ٥٦٨٢.



المعاصي عن القلوب بالتوبة والعمل الصالح، عاد الإيمان في القلب إلى إشراقه مرة أخرى.

الغفلة إذن سحابةٌ على القلب، لكن سحاب الغفلات لا ينجلي بالأمنيات، ولا ينقشع بالكلمات، وإنما بالعمل والاجتهاد: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

وتأمل أمر الله تعالى لعباده في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦].

أي حافظوا على إيمانكم، واستمروا فيه، ولا تغفلوا عنه، ولا تفتروا عن رعايته وتقويته والذبِّ عليه.

إخواني..

آمنوا: ما سمعنا بأحدٍ حولنا مات جوعا، لكن سمعنا أن قلوبًا تموت جوعًا وتموت ظمأً وفقرًا، وتموت قحطًا وجدبًا.

فهل من غيث يغيث، ولا غيث إلا في ما أرشد إليه الله ورسوله، فإليكم بعض طرق زيادة الإيمان:

١ . تدبر القرآن العظيم

من أهم أسباب زيادة الإيمان: تدبر القرآن، فقد قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾.

في القرآن ما يرهب النفس ويجعل الرأس يزداد شيبًا، يدل على ذلك قوله ﷺ:

«شيبتني هود وأخواتها قبل المشيب»[1].

وفي سورة هود قول الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾.

(١) صحيح: رواه ابن مردويه عن أبي بكر كما في صحيح الجامع رقم: ٣٧٢١.

قال ابن عبَّاس:

«ما نَزَلَ على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آيةٌ كانت أشَدَّ ولا أشقَّ عليه من هذه الآية».

وسور أخرى غير سورة هود قامت بنفس الدور:

«شيَّبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت»[1].

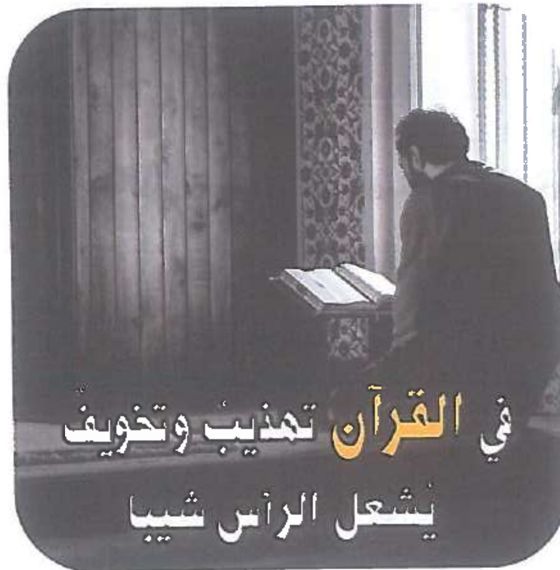
خاف النبي ﷺ على أمته من أهوال القيامة، وخاف علينا ما حلَّ بالأمم السابقة قبلنا، فشاب شعره خوفا علينا من عذاب الله وحلول نقمته.

لقد شيبت هذه السور رسول الله ﷺ لما احتوته من حقائق الإيمان والتكاليف العظيمة التي ناء بحملها قلب النبي ﷺ، حتى ظهرت آثارها على شعره وجسده.

وقد كان صحابته ﷺ يقرأون القرآن ويتدبرون ويتأثرون، فكان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً أسيفا رقيق القلب إذا صلَّى بالناس وقرأ كتاب الله، لا يتمالك نفسه من البكاء.

ومرض عمر من أثر تلاوة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾.

وسُمِعَ نشيجه من وراء الصفوف لما قرأ قول الله عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.



وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا دخل عليه أبو موسى يقول:

يا أبا موسى.. ذكِّرنا ربنا، فيقرأ أبو موسى، وربما بكى عمر.

وصدق ابن رجب الحنبلي حين قال:

«سماع القرآن ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقل».

(١) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٣٧٢٣.



ومما يعين على التدبر القرآني الذي يزيد الإيمان:

- **مراعاة آداب التلاوة** من طهارة ومكان وزمان مناسبين، وتفريغ للنفس من شواغلها، وحصر الفكر مع القرآن، والتأثر بالقرآن كأنه شخص حي يخاطبك ويكلمك.
- **التلاوة بتأنٍ** وعدم استعجال، وألا يكون هم القارئ نهاية السورة، مع الوقوف أمام الآيات وقفةً متأنيةً فاحصةً مكرَّرةً، فيتأمل معناها ومناسبتها ودلالاتها.
- **الإسقاط الواقعي للآية:** بحيث يجعل من الآية مفتاح حل مشكلات حياته وواقعه، وميزانًا دقيقا يحكم به على الأحداث التي تجري حوله.
- **الثقة المطلقة بصوابية النص القرآني**، مع إخضاع واقعنا المخالف له، بمعنى أن تعلم أن الحق والخير والصواب في آيات القرآن، فإذا وجدت واقعك أو واقع الأمة مخالفا له ومضطربا، فقل: هذا الواقع يجب أن يلتزم حتى يستقيم حاله ويستقيم أمره.

٢. مجالس الذكر:

كان الصحابة رضوان الله عليهم يحرصون على الجلوس للذكر، وكانوا يسمون الذكر إيمانًا، فعن أبي الدرداء ﷺ قال: كان عبد الله بن رواحة ﷺ يأخذ بيديَّ، فيقول: تعالَ نؤمن ساعة، إن القلب أسرع تقلُّبا من القِدْر إذا استجمَعت غليانها.

وعن أبي ذر ﷺ قال: كان عمر ممّا يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول: قم بنا نزداد إيمانًا، فيذكرون الله عز وجل.

وعن الأسود بن هلال قال: كنا نمسي مع معاذ ﷺ فقال لنا: اجلسوا بنا نؤمن ساعة.

لكن الذكر الذي يزيد الإيمان ليس أي ذكر، لكن له شرطان.

قال ابن الجوزي:

«الذّكر لله له شَرْطان: حضور القلب في تحريره، وبذل الجسد في تكثيره، فإن أحببت أن تكون في الراسخين الأقدام في هذا المْقام، فحرِّر الذّكر على الإحسان، وكثِّره بقدر الإمكان».







وبدون الذكر يتسرَّب الإيمان من القلب فيقسو، ومع قسوة القلب يزحف الشيطان نحو العبد فيجثم على صدره، ولا دواء لهذه القسوة، ولا طرد لهذا العدو بمثل الذكر، فالذكر شفاء القلب ودواؤه. قال مكحول: «ذكر الله تعالى شفاء، وذكر الناس داء».



٣. محاسبة النفس

المحاسبة صمام أمان، وحارس بوابة الإيمان، لذا يحرص المؤمن على محاسبة نفسه باستمرار، لأنه يعلم ألا مال له غير أيامه وساعاته، فإن أنفقها في غير ما يعود عليه بالنفع، لحقته الخسائر الدنيوية، والأفدح منها: الأخروية.

ومحاسبة العبد لنفسه تكون بحسب إيمانه واهتمامِه بأمر آخرته، فكلما زاد إيمانا كان أحرص على هذه المحاسبة، تمهيدا لما ينتظره من وقفة حساب مؤجَّلة غدا، لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، ولا يجتازها غدا إلا من حاسب نفسه اليوم، فمن حاسب نفسه اليوم خفَّ يوم القيامة حسابه، وحضر عند سؤاله جوابه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وطالت في ساحة الحشر وقفاته، وقادته إلى الخزي والندامة سيئاته، ومن هنا جعل ميمون بن مهران المحاسبة أهم علامة من علامات التقوى، فقال: «لا يكون الرجل تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه».

وشبَّهوا العلاقة بين النفس وصاحبها بشراكة التجارة والأموال، فكما لا تتحقق أهداف الشراكة إلا بمشارطة الشريك أولاً، ثم مراقبته في تصرفاته والإشراف عليه ثانيا، ثم محاسبته على النتائجُ ثالثًا، ثم فرض عقوبات عليه إن قصَّر رابعا، فكذلك يفعل المؤمن.

أولا: يُشارط نفسه:

فيشترط عليها في أول كل يوم حفظ الجوارح السبعة: العين، والأذن، والفم، واللسان، والفرج، واليد، والرِّجل، ويسلِّمها أربعا وعشرين ساعة هي رأس مال يومه، فمن أضاع رأس المال، كيف يطمع في الأرباح؟! والأرباح هنا: جنة، والخسران: نار.



وقد يخسر عبدُ الجنة بفارق حسنة واحدة، وقد يستحق عبد النار بحصاد ساعة من عمره!

ومن اشتراطات العبد على نفسه ألا تُغْضِبَ الله بعصيان، وأن تعمل ما يحب الله كي تفوز بالرضوان، إن كانت ترجو الجنة وتسعى في فكاك رقبة صاحبها من النار.

فإذا شارطتَ نفسك هذه المشارطة، فانتقل إلى الخطوة التالية:

ثانيا: المراقبة:

وهذا أثناء اليوم، فلا تُهمِل متابعة نفسك في ما اشترطتَ عليها، فإنك إن أهملتها أورثتك الخسارة، فإن تماديتَ في الإهمال، أضعتَ رأس المال، وتكبّدتَ فوقه ديونا ثقيلة من الذنوب والأوزار، وهذه تكبِّل روحك، وتنحت من بنيان إيمانك، فكلما همَّت نفسك خلال اليوم بزلل، ذكِّرها العقد الذي أبرمتَه معها أول اليوم، وأنك اشتريت الجنة من الله مقابل بذل نفسك ومالك في مرضاته.

ثالثا: المحاسبة:

وموعدها: نهاية اليوم، وهو اقتراح الإمام الماوردي بأن تكون المحاسبة ليلا بعد انتهاء أنشطة النهار، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«محاسبة النفس أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعاله في نهاره، فإن كان محمودًا أمضاه، وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل».

رحلة المحاسبة
١ شارط
٢ راقب
٣ حاسب
٤ كافئ او عاقب



افعل كما يفعلُ التُجّار معَ شُركائهم آخر كل يوم أو كل شهر أو كل موسم، مع أن المحاسبة الإيمانية أهم؛ لأن عليها مدار نجاتك أو هلاكك، وهي غدا سبب نعيمك أو عذابك.



ومجالات محاسبة النفس ثلاثة:

أولها: محاسبتها على التقصير في طاعات لم تؤدِّها، أو قامت بها بغير روح أو إتقان.

ثانيها: محاسبتها على ارتكاب الذنوب، فإن وقعْتَ في ذنب، فتداركه بتوبة واستغفار وحسنات ماحية.

ثالثا: محاسبتها على المباحات، هل استحضرتَ فيها نية صالحة، فراجع نيات عملك ودراستك وتسوقك ونفقتك على عيالك بل وملاعبتك لأهلك، فإنك إن فعلت ربحت أرباحا عظيمة، وفزت فوزا كبيرا، وفي مثل هذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من أحب أن يلحق بدرجة الأبرار، ويتشبه بالأخيار، فلينوِ في كل يوم تطلع فيه الشمس: نفع الخلق».

ثم يأتي دور الخطوة الرابعة الخطيرة والأخيرة:

المكافأة أو المعاقبـــة:

أي تكافئ نفسك وتشجِّعها إن أحسنت وأدَّت ما اشترطت عليها، وتشكر الله على توفيقه لك في هذا اليوم، فتزداد سرورا وسعادة مما يدفعك دفعا إلى بذل المزيد من الخير.

أو تعاقب نفسك إن خالفَتْ ما اشترطتَ عليها، وأوقعتك في الذنوب، فتحرمها من بعض شهواتها، وتلزمها بزيادة طاعاتها، وبذا تنجو من تفاقم شرها، ويسهل عليك ترويضها، والسير بها في طريق ربها.

هي سلسلة نافعة مباركة:

شارِط.. ثم راقب.. ثم حاسب.. ثم كافئ أو عاقب.



الدعاء من أقوى الأسباب التي ينبغي على العبد أن يبذلها كما قال النبي ﷺ: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب، فاسألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم»(١).

---

(١) صحيح: رواه الطبراني والحاكم عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ١٥٩٠.



فالدعاء أحد أسباب مداواة القلوب وشفائها من قسوتها، فإذا وجدت ضعفا في الإيمان، وحاصرتك الشهوات والشبهات، فسل الله تعالى أن يعيد إيمانك جديدا، وأطلِق لسانك:

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلى أن تجدد الإيمان في قلوبنا، اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

عن ابن مسعود ﷺ أنه كان في المسجد يدعو، فدَخَل النبي ﷺ وهو يدعو، فقال: «سَلْ تُعْطَهْ»، وهو يقول: «اللهم إنِّي أسألك إيمانا لا يَرْتَدُّ، ونعيما لا يَنْفَد، ومرافقة النبي ﷺ، في أعلى جنة الخلد»[١].

ومن أعطاه الله إيمانًا لا يرتد فهو قوي الإيمان، لا تُضعِفه الشهوات، ولا تنال منه الشبهات، فهنيئا له.. هنيئا له.

أوصى ابن سمعون -وكان يلقَّب: الناطق بالحكمة- رجلا شكى إليه ضعف الإيمان، فقال له: «يا هذا.. تظلَّم إلى ربك منك، واستنصِرْه عليك، ينصرك».



٥. التفكر

التفكر عبادة جليلة لكنها مهضومة الحق بين العبادات، قليل من يحافظ عليها، مع أنها كانت تحتل من أوقات الصالحين جزءا كبيرا حتى كانوا يقدِّمون تفكر ساعة على قيام الليل، لما له من ثمار عظيمة.

قال أبو الدرداء ﷺ: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة».

وسئل علي بن بكار: هل كان إبراهيم بن أدهم كثير الصلاة؟ قال: لا، ولكنه صاحب تفكر، يجلس ليله يتفكر.

وقدم رجل من البصرة على أم ذر بعد وفاة أبي ذر ﷺ يسألها عن عبادة أبي ذر، فقالت: «كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر».

---

(١) حسن صحيح: صحيح ابن حبان رقم: ١٩٦٧.



والتفكر بصر القلب، وهو أهم بكثير من بصر العين.

قال سفيان الثوري: «بصر العينين من الدنيا، وبصر القلب من الآخرة، وإن الرجل ليبصر بعينه فلا ينتفع ببصره، وإذا أبصر بالقلب انتفع».

أقسام التفكر

الأول: التفكر في نعم الله

محبة الله إنما تحصل من التفكر في نعمه، لأن النفس مجبولة على حب من أحسن إليها، فالتفكر في النعم مفتاح محبة المنعم، ولهذا التفكر له أعظم الأثر في تأجيج مشاعر حب الله في قلب العبد، قال أبو سليمان الواسطي:

«ذكر النعم يُورث الحب لله عز وجل».

أقسام التفكر
التفكر في الذنوب
التفكر في عظمة خلق الله
التفكر في حقارة الدنيا
التفكر في الأحداث اليومية
التفكر في نعم الله
التفكر في عيوب النفس
التفكر في الآخرة
التفكر في ثواب الأعمال

ولذا كان التفكر في النعم من أفضل العبادات في رأي عمر بن عبد العزيز، فقد قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة».

وهذا التفكر أول حلقة في سلسلة مباركة من الأعمال والأحوال، فالتفكر في النعم يقود صاحبه إلى محبة الله، ومحبة الله تقود إلى تفويض الأمر له، وتفويض الأمر له يقود العبد إلى الرضا. هذا ما قرَّره الإمام الجنيد:

«إن الرضا يُنال بالتفويض، والتفويض يُنال بالمحبة، والمحبة تنال باشتغال القلب بالذكر في نعم الله عز وجل».



لكن ما المقصود بالنعم؟!

النعم تشمل النعم الدنيوية، والأهم منها: الأخروية. قال أبو حامد الغزالي في بعض تفاصيل التفكر في نعم الله على عباده بالطاعات:

«أما نعمة عليك في الطاعة فقد أمكنك منها وأعطاك الآلة، وأزاح عنك العوائق حتى تفرَّغتَ لهذه الطاعة، وخصَّك بالتوفيق والتأييد ويسَّرها عليك، وزيَّنها في قلبك حتى عملتَها، ثم مع جلاله وعظمته واستغنائه عنك، وعن طاعتك وكثرة نعمه عليك، أعدَّ على هذا العمل اليسير الثناء الجزيل والثواب العظيم الذي لا تستحقه».

وقد انتقد الإمام ابن الجوزي من حوَّلوا عباداتهم إلى عادات، ثم قارَن بينهم وبين المؤمن المتيقظ:

«فإن الغافل يقول: سبحان الله عادة، والمتيقِّظ لا يزال فكره في عجائب المخلوقات أو في عظمة الخالق، فيحرِّكه الفكر في ذلك فيقول: سبحان الله».

الثاني: التفكر في عظمة خلق الله

التفكر في عظمة خلق الله، ما ظهر منها للإنسان، وما غاب عنه، كالملائكة والصراط والجنة والنار.



يحفِّزنا ابن الجوزي على التفكر الذي يزيد الإيمان فيقول:

«لو رأيت خطا مستحسن الرَّقْم لأدركك الدهش من حكمة الكاتب، وأنت ترى رقوم القدرة ولا تعرف الصانع! فإن لم تعرفه بتلك الصنعة، فتعجَّب كيف أعمى بصيرتك مع رؤية بصرك».

إن التفكر في عظمة الخلق يغرس ولابد في القلب تعظيم الخالق، وهو خير رادع عن العصيان،

وغياب التعظيم من القلب أول خطوة في سكة الذنب، ولذا قال بشر بن الحارث: «لو تفكَّر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل».

الثالث: التفكر في ثواب الأعمال

التفكر في ثواب الأعمال الصالحة يسهِّل القيام بها. قال ابن عباس:

«التفكر في الخير يدعو إلى العمل به، والندم على الشر يدعو إلى تركه».

فإذا وجدتَ فتورًا في الطاعة، وتكاسلاً عن العبادة، وتأخيرًا للصلوات، واعتذارًا عن مواطن القربات، فاعلم أنك في حاجة إلى جلسات تفكر، تُراجع فيها أحاديث فضائل الأعمال، وتتأمل في ما أعدَّه الله لك في الجنة من درجات.

هذا التشخيص قام به طبيب بارع من أطباء القلوب هو بشر بن الحارث، فقال:

«من لا يعرف ثواب الأعمال، ثقلت عليه في جميع الأحوال».

اسمع لبعض ثواب صلاة الجماعة كمجرد مثال:

قال النبي ﷺ: «إن لله تعالى ملكًا ينادي عند كل صلاة: يا بني آدم! قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على أنفسكم، فأطفئوها بالصلاة»(١).

وفي حديث آخر عبَّر عن أثر الذنوب بالإحراق؛ ليزجر الناس عنها، ويرغبهم في الصلاة، فقال ﷺ: «تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الصبح غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غسلتها،...»(٢).

فالخطايا التي يرتكبها العبد على مدار اليوم توقد له مستقره في جهنم، وتجهِّز له مقعدا في النار، فتأتي الصلاة لتحميه من كل هذا، وتنقذه من الهلاك. فآه لو تأمل كسول عن الصلاة هذا الفضل العظيم، هل يكسل يوما عن صلاة؟! أو يفرِّط في أسباب النجاة؟!

---

(١) حسن لغيره: رواه الطبراني والضياء عن أنس كما في صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٥٨.

(٢) حسن: رواه الطبراني في الأوسط رقم: ٢٢٢٤، وانظر صحيح الترغيب والترهيب: ٣٥٧.



الرابع: التفكر في الذنوب

ويشمل التفكرَ في ذنوبك التي تبت منها، والتي لم تتب منها، ما علمت منها، وما لم تعلم، ولا تستصغر ذنبا، فإن إبليس خرج من الجنة بسجدة واحدة تركها، وآدم أُخرِج منها بلقمة تناولها، فلا تأمن ذنبا واحدا من ذنوبك، والأجدر بك أن يكون لك مجالس تخلو فيها بنفسك، وتتفكَّر فيها بما سلف من ذنبك، ثم تستغفر الله منها. قال سفيان بن عيينة:

«التفكر مفتاح الرحمة، ألا ترى أنه يتفكر فيتوب».

والرحمة قريبة قريبة من كل من تفكر في ذنوبه، فحاسب نفسه عليها، وهي دعوة مالك بن دينار التي دعا بها، فقال:

«رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا؟ ألستِ صاحبة كذا؟ ثم ذمَّها ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله، فكان لها قائدًا».

خامسا: التفكر في الأحداث اليومية

وهذا تعلمناه من رسول الله ﷺ:

- يرى النبي ﷺ امرأة ترضع ولدها في السبي، فيذكر رحمة الله بالعباد، ويذكِّر بها أصحابه.
- ويرى ﷺ سحابا في السماء، فيذكر عذاب قوم عاد حين رأوا سحابا، فقالوا: هذا عارضٌ ممطرنا.
- وتُهدَى للنبي ﷺ حُلَّة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة، خير منها وألين»[1]، وإذا كان هذا شأن المناديل وهي أدنى النعيم، فما ظنك بأعلاها؟!
- ويمر ﷺ بأصحابه وهم يحفرون الخندق وينقلون التراب، فيعلِّمهم الدعاء: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»[2].

---

(١) صحيح: صحيح مسلم رقم: ٢٤٦٨.
(٢) صحيح الجامع رقم: ١٣٠٨.

قال أبو علي الملا الهروي القاري:

«مِنَح الدنيا ومحنها في كسب الجاه والمال من الأمور الفانية السريعة الزوال، فلا ينبغي لأحد أن يفرح ويغتر بسعتها، ولا يجزع ويشكو من ضيقها، بل يقول في الحالتين: «لا عيش إلا عيش الآخرة»! فإنه قاله ﷺ مرة في يوم الأحزاب، وأخرى في حجة الوداع وجمعية الأصحاب، ثم يعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الدنيا ساعة، فيصرفها في الطاعة».

وعلى طريق النبي المختار سار الصحابة الأخيار وسادة الأبرار، كانوا يتفكرون في ما يجري حولهم.

- ☑ عمر بن الخطاب ﷺ توقد له نار، فيُدني يده منها ويقول: يا ابن الخطاب.. هل لك على هذا صبر؟!
- ☑ عبد الله بن مسعود ﷺ يمُرُّ بالحدادين وقد أخرجوا حديدًا من النار، فينظر إليه ويبكي، متذكّرًا عذاب النار.
- ☑ الأحنف بن قيس يجيء إلى المصباح، فيضع إصبعه فيه، ثم يقول: حِس! ويقول: يا أحنف.. ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟!

وهكذا مع سائر الأحداث اليومية التي لا تسترعي انتباه أحد، لكنها تسترعي انتباه سالك طريق الآخرة. قال أبو حامد الغزالي:

«سالك طريق الآخرة لا يرى من الأشياء شيئًا إلا ويكون له موعظة وذكرى للآخرة، بل لا ينظر إلى شيء إلا ويفتح الله عز وجل له طريق عبرة.

- فإن نظر إلى سواد تذكر ظلمة اللحد.
- وإن نظر إلى حية تذكر أفاعي جهنم.
- وإن نظر إلى صورة قبيحة شنيعة تذكر منكرا ونكيرا والزبانية.
- وإن سمع صوتًا هائلاً تذكر نفخة الصور.



- وإن رأى شيئًا حسنًا تذكر نعيم الجنة.
- وإن سمع كلمة رد أو قبول في سوق أو دار، تذكر ما ينكشف من آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول».

وصدق سفيان بن عيينة حين قال: «إذا المرء كانت له فكرة؛ ففي كل شيء له عبرة».

بين الأمس واليوم!

قال العماد الأصبهاني نقلا عن نور الدين محمود:

حضرتُ مجلس نور الدين محمود، فتحدثنا في طيب هواء دمشق، وكان واجمًا لا يتحدث، والوزراء والأمراء حوله يتحدثون، فقالوا: مالك أيها الأمير! لا تتحدث؟ قال: «أما أنا فوالله لا يهدأ بالي ولا يرتاح حالي حتى يدخلني الله الجنة، ما دمشق؟! وما هواؤها وما طيبها أمام جنة عرضها السموات والأرض؟».

المؤمن لا يلهيه نعيم الدنيا عن نعيم الآخرة، بل يذكِّره نعيم الدنيا بنعيم الآخرة، فكلما زاد متاعه من الدنيا، زاد قربه من الآخرة، وكلما ازدادت نعمه ازداد شكره.

وفي الواقع المعاصر نزل الشيخ الشعراوي بفندق فخم في الولايات المتحدة الأمريكية، فانبهر مرافقوه بحالة الرفاهية الكبيرة وجمال المناظر الطبيعية أمام الفندق، فقال لهم الشيخ الشعراوي: «هذا ما أعد البشر للبشر، فماذا أعد رب البشر للبشر؟!».

سادسا: التفكر في الآخرة

قال عبد الله بن المبارك يومًا لسهل بن عدي لما رآه ساكتًا متفكرًا: أين بلغتَ؟ قال: الصراط!

ولما قفل الصحابي أبو ريحانة من غزوة له، تعشَّى ثم توضأ، وقام إلى مسجده فقرأ سورة، فلم يزل في مكانه حتى أذَّن المؤذن، فقالت له امرأته: يا أبا ريحانة، غزوت فتعبت ثم قدمت، أفما كان لنا فيك نصيب؟ قال: بلى والله، لكن لو ذكرتك لكان لك عليّ حق: قالت: فما الذي شغلك. قال: التفكر فيما وصف الله في جنّته ولذّاتها حتى سمعت المؤذن.

إن حمل الهموم ومعاناة الغموم أمر يحتكره أهل الدنيا، فقلّما تجد من حمل همّ الآخرة، وتفكّر في أحداث الغد، فهل لنا أن نعيد اليوم ترتيب الأولويات؛ لنستعد لما هو آت.

قديمًا تفكر ابن الجوزي في نعيم الجنة، فدفعه هذا التفكر للصبر الجميل وتحمل المشاق، فقال في ذلك: «وأعظم ما عنده أنه يتخايل دوام البقاء في الجنة، وأن بقاءه لا ينقطع، ولا يزال، ولا يعتريه منغِّص، فيكاد إذا تخايل نفسه متقلبًا في تلك اللذات الدائمة التي لا تفنى، يطيش فرحًا، ويسهل عليه ما في الطريق إليها من ألم ومرض وابتلاء وفقد محبوب وهجوم الموت ومعالجة غُصَصِه».

سابعا: التفكر في حقارة الدنيا

وقد ضرب النبي ﷺ مثلا للدنيا، كي يضعها في حجمها الحقيقي أمام بصيرة كل مؤمن، فقال ﷺ:

«إن مطعم ابن آدم قد ضُرِب للدنيا مثلاً، فانظر ما يخرج من ابن آدم وإن قزَّحه وملَّحه، قد علم إلى ما يصير»[1].

وقزّح طعامه أي أضاف إليه التوابل، والمعنى: إن الطعام وإن بالغ صاحبه في إعداده وتحسين صنعته ليكون أشهى، فإنه صائر إلى أسوأ حال تنفر منها النفوس، وهكذا الدنيا.

فكل ما غرَّك من الدنيا، وأوشك أن يلهيك عن الآخرة، فاذكر إلام يصير، لتصحِّح الوجهة والمسير.

أوصى أبو الدرداء ﷺ رجلاً يريد الغزو فقال له: «اذكر الله في السَّراء يذكرك في الضرّاء، وإذا أشرفتَ على شيء من الدنيا فانظر إلى ما يصير». وما أصدق ما قيل:

لا طيب للعيش ما دامت منغَّصةً ... لذَّاتُه بادِّكارِ الموت والهَرَم

وما أجمل قول القائل:

إذا تمَّ أمرٌ بدا نقصه ... ترقَّبْ زوالا إذا قيل تم

(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٣٨٢.



فإذا كنت في حالة سعة وسرور، فتفكر أنها حال مؤقتة زائلة، إما بالفراق أو بالموت.

وإذا كنت في ضيق وشدة، فاعلم أن هذه الشدة راحلة، بالفرَج أو بالموت.

فلا بقاء لنعمة ولا لشدة، ولا دوام ليسر ولا لعسر، ولا لصحة ولا لمرض، فإذا تفكرت في هذا، لم تفرح كثيرا على ما ربحت من دنياك، ولم تحزن كثيرا على ما فات.

ثامنا: التفكر في عيوب النفس

النفس البشرية مجبولة على تلمس عيوب غيرها، مع الغفلة عن عيوبها، وهي علامة سوء كما رآها الإمام السَّرِيُّ السَّقَطي، فقال:

«مِنْ علامةِ الاستدراج: العمى عن عيوب النَّفْس».

وقد عمل السَّرِيُّ بما دعا الناس إليه، فكان رَحِمَهُ اللَّهُ إذا دُعِي لغيبة أو وقيعة في مسلم قال:

«إن في النفس لشغلاً عن الناس».

وهذا النوع من التفكر لازم؛ لأن الإنسان ضعيف البصر في ما يتعلق بعيبه، حاد البصر إذا تعلق الأمر بعيوب غيره، وقد حذَّر النبي ﷺ من هذا السلوك، فقال:

«يُبْصِر أحدكم القذى في عين أخيه، وينسى الجذع في عينه»[1].

والقذى هو ما يقع في العين والماء والشراب من نحو تراب وتبن ووسخ، وينسى جذع النخلة في عينه، كأن الإنسان لنقصه وحب نفسه يدقِّق النظر في عيوب أخيه، فيدركها مع خفائها، ويعمى عن عيب نفسه الواضح الذي لا خفاء فيه، وقد أحسن أبو البُحتري العنبري حين قال:

يمنعني من عيب غيري الذي ... أعرفه عندي من العيب
عيبي لهم بالظن مني لهم ... ولست من عيبي في رَيْب
إن كان عيبي غاب عنهم فقد ... أحصى عيوبي عالمُ الغيب

(١) صحيح: رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٨٠١٣.



إن عيبا واحدا من عيوبك كافٍ لإهلاكك، فقد خرج إبليس من الجنة بعيب واحد هو الكِبْر، فكيف لو كان لديك عيوب كثيرة؟! وماذا لو خفيت عليك هذه العيوب؟!

عجبتُ لمن يبكي على موت غيره دموعًا ولا يبكي على موته دمــا
وأعجبُ مِنْ ذا أن يرى عيب غيره عظيمًا وفي عينيه عن عيبه عمى

إن تفكُّرك في عيوب نفسك، عليه مدار خسارتك أو فوزك، وهذا التفكر وحده القادر على أن يكسر النفس الأمارة بالسوء؛ ليحيي فيك النفس المطمئنة وينعشها.

تاسعا: التفكر في أحوال الأمم

سنن الله في قيام الممالك وانهيارها هي قوانين صارمة، ولا تتخلف ولا تتبدل.

قال جبير بن نفير:

لما فُتِحَتْ قبرص، فُرِّق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعضٍ، ورأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي، فقلت: يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يومٍ أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟!

قال:

«ويحك يا جبير! ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره! بينا هي أمَّةٌ قاهرةٌ ظاهرةٌ، لهم الملك، تركوا أمر الله؛ فصاروا إلى ما ترى».

إن صاحب التفكر الصائب والنظر الثاقب لا تغيب عنه سنن الله في الأمم والمجتمعات، فكلما تمرَّدت هذه الأمة على سنن الله نزلت بها النكبات!



وكأنَّه بلسان الحال يقول:

يا أمة محمدٍ، إن سقط عرش هذه الدولة، ومكَّنكم الله من أرضهم وديارهم، فاعلموا أنَّكم إن سلكتم طريقهم، جرت عليكم السُّنَّة نفسها، وقد حصل هذا بالفعل؛ فلقد رجعت قبرص إلى غير المسلمين ثانيةً، لمَّا تخلى المسلمون عن أمر الله وفرَّطوا فيه، فظهر عليهم عدوُّهم، وزال سلطانهم.





٦. الذنب الفعال:

الذنب قد يكون سببًا لتجديد الإيمان وصحوة القلب الحيران، بشرط أن يصاحِبه:

سرعة الإفاقة:

تفيق من سكرة الذنب بسرعة، وتنهض من كبوتك، وكلما أسرعتَ بالتوبة من الذنب، كانت المغفرة أقرب، وأما تأخير التوبة، فله عقوبتان:

- يُنسيك التوبة من ذنبك.
- ويجُرُّك إلى ذنب آخر.

الثأر المقدس:

الحروب سجال، يوم لك ويوم عليك، فإذا نال منك الشيطان، فما هي بنهاية المطاف، بل بوسعك أن تقلب الهزيمة نصرا، والخسارة أرباحا، فما الاستسلام من عادتك، ولا اليأس من شيمتك، بل تغيظ الشيطان بطاعتك، وترتقي في درجات الجنة بتوبتك، حتى يصيح إبليس: ليتني لم أوقعه في هذا الذنب الخسيس.

قال عبد الله بن سلام: «لا أحدِّثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزَّل، إن العبد إذا عمل ذنبا، ثم ندم عليه طرفة عين، سقط عنه أسرع من طرفة عين».

تعلم الدرس:

من أي ثغر تسلل إليك الشيطان؟!

من أي باب غزا اللص دارك؟!

ما نقطة ضعف التي استغلها فيك؟!

ادرس نقاط ضعفك وقوَّها، واعرف ما تكرر من ذنوبك وعالج أسبابها.

ادرس
نقاط ضعفك
واعرف ما تكرر
من ذنوبك
وعالج أسبابها





٧. تعرف على رسول الله ﷺ

من أسباب زيادة الإيمان أن تتعرف على نبيك الكريم ﷺ، فقد قال الله ﷻ منكرًا على الكافرين: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون:٦٩].

يقول لهم: أليس رسول الله معروفا عندكم بالصدق والأمانة ووفور العقل وكمال الأخلاق، فكيف لم تؤمنوا به؟! وهو توبيخٌ لمن أعرض عن رسول الله ﷺ بعدما عرفه.

كلما عرفت رسول الله ﷺ، وطالعتَ سيرته ومعجزاته، أحببته وازددت به إيمانًا، وكلما عرفت ما لاقاه من مصاعب وأهوال وتكذيب وعناد، وكيف صبر على أذى قومه حتى تصلك رسالته؛ وكيف اضطروه للهجرة من أحب البلاد إليه، وقتلوا أحب أصحابه إليه، واتهموه في عِرْضه حين رموا بالإفك عائشة وهي أحب الخلق إليه، لو عرفتَ كل هذا لازددت له حبًا وتقديرًا وإيثارًا وتعظيمًا.

إن معرفة الرسول ضرورة فوق كل ضرورة. قال ابن القيم:

«اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، فإنه لا سبيل إلى الفلاح إلا على يديه، ولا إلى معرفة الطيِّب من الخبيث على التفصيل إلا من جهته، فأي حاجة فرضت وضرورة عرضت، فضرورة العبد إلى الرسول فوقها بكثير.

وما ظنك بمن إن غاب عنك هديه، وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي، وما لجرح بميت إيلام».



٨. حافظ على نوافلك

ومن أسباب زيادة الإيمان المواظبة على النوافل.

في الحديث القدسي: **«وما تقرَّب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه».**



فالإكثار من النوافل بعد استكمال الفرائض أفضل ما يغذّي شجرة الإيمان.

وأوامر الله تعالى فرائض ونوافل؛ فالفرائض رأس المال، وهو أصل التجارة، وبه تحصل النجاة، والنوافل أرباح، وبها الفوز بأعالي الدرجات.

وقول «ولا يزال» يفيد الاستمرارية، فهذا شرط مهم لتقوية الإيمان، وإلا فالانقطاع عن العمل الصالح مع إهمال النفس ذو أثر ضعيف في زيادة الإيمان، لذا كان القليل الدائم خيرًا من الكثير المنقطع، ولما سئل النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «أدومها وإن قل»، وكان النبي ﷺ إذا عمل عملاً أثبته.

إن الثبات على الطاعات مفتاح محبة الله للعبد، والمحبة المقصودة بقوله «فإذا أحببته»: المحبة الكاملة، وإلا فالله يحب كل مؤمن، لكن محبته لعباده ليست على مرتبة واحدة، بل تتفاوت وتتفاضل كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، فالأنبياء يتفاضلون فيما بينهم في المرتبة والمحبة بحسب أحوالهم وأعمالهم.

وكلما ارتقى العبد في قوة الإيمان زادت محبة الله وولايته له:

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

ومتى تمكنت المحبة في القلب تسابقت الجوارح إلى طاعة الرب، لذا قال ربنا:

«فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها».

فحركة الجوارح تابعة لما في القلب، فإذا كان العبد بكليته مشغولاً بالله تعالى، فإذا سمع سمع ما يرضي الله، وإذا أبصر أبصر ما يرضي الله.

لكن ما بال النوافل هي السبب الموصل إلى محبة الله ﷻ دون الفرائض؟!

أجابوا عن ذلك بأن العبد يؤدي الفرائض مخافة العقاب ورجاء الثواب، أما النافلة فيفعلها العبد بنية التقرب إلى الله ﷻ، فلما خلصت النية في النوافل كانت هي السبب الموصل إلى محبة الله ﷻ دون الفرائض.





٩. صاحب الصالحين

الصاحب الصالح يزيد في إيمان صاحبه، وصاحب السوء سبب نقصان الإيمان، ولذا جاء النهي النبوي صريحًا وواضحًا وجازمًا: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي»(١).

وهذا لأن آثار الصحبة عظيمة، بالسلب أو الإيجاب، وزَجَر الحديث عن مؤاكلة غير المؤمن، لأنها تغرس الألفة والمودة في القلوب، وتتضاعف أهمية الصحبة وتأثيرها على منسوب الإيمان عند غربة الدين وعلو المنافقين وغياب الصالحين، فصحبة الفاسق ومخالطته والإصغاء إليه تعكس لديك الصورة، فتريك الحق باطلا والباطل حقا، وهذا -في حقيقته- من أسباب سبب حيرة كثير من الناس اليوم في التمييز بين الحق والباطل.

قال ابن القيم في المدارج عن خطورة صحبة السوء:

«وكم جلبت خلطة الناس من نقمة، ودفعت من نعمة؟ وأنزلت من محنة، وعطّلت من منحة، وأحلت من رزية، وأوقعت في بلية؟ وهل آفة الناس إلا الناس؟

وهل كان أبي طالب عم النبي ﷺ عند الوفاة أضر من قرناء السوء؟

لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد».

وصلت رسالتك يا كعب!

وراجع كلام **كعب بن مالك** رضي الله عنه، وهو الصحابي الذي تخلف عن غزوة تبوك بغير عذر، فوجد نفسه وحيدا بعد رحيل الصحابة إلى الغزو مع رسول الله ﷺ.

قال كعب بن مالك: «كنتُ إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ، أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصًا بنفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء».

(١) حسن: رواه أحمد الترمذي وابن حبان عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٧٣٤١.

وفي كلام كعب رسالة عظيمة لكل مؤمن، فما فحوى هذه الرسالة.

فحواها:

إذا رأيتَ نفسك..

- أحاط بك أهل الغفلة من كل جانب.
- ولا ينصحك إلا من شهد الناس عليه بالسوء.
- ولا تشكو همومك إلا إلى رجل مغموس بنفاق.
- ولا يصحبك إلا من ينتقص من إيمانك ويهدم من تقواك.
- ولا يفرح بك ويبشُّ في وجهك إلا كل متهمٍ في دينه.

فاعلم أنك على شفا جُرُفٍ هار، وأنها زمرة خاسرة تجرُّك معها إلى النار، وأنك إن أنت تابعتها وجاريتها ستتوالى عليك الأوزار كالأمطار.

وانظر حولك!



كم من رجل ترك الصلاة؛ لأن أصحابه لا يصلون.

وكم من فتاة خلعت حجابها؛ لأن صاحباتها المتبرجات شجَّعنها عليه.

وكم من آخرون استمرؤوا الذنوب؛ لأن من حولهم يذنبون، ولا يتناصحون.

أخي..

الصاحب ساحب، وفي تأثيره ساحر.

ومن تهاون بمخالطة الفساق، (استحلى) الفسق بعد كراهيته.

وفسد (عقله) بعد رجاحته.

وتغيَّرت (آراؤه) حول الأحداث لتطابِق آراء أهل الفسق.

لأن الطباع مجبولة على التشبُّه والاقتداء، بل الطبع يسرق من الطبع دون أن تشعر.

والطيور على أشكالها تقع.

إذا كنت في قومٍ فاصحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى



وقد رُوِي عن مالك بن دينار أنّه قال لختنه (صهره) يومًا:

«يا مغيرة، انظر كلّ أخ لك وصاحب لك، وصديق لك، لا تستفيد في دينك منه خيرا، فانبذ عنك صحبته، فإنّما ذلك لك عدو».

وهل يفسق الناس إلا بإصغائهم إلى كلام الفاسقين ! قال ابن عطاء:

«لا تُمكِّن زائغ القلب من أذنيك، فإنك لا تدري ما يعلق بهما منه».

واعلم أن هذه سُنَّة كونية لا تتخلف!

الإلكترونات تدور حول البروتونات.

والأقمار تدور حول الكواكب.

والكواكب تدور حول الشمس.

وأنت كذلك لابد لك من دوران، لكنه حول الناس، ومعه تعلق القلب والإحساس!

فاجعل مسارك حول أهل الجنة لا أصحاب النار!

لذا كان صاحب الخير خيرًا من صاحب السوء.

وكان العزلة خيرًا من صاحب السوء.

واعلم أن صحبة الدنيا مجرد بداية، وبعدها الاجتماع مع صحبة الآخرة، فأهل الجنة وأهل النار لا يُساقون إلى النعيم أو الجحيم فرادى، بل زُمَرا وجماعات.

فاجعل في دعائك:

اللهم ارزقني جليسا صالحا.

أرى في مرآته عيوب نفسي.

وأفرح إذا أهدى إليّ عيوبي.

يأخذ بيدي إن استزلني الشيطان.

أو خفت في قلبي وهَج الإيمان.

وصلت رسالتك يا كعب، فأعنا على العمل بها يا رب.



العبودية روح العبادة، والدافع إليها.

العبودية قلب والعبادة قالب.

والعبودية زاد المؤمن الذي يقويه على العبادة.

وهي حالة قلبية تهيمن على كيان الإنسان ومشاعره، فتقوده إلى تعظيم الله ومهابته والتوكل الدائم عليه، فلا يدين بالولاء والتعظيم لغير الله.

وقيمة كل عبادة بحسب ما تنطوي عليه من عبوديةٍ لله، ذلك أن الذي يقرب العبد من ربه هو تحقيقه لمعنى العبودية له، وإنما شُرعت العبادات من أجل ترسيخ العبودية.

ولا قيام للعبودية إلا على ساقين: غاية الحب وغاية الذل.

وغاية الحب إنما تنشأ من مشاهدة النعم التي تورث الحب، وغاية الذل تنشأ من مطالعة عيوب النفس التي تورث الذل، وتتفاوت منازل الخلق عند الله بحسب تفاوتهم في حبهم وتذللهم له.

قد تحصل (صورة) العبادة، لكنها بغير (روح)، فيردها الله على صاحبه، ولا يقبل منها

شيئًا، وتأمل قوله ﷺ:

«رُبَّ صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلا السهر»(١).

الافتقار كنز الأبرار

ومعنى الحديث أن مجرد الإكثار من عبادات الجوارح ليس دليلا على قرب العبد من الله، بل دليل القرب هو مقدار عبودية القلب، ولا يطلع على القلب إلا الله ﷻ.

قال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٢).

وقِسْ على ذلك ما وُصف به أبو بكر الصديق ﷺ بأنه (ما سبقكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء وقر في صدره)، وهذا مدحُ لعبوديته لا عبادته، ومثله قول ابن مسعود مخاطبًا بعض التابعين:

«أنتم أكثر صلاة من أصحاب محمد ﷺ، وهم كانوا خيرًا منكم»، قالوا: وبم ذلك؟ قال: «كانوا أزهد منكم في الدنيا، وأرغب في الآخرة».

كم من مبيض لثيابه مُدَنّس لدينه

وهذه بعض ميادين العبودية الغائبة عن كثير من معاملاتنا، وهي ثمانية ملامح:

(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن أبي هريرة كما صحيح الجامع رقم: ٣٤٨٨.
(٢) صحيح: رواه مسلم وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٨٦٢.



١ . عبودية السر والعلن:

عبودية السر أصعب من عبودية العلن، ففي السر تختفي حظوظ النفس، وتنمحي رغبتها في الاشتهار بين الخلق والمباهاة، وأعمال السر هي التي تروي شجرة الإخلاص في القلب.

قال عبد الله بن داود الخريبي:

«كانوا يستحبُّون أن يكون للرجل خبيئةٌ من عملٍ صالحٍ، لا تعلم به زوجته ولا غيرها».



لهذا؛ فإنَّ من توفيق الله للعبد أن يحرص على هذه الوصية الزُّبيريَّة:

«من استطاع أن تكون له خبيئةٌ من عملٍ صالحٍ، فليفعل».

فإن سألت: ما مثال الخبيئة؟!

فالجواب: أمثلة هذا كثيرةٌ، كأن..

- تدمع عينك وأنت خالٍ بربك!

- أو تتصدَّق بصدقةٍ فتخفيها؛ حتى لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك.

ونحو هذا من الأعمال الصالحة التي ترفع قدر العبد دنيا وآخرة.

ذُكِر ابن المبارك عند الإمام أحمد -رحمهم الله جميعًا- فقال الإمام أحمد:

«ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئةٍ كانت له».



٢. عبودية الحلم والغضب:

العبودية عند الغضب أصعب بكثير من العبودية عند الحلم.

لذا كان من الدعوات النبوية المباركة قول النبي ﷺ:

«وأسألك كلمة الحقِّ في الغضب والرِّضا».

وهذا عزيز، أن يقول الإنسان الحقَّ في كل أحواله، غضبَ أو رضيَ، ولا تُختبر عبودية العبد بمثل الغضب، لذا كان الشعبي من أولع الناس بهذا البيت من الشِّعر:

ليست الأحلام في حين الرضا إنما الأحلام في وقت الغضب

أسمع رجل عمر بن عبد العزيز كلامًا، فقال له عمر:

أردتَ أن يستفِزَّني الشيطانُ بعِزِّ السلطان، فأنالَ منك اليوم ما تناله منّي غدًا، انصرفْ رحمك الله.

وهذا دليل كمال عبوديته لربه، وانتصاره على حظ نفسه، وظل هذا معه حتى عند موته!

لما سُمَّ عمر بن عبد العزيز قال للخادم الذي سمَّه: لم سممتني؟

قال: أعطاني فلان ألف دينار على أن أسُمَّك، قال: أين الدنانير؟

قال: هي ها هنا، فأتى بها فوضعها في بيت مال المسلمين، وقال للخادم: اذهب، ولم يعاقبه!

٣. عبودية العافية والبلاء:

عبودية البلاء أصعب من عبودية العافية، لذا قال الحسن البصري:

«كانوا يتساوون في وقت النِّعَم، فإذا نزل البلاء، تباينوا».

وقال أبو سعيد الخراز:

«العافية سترتْ البر والفاجر، فإذا جاءت البلوى يتبين عندها الرجال».

وهذا التباين بين العبوديتين عرضه الإمام ابن القيم، فقال:

«وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى، فالوضوء بالماء البارد في شدة الحر عبودية، ومباشرة زوجته الحسناء التي يحبها عبودية، ونفقته عليها وعلى عياله ونفسه عبودية.

هذا.. والوضوء بالماء البارد في شدة البرد عبودية، وتركه المعصية التي اشتدت دواعي نفسه إليها من غير خوف من الناس عبودية، ونفقته في الضراء عبودية، ولكن فرق عظيم بين العبودتين».

وقال ابن القيم في كتابه (شفاء العليل):

«فمن قال: آمنا، امتحنه الرب تعالى وابتلاه، لتتحقق بالإيمان حُجَّة إيمانه، وثباته عليه، وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط، بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء».

ومن أجمل أقوال مصطفى صادق الرافعي في عبودية البلاء ما ذكره في مقال (الانتحار) في كتابه وحي القلم:

«فمن آمن بالله فكأنما قال له: (امتحني!)، وكيف تراك إذا كنت بطلا من الأبطال مع قائد الجيش، أما تفرض عليك شجاعتك أن تقول للقائد: (امتحني وارم بي حيث شئت!).

وإذا رمى بك فرجعت مثخنًا بالجراح ونالك البتر والتشويه، أتراها أوصافًا لمصائبك، أم ثناء على شجاعتك؟!».

٤. عبودية الإقبال والإدبار

العبودية عند إدبار القلب وفتور النفس أشق على النفس من العبودية عند الإقبال.



قال عمر بن الخطاب ﷺ يصف حال المؤمن في حالتي الإقبال والإدبار:

«إنَّ لهذه القلوب إقبالاً وإدبارًا. فإذا أقبلت فخذوها بالنوافل، وإن أدبرت فألزموها الفرائض».

لابد لكل هِمَّة من صعود وهبوط، لكن المؤمن الذي عرف واجب العبودية لربه لا يسترسل مع فتوره، بل يحرص على تقليل فتوره إلى الحد الأدنى؛ ليعود إلى ما كان عليه من همة ونشاط. قال ابن القيم:

«تخلُّل الفترات للسالكين أمر لا بد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تُخْرِجه من فرض، ولم تدخله في محرَّم؛ رُجي له أن يعود خيرًا مما كان».

وقال في كتاب الفوائد:

«لابد من سِنة الغفلة ورقاد الهوى، ولكن كن خفيف النوم».



٥. عبودية ما بعد رمضان:

عبوديتك في غير رمضان أصعب من عبوديتك لله في رمضان، فرمضان موسم الإقبال الجارف على المساجد والقرآن، فلو ترك العبد نفسه مع التيار لسار مع الأبرار.

أما بعد رمضان، فتشكو المحاريب غياب المصلين وقلة المرتادين، وتشكو المصاحف جموع الهاجرين، إلا من كان من الثابتين الصادقين، وهؤلاء من الأقلين.

٦. بين المسجد والسوق:

أخي.. ليست العبودية أن تُصلي في الصف الأول وتأكل الحرام.

ولا أن تصوم الإثنين والخميس ثم تتعامل بالرشوة.

ولا أن تُكثِر من الصدقات على الأرامل والمساكين، ثم تقصِّر في فرائض الدين.





لذا حرص النبي ﷺ على نصح الناس ليس في المسجد فحسب، بل في قلب الأسواق حيث تسوء الأخلاق!

خرج النبي ﷺ يوما إلى المصلى، فرأى الناس يتبايعون، فقال: يا معشر التجار! فاستجابوا لرسول الله ﷺ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال:

«إن التجار يُبعَثون يوم القيامة فجارا، إلا من اتقى الله وبَرَّ وصدق»(١).

وفي رواية: قيل: يا رسول الله.. أو ليس قد أحل الله البيع؟ قال:

«بلى، ولكنهم يحدِّثون فيكذبون، ويحلفون فيأثمون»(٢).



٧. عبودية الشاب:

ما أصعب عبودية الشباب في مقابل عبودية الشيوخ، فالشباب سن اضطرام الشهوة وكثرة الفتن، لذا قال رسول الله ﷺ:

«إن ربك ليعجب للشاب لا صبوة له»(٣).

أي شاب ليس له ميل إلى الهوى لاعتياده الخير وقوة عزيمته في البعد عن الشر في عُمْر الشباب الذي هو مظنة الفساد والانحراف، لذا عظم ذلك عند الله وكبر لديه أمر هذا الشاب، ولأن ذلك عزيز نادر، فلذلك قرنه بالتعجب.

٨. عبودية القلب والجوارح:

عبودية القلوب أفرض على العبد من عبودية الجوارح بل وأشق، وهي أعظم من عبودية

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والدارمي وابن ماجة وابن حبان كما في لسلسلة الصحيحة رقم: ٩٩٤.
(٢) صحيح: رواه أحمد والطحاوي والحاكم كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٦٦.
(٣) صحيح: رواه الروياني في مسنده كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٨٤٣.



الجوارح وأدوم، فهي واجبة في كل وقت، ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام، والإسلام واجب الجوارح في بعض الأحيان، ومركب الإيمان القلب، ومركب الإسلام الجوارح.

كثير من الناس لا يعلم أن على القلب عبودية في الأمر كما على الجوارح، ويجهل أن تعطيل عبودية القلب بمنزلة تعطيل عبودية الجوارح، ولذا يثاب العبد على الحب والبغض والموالاة والتوكل والرضا والمعاداة في الله، ويُعاقَب على الكبر والحسد والعجب والرياء وظن السوء بالأبرياء.

كما أن أعمال الجوارح تتضاعف إلى حد معلوم، وأما أعمال القلوب: فلا ينتهي تضعيفها.

بل إن ثواب الأعمال وأجرها يتفاوت بحسب ما في قلوب العابدين.

قال ابن تيمية:

«الأعمال تتفاضل عند الله بتفاضل ما في قلوب العاملين».

وتبعه ابن القيم فقال:

«فتفاضل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها».

وإليك مثلا: الفارق العظيم بين صلاة المخلص الخاشع الذي يتلذذ بصلاته، لأنها تصله بربه، وصلاة الغافل الذي لم يستشعر معاني الصلاة بعد أن تحوّلت صلاته عادة.

قال حسان بن عطية في هذه المقارنة:

«إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة، وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض؛ وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله عز وجل، والآخر ساه غافل».

بل وما أكثر الناس الذين يغفلون اليوم عن سيئات القلوب وكبائرها. يقول ابن القيم:

«وأكثر المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها، ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب، ليتوبوا منها!

فعندهم من الإزراء على أهل الكبائر، واحتقارهم.



وصوله طاعاتهم، ومِنَّتهم على الخلق بلسان الحال.

واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم، اقتضاء لا يخفى على أحد، وتوابع ذلك ما هو أبغض إلى الله، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك».

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر.

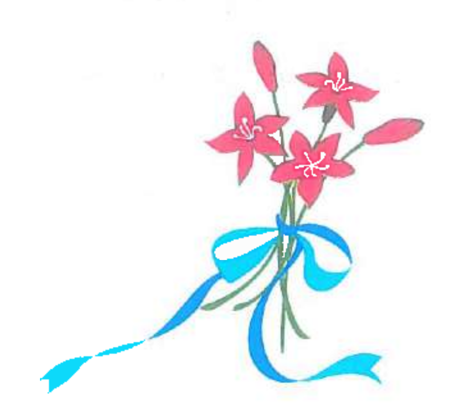
وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر.

وهذا أمر مرجعه إلى القلب».

أرأيت أهمية القلب، وعبودية القلب؟!

ومن الأحاديث النبوية في هذا قوله ﷺ: **«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»**[1].

كِبْرٌ قدْره مثقال ذرة حرم صاحبه من دخول الجنة، فما أخطر عمل القلب!



(١) صحيح: رواه مسلم عن ابن مسعود كما في صحيح مسلم رقم: ٩١.



«قال الله تعالى:

يا ابن آدم..

قُم إليّ أمشِ إليك، وامشِ إليّ أهروِل إليك»[1].

هذا الحديث معناه:

أن المفتاح بيدك! ملّكك الله إياه مع أنك عبد!

أنت عبده، لكنك في الحقيقة أعزُّ من كل سيِّد، لأن الذي أعزَّك ورفع قدرك هو ملك الملوك!

أعطاك كلَّ شيء، ما دمتَ آمنتَ به!

يخاطبك ويقول:

مفتاح القرب معك.

(١) صحيح: رواه أحمد عن رجل كما في صحيح الجامع رقم: ٤٣٤٠.

تريدني..

أن أذكرك؟! اذكرني..

أن أتقرَّب منك ذراعًا؟! تقرَّب إليَّ شبرًا..

أن أتقرَّب منك باعًا؟! تقرَّب إليَّ ذراعًا..

أن أمشي إليك، فما عليك إلا أن تقوم إليَّ.

أن أهرول، سأفعل.. إن مشيتَ نحوي!

تريدني.. تريدني.. تريدني.. سأفعل كل ما أردتَ مني.. يا عبدي!

ولن أعاملك معاملة أصحاب الجاه والسلطان.

إن أردتَ مقابلة أحدهم، إما أن يوافق أو لا يوافق..

وإن وافق حدَّد لك ما ستتكلم فيه كي لا تتعدّاه..

ثم حدَّد مكان المقابلة، وموعد المقابلة، ومدة المقابلة، ثم جعل لك موعدا لا تتجاوزه، فإن تأخرت عنه ألغى اللقاء!

وكل هذا من ألوان الذل، ومن عبودية البشر للبشر.

فماذا عن مقابلة رب العالمين؟!

تدخل عليه في أي وقت، وفي أي مكان.

وبأي ملابس ما دامت طاهرة وتستر عورتك.

ثم تكلِّمه بما تحب..

وأنت الذي بيدك أن تُنهي المقابلة إن شعرتَ بالملل!

لأنه سبحانه.. لا يملُّ حتى تملوا!

أهذه -بربِّك- عبودية؟!

أهذا ذُلٌّ؟!

إن السيد من البشر يستهلك جهد عبيده في طاعته، لكن عبودية الله تعطي العبد كل خير من ربه! فهي عبودية عطاء لا أخذ، واستفادة لا إفادة.

وصدق الذي قال:

حسْبُ نفسي عِزا بأنِّيَ عبدٌ يحتفي بي بلا مواعيدَ ربٌّ
هو في قُدسِه الأعزُّ ولكن أنا ألقى متى وأين أُحِبُّ!

وأخيرًا..

الله يريدك..

يريد أن تبدأ، وسيأخذ بيدك.

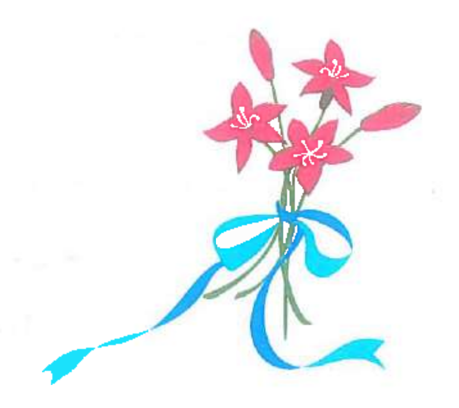
أن تتقرب منه بالسجود، ليتقرب منك بالجود.

أن تُقبِل عليه أدنى إقبال، وسيأخذ بيديك نحو الكمال.

أن تنطق بالسؤال، وسيتفضل بالنوال.

أن تجتهد فيما يرضيه، وسيكافئك -لا بما يرضيك فحسب- بل بما يدهش معاليك!

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾.





صحبة الكرام

أولا: ما الملائكة ؟

ثانيا: ما معنى الإيمان بالملائكة ؟

ثالثا: ما دلالة عظمة الملائكة ؟

رابعا: هل الملائكة يفترون؟

خامسا: ما أعداد الملائكة ؟

سادسا: ما قدرات الملائكة ؟

سابعا: ما علامات رعاية الملائكة للعباد؟

ثامنا: ما واجبنا نحو الملائكة

تاسعا: من الذين تصلي عليهم الملائكة ؟

عاشرا: من الذين تلعنهم الملائكة ؟



قال الجرجاني: «المَلَك: جسم لطيف نوراني يتشكل بأشكال مختلفة».

وقال ابن حجر: «قال جمهور أهل الكلام من المسلمين: الملائكة أجسام لطيفة، أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة، ومسكنها السموات».

وقال أيضًا: «الملائكة جمع ملَك بفتح اللام».

وقيل: «مشتق من الألوكة وهي الرسالة، وهذا قول سيبويه والجمهور، وأصله لاك».

وقيل: «أصله المَلْك، وهو الأخذ بقوة».

ولفظ الملَك يُشْعِر بأنه رسولٌ مُنَفِّذٌ لأمر غيره، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، والملائكة يُنفِّذون أمر الله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾

أي لا يقولون حتى يقول، ولا يتكلمون إلا بما يأمر، ويوضح هذا ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا».

فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤][1].

(١) صحيح: رواه البخاري عن ابن عباس كما في صحيح البخاري ٣٢١٨.

ثانيًا

ما معنى الإيمـــان بالملائكة؟!

صَحِبْتُ الكِرامَا

قال الإمام السيوطي في كتابه (الحبائك في أخبار الملائك):

«الإيمان بالملائكة ينتظم في معانٍ:

أحدهما:

التصديق بوجودهم.

الثاني:



إنزالهم منازلهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه، كالإنس والجن مأمورون ومكلَّفون، لا يقدرون إلا على ما أقدرهم الله عليه، والموت عليهم جائز، ولكنّ الله تعالى جعل لهم أمدًا بعيدًا، فلا يتوفاهم حتى يبلغوه، ولا يوصَفون بشيء يؤدي وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى، ولا يُدعَون آلهة كما دعتهم الأوائل.



الثالث:

الاعتراف بأنّ منهم رسلاً يرسلهم الله إلى من يشاء من البشر، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض، ويتبع ذلك الاعتراف بأنّ منهم حملة العرش، ومنهم الصافّون، ومنهم خزنة الجنة، ومنهم خزنة النار، ومنهم كتبة الأعمال، ومنهم الذين يسوقون السحاب، فقد ورد القرآن بذلك كله أو بأكثره».

والمادة التي خلق منها الملائكة هي النور؛ ففي صحيح مسلم عن عائشة ﵂: أن رسول الله ﷺ قال:

«خُلِقت الملائكة من نور، وخُلِق الجان من مارج من نار، وخُلِق آدم مما وُصِف لكم»[1].

ولما كانت الملائكة مخلوقة من نور، فإن العباد لا يستطيعون رؤيتها، خاصة أن الله لم يعط أبصارنا القدرة على هذه الرؤية.

ولم ير الملائكة في صورتهم الحقيقية من هذه الأمة إلا رسول الله ﷺ، فإنه رأى جبريل مرتين في صورته التي خلقه الله عليها.

الأولى:

بعد البعثة بثلاث سنوات؛ ففي صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ قال:

«بينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، ففرقت منه، فرجعت، فقلت: زمِّلوني زمِّلوني»[2].



(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٢٣٨.
(٢) صحيح: رواه البخاري عن جابر كما في صحيح البخاري رقم: ٤٩٥٤.



والثانية:

عندما عُرج به إلى السماء، ففي الحديث:

«مررتُ ليلةَ أسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل كالحِلس البالي من خشية الله تعالى»[1].

والحلس البالي: هو الكساء الذي يبسط في أرض البيت، مثل السجادة حين تصبح قديمة جدا ومهلهلة، فكذلك كان جبريل في حال خوفه من الله تعالى، وخشية جبريل من ربه ﷺ على قدر قربه من الله، فعلى قدر خوف العبد من الرب يكون القُرْب أو البعد.

وإذا كان هذا حال جبريل رئيس الملائكة على عظمة خلقه وعلو قدره، فما بالنا بحال غيره؟!

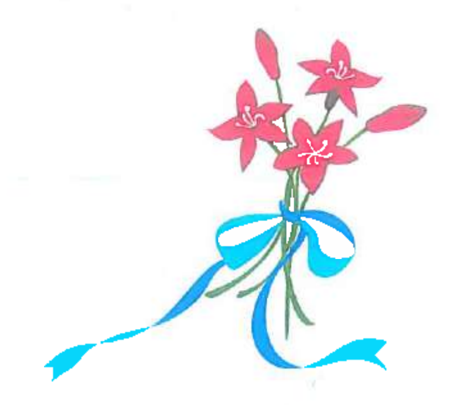
وما أثر أعظم الرسل وقد رأى أعظم الملائكة على هذه الحال؟!

لابد أنه سينسج على نفس المنوال، وسيكون ما رأى موعظة عملية أبلغ في نفسه من ألف مقال.

وأورد الطبراني في بعض طرق الحديث زيادة أن النبي ﷺ قال:

«فعرَفتُ فضل علمه بالله عليَّ».

وهذا من تواضع النبي ﷺ، وإلا فهو أعلم الخلق بالله على الإطلاق.



(١) حسن: رواه الطبراني في الأوسط عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٥٨٦٤.

ثالثًا

ما دلالة عظمة الملائكة؟!

صَحِبتُ الكِراما

عظمة الملائكة دليل على عظمة الله، وسأكتفي بسوق الأحاديث التي تتحدث عن ملكين اثنين فحسب.



١ - جبريل عليه السلام:

رأى رسول الله ﷺ جبريل ﷺ على صورته الملائكية التي خلقه الله عليها، فقد ورد في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود أنه قال:

«رأى محمد ﷺ جبريل له ستمائة جناح».

ومع عظمة الخلق تكون القوة:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير:١٩-٢٠]؛ وقد بلغ من قوة جبريل أنه قلع بطرف جناحه قرى آل لوط، ثم رفعها بمن فيها إلى السماء، ثم قلبها عليهم، فقتلهم.

وللملائكة أجنحة، فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، أو أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، وفي هذا إيماء إلى أن الملائكة تتفاوت أقدارهم وقواهم عند الله تعالى.



﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ [فاطر:١].

ولم ير طائر له ثلاثة أجنحة ولا أربعة، فكيف بستمائة جناح كما جاء في صفة جبريل، فهذا ما لا يخطر ببال، ولا يحيط به خيال، وهذا من الغيب الذي يجب الإيمان به.

للملائكة أجنحة

فمنهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، أو أربعة الي ستمائة جناح

قال الإمام السبكي: «سُئلتُ عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي ﷺ مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فقلت:

وقع ذلك لإرادة أن يكون الفعل للنبي ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مددًا على عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الأسباب وسنتها التي أجراها الله في عباده، والله تعالى هو فاعل الجميع».

ثم إن جبريل ﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ أي: تطيعه جميع الملائكة، ومن طاعة الملائكة له: أنه أمر خازن كل سماء في ليلة المعراج ليفتحها للنبي ﷺ، فدخلها، والتقى إخوانه من الأنبياء.



٢- حَمَلة العرش:

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«أُذن لي أن أُحدِّث عن ملَك من ملائكة الله، من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام»[1].

(١) صحيح: رواه أبو داود عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٨٥٤.



وقال ﷺ: «أُذِنَ لي أن أُحدِّث عن ملك من حملة العرش، رجلاه في الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام، يقول ذلك الملك: سبحانك حيث كنت»[(١)].

في هذا الحديث يخبر النبي ﷺ أن الله أذن له أن يُحَدث بهذا الخبر العجيب، وهو من عالم الغيب الذي اختص الله بعلمه، لكن الله أطلع منه من شاء على ما شاء، فليصغوا إذن إليه وما يلقيه عليهم ويمليه، لأن نفعهم وفائدتهم فيه.

ولاحظ كلمة «أُذِن»: فحتى رسول الله ﷺ لا يتحرك ولا يتكلم إلا بإذن ربه، فكيف بغيره من الخلق؟!

إن خلق الملائكة عظيم عظيم، فإذا كان ما بين شحمة أذن هذا الملك وعاتقه سبعمائة عام، فكيف بباقي جسمه؟!

فلا يعلم قدر هذه العظمة الملائكية إلا الله العظيم.

ورغم هذه العظمة الجسمانية الملائكية إلا أنك لا تجد إلا الخضوع التام للذات الإلهية، وهو ما نستدل عليه من قول الملَك في الحديث: «سبحانك حيث كنت».

وجاء هذا بروايتين:

- بالضم: «حيث كنتُ»:

أي أنزِّهك يا رب في أي محل نزَلتُ فيه، وفي أي مكان سكنته، فلا يفارقني أبدا تنزيهك وتعظيمك في أي مكان أو زمان أو حال.

- بالفتح: «حيث كنتَ»:

ويخاطب به الله تعالى، أي أنزِّهك يا رب من حيث لا أعلم لك مكانا، أو حيث وصل علمك وقدرتك، فيشمل التنزيه كل ذرة من ذرات هذا الكون العظيم.

(١) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٨٥٣.

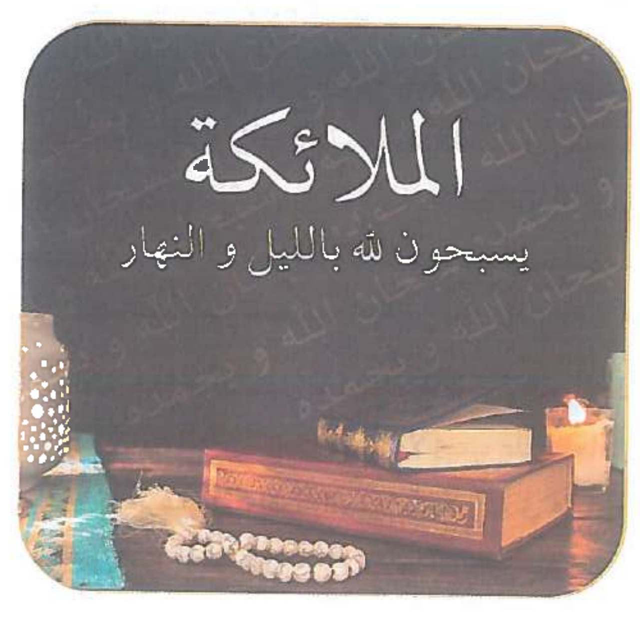
رابعًا

هل الملائكة يَفتُرون؟!

صَحِبتُ الكِراما

الملائكة لا يملّون ولا يتعبون، بل يقومون بعبادة الله وطاعته وتنفيذ أوامره، بلا كلل ولا ملل، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك.

قال تعالى في وصف الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠].



ومعنى لا يفترون: لا يضعفون؛ لأن الله أحيا الملائكة بذكره، كما أحيا بني آدم بأنفاسهم، فتسبيح الملائكة جارٍ مجرى الأنفاس منا، فلو أمسكوا عن الذكر ماتوا.

وقد استدل السيوطي بقوله: ﴿لَا يَفۡتُرُونَ﴾ على أن الملائكة لا ينامون.

وسئل كعب الأحبار عن هذه الآية، فقيل له: أما شغلهم رسالة؟



أما شغلهم عمل؟

فقال:

«جُعِل لهم التسبيح كما جُعِل لكم النفس، ألست تأكل وتشرب، وتجيء وتذهب، وتتكلم وأنت تتنفس؟ فكذلك جُعِل لهم التسبيح».

وفي سورة فصلت: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٨] تقول العرب: سئم الشيء، أي: ملّه.

فإن قيل: وصف الملائكة بأنهم يسبحون له بالليل والنهار لا يفترون، وهذا يمنعهم من الاشتغال بسائر الأعمال، لكنهم في نفس الوقت يتنزلون على الأرض، كما قال تعالى:

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء:١٩٣-١٩٤].

وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحجر:٥١].

وقال عن الذين قاتلوا مع رسول الله ﷺ يوم بدر:

﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آلعمران:١٢٥].

فمما أجاب به الإمام الرازي:

«إن الذين ذكرهم الله تعالى هاهنا بكونهم مواظبين على التسبيح أقوام معيَّنون من الملائكة وهم الأشراف الأكابر منهم، لأنه تعالى وصفهم بكونهم عنده، والمراد من هذه العندية كمال الشرف والمنقبة، وهذا لا ينافي كون طائفة أخرى من الملائكة مشتغلين بسائر الأعمال، فإن قالوا: هب أن الأمر كذلك إلا أنهم لا بد وأن يتنفسوا، فاشتغالهم بذلك التنفس يصدهم عن تلك الحالة من التسبيح!

قلنا: كما أن التنفس سبب لصلاح حال الحياة بالنسبة إلى البشر، فذكر الله تعالى سبب لصلاح حال الملائكة في حياتهم، ولا يجب على العاقل المنصف أن يقيس أحوال الملائكة في صفاء جوهرها وإشراق ذواتها واستغراقها في معارج معارف الله بأحوال البشر، فإن بين الحالتين بُعْد المشرقين».



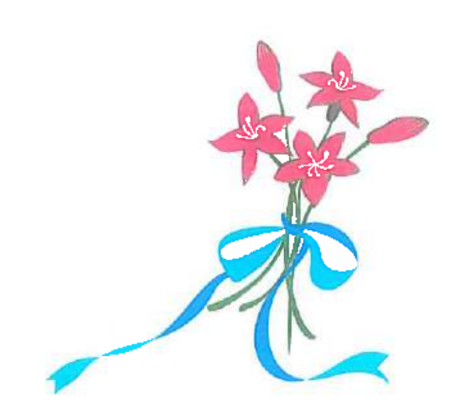
سؤال آخر:

هل تدل هذه الآية على أن الملك أفضل من البشر؟

والجواب:

نعم في الإجمال، لأنه إنما يُستَدلُّ بحال الأعلى على حال الأدنى، ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٨]، فيقال: هؤلاء الأقوام إن استكبروا عن طاعة فلان، فالأكابر يخدمونه ويعترفون بعظمته، فإن السلطان إذا أراد أن يقرر على رعيته وجوب طاعتهم له، قال لهم: الملوك لا يستكبرون عن طاعتي، فكيف بهؤلاء المساكين؟

فالملائكة لا يستكبرون عن طاعة الله مع تمام قوتهم وشدة بطشهم وعظمة خلقهم، فما بال البشر يتمردون عن طاعة الله مع غاية ضعفهم؟!





وإذا أردت أن تعلم كثرة الملائكة الهائلة، فاسمع هذا المشهد الرائع الذي نقله جبريل عن زوار البيت المعمور الذي أقسم الله به في سورة الطور، عندما سأله الرسول ﷺ عنه عندما بلغه في الإسراء:

«البيت المعمور في السماء السابعة، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، ثم لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة»[1].

وقد روى قتادة مرسلاً: ذُكِر لنا أن النبي ﷺ قال يومًا لأصحابه: هل تدرون ما البيت المعمور؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال:

«فإنه مسجد في السماء، تحته الكعبة، لو خرَّ لخرَّ عليها».

ومن الدلائل على كثرة الملائكة:

عدد الملائكة التي تسحب جهنم يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فإنهم أربعة مليارات وتسعمائة مليون ملَك.

(١) صحيح: رواه أحمد والنسائي والحاكم عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٣٨٩١.



في صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال:

«يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها»(١).

ومن دلائل كثرة أعداد الملائكة ما ذكره قتادة:

ذُكِر لنا أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه إذ قال: «أتسمعون ما أسمع».

قالوا: ما نسمع من شيء يا رسول الله،

قال: «أتسمعون ما أسمع؟ إني لأسمع أطيط السماء، وما تلام أن تئط، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم»(٢).

ومعنى أطّت: أي صدر لها صوت من كثرة ما عليها من الملائكة، وهذا الصوت سمعه رسول الله ﷺ، ولم يسمعه غيره من الناس؛ لأنه يسمع ما لا نسمع، ويرى ما لا نرى، ويعلم بالوحي ما غاب عنا، فلو انكشف عنا الغطاء ورأينا ما غاب عنا من الملائكة، وخشوعهم بين يدي الله تعالى، لما طاب لنا عيش، ولا استقامت حياة.

ومن دلائل كثرة أعداد الملائكة ما قاله ابن المبارك: «وُكِّل بابن آدم خمسة أملاك: ملكا الليل، وملكا النهار، يجيئان ويذهبان، والخامس لا يفارقه ليلاً ولا نهارًا».

فكل إنسان خلقه الله جعل موكّلا به خمسة ملائكة، فانظر كم خلق الله من لدن آدم حتى يومنا هذا، لتعلم عدد الملائكة الهائل.

رؤساء الملائكة

ورؤساء الملائكة ثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وهم الموكلون بالحياة، فجبريل موكّل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكّل بالقطر أي المطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكّل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد موتهم.

(١) صحيح: رواه مسلم والترمذي كما في صحيح الجامع رقم: ٨٠٠١.
(٢) صحيح: رواه الطبراني والضياء عن حكيم بن حزام كما في صحيح الجامع رقم: ٩٥.



ولذا كان كثيرًا ما يذكرهم النبي ﷺ في دعائه، فكان يفتتح صلاته إذا قام من الليل بقوله كما في حديث عائشة رضي الله عنها:



«اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[١].

وابتدأ **بجبريل** لأنه أفضل الملائكة، فكان النبي ﷺ يتوسل إلى الله تعالى في قيامه في الليل بربوبيته **لجبريل وميكائيل وإسرافيل**، وهم أشراف الملائكة الذين أوكل الله إليهم كل أنواع الحياة: حياة القلوب، وحياة الأبدان، والحياة بعد الموت، وكل هذا تمهيد وتوطئة بين يدي أهم سؤال، وهو سؤال الله الهداية، وهي في حق النبي ﷺ الثبات:

«اهدِني لما اختُلِف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

وتوسَّل النبي ﷺ إلى الله سبحانه بربوبيته الخاصة بهؤلاء الملائكة الثلاثة الموكلين بكل صور الحياة، فقال:

«اللهم رب جبريل وميكائيل ورب إسرافيل، أعوذ بك من حرِّ النار، ومن عذاب القبر»[٢].

وتخصيص هؤلاء الملائكة مع أنه الله رب كل شيء هو لتشريفهم وتفضيلهم على غيرهم من الملائكة.

(١) صحيح: رواه مسلم عن عائشة كما في صحيح مسلم رقم: ٧٧٠.
(٢) حسن: رواه النسائي عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ١٣٠٥.

سادسًا

ما قـدرات الملائكـــة؟!

صَحِبـتُ الكِـراما

أولا: قدرتهم على التشكل

أعطى الله الملائكة القدرة على التشكل بغير أشكالهم، فقد أرسل الله جبريل إلى مريم في صورة بشر، وإبراهيم ﷺ جاءته الملائكة في صورة بشر، وجاؤوا إلى لوط في صورة شباب حسان الوجوه، وكان جبريل يأتي الرسول ﷺ في صفات متعددة، فتارة يأتي في صورة دحية بن خليفة الكلبي، وتارة على هيئة أعرابي.



وقد حدَّثنا الرسول ﷺ عن الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسا، وأنه



لما هاجر تائبا جاءه الموت في منتصف الطريق إلى الأرض التي هاجر إليها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فحكَّموا فيه ملكا جاءَهم في صورة آدمي، فحكم بينهم، والقصة في صحيح مسلم في باب التوبة.

وراجع قصة الثلاثة الذين ابتلاهم الله من بني إسرائيل: الأبرص والأقرع والأعمى، وأن الملَك تشكَّل لهم بصورة بشر، ليختبرهم.

ثانيا: عظيم سرعتهم

أعظم سرعة يعرفها البشر هي سرعة الضوء، فهو ينطلق بسرعة (٣٠٠) ألف كيلومتر في الثانية الواحدة.

أمَا سرعة الملائكة فهي فوق ذلك، وهي سرعة لا تقاس بمقاييس البشر، كان السائل يأتي إلى الرسول ﷺ فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من ربّ العزة سبحانه وتعالى، واليوم لو وُجدت المراكب التي تسير بسرعة الضوء، فإنها تحتاج إلى (مليار) سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة في آفاق هذا الكون الواسع الشاسع.



ومع هذا لا يحتاجون زادا يعينهم على مهامهم، فلا يأكلون ولا يشربون، بل قدراتهم ذاتية، وقوّتهم وقوتُهم من شيء عجيب، ألا وهو ذكر الله تعالى! جاء في الحديث النبوي الذي ذكر الدجال قول النبي ﷺ لعائشة:

«يا عائشةُ! العربُ يومئذٍ قليلٌ (يعني: بين يدي الدجال)، فقلتُ: ما يُجزِي المؤمنين



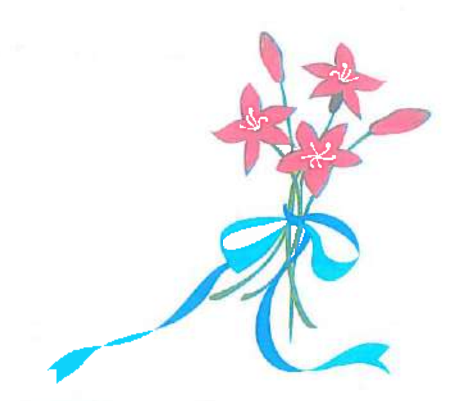
يومئذٍ من الطعامِ؟ قال: «ما يُجْزي الملائكة؛ التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل»[١].

وأخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة قوله ﴿وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: كتموا شأن محمد، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، يأمرهم المعروف وينهاهم عن المنكر.

وقد رأى الإمام ابن تيمية تفاوت قوة الملائكة مرتبطًا بتفاوت إيمان العباد الموكَّلين بهم، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«من كان إيمانه أقوى من غيره، كان جنده من الملائكة أقوى».

فمن وظائف الملائكة إعانة العبد الصالح على الخير وإلهامه به، وكلما ازداد صلاحا زادت قوة الملائكة في دعمه ومساندته.



(١) صحيح: رواه أحمد وأبو يعلى عن عائشة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٠٧٩.



تلازمك الملائكة، ولا تتخلى عنك ولو طرفة عين، والله لو كُشِف عنك الحجاب لرأيت عشرات الملائكة يحوطون بك ويخدمونك كل يوم.

1 تنام بالليل طاهرا، فتستدعي بذلك ملكا بجوارك، يبيت معك في فراشك، فلا تتقلب ساعة من الليل إلا ودعاؤه يحوطك: اللهم اغفر لعبدك فإنه بات طاهرا.

قال رسول الله ﷺ:

«طهِّروا هذه الأجساد، طهَّركم الله، فإنه ليس عبد يبيت طاهرا إلا بات معه ملَك في شعاره، لا ينقلب ساعة من الليل إلا قال: اللهم اغفر لعبدك، فإنه بات طاهرا»[1].

2 فإذا قمتَ تصلي من الليل كان من السُنَّة أن تستاك، لماذا؟ لأن ملَكًا سيرافقك أثناء صلاتك، فلا يخرج من فمك شيء من القرآن أو الذكر إلا دخل فم الملك.

قال رسول الله ﷺ:

«إذا قام أحدكم يصلي من الليل، فليستك، فإن أحدكم إذا قرأ في صلاته، وضع ملك فاه

(١) حسن: رواه الطبراني عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٣٩٣٦.



على فيه، ولا يخرج من فيه شيء إلا دخل فم الملك»(١).

3 ثم تنال قسطًا من النوم قبل الفجر؛ لتستيقظ من نومك على صوت ديك يوقظ للصلاة، وما صاح إلا لأنه رأى موكبًا ملائكيًا يتنزل أمامه، فيصيح طربا لرؤيته.

4 ثم تتوجه إلى صلاة الفجر في المسجد، فتشهد الملائكة معك الصلاة.

هما بالتحديد فرقتان من الملائكة: فرقة ملائكة الليل وفرقة ملائكة النهار، ويتناوبون على هيئة دوريات؛ فملائكة الليل تغطي الفترة من صلاة العصر إلى صلاة الفجر، ثم يصعدون ليسلِّموا مهامهم لملائكة النهار، وهؤلاء يرفعون الأعمال من صلاة الفجر إلى صلاة العصر، ويتكرر هذا الأمر كل يوم.

5 وأثناء الصلاة -كل صلاة- تحضر الملائكة معك صلاتك، وتؤمِّن معك على دعاء الإمام، وتدعو الله أن يستجيب لك، ويكافئك الله إن وافق تأمينك تأمين الملائكة بأن يغفر لك ما تقدم من ذنبك. في الحديث:

«إذا أمَّن الإمام، فأمِّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة، غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه»(٢).

6 وعند الرفع من ركوعك تشاركك الملائكة دعاء: «اللهم ربنا لك الحمد»، وهي فرصة مغفرة، ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال:

«إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهمّ ربنا لك الحمد، فإنه من وافق قوله قول الملائكة، غُفِر له ما تقدم من ذنبه»(٣).

تعلمت من القرآن فيرسل الله لك ملكا يؤانسك ويعاونك

---

(١) صحيح: رواه البيهقي عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٧٢٠.
(٢) صحيح: رواه مالك والأربعة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٩٥.
(٣) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٧٩٦.



7 ثـم تجلـس في مصـلاك بعـد الصـلاة، فتحوطـك الملائكـة مـن كل جانـب، وتصلـي عليـك أي تدعـولـك مـا لـم تُحـدِث أو تقم من مجلسـك: اللهم ارحمـه، اللهم اغفـر لـه، والرحمـة والمغفرة همـا أصـل الخير، فالرحمـة جمـاع مـا يسـأل العبـد مـن خير، والسـيئات جمـاع مـا يحذر من شـر، والسـيئات ترتفـع بالمغفـرة، فيحصـل بهمـا وقايـة العبـد مـن شـؤم الذنـوب.

8 هـذا عن ثواب الرجال الذين يذهبون إلى المسجد، لكن ماذا عن النساء؟!

والجواب: تنال المرأة مثل هذا الأجر إذا جلست في مصلاها بمنزلها.

فـكل مـن كان كثـير الذنـوب، وأراد أن يحطَّهـا الله عنـه بأقـل مجهـود، فليلـزم مُصَـلَّاه بعـد الصـلاة، وليسـتكثِر مـن دعـاء مـن لا ذنـوب لهـم ولا آثـام: ملائكـة الرحمـن.

9 ثم ترجع إلى بيتك بعد صلاة الفجر، فتتجهز للانطلاق إلى عملك، فإذا خرجت من بيتك ابتدرك ملك وشيطان، وكل منهما يحمل راية، فإذا خرجتَ في طاعة الله ذاكرا له تنحى عنك الشيطان خائبا وانطلقتَ تحت راية الملك، ولا تزال تحت هذه الراية حتى تعود إلى بيتك، وإن خرجتَ في معصية تنحى الملك وافتخر الشيطان ورفع رايته فوق رأسك، فلا يأمرك إلا بِشَرٍّ.

10 وأثنـاء الطريـق تـردِّد أذكـار الصبـاح، وتقـرأ شـيئا مـن القـرآن، فيكافئـك الله، ويرسـل الله وراءك ملَكا وكأنـه رديفـك، ليذكـر الله معـك، ويؤنـس وحشـتك، ويقـوِّي عزمـك، فيكـون المَلَك أنيسًـا ورفيقًـا يصحبـك ويطمئنـك ويشـجعك علـى مواصلـة السـير في طريـق الخير، فتشـعر أنك لا تسـير وحـدك إلى الله، ولـو كنـت وحيـدا خاليـا، بـل في موكـب ملائكـي إيمانـي، ومـع السـماوات والأرض وبـاقي مخلوقـات الله التي تسـبِّح الله.

11 وإذا سرتَ إلى مدرسة أو جامعة لتطلب العلم، فعندها تضع الملائكة لك أجنحتها رضا بما تصنع، أي تفرشها إعانة لك على نيل ما تريد، أو تتواضع الملائكة فتخفض أجنحتها وتضمها تعظيما لحقك كطالب علم، أو تتنزل وتكفُّ عن الطيران لحضور مجالس العلم معك.

12 وكلما اقتربتَ من الله اقترب منك الملَك!

كان الربيـع بـن خثيـم إذا أصبـح قـال: «مرحبًـا بملائكـة الله، اكتبـوا، بسـم الله الرَّحمـن الرَّحيـم، سـبحان الله، والحمـد لله، ولا إلـه إلا الله، والله أكـبر».



وإذا اشتد قرب الملك من العبد، فربما تكلم على لسانه! وألقى على لسانه القول السديد، ففي الحديث: **«إن السكينة تنطق على لسان عمر»**، وكان أحد السلف يسمع الكلمة الطيبة من الرجل الصالح فيقول له: ما ألقاها على لسانك إلا ملَك، وقد قال علي رضي الله عنه مُثنيًا على عمر رضي الله عنه:

«إن كنا لنظنُّ أن ملَكًا ينطق على لسانه».

وفي الحديث:

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الْجِنِّ، وقرينه مِنَ الملائكة»[١].

وهذا يعني أن كلاً منا معه قرين من الجن؛ وهو الشيطان الذي يوسوس بفعل الشر، وقرين من الملائكة يحض على فعل الخير.

13 وكلما ابتعدت عن الله بذنب ابتعد عنك الملك، ففي بعض الآثار: «إذا كذب العبد تباعد منه الملَك ميلاً مِن نتن ريحه»، فإذا كان هذا تباعُدَ المَلكِ من العبد بسبب كذبة واحدة، فما مقدار بُعْدِه منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش؟!

14 وترجع إلى بيتك آخر اليوم، وفي طريق الرجوع تذكر أخا لك نزل به كرب أو آخر أوصاك بالدعاء، فيخصص الله لك ملكا موكَّلا بالدعاء بظهر الغيب، قائما على رأسك، ومن قائمة مهامه أمرين: أن يؤمِّن على دعائك لأخيك ليكون أقرب للإجابة، وأن يدعو لك بمثل ما دعوت به لأخيك.

15 بل وفي كل أدعيتك تؤمِّن الملائكة على دعائك، فاختر أدعيتك جيدا، وانتبه لما تقول خاشعًا لله راجيًا.

لما مات أبو سلمة رضي الله عنه، ضجَّ بعض أهل أبي سلمة بالبكاء، وكانوا في الجاهلية إذا حصل مثل هذا يدعون على أنفسهم بالويل والثبور، فقال لهم النبي ﷺ: **«لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير، فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون»**[٢].

---

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٥٨٠٠.
(٢) صحيح: رواه أحمد ومسلم وأبو داود عن أم سلمة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٢٦٦.



أي احذروا أن تدعوا على أنفسكم عند قبض روح الميت؛ لأن الملائكة موجودة حولكم، وتؤمِّن على دعائكم.

16 ومن أهم أدعية الملائكة: الاستغفار، فإذا أذنب المؤمن استغفر له سادة الملائكة وأعلاهم قدرا: حملة العرش: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر:٧].

خشع المعصومون فكيف لا يخشع المذنبون؟!

والاستغفار يوحي بأنه لعصاة المؤمنين، لأن الاستغفار لا يكون إلا لمذنب، وهذا من كرامة المؤمن على ربه، ومن رحمة الله بعبده، فالملائكة المعصومون من الذنوب يستغفرون لمن وقع في الذنوب، وفيه إشعار بمحبة الملائكة للمؤمنين، وعنايتهم بشأنهم، وفيه إثبات لحق الأخوة الإيمانية بيننا وبين الملائكة، ويا لها من علاقة تستدعي الكرامة والشرف.

قرأ خلف بن عمرو القرآن يوما على أحد الصالحين، فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر:٧] بكى الرجل، وقال:

«يا خلف! انظر كرامة المؤمن عند الله، نائم على فراشه، وتستغفر له حملة العرش».

17 والملائكة أهمُّ حرَسك الشخصي، يحمونك من كل سوء: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾.

والمعقِّبات المذكورة في سورة الرعد هي المرادة في سورة الأنعام:

﴿وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]

فالحفظة يرسلهم الله ليحفظوا العبد حتى يأتيه أجله المقدَّر له.



لقد حمت الملائكة رسول الله ﷺ من أذى الكافرين، ومنهم أبو جهل الذي أراد البطش بالنبي ﷺ وأن يطأ على رقبته، فأرسل الله ملائكة تحمي رسوله، وقال عنهم ﷺ:

«لو دنا مني لخطفته الملائكة عضوا عضوا».

ولذا لما قال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن نفرا يريدون قتلك، قال له علي:

«إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدَّر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جُنَّة حصينة».

18 ويُقبِل الليل، فتردد أذكار المساء، ومن ضمنها الصلاة على النبي ﷺ، فيكلِّف الله ملائكة سياحين في الأرض، ينقلون الصلاة منك إلى النبي ﷺ وهو في قبره، ويبلِّغونه السلام الذي تبعث به إليه، ولا تسل عن السرعة، ولا عن بُعد المسافات، ولا الزمن والأوقات، فهو كلمح البصر أو هو أقرب.

ملائكة
ملائكة
ملائكة
ملائكة
ملائكة
ملائكة
اللهم صل على سيدنا محمد
اللهم صل على سيدنا محمد
"إن لله ملائكة سيّاحين يبلغوني من أمتي السلام"
صحيح الجامع رقم: ٢١٧٤

19 وأثناء ذلك وقبله وبعده معك ملكان، يحصيان كل شيء عليك ويكتبان، فملك للحسنات، وملك للسيئات، لا يغفلان عنك لحظة من اللحظات.

لكن ربما تساءل متسائل: ما فائدة الحفظة الكتبة، والله يعلم كل شيء؟!

قال الآلوسي:

«من فوائد الحفظة للأعمال أن العبد إذا علم أن الملائكة عليهم السلام يحضرونه ويحصون عليه أعماله، وهم -هم- كان أقرب إلى الحذر عن ارتكاب المعاصي، كمن يكون بين يدي أناس أجِلَّاء من خُدَّام الملك، موكَّلين عليه، فإنه لا يكاد يحاول معصيةً بينهم».



نظر بعض الصالحين إلى رجل ثرثار يكثر من الكلام بغير حساب، فقال:

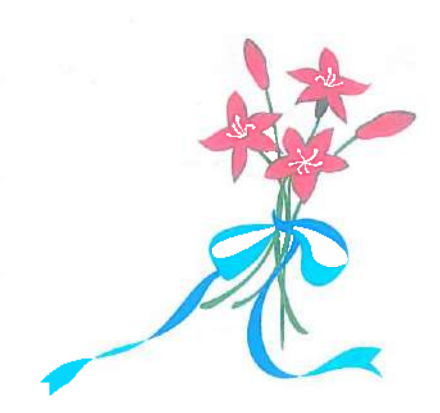
يا هذا ويحك! إنما تُملي كتابا إلى ربك يُقرَأ على رؤوس الأشهاد يوم الشدائد والأهوال، وأنت عطشان عريان جوعان، فانظر ماذا تُملي على الملائكة؟!

أخبروني.. لو كان معكم من يرفع الحديث إلى السلطان، أكنتم تتكلمون بشيء؟

أي بشيء يكرهه السلطان؟

قالوا: لا.

قال: فإن معكم من يرفع الحديث إلى الله ﷻ.



ثامنًا

ما واجبنا نحو الملائكة؟!

صَحِبتُ الكِراما


١ - عدم النيل من قدر الملائكة:

شدَّد العلماء على من يسبُّ الملائكة أو يتكلم بكلام يعيبهم، فقال القاضي عياض في الشفا:

«قال سحنون: من شتم ملَكا من الملائكة، فعليه القتل».

ونقل السيوطي عن القرافي المالكي قوله:

«اعلم أنه يجب على كل مُكلَّف تعظيم الأنبياء بأسرهم، وكذلك الملائكة، ومن نال من أعراضهم شيئا فقد كفر، سواء كان بالتعريض أو بالتصريح، فمن قال في رجل يراه شديد البطش: هذا أقسى قلبًا من مالك خازن النار. وقال في رجل رآه مُشوَّه الخلق: هذا أوحش من منكر ونكير. فهو كافر، إذا قال ذلك في معرض النقص بالوحاشة والقساوة».



٢- اجتناب الذنوب والمعاصي:

أعظم ما يؤذي الملائكة الذنوب والمعاصي، والملائكة جيرانك، وإذا كان إكرام الضيف والإحسان إلى الجار من لوازم الإيمان، فما الظن بإكرام أكرم ضيف لديك وخير جيرانك وهم الملائكة؟

لذا فإن أعظم ما يُهْدَى إلى الملائكة أن يجتهد العبد في طاعة الله، ويتقي محارمه، ويجتنب ما يغضبه.

والملائكة تتأذى من المعاصي، وتنفر من أهلها، لذا فإنَّ الملائكة لا تدخل الأماكن والبيوت التي يُعصى الله فيها، أو التي يوجد فيها ما يكرهه الله.

قال رسول الله ﷺ: «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة»[1].

وهذه الملائكة هم الملائكة الطوافون بالرحمة والبركات والاستغفار، وأما الحفظة فيدخلون كل البيوت، ولا يفارقون بني آدم لأنهم مأمورون بإحصاء أعمالهم وكتابتها.

والكلب في الحديث هو أن يقتني كلبا ليس لزرع ولا ضرع ولا صيد ولا حراسة، فأما إذا كان لهذه الأغراض، فلا حرج فيه.

وأما الصورة فهي كل صورة من ذوات الأرواح، ولا يشمل ذلك الصور الفوتوغرافية، لكن يشمل التماثيل الكاملة التي لا نقص فيها، أما إن كانت غير مكتملة، فإنها جائزة؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما موقوفًا ومرفوعًا عند البيهقي وغيره: «الصُّورَة: الرَّأس؛ فإذا قُطِع الرَّأس، فليس بصورة»، وقد استثنى الفقهاء من حرمة التماثيل ما كان فيه مصلحة، كلعب الأطفال، ووسائل الإيضاح التعليمية.

وفي حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا تقربهم الملائكة: جيفة الكافر، والمتضمِّخ بالخَلوق، والجُنُب إلا أن يتوضأ»[2].

---

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي والنسائي عن أبي طلحة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٢٦٢.

(٢) حسن: رواه أبو داود عن عمار كما في صحيح الجامع رقم: ٣٠٦١.



والمقصود بهم الملائكة المتنزلة بالبركة والرحمة لا الحفظة، فإنَّهم لا يفارقون الْمُكَلّفين طرفة عين.

وجيفة الكافر هي جسده في حياته وبعد موته، وقيل: قُصِد بالجيفة أي بعد موته، والمراد بالملائكة التي لا تقربه هنا: ملائكة الرحمة لا ملائكة العذاب، فقد ثبت قربهم له، ويحتمل أن يكون المراد بجيفة الكافر: جسده الخالي من روحه، فلا تقربه الملائكة، وإنما العذاب والقرب من روحه المعذَّبة.

والمتضمّخ بالخَلوق أي المتلطخ بالخلوق، والخَلوق طيب يُتَّخذ من الزعفران وغيره، لما فيه من التَّشَبُّه بالنساء.

وأما الجُنُب فليس المراد الجنب الذي أصابته جنابة، فأخَّر الغسل حتى حضرت الصلاة فاغتسل، ولكنه الجُنُب الذي لا يغتسل، ويتهاون بالغسل، ويتخذ من ذلك عادة.

الذنوب تطرد الملائكة وتستدعي الشياطين

بينما رسول الله ﷺ جالس في أصحابه ﷺ وقع رجل بأبي بكر رضي الله عنه، فآذاه فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية فصمت عنه، ثم آذاه الثالثة، فانتصر أبو بكر رضي الله عنه لنفسه، فقام رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: أوجدت علي يا رسول الله؟ قال: «**نزل ملَك من السماء فكذَّبه بما قال لك، فلما انتصرتَ وقع الشيطان، فلم أكن لأجلس إذا وقع الشيطان**»[(١)].

٣- إياك وإيذاء الملائكة:

روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «**من أكل الثوم والبصل والكراث، فلا يقربنَّ مسجدنا؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم**»[(٢)].

---

(١) حسن: رواه أبو داود عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٧٥٨.

(٢) صحيح: رواه مسلم عن جابر كما في صحيح مسلم رقم: ٥٤٦.



وقد بلغ الأمر بالرسول ﷺ أن أمر بالذي جاء إلى المسجد -ورائحة الثوم أو البصل تنبعث منه- أن يخرج إلى البقيع، كما ثبت في صحيح مسلم، وقد مرَّ بك أنه يُسنُّ لقائم الليل أن يستعمل السواك لأن قراءته ستصل إلى المَلَك، ورائحة الفم المتغير بالنوم تؤذي الملائكة.

من صفات الملائكة

الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم

«من أكل البصل والثُّوم والْكُرَّاث فلا يقربنّ مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم».

صحيح مسلم رقم: ٥٦٤

وقوله في الحديث: «فلا يقربنَّ مسجدنا»: نهيٌ عن القرب، وهي مبالغة في إبعاد من أكلها، وعلَّل ذلك بقوله: «فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»، وقد يشابه ذلك الخلوف الناشئ عن الصوم، مع تأذي الناس منه، لكن الله تعالى يجعل الملائكة يجدون هذا الخلوف أطيب من ريح المسك، لا كما يجده البشر، والله على كل شيء قدير.

والمقصود من الحديث: مراعاة مواضع حضور الملائكة، واستشعار قربها منك وحضورها معك في الصلوات في المساجد، وإلا فالإنسان لا يخلو من صحبة الحفظة من الملائكة الذين يحصون عليه أعماله.

فإذا أكل هذه الأطعمة، فليستعمل ما يزيل أثرها، أو يأكلها في وقت مبكر، بحيث إذا حضر وقت الصلاة تكون رائحتها قد زالت، فلا يحصل بسببها إيذاء المصلين والملائكة.

والأمر باعتزال المسجد هو من باب العقوبة، وليس من باب الأعذار التي تبيح للمرء التخلف عن صلاة الجماعة؛ كالمطر والريح العاصف وغيرهما.

٤- النهي عن البصاق عن اليمين في الصلاة:


نهى الرسول ﷺ عن البصاق عن اليمين أثناء الصلاة؛ لأن المصلي إذا قام يصلي وقف



عن يمينه ملَك، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فلا يبصق أمامه، فإنما يناجي الله ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه؛ فإن عن يمينه ملكا، وليبصق عن يساره، أو تحت قدمه فيدفنها»[1].

ويحتمل أن المراد هنا بالملك: الملَك الذي يحضر الصلاة؛ لإيعاده بالخير -على ما ذُكر في الحديث- والتأمين على دعائه، وقد يكون المراد بالملَك هنا صاحب اليمين، لكن هنا تساؤل: أليس عن يساره ملَك آخر وهو صاحب الشمال؟!

أجاب بعض العلماء بأن الصلاة هي أم الحسنات البدنية، فلا دخل لصاحب الشمال فيها، وأن قرين العبد يكون عن يساره، فالتفل حينئذ إنما يقع على القرين وهو الشيطان، أو لعل صاحب الشمال حينئذ يكون بحيث لا يصيبه شيء من ذلك، أو أنه يتحول في الصلاة إلى اليمين.

٥- والِ الملائكة كلهم:

على المسلم أن يحب جميع الملائكة، فلا يفرِّق في ذلك بين ملك وملك؛ لأنهم جميعا عباد الله، عاملون بأمره، تاركون لنهيه، وهم في هذا وحدة واحدة، وقد زعم اليهود أن لهم أولياء وأعداء من الملائكة، فقالت اليهود للنبي ﷺ: إنه ليس نبي من الأنبياء إلا يأتيه ملك من الملائكة من عند ربه بالرسالة وبالوحي، فمن صاحبك حتى نتابعك؟ قال: جبريل.

قالوا: ذاك الذي ينزل بالحرب وبالقتال، ذاك عدونا! لو قلتَ: **ميكائيل** الذي ينزل بالقطر وبالرحمة تابعناك، فأنزل الله الآية:

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٧-٩٨].

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٤١٦.

ومن آثار الإيمان بالملائكة على سلوك المؤمن:

٦- اجتهد في عبادتك:

ما عليه الملائكة من عبادة الله بلا ملل ولا انقطاع يجب أن يدفع عنك الملل والانقطاع، فكلما أحسست بالملل وانجر قلبك إلى مواطن الكسل، فتذكر ما عليه الملائكة من اجتهاد، ليعود إليك نشاطك واجتهادك.

وليس العجب من ملائكة أطهار يفضلوننا بكثرة التعبد، فلا عجب من الماء إن انحدر من قمة الجبل، وإنما العجب من عابد تكبد مشاق الطريق وغالب عقبات النفس، ولذا قال أبو هريرة:

«المؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده».

فهذا العبد يكابد مشقة الطاعة، ويجاهد نفسه الأمارة بالسوء، لذا يرتقي فوق الملائكة، لأن عبادة البشر أشق، لما في طبيعة البشر من دواعي التخلف والتقاعد والفتور. قال أبو بكر عبد العزيز:

«خُلق للملائكة عقول بلا شهوة، وخُلق للبهائم شهوة بلا عقل، وخُلق للإنسان عقل وشهوة، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله، فالبهائم خير منه».



٧- لا تغتر بعملك:

خاصة إن كنتَ مجتهدا في العبادة، وتذكر عندها عبادة الملائكة، وأنهم ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، وليحملك ذلك على التواضع والانكسار لله، مع الشعور الدائم بالتقصير.





٨- الحياء الحياء:

قال تعالى:

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢]

فإن الإنسان قد تستولي عليه شهوة، فيغفل عن مراقبة الله له، فيهُمُّ بالمعصية، وذلك إذا كان خاليا بمعزل عن الناس، فإذا سمع صوتا أو شعر باقتراب أحد، اضطرب قلبه، وخاف من الفضيحة، فترك الذنب، فكيف إذا تذكر أن معه ملائكة كرام لا يفارقونه؟!

وهم مع هذا يكتبون عليه الكبير والحقير، ويسجِّلون عليه الكلمات والحركات، وهنا يزداد حياؤه، ويترك ما هَمَّ به من السوء.



٩- طهّر قلبك!

الملائكة رمز الطهر، وأنت إذا أردت أن تمدح أحدا بالصفاء والنقاء، قلتَ: فلان كالملاك، لذا لا تدنو الملائكة من صاحب قلب نجِس!

قال الإمام الغزالي:

«قال عليه السلام: (لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب)، والقلب هو منزل الملائكة، ومهبط أثرهم، ومحل استقرارهم، والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها كلاب نابحة، فأنَّى تدخله الملائكة، وهو مشحون بالكلاب؟!

ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة».

فمن أراد أن تقذف الملائكة في قلبه بالعلم النافع أو الإيمان، فليطهِّر قلبه أولا.

تاسعًا

من الذيـــن تصلي عليهم الملائكـــة؟!

صَـحِبـتُ الكِـرامـا

صلاة الملائكة دعاؤهم للمؤمنين بالرحمة والمغفرة، فمن الذين تصلي عليهم الملائكة؟!

جاءت الأحاديث الصحيحة وحسنة الإسناد أن الملائكة..

- يصلون على المتسحِّرين.
- ويصلون على الذين يصِلون الصفوف في الصلاة.
- ويصلّون على ميامن الصفوف.
- ويصلون على الصف الأول أو الصف المقدَّم.
- ويُصلون على المصلي ما دام في مصلاه الذي صلى فيه.
- ويُصلون على معلمي الناس الخير.





ويصلون على من صلى على النبي ﷺ:

«ما من عبد يصلي عليّ إلا صلت عليه الملائكة ما دام يصلي عليّ، فليقل العبد من ذلك أو ليُكثِر»[١].

ما أثر صلاة الملائكة علينا؟!

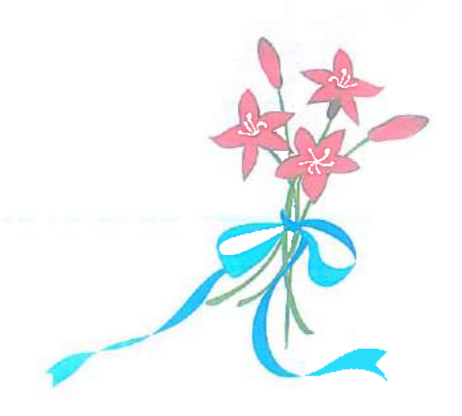
ولا شك أن دعاء الملائكة من أعظم الأدعية نفعا، وأرجاها قبولاً؛ إذ هي دعوات كرام بررة، لم يتسلل لطاعتهم لربهم انقطاع أو فتور أو ملل فضلاً عن الذنوب، فما أرجى إجابة دعاء انطلق من لسان لم يَعْصِ الله أبدًا.

ودعاء الملائكة للعباد سبب أساسي لخروج العباد من الظلمات إلى النور، ومن المعاصي إلى الطاعات، ومن درك الشقاوة إلى ذرى السعادة.

وقد قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

وتفيد هذه الآية أن ذكر الله لنا ودعاء الملائكة سبب عظيم في هدايتنا، وتخليصنا من ظلمات الكفر والسيئات إلى النور الذي يهدينا، وتعني: وضوح الصراط المستقيم، ومعرفة طريق الحق في سائر الأفعال والأقوال والأفكار والأفراد.



(١) حسن: رواه أحمد وابن ماجة عن عامر بن ربيعة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٤٤.

عاشرًا

من العشرة الذين تلعنهم الملائكـــة؟!

واللعن دعاء بالطرد من رحمة الله، وهؤلاء الملعونون للعن مستحقون، لأنهم أتوا ما يُغضِب الله، فغضبت الملائكة لغضب ربها، فلعنتهم.

ومن هؤلاء:

١ من كفر بالله ومات على الكفر.

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾.



وذكروا في سر ذكر لعنة الملائكة والناس مع أن لعنة الله وحده كافية في خزيهم ونكالهم، هي بيان أن جميع من يعلم حالهم من العوالم العلوية والسفلية يراهم محلاً للعنة الله ومقته، فلا يُرجَى أن يرأف بهم رائف، ولا أن يشفع لهم شافع.



فإن قيل: كيف يلعنه الناس أجمعون، ومع أن أهله من الكفار لا يلعنونه؟

قال الإمام الرازي: «الجواب عنه من وجوه:

- أحدها: أن أهل دينه يلعنونه في الآخرة، لقوله تعالى:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت:٢٥].

- وثانيها: قال قتادة والربيع: أراد بالناس أجمعين: المؤمنين، كأنه لم يعتدَّ بغيرهم، وحكم بأن المؤمنين هم الناس لا غير.

- وثالثها: أن كل أحد يلعن الجاهل والظالم؛ لأن قبح ذلك مقرَّر في العقول، فإذا كان هو في نفسه جاهلاً أو ظالمًا وإن كان لا يعلم هو من نفسه كونه كذلك، كانت لعنته على الجاهل والظالم تتناول نفسه. قاله السدي.

- ورابعها: أن يُحمَل وقوع اللعن على استحقاق اللعن، وحينئذ يعُمُّ ذلك».

2 **من ارتد بعد إيمانه وكفر بعد إسلامه.**

قال تعالى:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

3 **من سبَّ أحد صحابة رسول الله ﷺ**، لقوله ﷺ: «من سبَّ أصحابي، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»(١).

4 **من أحدث في المدينة النبوية حدثًا أو آوى فيها محدِثًا**، لقوله عليه الصلاة والسلام: «المدينة حرم، فمن أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبَل منه يوم القيامة عَدْلٌ، ولا صَرْفٌ»(٢).

---

(١) حسن: رواه الطبراني عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٦٢٨٥.
(٢) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح مسلم رقم: ١٣٧١.



ومعنى: «من أحدث فيها حدثًا»: أي أتى فيها إثمًا كبيرًا، وأظهر فيها منكرًا وظلمًا، «أو آوى محدِثًا» أي حماه وتولاه.

وقيل: من نصر جانيًا وحماه من خصمه، وحال دون القصاص منه.

والصَّرف: الفريضة، والعدل: التطوع.

وقيل: الصَّرف: التوبة، لما فيها من صرف الإنسان نفسه من المعصية إلى الطاعة.

والعدل: الفداء، وهو مأخوذ من التعادل وهو التساوي؛ لأن فداء الأسير يساويه.

وسبب هذا الوعيد الشديد: حرمة المدينة، وما لها عند الله من جلال ومكانة عظيمة.

5 من انتسب انتسابا ليستحل به حق غيره، وهو يعلم أنه ينتسب لغير أبيه؛ رغبة في النسب الأعلى، وفرارا من النسب المحتقَر الأدنى، أو تقربا لغيره بالانتماء إليه، فهذا ملعون لقول النبي ﷺ: «من انتسب إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»(١).

6 من ظلم أهل المدينة، لقوله عليه الصلاة والسلام: «اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخِفْه، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صِرْف ولا عدل»(٢).

ومن هم أهل المدينة؟

قال المناوي:

«هم من كان بها في زمنه -صلى الله عليه وسلم-، أو بعده على منهاجه».

7 من نقض أمان مسلم، لما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: «وذمة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلمًا -أي نقض عهده وأمانه- فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبَل منه يوم القيامة صِرفٌ ولا عدل»(٣).

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٦١٠٤.
(٢) صحيح: رواه الطبراني في الأوسط كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٥١.
(٣) صحيح: رواه البخاري عن علي كما في صحيح البخاري رقم: ٣١٧٩.



بل حتى إذا أعطى مسلمٌ لكافر عهدًا، ثم نقضه وغدر به، حقت على هذا المسلم لعنة الله مهما كان، فقد استجار كافر بامرأة من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ، فقال: «لقد أجرنا من أجرتِ يا أم هانئ».

والمراد من قوله في الحديث: «ذمة المسلمين واحدة»: أن عهد المسلمين سواء، صدر هذا العهد من شريف أو وضيع، من غني أو فقير، فلابد من احترامه من جميع المسلمين، فإذا أمَّن أحد من المسلمين كافرًا أو أعطاه عهدًا موافقًا لقواعد الشرع، لم يكن لأحد من المسلمين أن ينقضه؛ لأن المسلمين كنفس واحدة.

8 **المرأة يدعوها زوجها إلى فراشه فتأبى عليه**، قال عليه الصلاة والسلام:

«إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه، فأبت أن تجيء، لعنتها الملائكة حتى تصبح»[1].

وقال ﷺ:

«إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها، لعنتها الملائكة حتى تصبح».

وفي رواية: «حتى ترجع»[2].

قال الإمام النووي:

«هذا دليل على تحريم امتناعها من غير عذر شرعي، وليس الحيض عذرا في الامتناع؛ لأن للزوج حقًّا في الاستمتاع بامرأته فوق الإزار».

وقال عن مدى استمرارية اللعن: «وتستمر اللعنة على المرأة حتى تزول المعصية بطلوع الفجر والاستغناء عنها، أو بتوبتها ورجوعها».

وقال الإمام الشوكاني في نيل الأوطار:

«المعصية منها تتحقق بسبب الغضب منه، بخلاف ما إذا لم يغضب (الزوج) من ذلك، فلا تكون المعصية متحققة، إما لأنه عذَرها، وإما لأنه ترك حقه من ذلك».

---

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٥١٩٣.
(٢) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح مسلم رقم: ١٤٣٦.



9 **من روَّع مسلمًا** ومن الأشقياء الذين تلعنهم ملائكة الرحمن من قال فيهم النبي ﷺ:

«من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه»(١).

والمعنى وإن كان هازلاً ولم يقصد به ضربه، لأن الأخ الشقيق لا يشير إلى شقيقه بالسلاح على سبيل الجد، وإنما يقع ذلك منه هزلاً، فإذا كان حكم الهازل أنه ملعون، فما الظن بغيره؟

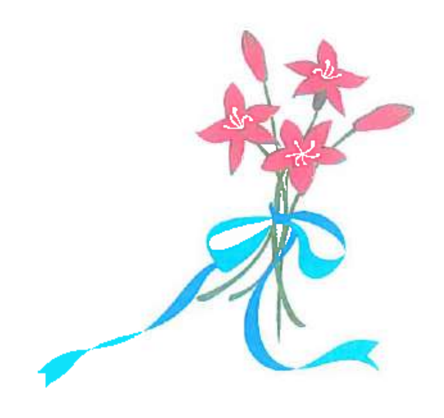
وإشارة أخرى:

من روَّع مسلمًا فهو ملعون، فكيف بمن عذَّبه؟!

10 **مانع القِصاص** وممن تلعنهم الملائكة: من منعوا القِصاص ممن وجب عليه القِصاص، لقول النبي ﷺ:

«ومن قُتِل عمدا فهو قود يد (ففيه القِصاص)، ومن حال دونه فعليه لعنة الله وغضبه، لا يقبل منه صرفا ولا عدلا»(٢).

فمن حال بين القاتل وبين القَوَد بمنع أولياء المقتول من القصاص بعد طلبهم له، فعليه لعنة الله أي يستحقها، لا يقبل الله منه صرفًا، ولا عدلاً، والمراد بذلك: تغليظ العقوبة لمن حال دون تنفيذ حدًّا من حدود الله.



(١) صحيح: رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٠٣٤.
(٢) صحيح: رواه أبو داود والنسائي عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٦٤٥١.



أخذت الكتاب بقوة

السؤال الأول: ما أنواع الوحي؟

السؤال الثاني: ما حقيقة الإيمان بالكتب؟

السؤال الثالث: ما دليل تحريف الكتب السابقة؟

السؤال الرابع: ما فضل القرآن؟

السؤال الخامس: كيف حفظ الله القرآن من التحريف؟

السؤال السادس: ما معنى هيمنة القرآن على الكتب السابقة؟

السؤال السابع: ما ملامح إعجاز القرآن؟

السؤال الثامن: ما واجبنا نحو القرآن؟

الواجب التاسع: ربط القرآن بالواقع

الواجب العاشر: الدعوة إلى القرآن

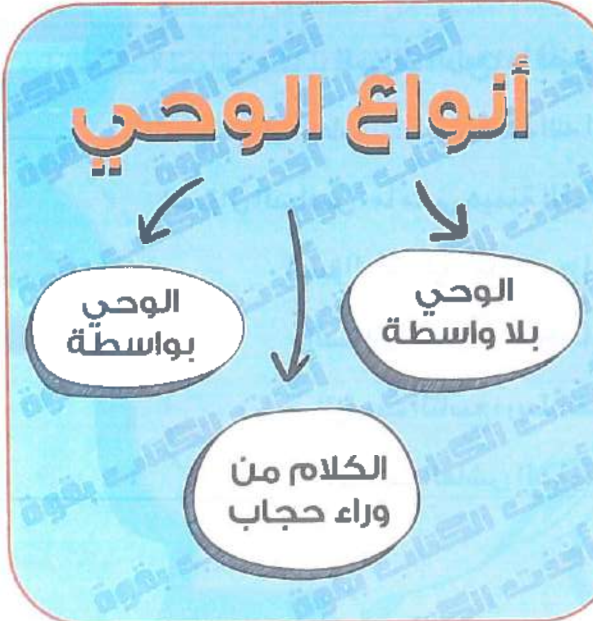
السؤال الأول

ما أنواع الوحي؟!

أخذتُ الكتاب بقوة

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٥١].

فالآية دالة ناطقة على أن طرق كلام الله مع أنبيائه ثلاثة:



الأول: الوحي بلا واسطة

وعبَّرت عنه الآية بالوحي المطلق، وتلقي الوحي قد يكون بالإلهام، والوحي معناه إلقاء المعنى في النفس، والمعبَّر عنه بالنفث في الرُّوع في الحديث:

«إن روح القدس نفث في رُوْعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجمِلوا في الطلب»(١).

(١) صحيح: رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٠٨٥.

والرؤيا الصادقة تندرج تحت هذا القسم، لذا ذهب ابن الجوزي إلى أن المراد بالوحي في قوله: ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ الوحي في المنام، ففي صحيح البخاري ومسلم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت:

«أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصالحة في المنام، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

«كانت رؤيا الأنبياء وحيًا».

ولو لم تكن رؤيا الأنبياء وحيًا، لما جاز لإبراهيم عليه السلام الإقدام على ذبح ابنه إسماعيل بعد أن رأى ذلك في المنام.

ورؤيا الأنبياء معصومة من الشيطان باتفاق العلماء.

النوع الثاني: الكلام من وراء حجاب

بلا واسطة ملك، كما كلَّم الله تعالى موسى بن عمران، وكلَّم نبينا ﷺ ليلة المعراج.

النوع الثالث: الوحي بواسطة

وذلك عن طريق الملك المسمَّى بروح القدس، وهو جبريل عليه السلام، فيلقاه الملك المرسل من الله إلى رسوله، فيراه متمثلاً في صورة رجل، أو غير ذلك، ويسمع منه الوحي بما شاء الله أن يوحيه..

وهذا المذكور في قوله:

﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى:٥١]

والرسول هو جبريل، أو غيره من الملائكة.

---

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه عن عائشة رقم: ٦٩٨٢.





بالتأمل في النصوص الشرعية نجد أنَّ للملك ثلاثة أحوال:

1. الأول: أن يراه الرسول ﷺ على صورته التي خلقه الله عليها، وله ستمائة جناح، ولم يحدث هذا لرسولنا ﷺ إلا مرتين.

2. الثاني: أن يأتيه الوحي في مثل صلصلة الجرس، وهو أشدُّه عليه، فيذهب عنه وقد وعى عنه رسول الله ﷺ ما قال، حتى أن جبينه ليتفصد عرقا في اليوم شديد البرد، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه الوحي مرّة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت، فثقلت عليها حتى كادت ترضُّها.

والصلصلة هي صوت نزول الملك بالوحي، وقيل: هو صوت حفيف أجنحة الملَك، والحكمة في تقدم الصلصلة على الوحي أن يتهيأ النبي ﷺ لاستقبال الوحي، ويفرِّغ سمعه له، فلا يبقي فيه مكان لغيره.

3. الثالث: أن يتمثل له الملك رجلاً فيكلّمه ويخاطبه، وهذه أخف الأحوال على رسول الله ﷺ، كما حدث من جبريل الذي تمثل برجل، وسأل على الإسلام والإيمان والإحسان، وجاءه على صورة دحية الكلبي الصحابي، وقد قال النبي ﷺ:

«وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا، فيكلمني فأعي ما يقول»[1].



(١) صحيح البخاري رقم: ٢.



الإيمان بكتب الله التي أنزلها على رسله ركن عظيم من أركان الإيمان، وأصل كبير من أصول الدين، لا يتحقق الإيمان إلا به، والإيمان بالكتب يشمل ما يلي:

1. التصديق الجازم بأنها كلها منزلة من عند الله ﷻ، وأنها كلام الله تعالى لا كلام غيره، وأن الله تكلم بها حقيقةً كما شاء، وعلى الوجه الذي أراد.

قال تعالى:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٣-٤].

فأخبر سبحانه أنه أنزل الكتب المذكورة وهي: التوراة، والإنجيل، والقرآن من عنده، وهذا يعني أنه المتكلم بها، وأنها بدأت منه لا من غيره، ولذا توعد في آخر السياق من كفر بآيات الله بالعذاب الشديد.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾.. وجمهور المفسرين على أن الخطاب في الآية للمؤمنين كافة، فقد أمرهم الله أن يجمعوا بين الإيمان به وبرسوله والقرآن الذي نزل عليه، وبين الإيمان بجنس الكتب



التي نزلها على رسله قبل بعثة النبي ﷺ، فيعلموا أن الله قد بعث قبله رسلاً، وأنزل عليهم كتبا، وأنه لم يترك عباده في أي زمن مضى سُدًى، محرومين من البينات والهدى، وليس بالضرورة أن يعرفوا أعيان تلك الكتب بالتفصيل.

2 الإيمان بأنها دعت كلها إلى عبادة الله وحده، لذا أفرد ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ في قوله: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾، وكأن الله أنزل كتابًا واحدًا يدعو لأصل واحد وهو توحيد الله وعبادته، وفي هذا إشارة إلى أن الكفرَ بكتاب أو رسول واحد هو كفرٌ بالكل.

3 الإيمان بأن كتب الله يصدِّق بعضها بعضًا، فقد قال تعالى في القرآن:

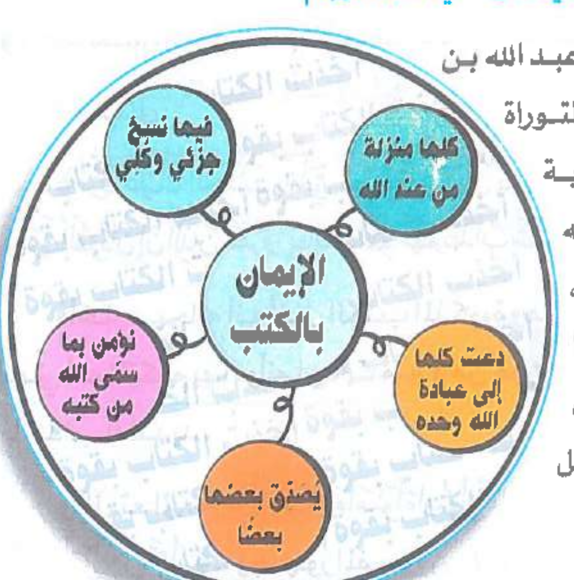
﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة:٤٨].

وقال في حق الإنجيل:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ [المائدة:٤٦].

ومن هذا التصديق إقرار القرآن بعض ما جاء في الكتب السابقة من أحكام، واسمع ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فذكروا له أنَّ رجُلاً منهم وامرأة زَنَيَا، فقال لهم رسول الله ﷺ: **ما تجدون في التوراة في شأن الرَّجم؟**

فقالوا: نفضحهم ويُجلَدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم إنَّ فيها الرَّجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرَّجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يدَه، فإذا فيها آية الرَّجم، فقالوا: صدق يا محمد، فيها آية الرَّجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما، قال عبدالله: فرأيتُ الرَّجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة(١).



(١) صحيح: رواه البخاري رقم: ٣٦٣٥ ومسلم رقم: ١٦٩٩.



4 الإيمان بما سمَّى الله ﷻ من كتبه على وجه الخصوص، والتصديق بها، وبإخبار الله ورسوله عنها. وهذه الكتب هي:

- التوراة: كتاب موسى عليه السلام.
- الإنجيل: كتاب عيسى عليه السلام.
- الزبور: وهو كتاب الله الذي أنزله على داود عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣].

قال قتادة في تفسير الآية:

«كنا نحدَّث أنه دعاء علمه الله داود وتحميد وتمجيد لله عز وجل، ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود».

- صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

فضلاً عن القرآن العظيم.

5 أن نؤمن أن في الكتب السماوية نسخًا جزئيًا ونسخًا كليًا.

النسخ الجزئي:

كما نُسِخت بعض شرائع التوراة بالإنجيل، فقد قال عيسى عليه السلام لقومه:

﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

قال ابن كثير:

«فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة، وهو الصحيح من القولين».

وقال الآلوسي في بعض جوانب النسخ:

«ومن الأطعمة التي أحلّها عيسى لبني إسرائيل بعد أن كانت مُحرمة عليهم في شريعة موسى: لحوم الإبل والشحوم وبعض الأسماك والطيور».



النسخ الكلي:

فقد نسخت شريعة محمد ﷺ كل الشرائع السابقة:

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾..

وقال رسول الله ﷺ في قول حاسم فصل:

«والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة، لا يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلتُ به إلا كان من أصحاب النار»[1].

نؤمن أن في الكتب السماوية نسخا جزئيا ونسخا كليا

فالحديث دليلٌ على وجوب اتباع النبي ﷺ، ونسخ جميع الشرائع بشرعه، فمن كفر به؛ لم ينفعه إيمانه بغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

والخِطاب هنا للأمة بأسرها، من وُجِد منهم في زمن النبي ﷺ، ومن سيوجد إلى يوم القيامة.

وحين نُقرِّر نسخ شريعة الإسلام لِما قبلها من الشرائع، فالمقصود هنا نسخ الفروع دون الأصول، فإن الأصول ثابتة لا تُنسَخ، بل هي مقررة في كل شريعة؛ فأصل الأصول هو توحيد الله، وهذا لا يمكن أن يُختلَف فيه أو يعتريه أي نسخ؛ قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

---

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٠٦٣.



قال تعالى:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾.

قال ابن زيد في تفسيرها:

«التوراة التي أنزلها عليهم، يحرِّفونها، يجعلون الحلال فيها حراما، والحرام فيها حلالا، والحق فيها باطلا، والباطل فيها حقا، إذا جاءهم المحق برِشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برِشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإن جاء أحد يسألهم شيئا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء، أمروه بالحق».

وكما ترى..

فالتوراة والإنجيل لم يحرِّفهما الخصوم، بل حرَّفهما أهلهما وبأيديهم، وقد ساق ابن حزم دليلاً شرعيًا قاطعًا على تحريف التوراة والإنجيل، والمسلم يؤمن بتحريف التوراة والإنجيل بما قرأه من آيات القرآن.

قال الإمام ابن حزم:

«كيف يستحل مسلم إنكار تحريف التوراة والإنجيل، وهو يسمع كلام الله عز وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح ٢٩].

وليس شيء من هذا في ما بأيدي اليهود والنصارى، مما يدَّعون أنه التوراة والإنجيل».

وقال صاحب الظلال:

«وبشارة المسيح بأحمد ثابتة بهذا النص، سواء تضمنت الأناجيل المتداولة هذه البشارة أم لم تتضمنها؛ فثابت أن الطريقة التي كتبت بها هذه الأناجيل والظروف التي أحاطت بها لا تجعلها هي المرجع في هذا الشأن.

وقد قُرئ القرآن على اليهود والنصارى في الجزيرة العربية وفيه: ﴿ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾... وأقر بعض المخلصين من علمائهم الذين أسلموا كعبد الله بن سلام بهذه الحقيقة، التي كانوا يتواصون بتكتمها!».

واليهود هم أساتذة التحريف ورواد هذا التزييف، فكان أحبار اليهود الذين كُلِّفوا بحفظ التوراة يزيدون فيها وينقصون بحسب الحال؛ فقبل ظهور النبي ﷺ لم يلجأ اليهود إلى تحريف التوراة ومحو صفات النبي ﷺ منها لانعدام الحاجة إلى ذلك؛ فلما ظهر النبي ﷺ في قريش، ولم يظهر في اليهود، حرَّف اليهود التوراة ليبدِّلوا الوصف الإلهي للنبي ﷺ حتى لا يتَّبعه الناس.

قال ابن عباس:

«أحبار يهود وجدوا صفة النبي محمد ﷺ مكتوبًا في التوراة أكحل أعين، ربعة، جعد الشعر، حسن الوجه، فلما وجدوه في التوراة، محوه حسدا وبغيًا، فأتاهم نفر من قريش من أهل مكة، فقالوا: أتجدون في التوراة نبيًا أميًا؟ فقالوا: نعم، نجده طويلا أزرق، سبط الشعر، فأنكرت قريش، وقالوا: ليس هذا منا».



اليهود يعرفونه!

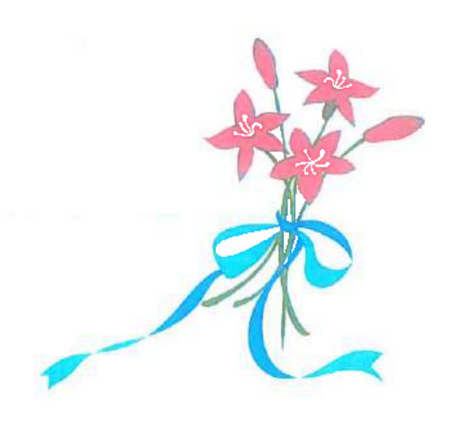
واسمع ما حدث مع الصحابي أبي صخر العُقَيْلِيّ رضي الله عنه، وكيف عرف اليهود رسول الله ﷺ في كتبهم، لكنهم حرَّفوه وأنكروه، فقال رضي الله عنه:

جَلَبْتُ جلوبة (ما يُجلَب للبيع) إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ، فلما فرغْتُ من بيعتي قلت: لألقين هذا الرجل، فلأسمعنَّ منه، فتلقاني رسول الله ﷺ بين أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- يمشون، فتبِعْتُهم حتى كنتُ خلفهم، فأتوا على رجل من اليهود، ناشرا التوراة يقرؤها، يُعَزِّي بها نفسه على ابن له في الموت، كأحسن الفتيان وأجمله، فمال إليه رسول الله ﷺ، فقال:

أَنْشُدُكَ بالذي أنزل التوراة، وأنشُدُك بالذي فلق البحر عن بني إسرائيل، هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي؟ فقال برأسه هكذا -أي: لا- فقال ابنه -وهو في الموت-:

إي والذي أنزل التوراة على موسى، إنا لنجد في كتابنا هذا صفتك ومخرجك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ:

«أقيموا اليهود عن أخيكم»، ثم وَلِي كفنه، وَحَنَّطه، وصلى عليه[1].



(١) صحيح: رواه أحمد في المسند رقم: ٢٣٥٣٩، وانظر السلسلة الصحيحة رقم: ٣٢٦٩.

السؤال الرابع

ما فضل القرآن؟!

أَخَذتُ الكتاب بقوة

قال الله تعالى في سورة الحجر:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾..



فكأن الله قال لنبيه: ولقد آتيناك عظيمًا خطيرا، فلا تتطلع إلى غيره من متاع الدنيا.

والرسالة هنا: من أوتي القرآن، ثم ظن أن أحدا من خلق الله خيرا منه، فقد استرخص كلام الله.

ولقد قال ﷻ ممتنا على عباده:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

ولذا عظمت نعمة الله على عبدٍ، أغناه بفهم كتابه والتلذذ بخطابه عن الافتقار إلى غيره.

وإليك بعض عمل القرآن في قلوب بني الإنسان:



١ . تثبيت القلوب:

القرآن سبب تثبيت القلوب، وليس أي قلوب، فحتى قلب النبي ﷺ في أمَسّ الحاجة إلى التثبيت، فما بالك بقلبك؟! قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

كان الكافرون يقولون: هلّا نُزِّلَ عليه القرآن مرة واحدة بدلاً من نزوله متفرِّقًا، فأخبر الله أنه أنزله مُتَفَرقا، ليثبِّت قلب النبي ﷺ، ويزيده بصيرة، وذلك أنه يأتيه الوحي مُتجددًا في كل أمر وحادثة، فيُثَبِّته على الحق، ويُرشده للصواب في هذه المسألة، فكان هذا أزيد في بصيرته وأقوى لقلبه.

ومعنى ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾: استشرافُ أنك يا محمد ستتعرض لمنغِّصات شتى، وهذه المنغِّصات يحتاج كل منها إلى ربط على قلبك وطمأنة لك، فيأتيك الوحي القرآني مرتبًا على حسب ما تقتضيه الأحداث، ليقوم بهذا الدور العظيم، وينير أمامك الصراط المستقيم.

فضل القرآن

١ تثبيت القلوب
٢ سبب الهداية
٣ شفاء لما في الصدور
٤ خير مُعلّمي الإيمان
٥ شفاعة القرآن لأهله
٦ أحبّ ما يتقرب به إلى الله
٧ شرف حافظ القرآن

٢ . القرآن سبب الهداية:

عن أبي شريح الخزاعي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال:

«أبشِروا أبشِروا.. أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟».



قالوا: نعم. قال: «فإنَّ هذا القرآن سبب، طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسَّكوا به، فإنكم لن تضلوا، ولن تهلكوا بعده أبدا»[1].

وهذه بشارة عظيمة، يسوقها إلينا رسول الله ﷺ، أننا ما دمنا متمسكين بهذا الحبل القرآني المتصل بالله، فلا ضلال ولا خوف علينا من الضياع.

وإنما الخوف كل الخوف، والحذر كل الحذر من أن يفلت هذا الحبل من أيدينا، فنسقط في هاوية الضياع، ونتيه بين الأمم.

والاستمساك بهذا الحبل أمل النجاة الوحيد:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف: ٤٣].

والمستمسك في أشد حالات الحرص على الحياة، فيتشبث بالحبل بيديه وأسنانه، ويلتف حوله بجسمه وذراعيه ورجليه.

القرآن إذن سبب الهداية الأساسي، وهجره تلاوة وتدبرا سبب الضلال الأساسي، ولذا فالقرآن سبب النجاة في الدنيا والآخرة وعدم الهلاك.

وهو ما يعني أن غياب القرآن عن واقع الأمة سيؤدي بها حتما إلى الضلال والتخبط ثم الهلاك، انظر حولك لترى سريان هذا القانون الذي لا يتخلَّف!

وتزداد الحاجة إلى هداية القرآن عند انتشار التباس الحق بالباطل وفساد الزمان، ولذا قال ابن أبي الدنيا:

«إذا التبَسَت عليك الطُّرُق، واشتبهت عليك الأمور، وصِرتَ في حيرة من أمرك، وضاق بها صدرك، فارجع إلى القرآن الذي لا حيرة فيه، فقِف على دلائله في الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد والتشويق، وإلى ما ندب الله إليه المؤمنين من الطاعة وترك المعصية، فإنك تخرج من حيرتك، وترجع عن جهالتك، وتأنس بعد وحدتك، وتقوى بعد ضعفك».

(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٧١٣.



وما أجمل استدلال ابن عباس ﷺ واستنباطه من كتاب الله حين قال:

«تكفَّل الله لمن قرأ القرآن، وعمل بما فيه، ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»، ثم قرأ هذه الآية:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

إن هذا القرآن -كما أخبر الله في كتابه- يهدي للتي هي أقوم، وذلك في كل المجالات، في مجال العقيدة والإيمان، وفي مجال الأسرة والعلاقات الاجتماعية بين بني الإنسان، وفي مجال الاقتصاد والتعاملات المالية، وفي مجال السياسة والعلاقات الدولية، وفي مجال الحكم وإدارة الدول، وهذه الآية تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتتجاوز كل الأنظمة والقوانين التي كانت قائمة قبل ذلك أو التي ستقوم بعد ذلك حتى قيام الساعة.

وحين نفقد هداية القرآن، نظل متخبطين بين تجارب البشر، ومحاولات الصواب والخطأ، والله تعالى أعلم بمصلحة الإنسان من نفسه، وأرحم به من نفسه التي بين جنبيه، وخالق الإنسان أولى من غيره بهداية الإنسان ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

٣. شفاءٌ لما في الصُّدور

ولم يقل: دواء لما في الصدور، لأن الدواء قد تتناوله ولا تجد أثره لفقدان شرط أو وجود مانع.

أما القرآن فيُحدِث الأثر المطلوب مباشرة، وهو الشفاء.

لكن ما الذي في الصدور؟!

في الصدور.. طبقات غليظة من الران من أثر الذنوب.

في الصدور.. أكوام من الأحزان من هول الخطوب.

في الصدور.. شهوات تفور، وشبهات تثور.

وكل هذا وغيره دواؤه: فتح المصحف.



فإذا شُفِيَت الصدور، وجدت النفس نشاطًا إلى أعمال الأبرار.

وانقادت للأمر الرباني دون تلكؤ أو اعتذار.

وتعلقت بالآخرة، واستهانت بحطام الدنيا.

وامتلأت بحمل هَمِّ أنوار الدين إلى ربوع العالمين.

٤. القرآن خير مُعلم للإيمان:

يروي أحد تلامذة الدكتور عمر الأشقر ﷺ: «جلسنا يوما إليه فأخذ يحدثنا في العقيدة، وهو المتخصص المستشار فيها، فقال مما قال:

إنه ظل يبحث زمنا طويلا عن معنى العقيدة وماهيتها، إذ إنه كان كلما قرأ قصة صحابي عظيم تحدى الصعوبات والمخاطر، سأل كيف استطاع هذا الصحابي أن يتحمل كل ذلك العناء، فكانت تأتيه الإجابة: ذلك بسبب قوة عقيدته، حينها قرر أن يبحث عن هذه العقيدة، قال: فبدأت أفتش في الكتب وأقرأ، قرأت أول ما قرأت كتب ابن تيمية، فهو المشهور في الحديث عن العقيدة الصحيحة، فأنهيتها كلها، إلا أني لم أجد أي تغير في قلبي، ولم أشعر أني وصلت إلى تلك القوة الإيمانية التي تحتمل أي أذى في سبيل الحق، أكملت القراءة باحثا حتى أنهيت كتب العقيدة الموجودة في المكتبة كلها، إلا أني لم أشعر بتلك العقيدة التي غيرت العربي من عبد يُضرَب بالسياط ويأتمر بأمر مخلوق جاهل إلى حر عزيز لا يقبل الذل ولا الدنية».

قال: وفي لحظة من لحظات السكينة، كنت أعيش فيها أجواء عظيمة مع القرآن الكريم، مستغرقا في تدبر آياته، متلذذًا في فهم معانيه، حينها وجدت عقيدتي، فعرفت أن العقيدة عقيدتان: عقيدة خارجية وعقيدة داخلية.

أما الخارجية فهي تلك التي تمنعك من الانحراف، وهي تقوم على العلم الصحيح لنواقض الإيمان من أفعال وأقوال.

وأما العقيدة الداخلية، فهي تلك التي ترتكز في القلب، فتجعله يرى الله في كل مكان وفي كل وقت وآن، يستيقن بها المؤمن وجود الله، ويحس بمراقبته، ويشعر معيته له أينما حل

وارتحل، يبصر كيف يمهد له في الحياة، وكيف يمنعه ويحرمه، وكيف يدافع عنه ويحرسه، فيخاف عقابه ويطمع في ثوابه، ويحبه أكثر من الإنسان طبيب نفسه، ويناجيه وهو يعرف انه أقرب إليه من حبل الوريد».

ثم لفت نظرنا إلى أمر عجيب حين قال:

«وإنه مما أضر بكثير من دعاة السلفية، أنهم ركزوا على العقيدة الخارجية وأهملوا العقيدة الداخلية، فقست قلوبهم، وغلظت طباعهم، فكانت نفوسهم فظة، وأخلاقهم صعبة المعشر».

ثم ضرب لنا مثلا فقال:

«أرأيتم إن كنتم تتسلقون جبلا، وكان على يمينكم ويساركم شبك يمنعكم من الانحراف والسقوط في الوادي، هل هذا الشبك هو الذي يجعلكم تصعدون الجبل إلى قمته، أم هي الهمة والطاقة التي في داخلكم، قلنا: بل الهمة والطاقة في داخلنا، قال: فتلك هي العقيدة الداخلية، هي التي ترتقي بإيمان الإنسان وإرادته وقوته ليتحدى مصاعب الحياة وشهواتها ويرفض العبودية لأي مخلوق مهما اشتد ظلمه واستبداده».

وختم حديثه الجميل بقوله: «إذا أردتم أن تصلوا إلى تلك العقيدة الداخلية، فأكثروا من قراءة القرآن، وتدبَّروا معانيه، وافهموه منهجا للحياة».

رحم الله شيخنا الجليل، وأجزل له المثوبة.

٥. شفاعة القرآن لأهله

خصَّ الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم من بين سائر الكتب بأن يشفع لأهله يوم

القيامة، وقد ثبت هذا للقرآن كله، ولسور منه بعينها، كما ثبت لسورة الملك، لقوله ﷺ:

«إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غُفِر له وهي: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾»[1].

ووردت أحاديث في السنة تبين تفاصيل هذه الشفاعة.

قال رسول الله ﷺ:



«اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه»[2].

وفي هذا الحديث:

أمرٌ بتلاوة القرآن، والسبب الذي رغّبك الله به في هذه القراءة أن القرآن سيشفع لصاحبه، أي أهله القارئين له، المتمسكين بهديه، العاملين بما أمر به، والتاركين لما نهى عنه.

وبالله..

كيف يشفع القرآن في من لا يقربه؟ فضلا عن من لا يعمل بما جاء فيه.

إن علامة صحبة القرآن -وبالتالي استحقاق العبد لشفاعته- هي العمل بما جاء في القرآن، ولذا جاءت الإشارة إلى العمل بالقرآن في هذا الحديث بالتعبير بكلمة (الصاحِب):

«يأتي القرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا، تقدمه سورة البقرة وآل عمران، يأتيان كأنهما غيابتان وبينهما شَرْق (أي ضوء ونور)، أو كأنهما غمامتان سوداوان، أو كأنهما ظلتان من طير صوافَّ، يجادلان عن صاحبهما»[3].

(١) حسن: رواه أحمد والأربعة وابن حبان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٠٩١.

(٢) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: ١١٦٥.

(٣) صحيح: رواه أحمد ومسلم والترمذي عن النواس بن سمعان كما في صحيح الجامع رقم: ٧٩٩٤.

أثناء أهوال القيامة العظام تتقدم سورة البقرة وآل عمران بين الزحام، في صورة سحابتين عظيمتين، تظللان صاحبهما من حرّ الشمس الحارقة، وقد دنت من الرؤوس، وكأني بآيات القرآن المتلوة تأتي مجسّدة في هذا اليوم، لتأخذ بيد صاحبها الذي طالت صحبته لها، ليشفع له القرآن عند ربه ويقول:

يا رب.. هذا صاحبي.. أشهد أنه لم يشغله في الدنيا شيء عن ذكرك وتلاوة كتابك، فكان يتلوني آناء الليل وأطراف النهار، وكم منعته النوم بالليل، فقام بي يصلي، فاقبل يا رب شهادتي له، وشفّعني فيه، فيأذن الله للقرآن بأن يشفع لصاحبه، في الوقت الذي تخلى عنه أقرب الناس إليه: أمه وأبوه، وصاحبته وأخوه.

وجاء ذكر تفاصيل الشفاعة القرآنية في سنن الترمذي:

«يجيء القرآن يوم القيامة، فيقول:
يا رب.. حلِّه، فيُلْبَس تاج الكرامة، ثم يقول:
يا رب.. زِدْه، فيُلْبَس حُلَّة الكرامة، ثم يقول:
يا رب.. ارض عنه، فيرضى عنه، فيقول:
اقرأ وارْقَ، ويزاد بكل آية حسنة»[1].

نعم.. لحامل القرآن غدًا تاج خاص به يزيّن رأسه اسمه تاج الكرامة، وله حُلَّة خاصة بالقرآن اسمها حُلَّة الكرامة:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الحديث الصحيح الموقوف عليه:

«يجيء القرآن يشفع لصاحبه فيقول: يا رب! لكل عامل عمالة من عمله، وإني كنتُ أمنعه لذة النوم فأكرِمْه، فيقال: ابسط يمينك فيملأ من رضوان الله، ثم يقال له: ابسط شمالك، فيملأ من رضوان الله، ثم يُكسَى كسوة الكرامة، ويُحلَّى حلية الكرامة، ويلبَس تاج الكرامة».

(١) حسن: رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٨٠٣٠.



أخبار بعض أصحاب القرآن!

هذه أخبار بعض من طالت صحبتهم للقرآن:

قيل لنافع مولى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ما كان يصنع ابن عمر في منزله؟!

قال:

«لا تطيقونه، الوضوء لكل صلاة، والمصحف فيما بينهما».

وقال بعض أصحاب الإمام مالك:

عجبنا من نزع مالك من القرآن (قوة استنباطه من آيات القرآن)، فسألنا أخته عن شُغلِه، فقالت: إنه إذا دخل البيت، لم يكن له شغلٌ إلا القرآن.

وصدق من قال:

إن هذا العلم لا يعطيك بعضَه إلا حين تعطيه كلَّك.

والقرآن ماحِل مُصدَّق!

قال رسول الله ﷺ:

«القرآن شافع مشفَّع، وماحل مصدَّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار»(١).

فكما أن القرآن يشفع لصاحبه، وتُقبَل شفاعته، فهو كذلك ماحل مصدَّق، والماحل هو الساعي، يسعى بصاحبه ويشهد عليه أنه لم يكن يقرأه، ولم يعمل به، فتُصَدَّق شهادة القرآن، ومن شهد عليه القرآن بالتقصير والتفريط فهو في النار، ولذا كان يقال: لا تجعل القرآن ماحلا، أي شاهدا عليك.

(١) صحيح: رواه أحمد وابن حبان والبيهقي عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٤٤٤٣.



٦. أحبُّ ما يُتقرَّب به إلى الله:

كان خباب بن الأرت رضي الله عنه يقول:

«تقرَّب إلى الله بما استطعت، فلن يُتقرَّب إليه بشيء أحب إليه من كلامه».

وقال أبو عبد الرحمن السُّلمي:

«فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الربِّ على خلقه، وذلك أنه منه».

وقد رُوي هذا اللفظ مرفوعًا إلى النبي ﷺ، إلا أنَّ رفعه لا يثبت، وأما معناه فحق، ولا ريب في حسنه وقوَّته واستقامته وجمال مدلوله.

٧. شرف حفظ القرآن:

جاء في حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعًا إلى النبي ﷺ:

«لو كان القرآن في إهاب ما أكلته النار»(١).

والإهاب هو الجلد الذي لم يُدبَغ، وخصَّه النبي ﷺ بالذِّكر لسرعة إحراق النار له، بخلاف الجلد المدبوغ، والمراد بالحديث:

أن من علَّمه الله القرآن لم تُحرِقه نار الآخرة، فكان جسم حافظ القرآن كالإهاب الواقي له.

والمؤمن الحافظ للقرآن قد وعاه في صدره، وتفكر في معانيه، وعمل بما فيه، فكيف تمسه النار، فضلاً عن أن تُحرِقه؟!

(١) حسن: رواه الطبراني عن عقبة بن عامر كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٨٢.



ولعل السبب في هذا الفضل العظيم لحفظ القرآن أن حفظ القرآن يفتح لصاحبه أبوابا أخرى كثيرة من الخير:

- يصيبه الأرق بالليل فيقوم إلى مُصلّاه، ويقرأ بما يحفظ من القرآن.
- يسير في طريق طويل، فيترنم ويستأنس ببعض ما يحفظ من القرآن.
- يدخل في نقاش مع صاحب أو زميل، فيستدل على صحة رأيه وصواب منهجه بآية مما يحفظ من القرآن.

فيكون حفظ القرآن مفتاحا لأبواب خير كثيرة.

لكن ليس كل حافظ للقرآن مؤمنا، فقد قال رسول الله ﷺ في يصف حال القُرَّاء:

«أكثر منافقي أمتي قراؤها»[1].

فإن سأل سائلٌ: لماذا خَصّ القُرَّاء بالنِّفاق دون غيرهم؟!

فقد أجاب ابن بطّة على هذا السؤال قائلا:

«إنَّ الرِّياء لا يكاد يوجد إلا فيمن نُسِب إلى التقوى، ولأنَّ العامَّة والسُّوقة قد جهلوه، والْمُتَحَلِّين بحلية القُرَّاء قد حذَقوه».

أي أن الرياءَ دائمًا يُنْسَبُ لأهل التقوى؛ لأنهم في حاجة إليه، وأما عَوامّ الناس فلا يعرفونه؛ لأنهم ليسوا في حاجة إليه لكونهم غير مشهورين، أما القُرَّاء فهم مَظَنَّة التقوى والصلاح، ومشتهرون بين الناس، لذا يحرصون دائما على أن يستمر ظن الناس بهم خيرا، بأنهم صالحون ومتقون، ومن أجل هنا برعوا في الرياء، وصاروا ماهرين به، وهذا أمر مخيف، يحذِّر كل قارئ للقرآن وحافظ من أن يخالف قوله فعلَه، وأن يقع في ما ينهى الناس عنه، فيكون من المنافقين.

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن عقبة بن عامر كما في صحيح الجامع رقم: ١٢٠٣.

السؤال الخامس

كيف حفظ الله القــــرآن من التحريف؟!

أَخَـــذتُ الكتـــاب بقــــوة

تعهد الله بحفظ كتابه، وأعلن هذا الحفظ على صفحات كتابه، فقال:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

وفي إيراد الوعد بالجملة الاسمية: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، دلالة على الثبات ودوام حفظ القرآن، لأن الجملة الاسمية تفيد الثبات، ويُعبَّر بها عن الحقائق، بعكس الجملة الفعلية التي تفيد التغير، وهذا معناه أن القرآن الكريم الذي في أيدي الناس اليوم، هو ما أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ، بلا أدنى زيادة أو نقصان.



القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لم يتغير فيه حرف واحد، على مدار خمسة عشر قرنا، فلا تجد نسخة من القرآن تختلف عن الأخرى، لا أقول في



جملة، ولا في كلمة، ولا في حرف، ولكن في شكل كلمة، ونحن -بلا فخر- الأمة الوحيدة التي تتلو كتابها بنفس الطريقة التي نزل بها؛ كما تلاه أمين الوحي جبريل عليه السلام، على خاتم النبيين محمد ﷺ.

واسمع هذه القصة لتعرف ملمحًا واحدًا من ملامح تكفُّل الله بحفظ كتابه:

قال يحيى بن أكثم:

«كان للمأمون -وهو أمير إذ ذاك- مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي، حسن الثوب، حسن الوجه، طيب الرائحة، فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، فلما أن تقوض (انفضَّ) المجلس دعاه المأمون، فقال له: إسرائيلي؟

قال: نعم.

قال له: أسلِم حتى أفعل بك وأصنع، ووعده،

فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف.

قال:

فلما كان بعد سنة جاءنا مسلما، قال: فتكلم على الفقه فأحسن الكلام، فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال: ألست صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك، فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت مع ما تراني حسن الخط، فعمدت إلى التوراة، فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة، فاشتُرِيت مني، وعمدت إلى الإنجيل، فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة، فاشتُرِيت مني، وعمدت إلى القرآن، فعملت ثلاث نسخ، وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان، رموا بها فلم يشتروها، فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي».

ولذا لما خطب الحجاج يوما، فقال: إن ابن الزبير يُبدِّل كلام الله تعالى، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في غضب:

«كذب الحجاج! إن ابن الزبير لا يبدِّل كلام الله تعالى، ولا يستطيع ذلك».



وسائل حفظ الله لكتابه:

وكَّل الله حفظ التوراة و الإنجيل إلى علماء أهل الكتاب و رهبانهم. بينما تكفل سبحانه بحفظ القرآن.

ومن وسائل حفظ الله لكتابه: حفظه في الصدور، فلا يُنسَى.

جاء في حديث عياض بن حمار المجاشعيّ أن النبي ﷺ قال ذات يَوْمٍ في خُطْبته:

«ألا إنَّ ربِّي أمرني أن أُعَلِّمَكم ما جهِلْتُم مما علَّمني يومي هذا:.... وأنزلتُ عليك كتابا لا يَغْسِله الماء، تقْرَؤه نائما ويقظان...»[1].

ومعنى: «لا يغسله الماء»: أي لو غُسِلَت المصاحف بالماء لما انغسل القرآن من الصدور، ولما ذهب من الوجود، فأناجيل هذه الأمة صدورهم، وهذا القرآن مسكنه قلوبهم.

وقد ورد إلينا القرآن متواترًا، بنقل الجموع -التي لا تقع تحت حصر ولا عد- عن مثلها حفظًا وكتابة، جيلاً بعد جيل.

يقول الشيخ رشيد رضا:

«وظهر صدق كفالته بتسخير الألوف الكثيرة في كل عصر لحفظه عن ظهر قلب، ولكتابة النسخ التي لا تُحصى منه في كل عصر، من زمن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم إلى هذا العصر، وناهيك بما طبع من ألوف الألوف من نسخه في عهد وجود الطباعة بمنتهى الدقة والتصحيح، ولم يتفق ذلك لكتاب إلهي ولا غير إلهي».

ومن حفظ الله لكتابه أن سخَّر له هؤلاء أساطين أهل العلم، كالقراء العشرة وهم نافع

(١) صحيح مسلم رقم: ٢٨٦٥.



وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف، فحفظ الله بهم هذا الكتاب، فلا كتاب على وجه الأرض يقرأ على أكثر من وجه إلا هذا الكتاب العزيز.

لم حفظ الله القرآن دون غيره من الكتب؟!

قال العلامة الطاهر بن عاشور:

«ومن لطائف القاضي إسماعيل بن إسحاق بن حماد ما حكاه عياض في المدارك عن أبي الحسن ابن المنتاب قال:

كُنتُ عند إسماعيل يوماً، فسئل: لم جاز التبديل على أهل التوراة، ولم يجُز على أهل القرآن؟!

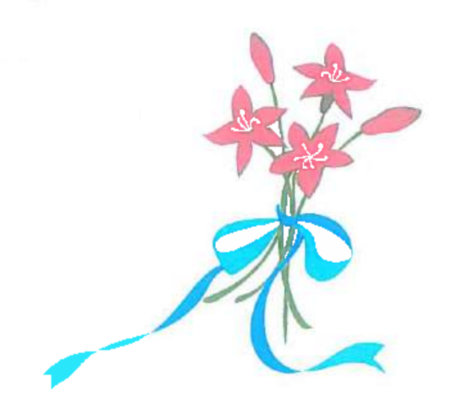
فقال: لأن الله تعالى قال في أهل التوراة:

﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾. فوكل الحفظ إليهم.

وقال في القرآن:

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. [الحجر:٩].

فتعهد الله بحفظه، فلم يجُزْ التبديل على أهل القرآن».



السؤال السادس

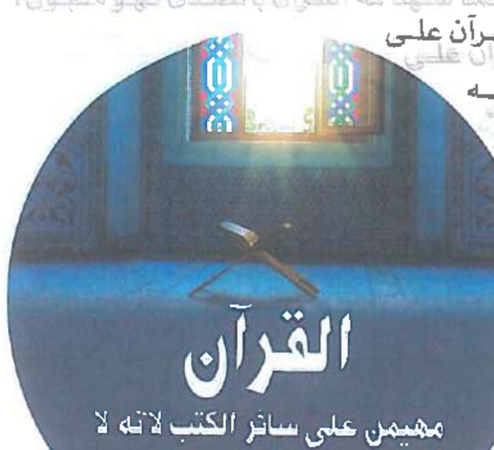
ما معنى هيمنة القرآن على الكتب السابقة؟

أَخَذتُ الكتاب بقوة

قال الله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨].

ومعنى مهيمنا أي شاهدا على ما قبله من الكتب، ومصدِّقا لها؛ يعني يصدِّق ما فيها من الصحيح، وينفي ما وقع فيها من تحريف، فما شهد له القرآن بالصدق فهو مقبول، وما ردَّه القرآن فهو باطل ومردود، ويحكم القرآن على الكتب السابقة بالإقرار أو النسخ، فصارت له الهيمنة على ما سبقه من الكتب من كل الوجوه.



وأصل الهيمنة في اللغة: الحفظ والارتقاب؛ يقال -إذا رقب الرجل الشيء وحفظه وشهده- قد هيمن فلان عليه.

ولذا يُسمَّى الحاكم على الناس والقائم بأمورهم: المهيمن.



ولفظ مهيمن أصله (مؤيمن) بالهمزة، ثم قُلِبَت الهمزة هاء لقرب مخرجها، كما تقلب في أرقت الماء؛ فيقال: هرقت الماء. ويقال: ماء مهراق، والأصل: ماء مراق.

قال الفخر الرازي في سبب هيمنة القرآن على غيره من الكتب:

«إنما كان القرآن مهيمنًا على الكتب؛ لأنه الكتاب الذي لا يصير منسوخا البتة، ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف على ما قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]».

ومن أجل هذه الهيمنة نهى النبي ﷺ الصحابة عن قراءة كتب أهل الكتاب، فقد روى جابر بن عبدالله أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبيَّ ﷺ بكتابٍ أصابه من بعضِ أهلِ الكتاب، فقرأه على النبيِّ ﷺ قال: فغضب.

وقال:

«أمتهوِّكون أنتم كما تهوَّكت اليهود والنصارى؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، ولو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي»[١].

«ومتهوِّكون» أي أمتحيِّرون في دينكم حتى تأخذوا العلم من غير كتابكم، كما تهوَّكت اليهود والنصارى وتحيَّروا حتى نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واتبعوا أهواء أحبارهم ورهبانهم.

ولهذا كان ابن عباس رضي الله عنهما يتساءل متعجِّبًا:

«كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكِتابكم الذي أُنزِل على رسول الله ﷺ أحدَثُ، تقرؤونه محضا لم يُشَبْ، وقد حدَّثَكم أنَّ أهل الكِتاب بدَّلوا كتاب الله وغيَّروه، وكتبوا بِأَيْديهم الكتاب، وقالوا هو مِنْ عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟ لا والله ما رأينا منهم رجُلا يسألكم عن الَّذي أُنزِل عليكم»[٢].

(١) حسن: رواه أحمد والبيهقي كما في مشكاة المصابيح رقم: ١٧٧.
(٢) صحيح: رواه البخاري رقم: ٧٣٦٣.



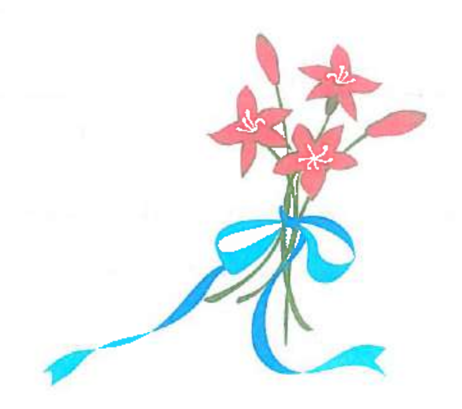
وذهب العلماء إلى أن المسلمين المطالعين لكتب أهل الكتاب قسمان:

القسم الأول:

العامي، ومن ليس عنده علم، ومثله ضعيف الإيمان، فلا يجوز له النظر في شيء من كتب أهل الكتاب؛ حتى لا يُفتَن بما أدخِل فيها من باطل.

القسم الثاني:

الراسخ في العلم؛ وهذا يجوز له النظر في التوراة والإنجيل، ولا سيما عند الحاجة إلى الرد على المخالفين وأصحاب الشبهات.





قال السيد محمد رشيد رضا في تقديمه لكتاب (إعجاز القرآن) لأديب الإسلام مصطفى صادق الرافعي عن فضل وأهمية إعجاز القرآن: «فالكلام في وجوه إعجاز القرآن واجب شرعا، وهو من فروض الكفاية، وقد تكلم فيه المفسرون، وبلغاء الأدباء والمتأنقون».

وقال الرازي عن تقدم معجزة القرآن على غيرها من معجزات الأنبياء، وذلك أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾:

«القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمتها لوجوه:

أحدها: أن تلك المعجزات وُجِدَت وما دامت، فإن قلب العصا ثعبانا، وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر، فلو لم يكن واحد يؤمن بكتب الله ويكذِّب بوجود هذه الأشياء، لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب، وأما القرآن فهو باقٍ لو أنكره واحد، فنقول له فأت بآية من مثله.

الثاني: هو أن قلبَ العصا ثعبانا كان في مكان واحد، ولم يره من لم يكن في ذلك المكان، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب، وسمعه كل أحد.

الثالث: هو أن غير هذه المعجزة، الكافر المعاند يقول عنها إنه سحر عُمِل بدواء، والقرآن لا يمكن هذا القول فيه».



وإليك بعض وجوه إعجاز القرآن على سبيل المثال لا الحصر؛ لأن هذا القرآن كما جاء في وصفه: لا تنقضي عجائبه:



١. الإخبار بالغيب

حوى القرآن الكريم جملة من أخبار الغيب تجعل من إعجاز القرآن إعجازا عظيما، والغيب ثلاثة أقسام:

إما أن يتعلق بماض، أو حاضر، أو مستقبل.

وإليك بعض الأخبار نذكرها للإثبات لا الحصر.

فمن أخبار الغيب الماضية:

إخبار القرآن عن خلق السماوات والأرض، وقصة خلق آدم، وقصة إبليس لعنه الله، ثم قصص الأنبياء السابقين والأمم الماضية، ووجه الغيب فيها أن رسول الله ﷺ كان أميًا لا يعرف القراءة والكتابة، فلم يُعرَف عنه أنه قرأ في كتب أهل الكتاب أو تلقى الدرس عن أحد منهم، فمن الذي أخبره بهذا إلا رب العالمين؟



أخبار الغيب الحاضر:

آيات كثيرة في القرآن كشفت أحداثا في حينها لم يحضرها الرسول ﷺ ولم يخبره بها أحد أصحابه.

ولاشتهار هذا بين المنافقين والكفار، فقد كانوا يتنادون بينهم أن اخفضوا أصواتكم حتى



لا يسمعكم إله محمد، وقد وصف الله المنافقين بقوله:

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة:٦٤]

فقد كان المنافقون يقولون القول فيما بينهم، ثم يقولون: عسى الله ألا يفشي هذا علينا، وذلك لما شاهدوا من أخبار الغيب التي جاءت في القرآن تفضحهم وتفضح أخبارهم.

أخبار الغيب في المستقبل:

إن آيات القرآن ملأى بالإخبار عن الأخبار الغيبية التي رآها الصحابة تتحقق أمام أعينهم، وإنما نشير هنا إلى بعض الآيات الكريمة في هذا الشأن:

- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

فقد ظلَّ النبي ﷺ يُحرَس من أصحابه حتى نزَلَت هذه الآيَة، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القُبَّة، فقال لهم: «يا أيها النَّاس انصرِفوا، فقد عصمني الله».

- وقال تعالى: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر:٤٥].

وقد تحقق هذا، ورآه الصحابة بأعينهم، فعن عمر رضي الله عنه لما نزل: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ كنتُ لا أدري أي جمع يهزم، فلما كان يوم بدر رأيت النبي ﷺ يثب في درعه، ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ أي: سيُهزَم كفار مكة، ويولون الأدبار، وقد كان.

- وقال تعالى:

﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح:٢٧].

فأكَّد الله دخول المسلمين للمسجد الحرام بالقسَم واللام ونون التوكيد، وحدث ما أراد الله، فدخل المسلمون مكة فاتحين، وكلمة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ في الآية ليست للتعليق الذي يكون فيه الإنسان مترددا بين حصول الشيء وعدمه، بل معنى المشيئة أن دخول المسجد الحرام ليس بقدرة المسلمين واختيارهم، إنما بمشيئة الله ﷻ وحده.

- وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾، وقد غلب الروم الفرس بعد ذلك بسبع سنين.



وجاءت بعض آيات القرآن لتتوعَّد الكفار، ومنهم ثلاثة من الكفار بأعيانهم، وتوعَّدتهم بدخول النار، ومع هذا لم يفكِّروا في أن يُسلِموا أو يتوبوا؛ وعلم الله أن هذا غير حاصل منهم، ولو على سبيل التظاهر؛ لأنه وحده سبحانه يعلم الغيب.

من هؤلاء الثلاثة؟!

الأول:

قال تعالى عن الوليد بن المغيرة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ [المدثر:١١] إلى أن قال:

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر:٢٦].

الثاني:

قال تعالى عن أبي جهل: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق:٩-١٠] إلى أن قال آمرًا نبيه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩].

الثالث:

قال تعالى عن أبي لهب: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١].

فلو لم يكن القرآن وحيًا من عند علام الغيوب، لما صحَّ ما أخبر به؛ ولو آمن واحد من هؤلاء الكفار ولو تظاهر بهذا كذبًا، لانطفأت شعلة الإسلام، وشكَّ الناس في القرآن وقامت الحجة عليه.

وأيُّ معجزة أظهر وأقهر وأعظم من هذا التحدي؟!

أمر لا يكلف صاحبه سوى كلمة يقولها بلسانه، معلنًا إيمانه، ليثبت خطأ القرآن، ثم لا يقولها!

ولا يقدر على التفوه بها، ألا يدل هذا على إعجاز القرآن؟!

ومن إخبار القرآن بالغيب ما تحقق وما زال في كل يوم يتحقق.

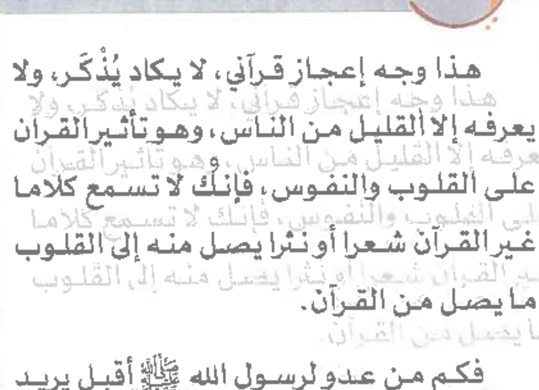
قال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].



وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤]:

وهذا ليس تحديًا فحسب، بل تحد مع إخبار مسبق بأنهم لن يفعلوا!!

ومازال هذا التحدي جاريا إلى اليوم، ولا يزال الخبر الغيبي متحققا ليُفحِم القوم.



٢. الإعجاز التأثيري أو التغييري



هذا وجه إعجاز قرآني، لا يكاد يُذْكَر، ولا يعرفه إلا القليل من الناس، وهو تأثير القرآن على القلوب والنفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن شعرا أو نثرا يصل منه إلى القلوب ما يصل من القرآن.

فكم من عدو لرسول الله ﷺ أقبل يريد قتله، فلما سمع القرآن، تحول عن رأيه، ودخل في دينه.

ولا عجب، فإن القرآن الكريم يؤثِّر في الجماد، أفلا يؤثر في قلوب العباد؟!

قال تعالى:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر:٢١]..

قال ابن جرير:

«لو أنزلنا هذا القرآن على جبل، وهو حجر، لرأيته يا محمد خاشعًا؛ يقول: متذللا متصدِّعا من خشية الله على قساوته، حذرًا من أن لا يؤدِّيَ حقّ الله المفترض عليه في تعظيم القرآن، وقد أُنزِل على ابن آدم وهو بحقه مستخفٌّ، وعنه عما فيه من العِبَر والذكر مُعْرِض،



كأن لم يسمعها، كأن في أذنيه وقرًا».

أخي..

قراءتك لكتاب قد تغيِّر حياتك، فكيف بقراءة كتاب الله؟!

لقد أثَّر هذا القرآن تأثيرًا بالغًا في قلوب قادة الكافرين وعتاة المجرمين لولا أنهم كانوا من المعاندين.

روى ابن إسحاق في سيرته عن الزُّهْري قال:

حُدِّثت أن أبا جهل، وأبا سفيان، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل منهم مجلسا، فيستمع منه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه. فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم، لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا.

حتى إذا كان الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة، ثم انصرفوا!!

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرَّقوا، فجمعهم الطريق، فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرَّقوا!!

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال:

يا أبا ثعلبة، والله.. لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها، فقال الأخنس: أنا والذي حلفت به كذلك!! ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال:

يا أبا الحكم، فما رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على



الرُّكب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟ فوالله لا نؤمن به أبدا، ولا نُصَدِّقه!!

وهذا يدل على تلذذ العرب بسماع القران استجابة لفطرتهم، وعلى أثر العصبية الجاهلية في عدم الإيمان بالنبي ﷺ.

كم من كافر أراد قتل النبي ﷺ، فلما سمع آيات القرآن، تحول عن رأيه، ودخل في دينه.

- خرج **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه يريد رسول الله ﷺ وقتله، فسار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه، فلما وقع القرآن في سمعه لم يلبث أن آمن.

- وحشا **الطفيل بن عمرو الدوسي** أذنه كُرسفا خوفًا من أن يبلغه شيء من القرآن، فلما تلا عليه النبي ﷺ القرآن قال:

«والله ما سمعت قولا قط أحسن منه، ولا أمرا أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق».

- وبعث الملأ من قريش **عتبة بن ربيعة** إلى رسول الله ﷺ ليساوموه، فقرأ عليه رسول الله ﷺ آيات من سورة السجدة، فلما رجع أبصره الملأ من قريش، فقالوا: أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

- ولما قرأ رسول الله ﷺ القرآن في موسم الحج على من حضره من الأنصار آمنوا به، وعادوا إلى المدينة، فأظهروا الدين بها، فلم يبق بيت من بيوت الأنصار إلا وفيه قرآن، حتى قال بعضهم: فُتِحَتْ الأمصار بالسيوف، وفُتِحَت المدينة بالقرآن.

- ولما سمعت الجن القرآن لم تتمالك أن قالت:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾.

إن كلمات القرآن تؤثِّر غاية التأثير في القلوب وتسلب العقول، ثم بعد ذلك تقود عقول أصحابها إلى الصراط المستقيم، وتشفي القلب السقيم.

قال ابن الجوزي: «تلاوة القرآن تعمل في أمراض الفؤاد ما يعمله العسل في عِلَل الأجساد».



ولذا فالقرآن قوة تأثيرية هائلة، وطاقة تغييرية كبرى، وليس مجال التأثير هو قلب العبد الذي قرأه فحسب، بل إن العالم بأسره يتغير بالقرآن لو صدق أهل القرآن.

قال محمد إقبال:

«أقول لكم ما أؤمن به وأدين:

إنه ليس بكتاب فحسب، إنه أكثر من ذلك؛ إذا دخل في القلب تغيَّر الإنسان، وإذا تغيَّر الإنسان تغيَّر العالم، إنه كتاب حي خالد ناطق، إنه يحتوي على حدود الشعوب والأمم ومصير الإنسانية».



٣. الإعجاز التدبري

يؤكد الإمام الزركشي ثقل الكلام الإلهي وعمق الكلمة القرآنية بقوله:

«لو أُعطِي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه، لأنه كلام الله، وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهم كل بمقدار ما يُفتَح عليه».

ومما وصفوا به القرآن أنه لا تنقضي عجائبه، لذا يظهر من معانيه كل عصر ما يُبهر العقول، ولا تزال التفاسير التي تخرجها المطابع كل يوم تستخرج من كنوز القرآن ما يُدهش العقول ويأسر القلوب.

٤. سهولة حفظه وعدم الملل من قراءته:

يقول مصطفى صادق الرافعي:

«وقد يسَّر الله تعالى حفظ القرآن، وإن الصبي ليحفظ منه كثيرا بقليل من الجهد، ولو حاول حفظ غيره من العلوم لقضى في ذلك أضعاف ما يقضيه في حفظ القرآن».



لو كنت تريد حفظ القصائد والأشعار، أو حفظ المتون وترديدها، فلا بد أن يسري إليك الملل، أما عند ترديد القرآن فلا خوف من الملل مطلقًا، فإنه لا يُمَلُّ على كثرة ترداده، والسلامة من الملل والسآمة حكر على من صدق الله، والتمس منه الهداية، وأخلص النية.

وقد عدَّ **الماوردي** هذا من إعجاز القرآن، فقال:

«ومن إعجازه أن تلاوته تختص بخمسة بواعث عليه لا توجد في غيره.

أحدها: هشاشة مخرجه.

والثاني: بهجة رونقه.

والثالث: سلاسة نظمه.

والرابع: حسن قبوله.

والخامس: أن قارئه لا يكلُّ، وسامعه لا يَمَلُّ، وهذا في غيره من الكلام معدوم».

قال الماوردي:

«من إعجاز القرآن تيسيره على جميع الألسنة، حتى حفِظَه الأعجمي الأبكم، ودار به لسان القبطي الألكن، ولا يُحفَظ غيره من الكتب كحفظه، ولا تجري به ألسنة البكم كجريها فيه، وما ذلك إلا بخصائص إلهية فضَّله بها على سائر كتبه».

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾
من إعجاز القرآن تيسيره على جميع الألسنة
قال ابن القيم:
"وتيسيره للذكر يتضمن أنواعا من التيسير:
إحداها: تيسير ألفاظه للحفظ.
الثاني: تيسير معانيه للفهم.
الثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال"..

وأنت ترى اليوم من لا يتكلم العربية، يحفظ القرآن ويرتِّله ويجوِّده، فإذا نطق بكلام آخر غير القرآن لم يستطع أن يسترسل فيه، ولم تفهم منه كلمة واحدة، وهذا من إعجاز القرآن، ومن تيسيره للحفظ والقراءة، فقال ربنا أربع مرات في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

وأمر عجيب، أن الكتاب المقدَّس

الذي يؤمن به الملايين من البشر اليوم، لا يوجد أحد على وجه الأرض يحفظه عن ظهر قلب، في حين أنك تجد الملايين يحفظون القرآن ويستظهرونه عن ظهر قلب.



وإنك لتجد اليوم أطفالا صغارا في مقاطع لهم على الشبكة العنكبوتية واليوتيوب، يحفظون القرآن عن ظهر قلب، ومن أعجب العجائب أن تجد منهم من يُطلَب منه أن يقرأ الآية رقم كذا في سورة كذا، فيبادرك بها على الفور، وهذا والله من إعجاز الحفظ القرآني الذي لا تجده في غير القرآن.

وصدق مَنْ وصف كتاب الله فقال:

تزداد منه على ترداده ثقـــةً ... وكل قولٍ على التِّرداد مملول

وكما قال الشاطبي أيضا:

وإن كتاب الله أوثقُ شافـــعٍ ... وأغنى غَنَاءً واهبـًا متفضِّلاً

وخير جليس لا يمل جليسه ... وترداده يـزداد فيـــه تجمُّلاً

بل إن الانكباب على تلاوة القرآن يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة وطلاوة، وغيره من الكلام -ولو بلغ في الحسن والبلاغة ما بلغ- يُملُّ مع كثرة الترديد، ويعادى إذا أعيد.

كتاب الله يستلذ به في الخلوات، ويُستَأنَس بتلاوته في الشدائد والأزمات، وغيره من الكتب ليس فيه شيء من هذا.

والحق ما شهدت به الأعداء

لما اشتهر العرب بالفصاحة والبلاغة، كانت أعظم معجزات النبي ﷺ هي القرآن.

فهذا الوليد بن المغيرة أحد سادات قريش، وكان يُقال له: ريحانة قريش، وكانت قريش تقول: والله.. لئن صبأ الوليد لتصبأنَّ قريش كلها، ومع هذا لما سمع بعض آيات القرآن من النبي ﷺ ذهب إلى قريش، فقال لها:

«فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار



الجن مني، والله.. ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مُغدِقٌ أسفلَه، وإنه ليعلو وما يُعلَى، وإنه ليَحْطِم ما تحته».

والحلاوة هي اللذة العظيمة يدركها من له فطرة سليمة، والطلاوة: الحسن الفائق.

وقول **الوليد**: «وإنَّ أسفله لمغدق»: وصف رائع للقرآن، فهو من الغَدَق، والغدق: كثرة الماء، تلويحا بغزارة معانيه رغم قلة حروفه ومبانيه.

وقوله: «وإنَّ أعلاه لمثمر»: إشارة إلى غزارة نفعه وزيادة رفعه بما فيه من عظيم الفوائد وعميم العوائد.

فقال له **أبو جهل**: والله لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكِّر فيه، فلما فكَّر قال: هذا سحر يُؤثَر، فنزل فيه قوله تعالى:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾



٥. الإعجاز البلاغي

قال ابن عطية:

«الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقِّحها حولا كاملا، ثم تُعطَى لآخر نظيره، فيأخذها بقريحة جامعة، فيبدِّل فيها وينقِّح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، وكتاب الله لو نُزِعَت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب في أن يوجِد أحسن منها لم يوجِد».

وهذا أكثر من أن يُحصَى في كتاب الله، لكننا نجهله لجهلنا بفصاحة اللغة.

وإليكم هذا المثال:

قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾، وقد ذكروا سبعة وجوه في تفضيل ﴿وَلَكُمۡ فِي



﴿ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ على قول العرب: «القتل أنفى للقتل»:

1 أن العبارة القرآنية أكثر فائدة، وفيها زيادة في المعاني، منها إظهار العدل في القِصاص، وإعلان الغرض من القِصاص وهو الحياة.

2 الإيجاز في العبارة، فعدد حروف (القتل أنفى للقتل) أربعة عشر حرفا، بينما عدد حروف ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ أقل، وهو عشرة حروف.

3 الآية خالية من تكلف التِّكرار، بخلاف المثل العربي الذي تكررت فيه كلمة القتل مرتين في جملة قصيرة من ثلاث كلمات.

4 العبارة القرآنية ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ أحسن تأليفًا بين الحروف المتلائمة، فالخروج من الفاء إلى اللام ﴿فِي ٱلۡقِصَاصِ﴾ أسهل من الخروج من اللام إلى الهمزة في (القتل أنفى) لبعد الهمزة عن اللام في مخارج الحروف، وكذلك الخروج من الصاد إلى الحاء ﴿ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ أسهل من الخروج من الألف المقصورة إلى اللام في قوله: (أنفى للقتل).

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾

الحياة في القصاص هي حفظ حياة الأحياء، فكل من تسول له نفسه قتل أحد سيعلم أن القتل مصيره، وبذا يقلّ القتل، وتستمر الحياة.

5 القاعدة القرآنية ذكرت ﴿ٱلۡقِصَاصِ﴾ ولم تذكر القتل، فشملت كلَّ ما دون القتل من الضرب والإيذاء وغير ذلك من الجنايات، فيقتضي أيُّ عدوان عقوبةً مماثلة.

6 حدّدت الآية القِصاص كعقوبة على خطأ سابق، وهذا عين العدل.

أما عبارة العرب فقد ذكرت القتل فقط، ولم تقيِّده بأن يكون عقوبة، ولم تُشِر إلى مبدأ العدل، لذا كانت قاصرة وناقصة.

استراتيجيات



7 في الآية القرآنية سَلاسة، لاشتمالها على حروف متلائمة سهلة التتابع في النطق، أما عبارة العرب، ففيها تكرار حرف القاف المتحرِّك بين ساكنين، وفي هذا ثقل على الناطق.

وإليكم بعض نماذج أخرى لما جاء في بلاغة القرآن:

- حكى أبو عبيد أن أعرابيًّا سمع رجلا يقرأ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ فسجد وقال: سجدت لفصاحة هذا الكلام.

- وسمع آخرُ رجلا يقرأ: ﴿فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾، فقال: أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام.

- وحكى الأصمعي أنه رأى جارية خماسية أو سداسية أي بلغت خمسًا أو ستَّ سنين، فأثنى على فصاحتها فقالت:

أو تَعُدُّ هذا فصاحة بعد قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين.

- وقد رُوِي عن أكثر من واحد ممن عارض القرآن أنه اعترته هيبة كفَّته عن ذلك، كما حدث مع **يحيى بن حكيم الغزال** -وكان بليغ الأندلس في زمانه- أنه أراد شيئا من هذا، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها، وينسج بزعمه على منوالها، فاعترته خشية ورِقَّة، حملته على التوبة والإنابة.

- وحُكِي أن ابن المقفع -وكان أفصح أهل زمانه- طلب ذلك، ونظم كلاما، وسماه سورا، فاجتاز يوما بصبي يقرأ في مكتب قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، فرجع ومحى ما عمل، وقال: أشهد أن هذا لا يُعارَض أبدا، وما هو من كلام البشر.



تحدٍّ قرآني بثلاثة حروف

عرض الدكتور إبراهيم خليل في كتابه (لماذا أسلم صديقي) معجزة قرآنية بلاغية تحت عنوان (تحدٍّ بثلاثة حروف):

حيث روى قصته مع سابع كلمة نزلت في القرآن، وهي كلمة ﴿عَلَقٍ﴾، فقال:

«طُلِب مني ذات يوم كتابة محاضرة باللغة الإنجليزية عن اهتمام الإسلام بالعلم، كي تُلقى على حشد من الأجانب بمناسبة افتتاح إحدى المكتبات الأجنبية بالقاهرة، وبمراجعة الترجمة الإنجليزية لمعاني القرآن وجدت أن كلمة علق مترجمة إلى Blood Clot أي جلطة دم أو دم متجلِّط، وبالنظر إلى مادة علق في لسان العرب وهو القاموس الجامع للغة العربية وجدت معاني كثيرة مذهلة، وسأنقل إليك ملخصها (وهي في القاموس المحيط في نحو عشر صفحات كاملة):

1 عَلِقَ بالشيء: نَشِب فيه.

2 عَلِق الشيء عَلَقا، وعَلِق به: لَزِمَهُ.

3 وعَلِقَتْ نفسه الشيء: لَهِجَتْ به.

4 عَلِقتْ منها كلَّ معْلق: أي أحبها وشُغِف بها.

5 العَلَق: الهوى يكون لِلرَّجُل في المرأة.

6 أعْلَق أظفارَه في الشَّيء: أنشَبَها.

7 العلائق: المهور، الواحدة: عَلاقة.

8 العُلْقَة: كلُّ ما يُتبلَّغ به من العيش.

9 العُلْقَة: ما فيه بُلْغة من الطَّعام إلى وقت الغذاء.

10 العَلوق: اللبن، يقال: وما بالنَّاقة عَلوق، أي شيْءٌ من اللَّبَن.



11 العَلْق: أكل البهائم ورَق الشَّجر.

12 والعَلْقى: شجرٌ تدوم خُضْرته في القَيْظ.

13 والعَلوق: التي لا تُحِبُّ زوجها.

14 العَلوق: المَنِيَّة

15 العَلاقة: علاقة الخصومة، وعَلِق به عَلَقا: خاصَمَه.

16 رَجُلٌ مِعلاقٌ: شديد الْخُصُومَة.

17 والعَلَق: الدَّمُ الجامد الغليظ

18 العلائق: البضائع (التجارة بين الناس)

19 عَلَقة: دابَّة تكون في الماء لأنها حمراء كالدَّم.

20 العَلَق: دودٌ أسود في الماء معروف.

21 العُلَّيْق: نبات معروف يتعلق بالشجر ويلتوي عليه (الاعتماد على الغير ولو بطريق الخداع).

22 العِلْق: الشيء النفيس الغالي.

23 العلاقَ: الألقاب

24 عَلِقَتْ المرأة: حملت

25 وما يعلق على يديها من خير.

فهذه بعض المعاني التي جاءت تحت مادة علق في لسان العرب، وقد لخَّصناها دون ترتيب، وهكذا تجد أن لفظة علق تعطي عدة معان مختلفة واسعة شاملة بل وعجيبة، وقد وصفَتْ جميع صفات الإنسان التشريحية والفسيولوجية والنفسية والعاطفية والاجتماعية، منذ كان جنينا حتى صار رجلا، يحب ويكره، يجادل ويخاصم، يتعلق ويتلوى، يتعود ويتعلم، فإذا حاولنا ترتيب هذه المعاني ووصفها في تصنيفات جديدة، فسنرى العجب:



أولاً: مراحل تكوين وتطور ونمو الجنين.

ثانيًا: المواد التي يحتاجها الإنسان لاستمرارية حياته مثل: الماء - اللبن - الطعام - الدم.

ثالثًا: ينشب في رحم أمه جنينا ثم عندما يكبر، فإنه ينشب ويتشبث بالأشياء كتشبثه بوطنه وممتلكاته.

رابعًا: فيه حب التملك والأثرة وحب الاستيلاء على الأشياء، والرغبة في ألا يفلت منه شيء (دائما متعلقٌ بالدنيا).

خامسًا: حب الإغارة والعدوان (قصة الحروب والمعارك).

سادسًا: التعلق بالأشياء وملازمتها (مثل العادات والأعراف والتقاليد).

سابعًا: الحرص وحب المال.

ثامنًا: التعلم من الغير والأخذ منه.

تاسعًا: التسرع والعجلة.

عاشرًا: الحب والهوى والعشق والعواطف، وما يقابلها من التباعد والكره والتنافر.

حادي عشر: شدة الخصومة وقوة البلاغة وحب الجدل.

ثاني عشر: حب التفاخر والشغف بالألقاب.

ثالث عشر: الحياة التجارية بين الناس (تبادل البضائع)

رابع عشر: الجزء النفيس الغالي في أي إنسان، وهو الروح

فسبحان من أودع كل هذه المعاني في كلمة: (ع ل ق).

هذه هي ألفاظ القرآن الدقيقة، ومعانيها الكثيرة العجيبة، فأين هذا من ترجمة علق إلى دم متجلِّط؟!».





لا تخلو آيات القرآن من ملامح علمية سبق إليها القرآن، كمراحل خلق الجنين ووصفها بالتفصيل، وجعل البرزخ أي الحاجز قائما بين البحرين، وخلق الإنسان من بين الصُّلب والترائب، وغيرها من آيات أيَّدتها المشاهدات العلمية الحديثة.

لا تخلو آيات القرآن من ملامح علمية سبق إليها القرآن.

غير أن قضية الإعجاز العلمي هيمنت على عقول بعض الباحثين المسلمين، مما جعل تعاملهم مع القرآن باعتباره كتاب جغرافيا وجيولوجيا وفلك، أكثر من كونه منهج هداية، وهذا خطأ.

نعم.. كان لمظاهر الإعجاز أثر في إيمان البعض، لكنه أقل بكثير ممن أسلم بسبب اقتناعه بالإسلام، وأنه يلائم الفطرة.

ومما يؤخَذ على القائلين بإعجاز القرآن: عدم دقة المعلومات التي يطرحونها، ولعل من أشهرها أن وكالة ناسا أقرَّت بانشقاق القمر، وأن القرآن أخبر بهذا الانشقاق قبل أكثر من ١٤٠٠ عام، وبتتبع بيانات وكالة ناسا لم نجد مثل هذا الخبر، ولا يخفى أن آية انشقاق القمر التي جاءت في سورة القمر معجزة من الله لنبيه، اختص بمشاهدتها أهل مكة في ذلك الوقت، ولا يلزم أن يبقى أثر هذا الانشقاق قائما بعد زوال المعجزة.

ومما يؤخَذ كذلك عليهم: توسيع دلالات اللفظ القرآني لتشمل الدلالات العلمية الحديثة، ففي قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، رأى بعض الدعاة أن القرآن اكتشف الذرة التي تدور حول نواتها الإلكترونات قبل ألف سنة، مع أن الذرة هنا ليست الذرة المعلومة في المجال العلمي، وإنما هي تعبير عن دقيق العمل.



قد تكون بعض الحقائق العلمية صحيحة في ذاتها، لكن يقع الخطأ في استدلال البعض بأن الآية تدلُّ عليها، فيتعسف في تفسير اللفظ القرآني.

ومحال أن تتعارض حقيقة علمية مع حقيقة قرآنية، لكن قد تتعارض نظرية علمية مع حقيقة قرآنية، فإذا عارضت النظرية العلمية القرآن، فلا يلزم الإيمان بها، بل المؤمن مطالب بالإيمان بنصوص القرآن.

وأخيرا يقول الشيخ المراغي في إيجاز جميل:

«يجب أن لا نجُرَّ الآية إلى العلوم كي نُفسِّرها، ولا العلوم إلى الآية، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسَّرناها بها».



٧. الإعجاز الصوتي

ومن أهم ملامح هذا الإعجاز مناسبة أصوات الكلمات لمعانيها، إذ لا يمكن أن تجد هذه المناسبة العجيبة في نص لغوي آخر غير القرآن.

ومن أشهر المعاصرين الذين أشاروا لهذا اللون من الإعجاز في دراستهم لإعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعي، وسيد قطب، ومحمد عبد الله دراز، وإليكم بعض الأمثلة من كلمات القرآن:



﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزمر:٢٩]:

وتأمل قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾، وستجد أنها تعبر عن المخاصمة والعناد والجدل، وقد تعطي كلمة (متخاصمون) نفس المعنى، لكن القرآن لم يستعملها حفاظًا على الدلالة الصوتية لكلمة ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ التي أعطت معنى النزاع المستمر والجدال القائم، فأعطت نغمًا موسيقيا خاصًا حمَّلها أكثر من معنى الخصومة والجدل بما



أكسبها أزيزًا في الأذن، يبلغ به السامع أن الخصام بلغ درجة الفورة والعنف من جهة، كما أحيط السمع بجرس ذي نبرات معينة تؤثر في الحس والوجدان من جهة أخرى.

﴿فَكُبْكِبُوا﴾:

تأمل قوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء:٩٤]:

وكبكبوا هنا بمعنى قُذِفوا، والضمير يعود إلى المشركين، كما أن الضمير في قوله ﴿فِيهَا﴾ يعود على الجحيم، أما الغاوون فهم الشياطين.

ولم يقل: فكُبُّوا؛ ليشير لفظ (كبكبوا) بجرسه الشديد إلى أنهم يكبون كبًا عنيفًا غليظا، وجاء تكرار اللفظ دليلا على التكرار في المعنى، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، وكأن الملقَى في جهنم ينكب فيها مرة بعد مرة.

كما تدل لفظة ﴿فَكُبْكِبُوا﴾ على الحركة المضطربة للمعذَّبين وهم يُدفَعون إلى النار، كأنهم يتخبطون ويصطدمون ببعضهم البعض، ولا يمكن أن يستشعَر السامع هذه المعاني أو يتصوَّر هذه الصورة في ذهنه دون استعمال هذا اللفظ المعجِز.

﴿ضِيزَىٰ﴾:

قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم:٢١-٢٢]:

ومعنى ضيزى: جائرة، هذه المفردة ليست غريبة في لفظها فقط، وإنما في صيغتها كذلك، بل هي أغرب كلمة في القرآن، وجاءت غريبة لتعبِّر عن القسمة الغريبة التي قسمها الكفار بينهم وبين الله في شأن الملائكة: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾، وكما قال الجاحظ:

«إنما الألفاظ على أقدار المعاني».

وهذا تناظر جميل في اللغة حيث جاء اللفظ ملبيًا للمعنى والإيقاع معا، وخلق عند المتلقي حالة من الدهشة توازي دهشته من جرأة الكفار على الله بقسمتهم الجائرة، وكما قال الرافعي في كتابه إعجاز القرآن:

«هذه الكلمة غريبة في لفظها، وغريبة في معناها، وغريبة في نطقها، وغريبة في صوتها، فجمعت أربع غرائب في أربعة حروف».

﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾:

قال تعالى:

﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ [الأعراف:١٦٠]:

وقد حاول بعض العلماء الوقوف على حقيقة استعمال الفعل: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾ في هذه الآية، في حين استعمل فعل ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾ في آية سورة البقرة التي تناولت قصة الاستسقاء نفسها: ﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ [البقرة:٦٠].

فما الفارق بين الكلمتين؟!

الانفجار يكون بالماء الكثير، وهو أغزر من الانبجاس.

قال ابن عطية: «الانبجاس: أخفُّ من الانفجار».

وعبَّر عنه الآلوسي بقوله: «الانبجاس: أول خروج الماء؛ والانفجار: اتساعه وكثرته».

وذهبوا في سبب الاختلاف بين الآيتين ما يلي:

- جاء التعبير في البقرة بلفظ: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾، لأن آية البقرة فيها تعداد نعم الله على بني إسرائيل، وكان المقام مقام تكريم، فناسب استعمال لفظ ﴿فَٱنفَجَرَتۡ﴾.

وسبب آخر: أن الذي استسقى هو موسى ﷺ، فكان من التكريم له غزارة الماء المتفجِّر، ولذلك أمرهم بالأكل والشرب بعدها: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦٠].

- لكن لما عصى بنو إسرائيل، أخذ الماء الذي تفجر أول مرة ينبجس بسبب عصيانهم، لذا قال في سورة الأعراف: ﴿فَٱنۢبَجَسَتۡ﴾، ونلاحظ كذلك في الأعراف أن قوم موسى هم الذين استسقوه ﴿ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ﴾، وشتان بين طلبهم للسقيا وطلب موسى، ولذلك أمرهم بالأكل فحسب: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [الأعراف١٦٠].

فالماء أول ما انفجر كان غزيرًا، ثم جاء التعبير بلفظ الانبجاس تقليلا للماء بسبب عصيانهم، فعبَّر في مقام المدح بالانفجار، وفي مقام الذَّم بالانبجاس.



وهكذا يختار القرآن ألفاظه بدقة شديدة بحسب السياق، وهذا دليل عدم ترادف الألفاظ القرآنية، فأي لفظين في القرآن لا بد أن يكون بينهما نوع تغاير في المعنى وعدم تطابق، وهذا هو الأليق بالنظم القرآني، والأنسب بالإعجاز البياني القرآني.

﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾:

قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [التوبة:٣٨]

وقد جاءت هذه الآية في معرض خطاب للمؤمنين والمنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك على وجه العتاب، لتباطئهم في إجابة داعي الجهاد، وربما جاء التعبير بقوله ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ﴾ للمبالغة في تصوير التباطؤ والتقاعس عند هؤلاء النفر، وذلك لما تؤديه هذه اللفظة من صورة معبِّرة عن حالهم، وكأنهم أجسام متثاقلة يرفعها الرافعون بصعوبة بالغة، فتسقط من أيديهم بسبب ثقلها.

لا ترادف في ألفاظ القرآن، فأي لفظين في القرآن لا بد أن يكون بينهما نوع تغاير في المعنى

وهذه اللفظة ثقيلة حتى في نطقها مما جعلها أكثر ملاءمة للمعنى، فهي تعبِّر عن نفس مثقلة بحب الدنيا والالتصاق بالأرض، وهو ما دعا صاحب الظلال إلى أن يرى (أن في هذه الكلمة طِنًّا على الأقل من الأثقال!

ولو أنك قلتَ: تثاقلتم، لخفَّ الجرس ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ، واستثقل برسمها).



الواجب الأول: التلاوة

الله يخاطبك..

الله رب العالمين يوجِّه إليك رسالة..

عليها مدار نجاتك أو هلاكك

فوز الأبد أو هلاك لأبد.

لكن..

لابد -لكي تعمل هذه الرسالة عملها- من اتصال مستمر لا ينقطع مع هذا الكتاب:

في الصحيحين أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: «تعاهدوا القرآن،

واجبنا نحو القرآن

١ التلاوة	٢ تحسين الصوت بالقراءة	٣ تدارس القرآن
٤ التعظيم	٥ الفهم	٦ التدبر
٧ الفرح بالقرآن	٨ العمل بأحكامه	٩ ربط القرآن بالواقع
	١٠ الدعوة إلى القرآن	



فوالذي نفسي بيده لهو أشَدُّ تَفَصِّيًا من الإبل في عُقُلها»[1].

وفي صحيح مسلم بلفظ: «أشد تفلتًا»[2].

أي حافظوا على قراءته، وواظبوا على تلاوته، وشبَّه القرآن في كونه محفوظا عن ظهر قلب بالإبل النافرة، وقد عقلها صاحبها بالحبال، فينبغي كذلك لصاحب القرآن أن يتعاهده بالمواظبة عليه، ووجه التشابه أن من شأن الإبل أنها تطلب التفلت ما أمكنها، فإن لم يتعاهدها صاحبها برباطها تفلتت، فكذلك صاحب القرآن إذا لم يتعاهده تفلتَ من صدره، بل هو أشد في ذلك.

قال ابن بطال: «هذا الحديث يوافق الآيتين:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥].
- وقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر:١٧].

فمن أقبل عليه بالمحافظة والتعاهد يُسِّر له، ومن أعرض عنه تفلَّتَ منه».

واعلم أن من علامات المحبة أن تحب قراءة رسائل الحبيب، أو كما قال مطرف بن عبدالله: «محبة العبد لربه أن لا يمَلَّ تلاوة كتابه».

كم من رافع لواء الحب وأحواله تكذِّبه!

ورد التلاوة:

قال ابن القيم عن قراءة النبي ﷺ: «كان له ﷺ حزب يقرؤه، ولا يُخِلُّ به، وكانت قراءته ترتيلا لا هذًّا ولا عجلة، بل قراءة مفسَّرة حرفا حرفا».

وقد عرض الإمام النووي في كتابه (التبيان في آداب حملة القرآن) حال السلف مع القرآن، فقال:

«وكان السلف رضي الله عنهم لهم عادات مختلفة في قدر ما يختمون فيه، فروى ابن أبي

---

(١) صحيح البخاري رقم: ٥٠٣٣.
(٢) صحيح مسلم رقم: ٢٣١.



داود عن بعض السلف رضي الله عنهم أنهم كانوا يختمون في كل شهرين ختمة واحدة.

وعن بعضهم في كل شهر ختمة.

وعن بعضهم في كل عشر ليال ختمة.

وعن بعضهم في كل ثمان ليال.

وعن الأكثرين في كل سبع ليال.

وعن بعضهم في كل ست.

وعن بعضهم في كل خمس.

وعن بعضهم في كل أربع.

وعن كثيرين في كل ثلاث».

لكن ماذا عن أحاديث النبي ﷺ، في كم يوم نختم القرآن كما أخبر رسول الله ﷺ؟!

قال رسول الله ﷺ: «اقرأ القرآن في أربعين»[1].

ورآه الإمام أحمد غالب أحوال الناس:

«أكثر ما سمِعتُ ختمه في أربعين».

وكره ابن قدامة الختم في أكثر من أربعين، فقال:

«يُكرَه أن يؤخِّر ختم القرآن أكثر من أربعين يومًا».

بل رأى الحكيم الترمذي هذه المدة خاصة بالضعفاء، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الأربعون مدة الضعفاء وأولي الأشغال».

فمن كانت عزيمته منكم أقوى، فليقرأ الحديث الثاني: «**اقرأ القرآن في كل شهر، اقرأه في عشرين ليلة، اقرأه في عشر، اقرأه في سبع، ولا تزد على ذلك**»[2].

---

(١) حسن: رواه الترمذي عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ١١٥٤.

(٢) صحيح: رواه الشيخان وأبو داود عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ١١٥٨.



ثم يأتيك الحديث الثالث؛ ليحدد أقل فترة يُختَم فيها القرآن:

«اقرأ القرآن في ثلاث إن استطعت»[1].

فكما ترى، أطول مدة يُختَم فيها القرآن ما رواه النووي عن بعض السلف: شهران، وأقل مدة: ثلاثة أيام.

وأوجز الإمام الغزالي الكلام عن معدل ختم القرآن في ثلاث درجات:

«ولذلك ثلاث درجات:

أدناها: أن يُختَم في الشهر مرة.

وأقصاها: في ثلاثة أيام مرة.

وأعدلها: أن يُختَم في الأسبوع».

ومعنى هذا أنه يجب عليك أن تلتزم بورد يومي لا تنقطع عنه؛ لا يقل عن مقدار محدَّد، ولا تتركه أبدا مهما عرض لك من أشغال أو كسل أو تعب أو ظرف طارئ، فلا تفرِّط في وِرْدِك أبدا؛ فالثبات والاستمرارية سر من أسرار تأثير القرآن، وأكثر أهمية من مقدار ما تتلو من آيات، لأن ذلك يُبقي حبل الصلة ممتدا بينك وبين الله، فتستمد النور بشكل يومي من آيات القرآن.

ولذا كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يستحي أن يمر عليه يوم دون أن ينظر في المصحف، قائلاً:

«إني لأستحي ألا أنظر كل يوم في عهد ربي مرة».

ومثله ذو النورين عثمان رضي الله عنه الذي كان يقول:

«ما أحب أن يأتي عليَّ يوم ولا ليلة إلا أنظر في كلام الله -يعني القراءة في المصحف-».

---

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن سعد بن المنذر كما في صحيح الجامع رقم: ١١٥٥.



وتذكر:

ما ضاع وِردٌ من القرآن إلا بحرمان، ولا حرمان إلا بذنب، فاستغفر الله من ذنبك واستدرِك!

استغفر الله من كل ذنب كان سبب حرماني من القرآن

أخي..

كلما رأيتَ مصحفًا أمامك، فكأنما سمعت مناديا يستنهض إيمانك:

الله يتكلم، فافتح مصحفك لتسمع ما يقول الله.

أيهما أفضل ؟! الترتيل أم كثرة القراءة ؟

الترتيل بتدبر أفضل عند جمهور العلماء؛ لأنه يحقق مقصد إنزال القرآن:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

قال أبو حمزة لابن عباس:

إني سريع القراءة، إني أقرأ القرآن في ثلاث. فقال: لأن أقرأ سورة البقرة في ليلة أتدبرها وأرتلها أحب إليَّ من أن أقرأ القرآن كله، أهُذًّا كما تقول.

قال المناوي:

«ولا يمنع أن يفضل أحدهما الآخر وأن يستويا، فإن من رتَّل وتأمل كمن تصدَّق بجوهرة ثمينة، ومن أسرع كمن تصدَّق بعدة جواهر، لكن قيمتها قيمة الواحدة، وقد تكون قيمة الواحدة أكثر من قيمة الأخريات، وقد يكون بالعكس».

لكن لو تعارض الإسراع والترتيل روعي الترتيل عند جمهور العلماء.



ولذا قال زيد بن ثابت رضي الله عنه:

«لأن أقرأ القرآن في شهر أحب إليَّ من أن أقرأه في خمس عشرة، ولأن أقرأه في خمس عشرة أحب إليَّ من أن أقرأه في عشر، ولأن أقرأه في عشر أحب إليَّ من أن أقرأه في سبع أقف وأدعو».

القراءة من المصحف:

أن يقرأ القارئ من المصحف أفضلُ من القراءة من حفظه، لأن النظر في المصحف عبادةٌ مقصودة، لما أخرجه البيهقي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال:

«من سرَّه أن يحب الله ورسوله، فليقرأ في المصحف»[١].

قال الإمام النووي: «هكذا قاله أصحابنا، والسَّلف أيضا، ولم أر فيه خلافا. قال: ولو قيل: إنه يختلف باختلاف الأشخاص:

فيُختار القراءة فيه لمن استوى خشوعُه وتدبُّره في حالتَيْ القراءة فيه ومن الحفظ.

ويُختار القراءة من الحفظ لمن يكمُل بذلك خشوعُه، ويزيد على خشوعه وتدبُّرِه لو قرأ من المصحف لكان هذا قولا حسنا».

الواجب الثاني: تحسين الصوت بالقراءة

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ليس منَّا من لم يَتَغَنَّ بالقرآن»[٢].

وعند الحاكم والدارمي:

«حسِّنوا القرآن بأصواتكم، فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حُسْنًا»[٣].

---

(١) حسن: رواه البيهقي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٦٢٨٩.
(٢) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٤٤٢.
(٣) صحيح: رواه الدارمي والحاكم عن البراء كما في صحيح الجامع رقم: ٣١٤٥.



وبيّن لنا النبي ﷺ الضابط في معرفة حُسْن الصّوت، فقد روى ابن ماجة عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذي إذا سمعتَه يقرأ، رأيتَ أنه يخشى الله»(١).

ومع هذا فقد جاء الخبر بذم الصوت الحسن إذا لم يكن معه تدبر ولا فقه، فقال رسول الله ﷺ:

«بادروا بالأعمال ستا:

إمارة السفهاء، وكثرة الشُّرَط، وبيع الحُكْم، واستخفافا بالدم، وقطيعة الرحم، ونشوا يتخذون القرآن مزامير، يقدِّمون أحدهم ليغنِّيَهم، وإن كان أقلَّهم فقها»(٢).

ونشوا: جمع ناشئ، يريد جماعة أحداث السِّن، ووصفهم بأنهم «يقدِّمون أحدهم ليغنيهم» أي في الصلاة التذاذا بصوته لا إقبالاً على تدبر معاني القرآن، ولذا قال: «وإن كان أقلهم فقها» مع أنه منهي عن تقدم غير الأفقه، وفي الحديث دليل على أن حسن الصوت لا اعتبار به في الإمامة إذا غاب معه الفقه والتقوى.

واعلم أن الأمر بالمبادرة بالأعمال لهذه الأمور؛ لأنها إن حدثت تعسَّر معها فعل الخير، أو كان وقوعها سببا لعدم قبول الأعمال، ولأنه يحال بين المرء وبين ما يريده من الخير بسبب هذه الأعمال كعقوبة من الله للعباد.

الواجب الثالث: تدارس القرآن

من أجمع الأحاديث التي عرضت ثواب من اجتمع لتلاوة القرآن وتدارسه، حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وفيه:

«وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت

(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٢٢٠٢.
(٢) صحيح: رواه الطبراني عن عابس الغفاري كما جاء في صحيح الجامع رقم: ٢٨١٢.



عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله في من عنده»[١].

وكلمة «قوم» نكرة، كأنه قال: أي قوم اجتمعوا على تلاوة القرآن كان لهم هذا الفضل العظيم الذي ذكره الحديث، كاملا غير منقوص، فلم يشترط فيهم أن يكونوا علماء أو أصحاب درجات عالية ومقامات سامية.

وأما قوله: «في بيت من بيوت الله»، فليس قيدا حقيقيا، وإنما قيد أغلبي أي في الأغلب؛ فقد جاءت أحاديث أخرى بدون ذكر المسجد، ومنها:

«ما جلس قوم مجلسا يذكرون الله فيه، إلا حفَّتهم الملائكة، وتغشتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله في من عنده»[٢].

فالتقييد إذن بالتلاوة في بيت الله لأنه الأغلب.

«ويتدارسونه بينهم»:

وهذا شامل لكل ما يتعلق بالقرآن من التعلم والتعليم والتجويد والتفسير واستكشاف معانيه.

ثم رتَّب النبي ﷺ على الاجتماع لتلاوة القرآن ومدارسته أربعة ألوان من الثواب:

① نزلت عليهم السكينة

والسكينة: طمأنينة القلب، وهي أصل الراحة الروحية، ودواء الاضطرابات النفسية، وما أعظم أهمية السكينة اليوم في عالم يموج بكل أنواع الاضطرابات، والخوف من المجهول، والقلق من المستقبل.

---

(١) صحيح: صحيح مسلم رقم: ٢٦٩٩.
(٢) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٧٥.



② وغشيتهم الرحمة:

ولا يُستَعمل لفظ (غشي) إلا إذا شمل المغشي من جميع أجزائه. قال الشيخ شهاب الدين بن فرج: «والمعنى في هذا في ما أرى أن غشيان الرحمة يكون بحيث يستوعب كل ذنب تقدَّم إن شاء الله تعالى».

فأبشِر بوابل رحمات يمحو كل ذنب، ويغفر كل خطيئة، وهو ما ينتظرك بعد كل جلسة مدارسة قرآنية مهما كانت قصيرة، هذا وعد الله، وبهذا بشَّر رسوله.

③ وحفتهم الملائكة:

تحيط بهم الملائكة من كل جانب، كأن الملائكة اقتربت منهم اقترابا حتى لم تدع بينهم فرجة يمكن أن يتسلل منها شيطان.

④ وذكرهم الله فيمن عنده:

وهذا يقتضي أن يذكرهم الله تعالى عند الأنبياء وكرام الملائكة، ويحتمل أن يكون ذكر ثناء وتشريف، أو ذكر مباهاة، كما باهى الله الملائكة بأهل عرفة.

فكيف لا يشتد حرص الواحد منا على ربح واحد من هذه الأرباح، فضلاً عن مجموعها؟!

وقد اجتمعت كلها في عمل واحد سهل يسير، فالتحِقوا بحلقات تحفيظ القرآن وتدبره، وألحِقوا بها أبناءكم وبناتكم، واجعلوها في المساجد والبيوت، واستبشروا بهذا الفضل الكبير.

الواجب الرابع: التعظيم

هب أن هذا القرآن كان رسالة من أمير، أو خطابا من رئيس أو حتى وزير، كيف كنت ستتلقاه؟!

فكيف وهو خطاب رب العالمين؟!

كيف استقبالك له وهو الخطاب الذي يحوي سر نجاتك الأبدي؟! ومفتاح فوزك بالنعيم



السرمدي.

ومن هنا قال الإمام شرف الدين النووي:

«أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيانته».

ما ملامح تعظيم القرآن؟

- تعظيم المصحف، وتكريمه، وقراءته على طهارة، ورفعه عن الأرض، وتقبيله، فقد كان عكرمة بن أبي جهل رضي الله عنه يضع المصحف على وجهه ويقول: كتاب ربي، كتاب ربي.
- ومن تعظيمه: عدم وضع أي شيء فوقه، أو الاحتفاظ بورقة بين صفحاته.
- ومن تعظيمه: الإنصات لمن يقرأه:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

- ومن تعظيمه: تكريم حامل القرآن وإجلاله. قال رسول الله ﷺ:

«إن من إجلال الله: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[1].

نعم.. إكرام حامل القرآن من علامات تعظيم القرآن، وحامل القرآن الغالي فيه: هو المتجاوز للحد، بالتكلف والتنطع في قراءته أو تفسير معانيه، وحامل القرآن الجافي عنه الذي يهمله ويهجره، فالغالي والجافي ضدان، فالغالي صاحب إفراط، والجافي صاحب تفريط، وليس هذا حال حامل القرآن بحق، والذي أمرنا الله بتكريمه.



الواجب الخامس: الفهم

في مناهجك الدراسية، إذا عرض لك ما لا تفهمه، ماذا تفعل؟!

(١) حسن: رواه أبو داود عن أبي موسى كما في صحيح الجامع رقم: ٢١٩٩.



ألا تلجأ لزميل لك لتستفهم منه ما جهلت؟!

أو ترجع إلى أستاذ المادة لتراجعه في ما غمض عليك؟!

ألا تفعل هذا خاصة قبل الامتحانات حتى تجتازها بنجاح؟!

فلماذا لا يكون هذا حالنا مع كتاب الله؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«فالعادة تمنع أن يقرأ قومٌ كتابا في فن من العلم كالطب والحساب، ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم».

إن عدم فهم النصوص القرآنية مع إظهار احترامها شيء أثار استغراب أديب الفقهاء علي الطنطاوي في كتابه (فصول إسلامية)، فقال:

«فهل ينفع القاضي أن يقرأ القانون مجوَّدًا ثم لا يفهمه ولا يحكم به؟

وإذا تلقى الضابط برقية القيادة هل ينجيه من المحكمة العسكرية أن يضعها على رأسه ويقبلها ويترنم به، ولا يحاول أن يدرك مضمونها.

بل لو رأيتم رجلاً قعد يقرأ جريدة حتى أتمها كلها من عنوانها إلى آخر إعلان فيها، فسألتموه: ما هي أخبارها؟ فقال: والله ما أدري، لم أحاول أن أتفهم معناها فماذا تقولون فيه؟

أما تنكرونه وتنكرون عليه؟

فكيف لا تنكرون على من يعكف على المصحف حتى يختم الختمة، وقد خرج منها بمثل ما دخل فيها، ما فهم من معانيها شيئا؟

فمن أين جاءت هذه المصيبة؟

وأي عدو من أعداء الله استطاع أن يلعب هذه اللعبة، فيحرم المسلمين من قرآنهم وهو بين أيديهم، وفي كل بيت نُسخ منه، وهو يُتلى دائمًا في كل مكان؟

يحرمهم منه وهو في أيديهم وهو ملء أنظارهم وأسماعهم؟..

مسألة عجيبة جدًا والله!».



من أسباب عدم الفهم:

آفات قلبية، وذنوب خفيه، فتخلَّص من حواجز فهم القرآن، فحبُّ الظهور وطلب الجاه أو المال أو ثناء الناس أو صرف وجوههم إليك، كل هذا يحرمك من فهم القرآن وقطف معانيه.

وقد قال الله تعالى في عقوبة أهل الكِبر:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦].

قال شيخ الإسلام **سفيان بن عيينة** في تفسيرها: «حرمهم فهم القرآن».

وعرض **سفيان الثوري** لسبب آخر من أسباب ضعف فهم القرآن، وهو قبول الهدايا من الأمراء والحكام، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنتُ أوتيتُ فهم القرآن، فلما قَبِلْتُ الصُّرَّة، سُلِبْتُه».

وصدق ذو النون المصري حين قال: «أبى الله إلا أن يحرم قلوب البطالين مكنون حكمة القرآن».

والرسالة هنا:

كلما كثُرت الذنوب على القلوب، ضعف فهمها للقرآن، وكلما طهرت القلوب قوي فهم كتاب الله.

ومن هنا قال **عثمان** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«لو طهُرت قلوبنا لما شبعت من كلام ربِّنا».

وهذا الشِّبَع يشملُ شبع القراءة، وشبع الفهم والتدبر.

وما ألطف ما استدل به بعض العلماء على هذا من كتاب الله، إذ قال أبو حامد الغزالي عند تفسيره لقوله تعالى:





﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾: «وكما أن ظاهر الجلد والورق محروسين عن بشرة اللامس إلا إذا كان متطهرا، فباطن معناه أيضا محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهرًا عن كل رجس، مستنيرا بنور التعظيم والتوقير.

وكما لا يصلح لمسه لكل يد، لا يصلح لنيل معانيه كل قلب».



الواجب السادس: تدبر آياته

ما التدبر؟!

قال الإمام السيوطي:

«صفة التدبر: أن يشغل القارئ قلبه بالتفكر في معنى ما يتلفظ به، فيعرف معنى كل آية، ويتأمل الأوامر والنواهي، ويعتقد قبول ذلك، فإن كان قصَّر عنه فيما مضى من عمره اعتذر واستغفر، وإذا مَرَّ بآية عذاب أشفق وتعوَّذ، أو تنزيه نزَّه وعظَّم، أو دعاء تضرَّع وطلب».

إن التدبر هو الغاية الأساسية من إنزال القرآن، كما قال ربنا:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

ولأننا لا نتدبر القرآن، فقد كثرت في رمضان الختمات،

دون أن تتحسن فينا الأخلاق والمعاملات.

ولذا جاء في القرآن التوبيخ العظيم لمن ترك تدبر القرآن، فقال ﷻ:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

ولو لم تكن الأقفال على قلوبهم، لوجدوا القرآن زاجرا لهم عن كثير من ذنوبهم.

إنك بتدبرك لما تقرأ من القرآن تعرف مراد الله منك، وهذا أولى من تدبرك لتعليمات مديرك في العمل تتلقاها للتنفيذ، أو أوامر الأمير أو الوزير التي تسارع إلى العمل بها.



قال الحارث المحاسبي:

«إذا كان كلام العالم أوْلى بالاستماع من كلام الجاهل، وكلام الوالدة الرؤوم أحق بالاستماع من كلام غيرها، فالله أعلم العلماء وأرحم الرحماء، فكلامه أوْلى كلام بالاستماع والتدبر والفهم».

حين عرض التابعي الكوفي مسروق بن الأجدع لفضل سورة الواقعة، فقال:

«من سرَّه أن يعلم علم الأولين والآخِرين، وعلم الدنيا والآخرة، فليقرأ سورة الواقعة».

قال الإمام الذهبي معلِّقًا على قول مسروق:

«هذا قاله مسروق على المبالغة؛ لعِظَم ما في السورة من جُمَل أمور الدارين، ومعنى قوله (فليقرأ الواقعة): أي بتدبر وتفكر وحضور، ولا يكن كمثل الحمار يحمل أسفارًا».

وسيقود التدبر الصادق إلى البكاء، وهذه نصيحة الإمام النووي لك أثناء تلاوة القرآن، فاحرص على العمل بها خاصة إن شكوت يوما قسوة القلب وقحط العين:

«وطريقه في تحصيل البكاء أن يتأمل ما يقرؤه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود، ثم يُفكِّر في تقصيره فيها، فإن لم يحضره عند ذلك حُزن وبكاء، فليبكِ على فقد ذلك، فإنه من المصائب».

قال عروة بن الزبير: قلت لجدتي أسماء كيف كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمعوا القرآن؟

قالت: «تدمع عيونهم وتقشعر جلودهم كما نعتهم الله».

شعب الإيمان للبيهقي ٢ / ٣٦٥

ومن أسباب ضعف التدبر: الإسراع بالتلاوة، والحرص على الكمِّ لا الكيف، والكثرة لا الجودة، مما أدى لعدم حدوث التأثر المطلوب بالقرآن، وهنا تشخيص دقيق قام به الحسن البصري، حين قال متعجِّبا:

«يا ابن آدم.. كيف يرقُّ قلبك، وإنما همتك في آخر السورة؟!».



الوصية الذهبية هنا:

تمهَّل تمهَّل.. لا تتعجَّل..

أعطِ قلبك الفرصة كي يتأمَّل..

وما أحوجك إلى العمل بكلام سفيان بن عيينة:

«إنما آيات القرآن خزائن، فإذا دخلتَ خزانة، فاجتهِد أن لا تخرج منها حتى تعرف ما فيها».

من هنا نهى الصحابي الجليل الغلام المُعَلَّم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن التعجل في قراءة القرآن:

«لا تنثروه نثر الدَّقْل، ولا تهذّوه هذَّ الشِّعر، قِفوا عند عجائبه، وحرِّكوا به القلوب، ولا يكون هَمُّ أحدكم آخر السورة».

قال النووي:

«واتفقوا على كراهة الإفراط في الإسراع، ويُسمَّى الهذَّ. قالوا: وقراءة جزء بترتيل، أفضل من قراءة جزئين في قدر ذلك الزمان بلا ترتيل».

ولذا كان كثير من السلف الصالح يخصص ختمة تدبر غير ختمة التلاوة، فهذا ابن عطاء الزاهد العابد المتأله -كما جاء عنه في سير أعلام النبلاء- كان له في كل يوم ختمة، وبقي في ختمة مفردة بضع عشرة سنة، يتفهم ويتدبر.

من تدبر الرسول وتأثره!

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال لي النبي ﷺ:

«اقرأ عليَّ».

قلت: يا رسول الله، أقرأ عليك، وعليك أنزل؟!



قال: «نعم»، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١].

قال: «حسبك الآن»، فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان(١).

لكن.. لماذا بكى النبي ﷺ حين بلغ ابن مسعود قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]؟

أولا: بكى ﷺ لشدة خشيته من موقفه غدا بين يدي الله، وهذا ناجِمٌ عن عظيم علمه ومعرفته بربه، فأكثر الناس معرفة بالله أكثرهم خشية له. قال الإمام النووي عن البكاء عند قراءة القرآن:

«وهو صفة العارفين، وشعار عباد الله الصالحين». فكيف إذا كان الباكي أعظم العارفين وسيدَ الخلق أجمعين: رسول الله ﷺ؟!

قال رسول الله ﷺ: «والله، إنِّي لأَعْلَمكم بالله عزَّ وجلَّ، وأخشاكم له»(٢).

ثانيا: بكى ﷺ لرقة قلبه، وكيف لا وقد طهَّر الله تعالى قلبه، ونزع حظ الشيطان من صدره، وملأه نورا وإيمانا؟! وكلما رقَّ القلب وصَفا، كانت دمعة العين إليه أقرب.

قال ابن القيم محذِّرًا:

«ما ضُرِب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، خُلِقَت النار لإذابة القلوب القاسية، أبعد القلوب من الله القلب القاسي، وإذا قسا القلب قحطت العين».

ثالثا: بكى ﷺ شفقةً بأمته ومن فرط رحمته بها، لعلمه بتقصيرهم وخوفه عليهم، لا سيما أنه هو الشاهد والشافع، قال ابن حجر في الفتح: «والذي يظهر أنه بكى رحمة لأمته؛ لأنه علم أنه لا بد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيما، فقد يُفضي إلى تعذيبهم».

---

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٥٠٥٠.
(٢) صحيح: رواه أحمد عن عائشة كما في مسنده رقم: ٢٤٩١٢.



رابعا: بكى ﷺ ليسُنَّ سُنَّة لأمته من بعده، يقرأون القرآن، فيتأثرون ويبكون، كما بكى رسولهم ﷺ.

خامسا: بكى ﷺ استشعارا لعِظَم الأمانة التي اؤتمن عليها، وشعوره العظيم بالمسؤولية:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قال ابن عباس: «يسأل الله الناس عما أجابوا المرسلين، ويسأل المرسَلين عما بلَّغوا»، فكأنَّ بكاءه مِنْ خوف التقصير في تبليغ الرسالة، حاشا رسول الله ﷺ.

وأخيرًا..

بكى ﷺ وهو الشافع المشفَّع، فالأحرى بالمشفوع له أن يطيل البكاء، ويستعد بالعمل الصالح لروعة يوم الجزاء.

ذمٌّ غير المتدبرين!

أخبر النبي ﷺ على سبيل الذم والإنكار بأنه سيخرج أناس من أمته يقرؤون القرآن بلا تدبر، فقال ﷺ:

«سيخرج أقوام من أمتي يشربون القرآن كشربهم اللبن»(١).

قال المناوي في شرح الحديث:

«أي يسلقونه بألسنتهم من غير تدبرٍ لمعانيه، ولا تأملٍ في أحكامه، بل يمر على ألسنتهم كما يمر اللبن المشروب عليها بسرعة».

ماذا غرس القرآن في قلوب قارئيه؟ ماذا أفاد من قرأه دون تدبر معانيه؟

قال رجل لابن المبارك: قرأت البارحة القرآن في ركعة، فقال: أعرِفُ رجلا لم يزل البارحة يكرِّر: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلى الصبح، ما قدر أن يتجاوزها، يعني بذلك نفسه.

---

(١) حسن: رواه الطبراني عن عقبة بن عامر كما في صحيح الجامع رقم: ٣٦٥٣.





يا صاحب الأحزان.. افرح بالقرآن!

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه في تفسيرها:

«فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله وأتباعه».



وقد شرح الإمام ابن القيم كلام أبي سعيد الخدري فقال:

«يريد بذلك أمرين:

الأول: الفضل في نفسه (أي القرآن).

والثاني: استعداد المحل لقبوله، كالغيث يقع على الأرض القابلة للنبات، فيتم المقصود بالفضل، وقبول المحل له».

الفضل إذن هو هداية الله الموجودة في القرآن، والرحمة هي توفيق العبد إلى اتباع شريعة القرآن، والتي هي عنوان الرحمة في الدنيا والآخرة.

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ كُلَّ مَنْ لم يكن القرآن سبب فرحته، فلا يوجد عنده ما يستحق الفرح؛ إذ أنَّ كل ما عدا القرآن هو ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

فكل مظاهر النعيم الدنيوي والمتاع المادي داخل تحت: ﴿مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾، فيدخل فيه الأموال والأولاد وسائر الكنوز والأملاك.



كأنه قال: إن كان في الدنيا شيء يستحق أن يُفرَح به؛ فهو هذا القرآن، فتفرح بنزول القرآن، وتفرح إذا وفَّقك الله لتلاوة القرآن، وتفرح إذا علمت تفسير آية جديدة في كتاب الله، وتفرح إذا تدبرت آية فرقَّ لها قلبك، فكل هذا من ألوان فرحتك بالقرآن.

والذي أخبرنا بذلك الفرح ودلّنا عليه هو الخالق الخبير بما خلق، والعليم بما يصلح النفس ويُسعِدها، ولذا حمد الله نفسه في كتابه على إنزال كتابه، فقال:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

نعم.. ينبغي أن يكون فرح المؤمن بالقرآن وغيره من النِّعم الإيمانية أكثر من فرحه بالنعم الدنيوية المادية؛ لأن اللذات المادية لا تكون خالصة ألبتة، بل لا بد أن تشوبها ألوان المكاره، وهي كذلك لذات راحلة لا تبقى، بل تزول سريعا، وحتى لو بقيت لكان الخوف من زوالها منغِّصا للذاتها، ولذا قال المتنبي:

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدي في سرورٍ تَيَقَّنَ عنه صاحِبُه انْتِقالا

إن هذه الآية ومثيلاتها تهدف أول ما تهدف إلى تربية النفوس المؤمنة على إعلاء قيمة هذا الدين، مما يجعل الفوز بكنز الإيمان أغلى عند المؤمن من كل ما يجمع الكافرون، ويجعل للحياة عنده معنى أسمى مما يتصوره الماديون، ويجعل أي خسارة دنيوية هيِّنة ما لم تُصِب دينك.

وهذا وحده ما يجعل الدنيا خادمة لا مخدومة، ويجعل المؤمن فوقها وهو يستمتع بها، لا عبدا خاضعا لها.

إن أكثر أسباب تمكن الأحزان من القلوب اليوم هو إعلاء قيمة الدنيا فوق الإيمان، والاهتمام بها على حساب الآخرة.

ولقد آتت هذه التربية القرآنية أُكلها في نفوس المسلمين الأوائل، فهم، وإن كانوا يفرحون بما تفرح به كل نفس سوية؛ كونَ الفرحِ بالخير انفعالاً فطريًا جُبِلَتْ عليه النفس -إلا أنهم- ما كانوا يفرحون بشيء أكثر من فرحهم بهذا الدين، فهذا أنس بن مالك يقول عن الصحابة، بعد أن سمعوا قول الرسول ﷺ للأعرابي الذي سأله عن الساعة: «أنت مع من أحببت».



قال أنس: فما فرحنا بشيء، فرحنا بقول النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت»[1].

وقد ذكر المفسرون عند تفسير الآية السابقة: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس:٥٨] ذكروا حوارا يكشف عن حسن فهم الصحابة لها:

قال أَيْفَع بن عبد الكَلاعي: لما قدِم خَراج العراق إلى عمر رضي الله عنه خرج عمر مع مولًى له، فجعل عمر يعُدُّ الإبل، فإذا هي أكثر من ذلك، فجعل عمر يقول: (الحمد لله تعالى)، ويقول مولاه: (هذا والله من فضل الله ورحمته)، فقال عمر: (كذبتَ، ليس هذا هو، يقول الله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، وهذا مما تجمعون).

إن ما جُمع من مال بين يدي عمر رضي الله عنه يستدعي الفرح ولا شك، لكنه لا يرقى بحال إلى أن يفرح به كفرحه بالإسلام، الذي هو سبب كل خير دنيوي وأخروي، مما يضيق المقام عن ذكره.

إن الفرح بالقرآن ﴿خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]، أي مما يجمع الكافرون من متاع وضِيَاع، وبه يتمتعون.

وخيرٌ كذلك مما تجمعون أنتم أيها المسلمون، فقد قرأها جماعة من السلف (تجمعون) بالتاء؛ لتكون خطابًا للمسلمين، ولعل هذا ما أشار إليه قول عمر رضي الله عنه.

ومن فوائد الفرح بالقرآن ما قاله ابن القيم:

«الفرح بالعلم والإيمان والسُنَّة دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له، وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء -عند حصوله له- على قَدْر محبته له ورغبته فيه، فمَنْ ليس له رغبة في الشيء، لا يُفرِحه حصوله له، ولا يُحزِنه فواته؛ فالفرح تابع للمحبة والرغبة».

وإن الفرح بالقرآن يُعَدُّ سببًا مباشرًا للحرص على القرآن؛ والانشغال به، والتضحية من أجله، وقد تمثّلت هذه المعاني كلها في سيرة الصحابة رضوان الله عليهم.

من آثار الفرح بالقرآن:

ومن لطائف الأجوبة ما أجاب به الشيخ عبدالرحمن الدوسري حين سُئل عن آلة

(١) صحيح البخاري رقم: ٣٦٨٨.



التفسير؟ فقال:

«أول آلة التفسير: فرحُ المفسِّر بالقرآن».

أي محبته للقرآن هي سبب فرحته، ليكون القرآن سلوته ولذته وأنسه إذا أنس الناس بالشهوات والملذات، فيكافئه الله حينئذ بأن يُجرِي ينابيع الحكمة على لسانه، ويفهم من كلام الله تعالى ما لا يفهمه أقرانه.

وانظر ما بلغت سعادة ابن مسعود رضي الله عنه بسورة النساء، وفرحته ببعض ما جناه منها، فقد قال رضي الله عنه:

«إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾.

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾».



الواجب الثامن: العمل بأحكامه

قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٧٠].

وتعبير يُمسِّكون بالكتاب، فيه معنى التكرار والتكثير للتمسُّك، ففارق كبير بين ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بالكتاب، و﴿يُمَسِّكُونَ﴾ بالكتاب، إنها صيغة القبض على الكتاب بقوة وجِد وصرامة، وما هذا إلا لأجل تلقي القرآن بغرض العمل به.



إن القرآن في حقيقته دستور عمل ومنهاج حياة، وما قيمة القرآن بغير عمل؟!

عن أبي الدرداء قال:

كنا مع رسول الله ﷺ، فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: هذا أوان يُختَلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء، فقال زياد بن لَبِيدٍ الأنصاري: يا رسول الله .. وكيف يختلس منا؟ وقد قرأنا القرآن، فوالله لَنَقْرَأَنَّه ولَنُقْرِئَنَّه نساءنا وأبناءنا، فقال:

«ثكلتك أمك يا زياد، إن كنت لأعدُّك من فقهاء المدينة، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى، فماذا تغني عنهم؟!»[1].

أي فكما لم تفد اليهود والنصارى قراءتهما للتوراة والإنجيل مع عدم عملهم بما فيهما، فكذلك حال من يقرأ القرآن غير عامل به، فأنزل العالم الذي لا يعمل بعلمه منزلة الجاهل، بل منزلة الحمار الذي يحمل أسفارا.

ولذا لما سئلت عائشة ﵂ عن خلق النبي ﷺ، قالت: كان خلُقه القرآن، أما تقرأ:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

قال ابن كثير:

«ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجيةً له، وخُلُقًا تطبَّعَه، وترك طبعه الجِبِلِّي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلُق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم، وكل خُلُق جميل».

الرسالة هنا:

دوروا مع الكتاب حيث دار.

ولا تدوروا مع أصحاب القوة والسلطان.

ولا تدوروا مع أهل الشهرة والثراء.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٦٩٩٠.

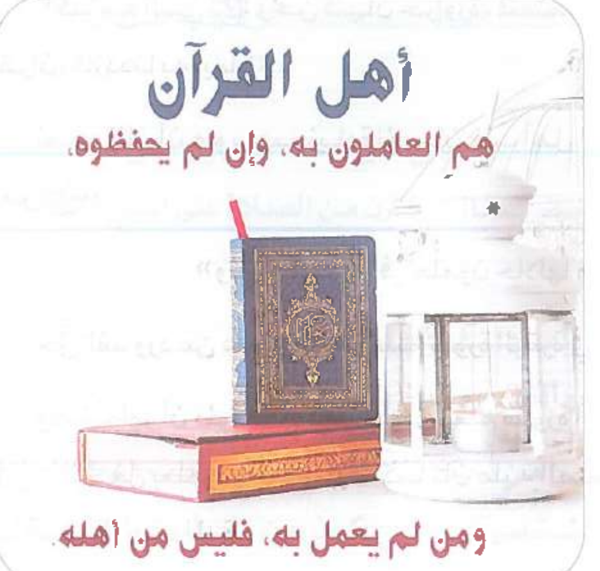


لا تدوروا مع أولي المناصب والجاه والطبقات الأرستقراطية.

لا تدوروا مع هؤلاء إن خالفوا تعليمات الكتاب، فإنكم إن فعلتم جرفوكم بعيدا عن أنوار الوحي، فتظلم عليكم الطريق، فتتعثر الخطى، فيكون السقوط الحتمي والخسارة النهائية.

إن العمل بالقرآن هو وحده ما يجعلك من أهل القرآن لا مجرد حفظ القرآن. قال ابن القيم:

«أهل القرآن هم العاملون به، العاملون بما فيه، وإن لم يحفظوه عن ظهر قلب، وأما من حفظه ولم يفهمه، ولم يعمل بما فيه، فليس من أهله، وإن أقام حروفه إقامة السهم».



جاء رجل إلى أبي الدرداء بابنه، فقال: يا أبا الدرداء.. إن ابني هذا قد جمع القرآن، فقال:

«اللهم غُفْرا، إنما جمع القرآن من سمع له وأطاع».

وأسقِط قول أبي الدرداء على قُراءٍ كثيرٍ من أهل هذا الزمان الذين يصفون الواحد منهم بأنه: الجامعُ للقراءات العشر، وانظر كم منهم من يعمل به، ويصلح أن يُقتَدى به؟!

ما الفارق بيننا وبين الصحابة؟!

قال عبد الله بن عمر ﷺ يصف حال الصحابة:

«كان الفاضل من أصحاب رسول الله ﷺ في صدر هذه الأمة لا يحفظ من القرآن إلا السورة ونحوها، ورُزِقوا العمل بالقرآن».

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ يصف الفارق بيننا وبين هذا الجيل الفريد:

«إنَّا صَعُب علينا حفظ القرآن، وسَهُل علينا العمل به، وإنَّ من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن، ويصعب عليهم العمل به».

وكانوا يتعلمون الإيمان قبل القرآن، ثم يتعلمون القرآن، كما في حديث **جندب بن عبد الله في سنن ابن ماجة** قال:

«كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيانٌ حزَاوِرَة، فتعلَّمنا الإيمانَ قبل أن نتعلم القرآن، ثم تعلمنا القرآنَ، فازددنا به إيمانا».

نعم.. القرآن هو سبب زيادة الإيمان عند أهل الإيمان، والإيمان يزيد الإيمان. قال ابن عمر رضي الله عنه:

«وتَنْزِلُ السورة، فيتعلَّمون حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها».

حتَّى لقد ورد عن عمر رضي الله عنه أنه تعلَّم سورة البقرة في اثنتي عشرة سنة.

وهذا يُظهِر أن طول بقاء عمر رضي الله عنه في تعلم سورة البقرة ليس عجزًا ولا انشغالاً عن القرآن؛ بل إنه انشغل بعلمها والعمل بها، كما كان عليه الصحابة من أَخْذ عشر آيات وتعلمها؛ وإلا لما قضى كل هذه المدة.

وكان عمر يحذِّر مما آل إليه حالنا اليوم، فقد أمر **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه عامله في العراق أن يفرض للحُفَّاظ في الديوان، فلما بلغه أن سبع مئة حفظوا القرآن قال: «إني لأخشى أن يُسرِعوا إلى القرآن قبل أن يتفقَّهوا في الدين»، وكتب إلى عامله ألا يعطيهم شيئا.

وشهد لذلك أقواله وأفعاله رضي الله عنه، فمن أقواله العظيمة:

«لا يغرركم من قرأ القرآن، إنما هو كلام نتكلم به، ولكن انظروا من يعمل به».

احذروا تبعيض الوحي

قال الله تعالى في سورة البقرة:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾.



قال مجاهد في معناها:

«في الإسلام جميعا».

أي ادخلوا في شعائر الإسلام كلها، ولا تتركوا شعيرة إلا وعملتم بها.

وإنك لتقرأ في سورة البقرة آية تحث على الصدقة: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾، ثم تجد في ظهر هذه الصفحة آية إعلان حرب الله ورسوله على آكل الربا، فما بال كثير من المتصدقين اليوم يأكل الربا؟!

والصفحة التي حوت آية صلاة الله وملائكته على النبي وحث المؤمنين على هذه الصلاة، هي التي تحوي آية الحجاب، فما بال بعض نسائنا يكثرن من الصلاة على النبي، ثم يخالفن أمره فيتبرجن؟!

لم شققنا المصحف نصفين؟!
لم آمنًا ببعض الكتاب وكفرنا ببعضه؟!

ومن أمثال هؤلاء: من يريد التملص من أحكام الإسلام القطعية، تحت دعوى المساواة بين الرجل والمرأة، ومراعاة الحرية الشخصية، ولعله يكون من المصلين والمعتمرين، في تناقض ليس له مثيل.

إن تقسيم القرآن وتبعيض الإسلام هو في حقيقته تشبه باليهود والنصارى، فإن أهل الكتاب أخذوا بكتابهم في بعض الجوانب، وتركوه في بعض، فسمَّى الله عملهم كفرا، وذمَّهم في كتابه فقال:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

الواجب التاسع: ربط القرآن بالواقع

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إن استطعت أن تكون أنت المُحَدَّث، وإذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فارْعَها سمعك؛ فإنه خيرٌ يُأمَر به، أو شرٌ يُنهَى عنه».



إن من أهم أهداف تلاوة القرآن: ربط الوحي السماوي بالواقع البشري، أي صبغ الحياة من حولنا بصبغة القرآن، وتقوية ارتباط المسلم بنصوص الوحي في جميع الأحوال، بمعنى: العيش مع القرآن.

وإن على كل جيل أن ينظر في مشكلاته، ثم يطالع القرآن لينظر في حل هذه المشكلات، وإسقاط آيات القرآن على الواقع هو ما يجعل من الآيات دواء ناجعا لعلاج أمراض القلب ومشكلات الواقع، وميزانا لمن حوله وما يحيط به من أحوال وأفراد.

إننا حين نربط القرآن بالواقع، فإننا نعلن بصورة عملية ثقتنا بالنص القرآني مع إخضاع الواقع المخالف له، بدلا من الانسحاق تحت ضغط الواقع المرير خاصة في زمن غربة الدين وعلو المنافقين.

وقد عمل كثير من المفسرين على ربط آيات القرآن بواقع الناس، فابن القيم مثلا حين عرض لتفسير قول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، أنزل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، فقال: «وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أُخَر متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلما وفجورا، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات، ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم».

وقال في مدارج السالكين:

«والناصح لنفسه، العامل على نجاتها: يتدبر هذه الآيات حق تدبرها، ويتأملها حق تأملها، ويُنزِلها على الواقع: فيرى العجب، ولا يظنها اختصت بقوم كانوا فبانوا، فالحديث لك، واسمعي يا جارة».

إن قصص القرآن ليس قصصا تاريخيا للترفيه والتسلية، بل غرضه: التحذير من مسالك الخاسرين، والتنبيه على المزالق التي هلكت بسببها الأمم السابقة (بيان الأزمة)، مع رسم الطريق الواضح اللازم لسير الإنسان نحو الهداية (بيان الحل).



آيات واقعية!

اقرأ آيات القرآن، ثم أسقطها على الواقع حولك:

- بعض الناس اليوم يلوم المقاومة في فلسطين، ويقول لو كان هؤلاء عقلاء، وسمعوا نصائحنا لما وقع عليهم القتل، فإذا بالقرآن ينطق على لسان هذا الصنف من الناس من قبل فيقول: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾.

- كاتب صحفي يتفضل على أهل غزة بما أنفقت حكومته من صدقات، فتجد القرآن يفضحه في قوله: ﴿قَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٞ مِّن صَدَقَةٖ يَتۡبَعُهَآ أَذٗى﴾.

- بعض المثقفين إذا سمع نصًا شرعية تأفّف وضاق صدره، فإذا استشهدتَ له بأعلام غربية ابتهج وتهللت أساريره، ألا تقرأ وصف هذا في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾.

- كثير من الصالحين اليوم يتلظى بنيران الحيرة، ولا يستطيع التمييز بين الحق والباطل، فيعيش عذابات الحيرة والارتياب، وقد وصف الله هؤلاء، فقال: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾.

- وبعض المسلمين لا تعجبه بعض الأحكام والنصوص

يلومون المقاومة في فلسطين
و نسوا قوله تعالى:
﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾



القرآنية القطعية، فيطالب بتجديد الخطاب الديني، مع تخفيف (حِدَّة) المصطلحات الشرعية، وهؤلاء ورثوا قوما قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾.

بعض الناس تتهلل أساريره إذا وافق الحكم الشرعي مصلحته، فإذا خالف هواه ردَّه وأباه، ألا تقرأ هذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور:٤٩،٤٨].

هل علمت الآن معنى قول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

إن القرآن يتعرض لكل ما تواجهه في واقعك وحياتك، من شعائرك ومعاملاتك إلى دقائق الصراعات الفكرية والسياسية، وصدق القائل سبحانه:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.




الواجب العاشر: الدعوة إلى القرآن

اعلم أن كل عبد بلغه القرآن ثم لم يقم بتبليغه إلى من حوله، فهو عبد لم يصل القرآن إلى قلبه، وإنما طرق أذنه فحسب، ولو وصل القرآن القلب لبلَّغه وأنذر، ما الدليل على هذا الكلام؟!

الدليل من القرآن: قوله تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

فلما وصل القرآن القلب، دفعه دفعا إلى الإنذار.

كم نحن اليوم في أمس الحاجة إلى فرق إغاثة قرآنية، وظيفتها: إيقاظ النفوس الغافلة، وبثُّ الروح في القلوب القاسية، وليس هذا بذكر الأهوال أو ضرب الأمثال، بل عن طريق القرآن، ألا ترى قول الله لنبيه:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾.



وقد بيّن الله أنه أنزل هذا القرآن بغرض الإنذار، فهل سمعنا صيحة الإنذار:

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩].

قال محمد بن كعب القرظي: «من بلغه القرآن، فكأنما رأى النبي ﷺ وكلّمه».

أي أوحى الله هذا القرآن للنبي ﷺ لينذر به من بلغه من كل موجود، ومن كل من سيوجد في المستقبل، والآية دليل على أن أحكام القرآن تعُمُّ الموجودين وقت نزوله، ومن سيوجَد بعدهم.

لكن من الذي سيبلغ من جاء بعد النبي ﷺ إلا ورثة النبي وأتباع النبي؟!

ولذا قال العلماء:

حيثما استطاع مسلم أن يبلّغ الدعوة ثم لم يبلغها؛ فهو آثم، والإثم يوجد حيث توجد الاستطاعة، واستطاعة كل إنسان بحسبه، وفي الحديث:

«بلِّغوا عني ولو آية».

الدعوة إلى الله تقع بوسائل شتى، وأشرفها: تعليم القرآن.

وقد صحّ في حديث عثمان رضي الله عنه:

«خَيرُكم مَن تعلَّمَ القُرآنَ وعلَّمَه»[1].

إن العلم يشرف بشرف موضوعه، فإذا كان أشرف الكلام كلام الله، فكذلك خير الناس بعد النبيين من تعلم ويعلِّم كلام الله، والذي يعلِّم غيره القرآن يحصل له النفع المتعدي، بخلاف من تعلَّم فقط، ولا شك أن الجامع بين التعلم والتعليم نافع لنفسه ومكمِّل لغيره، لذا فهو الأفضل.

(١) صحيح: رواه البخاري رقم: ٤٧٣٩.



والتعليم هنا يشمل التعليم اللفظي لأحكام التلاوة، والمعنوي بالتفسير ومعاني الآيات.

قال أبو علي القاري في المرقاة:

«ولا يتوهم أن العمل خارج عنهما؛ لأن العلم إذا لم يكن مورِّثا للعمل ليس علما في الشريعة، إذ أجمعوا على أن من عصى الله فهو جاهل».

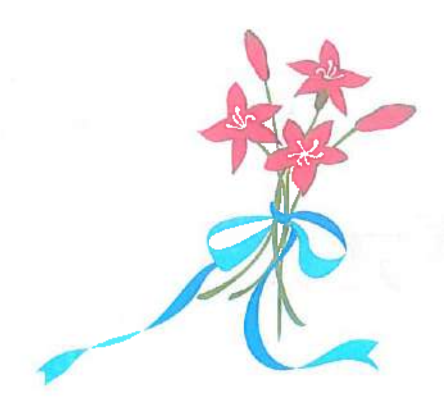
واسمعوا هذا الحديث الرائع:

قال رسول الله ﷺ:

«من علَّم آية من كتاب الله عز وجل، كان له ثوابها ما تُلِيَت»[1].

كان عندي محفِّظ متقن للقرآن يحفِّظ أولادي القرآن بمقابل مادي، ففوجئت به يوما شرع في تحفيظ ابنتي الصغرى ذات الثلاثة أعوام بعض قصار السور كالفاتحة والمعوذتين، دون أن يتقاضى عن ذلك أجرا، لم أسأله عن السبب، لكن زوجتي نبَّهتني أنه يحتسب أجره في ذلك على الله، لينال ثواب كل صلاة تصليها ابنتي في المستقبل، فيحصد هو الأجر العظيم من وراء هذا العمل اليسير.

ويا له من ثواب، ويا لها من فكرة ذكية من رجل ألمعي لكسب عظيم ثواب الآخرة.



(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ١٣٣٥.



فداك نفسي

يا رسول الله

السؤال الأول: ما الفارق بين الرسول والنبي؟!

السؤال الثاني: ما العلاقة بين الإيمان بالله والإيمان بالرسل؟

السؤال الثالث: ما حاجة العباد إلى الرسل؟

السؤال الرابع: ما الذي تفرَّد به الأنبياء عن سائر البشر؟!

السؤال الخامس: ما الذي تفرَّد به النبي ﷺ عن سائر الأنبياء؟!

السؤال السادس: ما حكمة إرسال الرسل؟!

السؤال السابع: ما حكم التفاضل بين الأنبياء؟

السؤال الثامن: ما علامة حب النبي ﷺ لنا؟!

السؤال التاسع: ما علامة حبنا له؟!

هاتوا برهانكم

أين دلائل المحبة؟

أين شهود الإثبات؟!

البينة على من ادعى، فما البينة على أنك تحبه؟!

ما أصعب أن تقابل الحب... بالجفاء!!

وأن تردَّ تأثره بآلامك... بالبعاد

وبكاءه خوفًا على مصيرك... بالمزيد من الفساد

والتفاني في دعوتك... بالتمادي في الصدود والإعراض

وأخذه بتلابيبك خوفا من سقوطك في النار... بالمضي قُدما نحو النار..

اللهم ابعثنا من موتنا قبل موتنا

وابعث فينا الحياة أثناء حياتنا!!





النبوة مشتقّة من الإنباء، والنبي: اسم فاعل؛ أي منبِّئ، فالنبي هو الذي ينبئ بما أنبأه الله به.

وهو كذلك بمعنى مفعول؛ أي مُنبَّأ، فالنبي هو الذي نبّأه الله بالنبأ.

والنبوة لا تُنال بعلم ولا اجتهاد، وإنّما هي محض فضل إلهي واصطفاء رباني، ولذلك لما قال المشركون:

﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾.

أجابهم الحق تبارك وتعالى:

﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزخرف: ٣٠-٣١].



النبوة لا تُنال بعلم ولا اجتهاد، وإنّما هي محض فضل إلهي واصطفاء رباني





والشائع عند العلماء أنَّ النبي أعم من الرسول، فالرسول هو من أُوحي إليه بشرع وأمره الله بتبليغه، والنبيُّ من أوحي إليه ولم يؤمر بالبلاغ، وعلى ذلك فكلُّ رسول نبي، وليس كل نبي رسولا.

وذكر الدكتور عمر الأشقر رَحِمَهُ اللهُ أن هذا الذي ذكروه بعيد لقول الرسول ﷺ:

«عُرِضَتْ عليَّ الأمم، فجعل يمرُّ النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد»[1].

فدلّ هذا على أنَّ الأنبياء مأمورون بالبلاغ، وأنَّهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم، والتعريف الأقرب إلى الصواب هو ما ذكره الآلوسي:

«الرسولَ مَنْ أُوحي إليه بشرع جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله».

وورد في أحاديث في سندها ضعف أن عدد الرسل ثلاث مائة وخمسة عشر، بينما عدد الأنبياء يربو على الآلاف، وهذا العدد الكبير للأنبياء والرسل يدلنا على أنَّ من نعرف أسماءهم من الرسل والأنبياء قليل، وأنَّ أعدادا كثيرة لا نعرفها، وقد صرّح القرآن بذلك، فقال تعالى:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤].

ونحن مطالبون بأن نؤمن بكل هؤلاء الأنبياء والرسل، بل نرى هذا من أصول الإيمان، كما أمر الله نبينا أن يجهر بذلك:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آلعمران:٨٤].

فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أُرسل، وكل كتاب أُنزل، بل يصدّقون ما أنزله الله، وكلَّ نبي بعَثَه الله، ولا نكفر ببعض الأنبياء كما فعل اليهود، إذ كفروا بعيسى

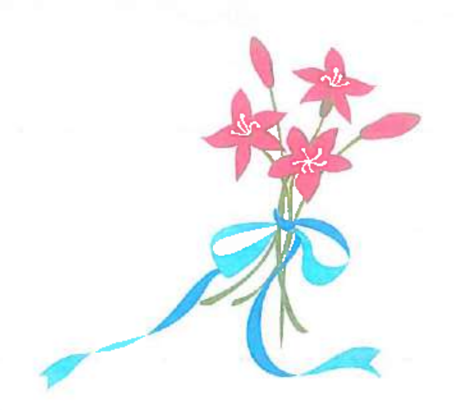
(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رقم: ٥٧٥٢.



ومحمد ﷺ، وكما فعل النصارى إذ كفروا بمحمد ﷺ، وسبب هذا أن كل الرسل جاؤوا بأصول ثابتة في العقيدة والأخلاق، وهذه لا تتغير في أي دين؛ إنما يتغير التشريع في فروع لا تتعلق بأصل العقيدة، ولذا كان من كذَّب رسوله بمثابة من كذَّب كل الرسل، لذا قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥].

وهم ما كذّبوا إلا رسولهم نوحا ﷺ، لأن أصل الرسالة واحد، فمن كذَّب رسولا، فقد كذَّب جميع المرسلين.





من يزعمون أنَّهم مؤمنون بالله، لكن يكفرون بالرسل والكتب هؤلاء لم يقدروا الله قدره:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

ومن كفر بالرسل وهو يزعم أنه يؤمن بالله، هو عند الله كافر، لا ينفعه إيمانه. قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء:١٥٠-١٥١].

قال القرطبي في هذه الآية:

«نصَّ سبحانه على أنَّ التفريق بين الله ورسله كفر، وإنَّما كان كفرًا لأن الله فرض على الناس أن يعبدوه بما شرعه على ألسنة الرسل، فإذا جحدوا الرسل ردّوا عليهم شرائعهم، ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية التي أُمروا بالتزامها، فكان كجحد الصانع سبحانه، وجحد الصانع كفر لما فيه من ترك التزام الطاعة والعبودية، وكذلك التفريق بين الله ورسله».

السؤال الثالث

ما حاجة العباد إلى الرسل؟

فداك نفسي يا رسول الله

يقول ابن القيم مبينًا حاجة العباد إلى الرسل: «ومن ها هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا يُنال رضا الله ألبتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به، فهم الميزان الراجح، الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأيّ ضرورة وحاجة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير.

وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء، ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال، بل أعظم، ولكن لا يحسُّ بهذا إلا قلبٌ حيٌّ، وما لجرح بميت إيلام».

مقارنة بين حاجة العباد إلى علم الرسل وعلم الطب:

عقد ابن القيِّم في كتابه القيِّم ((مفتاح دار السعادة)) مقارنة بيّن فيها أنّ حاجة الناس



إلى الشريعة أعظم من حاجتهم إلى علم الطب مع شدّة حاجة الناس إليه لصلاح أبدانهم، فحاجتهم إلى الرسالة أعظم من حاجتهم إلى غيرها من العلوم، فقال:

«وعامة بني آدم لا يحتاجون إلى طبيب، وهم أصحُّ أبدانا، وأقوى طبيعة ممن هو متقيد بالطبيب، ولعّل أعمارهم متقاربة، وقد فطر الله بني آدم على تناول ما ينفعهم، واجتناب ما يضرهم، وجعل لكلّ قوم عادة وعرفًا في استخراج ما يهجم عليهم من الأدواء، حتى إنَّ كثيرًا من أصول الطب إنما أُخِذَت من عوائد الناس، وعرفهم وتجاربهم.

وأما الشريعة فمبناها على تعريف مواقع رضا الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية، فمبناها على الوحي المحض، والحاجة إلى التنفس فضلاً عن الطعام والشراب، لأن غاية ما يقدر في عدم التنفس والطعام والشراب: موت البدن، وتعطل الروح عنه.

وأما ما يحدث عند عدم الشريعة، ففساد الروح والقلب جملة، وهلاك الأبد، وشتان بني هذا وهلاك البدن بالموت».

وهذا ما أوضحه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله:

«وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك، وأشدُّ حاجة من كلِّ ما يقدَّر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده».

فاضطرار العباد إلى المرسلين لا يُعادله اضطرار، وحاجتهم إلى المبشرين والمنذرين لا تماثله حاجة..

وللعلامة ابن القيم كلام نفيس يُشبه كلام شيخه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ ولا عجب! فكلاهما يصدر عن مشكاة واحدة.



قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل.

ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم.

ولا يُنال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاؤوا به؛ فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزَن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميَّز أهل الهدى من أهل الضلال.

فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير».



السؤال الرابع

ما الذي تفرَّد به الأنبياء عن سائر البشر؟!

فداك نفسي يا رسول الله

تفرَّد الأنبياء والرسل على غيرهم من البشر بالأمور التالية:



١ - الوحي:

والوحي يقتضي عدة أمور يفارقون بها الناس، فمن ذلك تكليم الله لبعضهم، واتصالهم ببعض الملائكة، وإطلاع الله لهم على شيء من عالم الغيب، فمن ذلك الأحاديث التي أخبر الله بها عن الجنة، مثل قوله ﷺ:

«دخلتُ الجنة فإذا أنا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربت بيدي إلى ما يجري فيه الماء، فإذا مسك أذفر. قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله»[1].

«دخلتُ الجنة فسمعت فيها قراءة، قلت: من هذا؟ فقالوا: حارثة بن النعمان، كذلكم البِرُّ، كذلكم البِرُّ (وكان أبر الناس بأمه)»[2].

---

(١) صحيح: رواه أحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٣٣٦٥.

(٢) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن عائشة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٩١٣.



«دخلتُ الجنة فإذا أنا بقصر من ذهب، فقلت: لمن هذا القصر؟ قالوا: لشاب من قريش، فظننت أني أنا هو، فقلت: ومن هو؟

قالوا: عمر بن الخطاب، فلولا ما علمت من غيرتك لدخلته»[١].

«دخلتُ الجنة، فاستقبلتني جارية شابة، فقلت: لمن أنت؟ قالت: أنا لزيد بن حارثة»[٢].

«دخلتُ الجنة البارحة، فنظرت فيها، فإذا جعفر يطير مع الملائكة، وإذا حمزة متكئٌ على سرير»[٣].

وإطلاعه كذلك على النار، ففي الحديث:

«وعُرِضَتْ عليَّ النار، فجعلتُ أتأخر رهبة أن تغشاني، ورأيت امرأة حميرية سوداء طويلة تُعذَّب في هرة لها ربطتها، فلم تطعمها ولم تسقها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، ورأيت أبا ثمامة عمرو بن مالك يجر قصبه في النار»[٤].

ومن ذلك سماعه للمعذبين في قبورهم، فمن ذلك قوله ﷺ:

«لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله عز وجل أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمعني»[٥].



(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن حبان عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٣٣٦٤.
(٢) صحيح: رواه الروياني والضياء عن بريدة كما في السلسلة الصحيحة ١٨٥٩.
(٣) صحيح: رواه الطبراني والحاكم عن ابن عباس كما في الجامع رقم: ٣٣٦٣.
(٤) صحيح: رواه مسلم في صحيحه رقم: ٢٣٩٨.
(٥) صحيح: رواه أحمد عن أنس كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٥٨.



وخرج رسول الله ﷺ بعدما غربت الشمس، فسمع صوتا، فقال: «يهود تُعذّب في قبورها»(١).

وهذه معجزة خاصة بالنبي ﷺ حيث كشف له أحوالهم، فسماعه لهذا الصوت كُشِف له من عالم الغيب، كما كشفت له أشياء أخرى كثيرة، ومثل هذا لا ينكشف إلا لنبي. قال الله ﷻ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].



٢- عصمة الأنبياء:

قال القاضي عياض: «أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش والكبائر الموبقات، قال: وقد ذهب بعضهم إلى عصمته من مواقعة المكروه قصدا».

اتفق العلماء على عصمة الأنبياء من تعمد الكبائر قبل الوحي وبعده، وتنازعوا: هل تقع منهم بعض الصغائر مع التوبة منها أو لا تقع بحال، والصحيح عند الجمهور أنه لا تقع الصغائر منهم عمدا، بل سهوا وخطأ.

والغاية من عصمة الأنبياء أن يكون الناس على يقين من دين الله، ولما كان الشرع لا يُعرَف إلا عن طريق الأنبياء، كان لزامًا أن يكونوا معصومين من الخطأ في تبليغ الوحي. قال شيخ الإسلام:

«فإن أهل السُّنة متفقون على أن الأنبياء معصومون فيما يبلِّغونه عن الله تعالى، وهذا هو مقصود الرسالة».

ومن العصمة ألا ينسوا شيئًا مما أوحاه الله إليهم، وبذلك لا يضيع شيء من الوحي، كما قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى:٦].

وأما ما وقع منهم من إتيان بعض الصغائر أو الاجتهادات الخاطئة إنما هو لإثبات بشريتهم، ومع هذا فإن الله عاتبهم عليه.

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي أيوب كما في صحيحه رقم: ١٣٧٥.



وعصمة الأنبياء لا تعني عصمتهم من الأعراض التي تعتري البشر كالخوف والنسيان والغضب، والأمثلة على ذلك في الكتاب والسنة كثيرة، فقد:

- خاف إبراهيم ﷺ من ضيوفه.
- ولم يصبر موسى ﷺ على تصرفات العبد الصالح.
- وغضب موسى ﷺ غضبًا شديدًا حين رأى قومه يعبدون العجل، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وألقى الألواح -وفي نسختها هدى- عندما عاد إلى قومه بعد أن تمَ ميقات ربه، فوجدهم يعبدون العجل.
- وأخبر النبي عما وقع من نبي من الأنبياء من غضب إذ قرصته نملة، فأمر بقرية النمل فأُحرِقت، فعاتبه الله على ذلك.
- ونسي النبي ﷺ وصلى الظهر ركعتين، وحين سُئل: أنسيت أم قصرت الصلاة؟ فقال: «لم أنس ولم تقصر».
- وصرَّح الرسول ﷺ بطروء النسيان عليه كعادة البشر، فقال ﷺ:

«ولكني إنما أنا بشر، أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكِّروني». قال هذا بعد نسيانه في إحدى الصلوات.

قال ابن تيمية: «واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه؛ قومٌ أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب حتى حرَّفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة الله لهم، ورفع درجاتهم بذلك.

وقومٌ أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دلّ القرآن على براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوبا وعيوبا نزَّههم الله عنها.

وهؤلاء مخالفون للقرآن، وهؤلاء مخالفون للقرآن.

ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط، مهتديًا إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين».





٣- الأنبياء تنام أعينهم ولا تنــــام قلوبهم:

ومما اختصهم الله تعالى به أن أعينهم تنام وقلوبهم لا تنام، فقد ورد هذا من قول الرسول ﷺ:

«إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا، ولا تنام قلوبنا»»[١].

ولما قالت عائشة: يا رسول الله.. أتنام قبل أن توتر؟ فقال:

«يا عائشة.. إن عينيَّ تنامان، ولا ينام قلبي»[٢].

ولذلك كانت رؤيا الأنبياء وحيا. قال ابن عباس:

«رؤيا الأنبياء وحي، وتلا: ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات:١٠٢]».

قال النووي: «فإن قيل: كيف نام النبي ﷺ عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس مع قوله: (إن عيني تنامان ولا ينام قلبي)، فجوابه من وجهين:

أصحهما وأشهرهما أنه لا منافاة بينهما؛ لأن القلب إنما يدرك الحسيات المتعلقة به كالحدث والألم ونحوهما، ولا يدرك طلوع الفجر وغيره مما يتعلق بالعين، وإنما يُدرَك ذلك بالعين، والعين نائمة، وإن كان القلب يقظان».

٤- تخيير الأنبياء عند الموت:

عن عائشة ؓ: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما من نبي يمرض إلا خُيِّر بين الدنيا والآخرة»[٣].

---

(١) صحيح: أخرجه ابن سعد في الطبقات عن طلحة بن عمرو عن عطاء كما في السلسلة الصحيحة رقم:١٧٠٥.

(٢) صحيح: رواه البخاري في صحيحه رقم: ١١٤٧.

(٣) صحيح: رواه البخاري في صحيحه رقم: ٤٥٨٦.



فلما كان مرضه الذي قُبِض فيه، أخذته بحّة، فسمعتُه يقول:

﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء:٦٩]،

فعلمت أنه خُيِّر[١].

فيؤخذ من هذا الحديث أنه لا تُقبَض روح نبي من الأنبياء إلا باختياره، وفي هذا غاية التكريم لهم.

٥- لا يُقبَر نبي إلا حيث يموت

ممّا خص به الأنبياء بعد موتهم أمور أنه لا يقبر نبيٌّ إلا في الموضع الذي مات فيه، ففي الحديث:

«لم يُقبَر نبي إلا حيث يموت»[٢].

ولهذا لم يُقبَر النبي ﷺ إلا في حجرته التي مات فيها -وهي حجرة عائشة- بعد ما اختلفت آراء الصحابة حول ذلك، فقد اختلفوا في محل دفنه ﷺ اختلافا شديدا، حتى حسم أبو بكر هذا الخلاف برواية ما سمعه عن النبي ﷺ حيث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يُقبَر نبي إلا حيث يموت»، فأخَّروا فراشه، وحفروا له تحت فراشه.. قال ابن حجر:

«وبهذا عُلِمَ أنه رضي الله عنه كان أحفظهم للسُّنة».



٦- لا تأكل الأرض أجسادهم

ومن إكرام الله لأنبيائه ورسله أنّ الأرض لا تأكل أجسادهم، ففي الحديث حين سأله الصحابة: يا رسول الله! وكيف تُعرَض صلاتنا عليك وقد أرِمْتَ؟!

(١) صحيح: سنن ابن ماجة رقم: ١٦٢٠.

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي بكر كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٠١.



فقال:

«إن الله عز وجل حرَّم على الأرض أجساد الأنبياء»[1].

فهم باقون في قبورهم على الهيئة التي ماتوا عليها، لا تأكلهم الأرض، بل أجسادهم باقية.

من إكرام الله لأنبيائه ورسله أنّ الأرض لا تأكل أجسادهم

ولهذا قال ابن علان البكري:

«ولذا لا تُكرَه الصلاة في مقابرهم؛ لانتفاء علة الكراهة، وهي محاذاة النجاسة».

٧- الأنبياء أحياء في قبورهم

صحّ عن النبيّ ﷺ قوله:

«الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»[2].

وروى مسلم عن أبي هريرة في قصة الإسراء:

«وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء، فإذا موسى قائم يصلي...، وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي، وإذا إبراهيم قائم يصلي»[3].

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال:

«مررت على موسى ليلة أُسرِي به عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره»[4].

---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو نعيم عن أوس بن أبي أوس الثَّقَفِي كما في صحيح الجامع رقم: ٢٢١٢.
(٢) صحيح: رواه البزار وأبو نعيم وابن عساكر عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٢٧٩٠.
(٣) صحيح: صحيح مسلم رقم: ١٧٢.
(٤) صحيح: صحيح مسلم رقم: ٢٣٧٥.



قال القرطبي:

«وهذا الحديث يدل بظاهره على أنه ﷺ رأى موسى رؤية حقيقية في اليقظة، وأن موسى كان في قبره حيا، يصلي فيه الصلاة التي كان يصليها في الحياة، وهذا كله ممكن لا إحالة في شيء منه، وقد صحَّ أن الشهداء أحياء يُرزَقون، ووُجِد منهم من لم يتغير في قبره من السنين، وإذا كان هذا في الشهداء، كان في الأنبياء أحرى وأَوْلى».

وهذا ليس بعجيب، لأن للحياة البرزخية قانونها الخاص بها، فهي حياة خاصة لا تشبِه الحياة الدنيا، فإن قيل: كيف يصلون بعد الموت، وليس بعد الموت تكليف؟!

فالجواب ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية:

«هذه الصلاة ونحوها مما يتمتع بها الميت ويتنعم بها، كما يتنعم أهل الجنة بالتسبيح، فإنهم يُلهَمون التسبيح كما يُلهَم الناس في الدنيا النَّفَس؛ فهذا ليس من عمل التكليف الذي يُطلَب له ثواب منفصل، بل نفس هذا العمل هو من النعيم الذي تتنعم به الأنفس وتتلذذ به».





قال رسول الله ﷺ:

«أُعْطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي:

نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر.

وجُعِلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليُصَلِّ.

وأُحِلَّت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي.

وأُعطيتُ الشفاعة.

وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصة، وبُعِثْت إلى الناس عامة»[(١)].

وفي حديث ابن عباس: «لا أقولهن فخرًا».

وبيَّن في رواية أحمد عن عمرو بن شعيب أن النبي ﷺ قال هذا في غزوة تبوك، وهي آخر غزوات النبي ﷺ.

---

(١) صحيح: رواه الشيخان والنسائي عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ١٠٥٦.



قال القرطبي:

«وقوله في حديث جابر: (أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي) وفي حديث أبي هريرة (ستًّا) وفي حديث حذيفة (ثلاثًا) لا يظن الباحث أن فيه تعارضًا، وإنما يَظن هذا مَن توهَّم أن ذكر الأعداد يدل على الحصر، وأنها لها دليل خطاب، وكل ذلك باطل، فإن القائل: عندي خمسة دنانير مثلاً لا يدل هذا اللفظ على أنه ليس عنده غيرها، ويجوز له أن يقول تارة أخرى عندي عشرون، وتارة أخرى عندي ثلاثون، فإن من عنده ثلاثون صدق عليه أن عنده عشرين وعشرة، فلا تناقض ولا تعارض، ويجوز أن يكون النبي ﷺ أُعلِم في وقت بالثلاث، وفي وقت بالخمس، وفي وقت بالست، والله سبحانه وتعالى أعلم».

وإلى التفصيل:

الأول: نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر

وزاد الإمام أحمد من حديث أبي أمامة رضي الله عنه: «يُقذَف في قلوب أعدائي»(١).

قال الحافظ ابن حجر: «اختصاصُه به مطلقًا، وإنما جعل الغاية شهرًا؛ لأنه لم يكن بين يديه وبين أعدائه أكثرُ منه، وهذه الخصوصية حاصلة في الإطلاق حتى لو كان وحده بلا عسكر، وهل هي حاصلة لأمته من بعده؟ فيه احتمال».



الثاني: وجُعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل

قال الخطّابي:

«مَنْ قبله إنما أُبيحت لهم الصلوات في أماكن مخصوصة، كالبِيَع والصوامع».

(١) صحيح: رواه الإمام أحمد في المسند ٥/ ٢٤٨ والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٢٢٢.



وتؤيده رواية عمرو بن شعيب بلفظ: «وكان مَنْ قبلي إنما كانوا يُصلُّون في كنائِسهم».

ويؤيده أيضا: ما أخرجه البزار من حديث ابن عباس، وفيه:

«ولم يكن أحدٌ من الأنبياء يصلي حتى يبلغَ محرابَه».

وتفصيل هذا الحديث في صحيح مسلم، ولفظه:

«جُعلت لنا الأرضُ كلُّها مسجدًا، وجُعلت تربتُها لنا طهورًا إذا لم نجدِ الماء»[١].

وفي رواية أبي أمامة عند البيهقي:

«فأيُّما رجلٍ من أمتي أتى الصلاة، فلم يجدْ ماء، وجدَ الأرض طهورًا ومسجدًا»[٢].

وفي مسند أحمد: «فعنده مسجده، وعنده طهوره»[٣].

الثالث: وأُحِلَّت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي

كان من قبلنا إذا غنموا شيئًا، لم يحلَّ لهم أن يأكلوه، وجاءت نار فأحرقته.

يدل على ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«غزا نبيٌّ، فجمعوا ما غَنِموا، فأقبلت النارُ لتأكله، فأبتْ أن تطعمه، فقال النبي: فيكم غلول، فأَخرجوا مثلَ رأس بقرةٍ، فوضعوه في المال، وأقبلت النار فأكلته، فلم تحلَّ الغنائمُ لأحدٍ ممَّنْ قبلنا، ذلك بأن الله تعالى رأى ضعفنا وعجزنا، فطيَّبَها لنا»[٤].

الرابع: وأُعطيتُ الشفاعة

ومن خصائصه صلوات الله وسلامه عليه أن الله يعطيه يوم القيامة مقام الوسيلة، وهو المقام المحمود. قال عليه الصلاة والسلام: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا عليَّ، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا ينبغي أن تكون إلا لعبد صالح، وأرجو أن

(١) صحيح: رواه مسلم عن حذيفة كما في صحيح مسلم رقم: ٥٢٢.
(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى ١/٢١٢.
(٣) رواه الإمام أحمد في المسند ٥/٢٤٨.
(٤) صحيح: رواه البخاري رقم: ٢٩٥٦ ومسلم رقم: ١٧٤٧.



أكون أنا هو»، فالوسيلة حق له صلوات الله وسلامه عليه من ربه، وهذا من خصائصه عليه الصلاة والسلام.

والمراد: بالشفاعة: الشفاعة العظمى في راحة الناس من هول الموقف، وقد وقع في حديث ابن عباس رضي الله عنهما:

«وأعطيت الشفاعة، فأخَّرْتُها لأمتي، فهي لمن لا يشرك بالله شيئا»[1].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء:٧٩]:

«هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي»[2].

وقال ابن عباس عن هذا المقام:

«مقاما يحمدك فيه الأولون والآخرون، وتشرف فيه على جميع الخلائق، تسأل فتُعطَى، وتشفَع فتُشَفَّعُ، ليس أحدٌ إلا تحت لوائك».

الخامسة: وكان النبي يُبعَث إلى قومه خاصة، وبُعثْتُ إلى الناس عامة.

وفي لفظٍ آخر: «وبُعِثْتُ إلى الأحمر والأسود»: أي إلى العجم والعرب؛ لأن الغالب على ألوان العجم الحمرة والبياض، وعلى ألوان العرب السُّمْرة.

وشريعة نبينا نسخت كل شريعةٍ قبلها، وقد كان يجتمع في العصر الواحد النَّبيَّان، والثلاثةُ، يدعو كل واحدٍ منهم إلى شريعةٍ تخصُّه، ولا يدعو غيرُه من الأنبياء إليها، ولا ينسخها، بخلاف نبينا ﷺ؛ فإنه دعا الكل، ونسخَه، وشريعته هي الباقية إلى يوم القيامة.

السادس: أخذ ميثاق النبيين للإيمان بمحمد

ومما تفرد به النبي ﷺ هو الميثاق الذي أخذه الله من النبيين للإيمان بمحمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ﴾ [آل عمران:٨١]:

(١) صحيح: رواه أحمد عن ابن عباس مسند أحمد رقم: ٢٧٤٢.
(٢) صحيح: رواه أحمد رقم: ٩٦٨٤ وانظر السلسلة الصحيحة رقم: ٢٣٦٩.



قال ابن عباس: «ما بعث الله نبيًا إلاَّ أخذ عليه الميثاق: لئن بُعِثَ محمد وهو حيٌّ، ليؤمِنَن به ولينصرَنَّه».

وهذه الآية منقبة لنبينا ﷺ، لأن الأنبياء رؤوس الناس، والذي أخذه الله منهم هو متى ظهر النبي ﷺ في زمانهم وجب عليهم أن يتبعوه، وإذا كان هذا حكم الأنبياء، فأممهم أولى بذلك وأحرى.

والإصر بمعنى العهد:

﴿قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران:٨١].

وفي الحديث: «لو كان أخي موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي»[(١)].

وزاد البعض ما تفرَّد به النبي ﷺ عن غيره من الأنبياء إلى أكثر من ذلك، حتى أوصلها إلى السبعين، ومنهم من جعلها أقل من ذلك، ومنهم الزَّيْن العراقي، حيث قال:

«ويحصل بما في مجموع الأخبار إحدى عشرة خصلة، وهي:

1. إعطاؤه جوامع الكلم.
2. ونصرته بالرعب.
3. وإحلال الغنائم.
4. وجَعْل الأرض طهورًا ومسجدًا.
5. وإرساله إلى الكافة.
6. وختم الأنبياء به.
7. وجعل صفوف أمته كصفوف الملائكة.
8. وإعطاؤه الشفاعة.
9. وتسميته أحمد.
10. وجعل أمته خير الأمم.
11. وإيتاؤه خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش».

---

(١) حسن: رواه أحمد عن جابر بن عبد الله كما في إرواء الغليل رقم: ١٥٨٩.





ومعرفة أسمائه وصفاته، ولولم يعرف الناس ربهم عن طريق رسله، فمن أين سيعرفونه؟!

وكيف يعبد الناس من لا يعرفون؟!

ولن يعرفونه إلا عن طريقه، وجعل الله طريق معرفته: أنبياءه ورسله.



٢. تعلم حقيقة العبادة:

إن الغاية العظمى التي أوجد الله الخلق لأجلها هي عبادته.



قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

ولا يستطيع العبد أن يعرف حقيقة العبادة؛ من فعل ما يُحبُّ الله، وترك ما يكره الله، ولا تفاصيل الحلال والحرام إلا عن طريق الرسل، فلولا الأنبياء ما عرفنا كيف نعبد الله، ولا كيف نتقرب إليه، ولا ما يحبه ولا ما يكرهه.

٣. إطلاع الخلق على بعض الغيب:

إن النـاس لا يدركون بعقولهم القاصـرة كثيرًا من الغيبيات؛ كمعرفـة الملائكة والجن والشياطين، ومعالم القيامة كالصراط والحوض والقنطرة وغيرها، ثم الجنة والنار.

لذا فحاجتهم إلى من يعلّمهم حقائق الغد، ويُطلعهم على مشاهد الدار الأخرة لا مناص عنها، فلو لم يبعث الله الرسل، لما عرف الناس هذه الغيبيات، ولما آمنوا إلا بما تدركه حواسُّهم.

وعالم الغيب لم يطلع الله عليه إلا من ارتضى من رسله، فقد رأى النبي ﷺ الجنة والنار رأي العين، ثم أخبر أمته بما رآه، ليكون ذلك أبلغ في دعوتهم، وأرجى إلى إجابتهم.

وأشار ابن تيمية إلى أن الإيمان باليوم الآخر، والجنة والنار، والثواب والعقاب أصل من أصول ثلاثة:

(عليها مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلا من جهة الرسل، فإنّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يُدرك وجه الضرورة إليها، من حيث الجملة، كالمريض الذي يُدرك وجه الحاجة إلى الطبّ ومن يُداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدواء عليه).





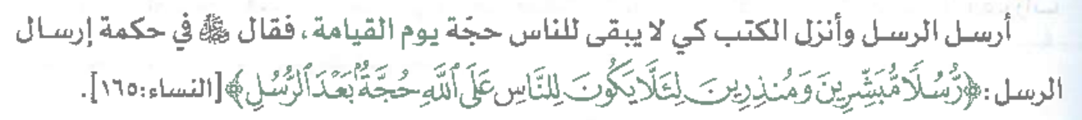
٤ . سعادة الخلق:

كل العصاة والمنحرفين ضلّوا في متاهات الشقاوة، ولو تُرِك الناس هملاً بلا إنذار أو تخويف، لاغترفوا من اللذات، وما وصلوا إلى راحة القلب والمسرات، فمن رحمته ﷻ بهم أن منّ عليهم بأن بعث فيهم رسلاً يرشدونهم إلى سر سعادتهم في الدنيا والآخرة، وإلا عانوا ضنك العيش.

﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكٗا﴾ [طه:١٢٤].

قال ابن كثير:

«أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعَّم ظاهره، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة».



٥ . إقامة الحجة:

أرسل الرسل وأنزل الكتب كي لا يبقى للناس حجّة يوم القيامة، فقال ﷻ في حكمة إرسال الرسل: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

أراد تعالى أن يقطع بالرسل احتجاج من يقول: لو بعث الله إليّ رسولا لآمنت به، وفي الحديث:

«ولا أحد أحب إليه العُذْر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»[1].

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٧١٦٥.



فالعذر هنا بمعنى الإعذار والإنذار قبل أخذهم بالعقوبة.

لكن.. كيف يكون لمن له إلى الله في كل نفَس حاجة، كيف يكون له على الله حُجَّة؟!

هذا صحيح، ومع هذا خاطب الله الناس بحسب عقولهم، وتلطف في دعوتهم وإبلاغهم غاية اللطف، ومن رحمته بعباده: أنه لم يدعهم لعقولهم ليتعرفوا بها عليه، بل أمدَّ هذه العقول بأنوار رسل الله والنبيين.

ما قيمة العقل ودوره مع الرسالة؟!

أفاد صاحب الظلال ما ملخَّصه:

«لو كان الله سبحانه -وهو أعلم بالإنسان وطاقاته كلها- يعلم أن العقل البشري الذي وهبه للإنسان، كافٍ لبلوغ الهداية، لوكله إلى هذا العقل وحده؛ ولما أرسل إليه الرسل؛ ولما جعل حجته على عباده: إرسال رسله إليهم؛ لكن لما علم الله سبحانه أن عقل الإنسان أداة قاصرة بذاتها عن الوصول إلى الهدى، شاءت حكمته ورحمته أن يبعث للناس بالرسل، ودور العقل هنا أن يتلقى عن الرسالة؛ ويفهم ما يتلقاه عن الرسول.

ومهمة الرسول أن يبلغ ويبين، وينبه العقل الإنساني إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان في الأنفس والآفاق؛ ويرسم له المنهج الصحيح.

وليس دور العقل أن يكون حاكما على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان، والقبول أو الرفض بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله؛ فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح.

إن العقل ليس إلها، ليحاكم بمقرراته الخاصة ما قرَّره الله، فالحق هو ما قال سبحانه، وليس للعقل أن يقول: ولكنني أرى المصلحة في كذا وكذا مما يخالف أمر الله، فما يراه العقل مصلحة يحتمل الخطأ والصواب، وتدفع إليه الشهوات والنزوات، وأما ما يقرِّره الله سبحانه، فلا يحتمل إلا الصحة والصلاح».

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٥].

الإيمان بالرسل



ثم ختم الله الآية ببيان الصفات الإلهية المتجلية على عباده في هذا المقام، فأخبر أنه سبحانه «عزيز» لا يغالبُه شيء، ولا حُجّةَ لأحدٍ عليه، ولو شاء لأخذ الناس بغير إقامة الحُجَّة عليهم، ولعذَّبهم دون أن يبعث فيهم رسله مبشرين ومنذرين، إذ ليس لأحد أن يراجع الله، ولا أن يعترض على ما يريد، لكنه مع هذه العزة الغالبة حَكِيمٌ، لا يفعل إلا ما تقضي به حكمته، ومن علامات حكمته: قطع حجّة الناس بإرسال الرسل.

فمن كفر بالله وحاد عن طريقه، فليس ذلك عن نقص حجة وبيان، بل بسبب العناد واتباع الهوى والشيطان، فإذا عذَّب الكافر بكفره، فذلك هو الحكم الذي حكم به الكافر على نفسه، فلا عذر لمعتذر ولا حجة.

ولو لم يرسل الله الرسل إلى الناس لجاؤوا يوم القيامة يخاصمون الله ﷻ ويقولون: كيف تعذبنا وتدخلنا النار، وأنت لم ترسل إلينا من يبلغنا الرسالة كما قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه:١٣٤].

علم الله طبيعة ما خلق، وبأنهم سيجادلون في هذا حتى يوم القيامة، عندما يجمع الله الأولين والآخرين، ويأتي الله لكل أمة برسولها ليشهد عليها بأنه بلّغها رسالة ربه، وأقام عليها الحجّة، فتظهر خصال الجدال ومحاولات التخلص من العذاب ولو بالكذب والبهتان.

قال رسول الله ﷺ:

«يجيء نوح وأمته فيقول الله: هل بلَّغتَ؟ فيقول: نعم أي رب! فيقول لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: لا، ما جاء لنا من نبي، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول:

محمد وأمته، وهو قوله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾

والوسط: العدل، فيُدعَوْن، فيشهدون له بالبلاغ، ثم أشهدُ عليكم»[(١)].

(١) صحيح: رواه أحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٨٠٣٤.



٦. تقديم القدوة الحسنة

الأنبياء نبراس الهدى، ومصابيح الدُّجى، يقتدي بهم الخلق، ويتخذون من سيرتهم وحياتهم قدوة يسيرون على منوالهم حتى يبلغوا دار السلام، ويحطّوا رحالهم في جنة ربّ الأنام.

ومن لم يتخذ من الأنبياء قدوات، فسيتخذ من التافهين والفاسقين.

ومن فاته الاستضاءة بأنوار المرسلين، فسيحترق بنار أعداء المرسلين.

قال تعالى:

﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [الأحزاب٢١].

وقد قال الله لنبيه: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾، فأرشده إلى التسلي بصبر الأنبياء قبله.

وقد تسلى النبي ﷺ بصبر إخوانه من الأنبياء، فقال ﷺ:

«رحِم الله موسى، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»(١).

وهذه القدوة أهم للمصلحين، السائرين في طريق المرسلين.

قال أبو حامد الغزالي:

«كما لا تخلو الأنبياء من الابتلاء بالمعانِدين، فكذا لا تخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين، فقلَّما انفك ولي أو عالم عن ضروب من الإيذاء، بنحو إخراج من بلدة، وسعاية إلى سلطان، وشهادة عليه حتى بالكفر، فاصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا».

وتتضاعف أهمية القدوة الحسنة في زمن غربة الدين وافتقاد المصلحين.

(١) صحيح: رواه أحمد والشيخان عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٣٥٠٠.



قال شقيق بن إبراهيم:

قيل لابن المبارك: إذا صليت معنا لم تجلس معنا؟

قال: أذهب أجلس مع الصحابة والتابعين.

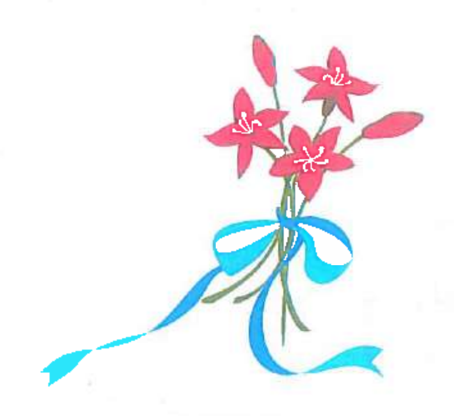
قلنا له: ومن أين الصحابة والتابعون؟

قال: أذهب أنظر في علمي، فأدرك آثارهم وأعمالهم، ما أصنع معكم؟ أنتم تغتابون الناس!

وقال نعيم بن حماد: كان ابن المبارك يُكثِر الجلوس في بيته، فقيل له:

ألا تستوحِش؟

فقال: «كيف أستوحِش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه؟!».

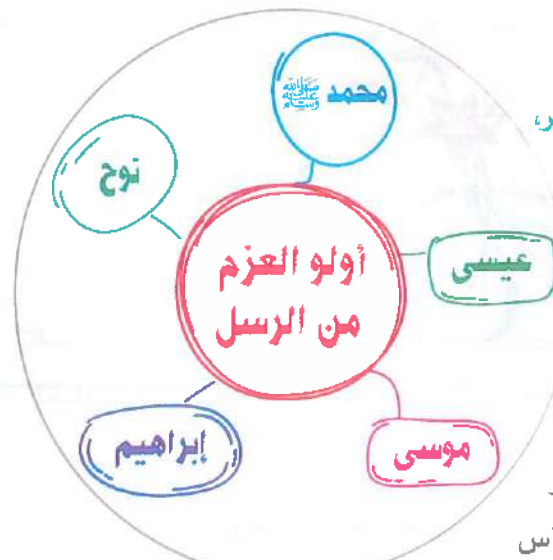


السؤال السابع

ما حكم التفاضل بين الأنبياء؟

فداك نفسي يا رسول الله

وأفضل الرسل والأنبياء خمسة: محمد ﷺ، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل، الذين قال الله فيهم: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥]، لكن أفضل الأنبياء محمد ﷺ.



قال رسول الله ﷺ:

«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ، آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول شافع، وأول مشفَّع، ولا فخر»[1].

فرسول الله ﷺ هو سيد البشر في الدنيا والآخرة، لكن الحديث نَصَّ على سيادته يوم القيامة؛ لأنه اليوم الذي يظهر فيه فضله على سائر البشر، حين يموج الناس

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ١٤٦٨.



بعضهم في بعض، ويبحثون عمن يشفع لهم إلى ربهم، فيأتون إلى آدم فيعتذر، ثم إلى نوح فيعتذر، وإلى إبراهيم فيعتذر، وإلى موسى فيعتذر، وإلى عيسى فيعتذر، ثم يأتون النبي عليه الصلاة والسلام، فيتقدم للشفاعة، فيظهر فضله على جميع الخلق في هذا الموقف.

ولا ينافي تفضيل النبي ﷺ قول الله تعالى:

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾.

ولا يتعارض مع قوله ﷺ في الحديث:

«ما ينبغي لنبي أن يقول: إني خير من يونس بن متى»(١).

ولا مع قوله ﷺ:

«لا تخيِّروا بين الأنبياء، فإن الناس يُصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا موسى آخذٌ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري كان فيمن صُعِق أم حوسِب بصعقته الأولى»(٢).

وذكروا لعدم التناقض أسبابا منها:

- أن عدم التفرقة بينهم إنما هو في الإيمان بهم وبما جاؤوا به من الرسالة، وإنما التفاضل واقع في زيادات الأحوال والكرامات.
- أو أن هذا منه ﷺ على سبيل التواضع.
- أو صيانة لمكانة الأنبياء من الانتقاص بواسطة تفضيل النبي عليهم.
- أو كي لا يؤدي ذلك إلى الخصومة والتنازع.
- أو أن النبي ﷺ قال ذلك قبل أن يوحى إليه أنه أفضل البشر.
- أو المراد: لا تفضِّلوا بجميع أنواع الفضائل، بحيث لا يُتْرَك للمفضول فضيلة. ذكره ابن حجر.

---

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود كما في صحيح الجامع رقم: ٥٨٢١.
(٢) صحيح: رواه أحمد والشيخان عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٧٢٥٧.



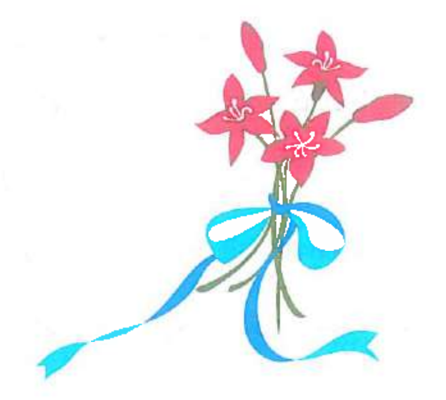
أو أن النهي محمول فيما إذا كان التخيير أو التفضيل مبنيا على الحمية والعصبية، ويؤدي إلى الخصومة والفتنة، وليس مبنيا على النصوص الشرعية.

يدل على هذا سبب الحديث، ففي صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال:

استبَّ رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمدا ﷺ على العالمين، فقال اليهودي: والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم عند ذلك يده، فلطم وجه اليهودي، فذهب اليهودي عن ذلك إلى النبي ﷺ، فأخبره بما كان من أمره وأمر المسلم، فدعا النبي ﷺ فسأله عن ذلك فأخبره، فقال النبي ﷺ:

«لا تخيِّروني على موسى، فإن الناس يُصعَقون يوم القيامة، فأُصعَق معهم، فأكون أوَّل من يفيق، فإذا بموسى باطش جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صَعِقَ، فأفاق قبلي، أو كان ممَّن استثنى الله»[1].

وقد مرَّ بك أن الله خصَّ نبينا ﷺ دون غيره من الأنبياء بما لم يُعْطِ أحدا من الأنبياء قبله.



(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٢٤١١.



١. شوقه إلى رؤيتك:

قال النبي ﷺ لأصحابه يومًا: «وددت أنا قد رأينا إخواننا». قالوا: أولسنا إخوانك؟ قال: «بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد». قالوا: كيف تعرف من لم يأت بعدُ من أمتك؟ قال: «أرأيت لو أن رجلا له خيل غرٌّ محجلة بين ظهري خيل دُهم بُهم ألا يعرف خيله؟».

قالوا: بلى. قال: «فإنهم يأتون يوم القيامة غُرًّا محجَّلين من الوضوء، وأنا فَرَطهم على الحوض»[(١)].

والغُرَّة هي بياضٌ في وجه الفرس، والتحجيل بياض في رجليه، وهي علامة ظاهرة لا يمكن تغييرها ولا إخفاؤها.

(١) صحيح: رواه مالك وأحمد مسلم والنسائي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٦٩٨.



وأما الدُّهم: فجمع أدهم وهو الأسود، وأما البُهم فهو الذي لا يخالط لونه لونا سواه، بل يكون لونه خالصا، وما أسهل تمييز بقعة بيضاء سابحة في بحر أسود كالح، فعلامة أمته يوم القيامة وما يميِّزها بين الأمم: بياض وجوههم ومواضع وضوئهم.

وأما قوله ﷺ: «وأنا فرطهم على الحوض» فمعناه: أتقدمهم إلى الحوض، ويجدونني أنتظرهم عنده، يُقال: فرَط القوم إذا تقدَّمهم ليستقي لهم الماء، وهي بشارة للمتأخرين من أمته من أمثالنا، وتسلية لنا عن عدم رؤية حبيبنا، فهنيئا لمن كان نبيه في استقباله، فهذه من أوائل مشاهد الجنة.

٢. يذكرك حتى آخر رمق:

عن أم سلمة ﵂ قالت: إن رسول الله ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيه: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»(١)، فما زال يقولها حتى ما يفيض بها لسانه.

وفي رواية: كان عامة وصية رسول الله ﷺ وهو يغرغر بنفسه: «اتقوا الله في الصلاة وما ملكت أيمانكم»(٢).

عند نزول الموت وفي ساعات الاحتضار، لا يذكر الإنسان إلا نفسه، ولا يهمه إلا ما نزل

(١) صحيح: سنن ابن ماجة رقم: ١٦٢٥.
(٢) صحيح: رواه الخطيب البغدادي عن أم سلمة كما في صحيح الجامع رقم: ١٠٥..



به، لكن شأن رسول الله ﷺ غير شأننا، وقلبه غير قلوبنا، لذا كان همه الأول أن ينصح أحب الناس إليه، ويشفق على من أفنى حياته من أجلهم، ومع أن سكرات الموت وساعات النزع الأخير هي أشد ساعات الألم على مدار الحياة، ومع أن ألم النبي ﷺ فيها مضاعف (أخبر ﷺ عن نفسه أنه يوعك -يتألم- كما يوعك الرجلان منا)، إلا أنه مع ذلك لم يتوان في أحلك الأوقات عن حمل هذه الرسالة والتصدي لهذا الهم.

لم ينسك ﷺ في أقسى حالات شدته، فهل ذكرته في أهنأ أوقات رخائك؟!

الابتسامة الأخيرة

صلى أبو بكر رضي الله عنه في وجع رسول الله ﷺ الذي تُوُفِّي فيه إماما، وكشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة فنظر إلى الصحابة وتبسم ضاحكا، لتكون آخر ابتسامة له في حياته، فلقد أنساه صلاح أمته آلام مرضه وكربته، وتبسم رغم شدة الألم؛ لأن الراعي اطمأن على أن الرعية استلمت الشعلة، وسلكت نفس الطريق، كالقائد تفقد جنده قبل القتال، فوجدهم على أهبة الاستعداد، أو المعلم الذي اختبر تلامذته قبل الامتحان، فوجدهم على خير حال.

والوصية الأخيرة الجامعة هنا ركَّزت على أمرين اثنين:

- الصلاة: وهي إشارة إلى صلة العبد بربه بكل جوانبها.
- وما ملكت أيمانكم: إشارة إلى صلة العبد بالخلق، وضرب لنا منها مثلا وهم العبيد، وهم أضعف الضعفاء، ومثلهم في الضعف: الفقراء والخدم والنساء، وكل من ليس له ناصر ولا ملجأ إلا الله.

من عجائب المحبة!

وهي محبة أبي بكر رضي الله عنه لحبيبه ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال: أي يوم هذا؟! قالوا: يوم الاثنين.



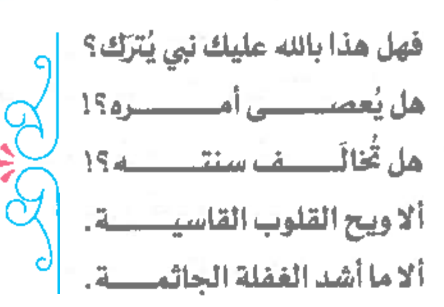
قال: فإن مِتَّ من ليلتي، فلا تنتظروا بي الغد، فإن أحب الأيام والليالي إليَّ أقربها من رسول الله ﷺ.

ومات أبو بكر يوم الاثنين، نفس اليوم الذي قُبِض فيه النبي ﷺ، بل ومات عن نفس العمر: ثلاث وستين عاما.



٣. شفاعته لك:

يوم القيامة هو يوم الفزع الأكبر، وليس من ملَك مقرب ولا نبي مرسل إلا وهو يقول يومها: نفسي.. نفسي، إلا رسول الله ﷺ، وحده يهتف في شفقة: أمتي.. أمتي!!



فهل هذا بالله عليك نبي يُترَك؟
هل يُعصــــى أمــــره؟!
هل تُخالَـــف سنتـــه؟!
ألا ويح القلوب القاسيــة.
ألا ما أشد الغفلة الجاثمــة.

واسمعوا يا أصحاب المشاعر الجامدة حرص نبيكم عليكم في قوله ﷺ:

«لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجَّل كل نبي دعوته، وإني خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي، لا يشرك بالله شيئا»[1].

والشفاعة لغة:

هي سؤال التجاوز عن الذنوب من الذي وقعت في حقه الجناية، وهي هنا أن يسأل رسولنا ﷺ الله جل جلاله أن يتجاوز في حقه تجاه عباده، وهي أنواع:

1. **الشفاعة العظمى**: وهي المقام المحمود، وهي لعامة البشر كلهم من أولهم إلى آخرهم،

(١) صحيح: رواه مسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥١٧٦.



وهي الشفاعة التي يعتذر عنها كبار الرسل، فإن الناس في يوم القيامة يلحقهم من الكرب والغم ما لا يطيقون، فيطلبون الشفاعة، فيأتون إلى آدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليم الصلاة والسلام حتى يصلوا إلى النبي ﷺ فيقوم ويشفع، ويقضي الله تعالى بين العباد بشفاعته، بعد انتظار طويل في ساحة الحشر مقداره خمسون ألف سنة.

2 **شفاعة النبي ﷺ في من استوجب النار بعمله**، فأخرجته شفاعة نبيه إلى الجنة دون أن يمسه العذاب.

3 **شفاعة النبي ﷺ في من دخل النار**؛ ليخرج منها بشفاعة نبيه بعد أن ذاق قسطا من العذاب.

4 **شفاعة النبي ﷺ بما يستوجب رفع العبد درجات في الجنة** فوق ما يقتضيه عمله.

5 **شفاعته في دخول نفر من أمته الجنة** بغير حساب.

6 **شفاعته ﷺ في تخفيف عذاب بعض الكفار** كشفاعته في عمه أبي طالب الذي قال فيه النبي ﷺ: لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه.

والشفاعة كنز عظيم لا يتصوره العقل، واسمعوا بشرى **عوف بن مالك**:

قال رسول الله ﷺ: **أتدرون ما خيَّرني ربي الليلة؟**

قال: قلنا الله ورسوله أعلم.

قال:

«أتاني آتٍ من عند ربي، فخيَّرني بين أن يُدْخِل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترتُ الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئا»[(١)].

وهي بشارة عظيمة بأن أكثر من نصف أمتنا يدخل الجنة بنص حديث رسول الله ﷺ.

(١) صحيح: رواه أحمد عن أبي موسى الأشعري كما في صحيح الجامع رقم: ٥٦.



يا رســـــــولي.. كم أحبك!!

يا شفيعي يوم حشـــري.. يوم تدنو الشمـس مني

تُـــذهل الأهوالُ أُمّـــي.. يومهـا ستفِــرُّ منـــي

يا ذاكري حين يتنكر لي الأبوان، ومنقذي حين يتهرَّب مني قرابتي والإخوان.. كم أحبك!!



٤. سنرضيك ولا نخزيك في أمتك

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ تلا قول الله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾، وقال عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ فرفع يديه، فقال: اللهم أمتي أمتي، وبكى فقال الله تعالى: يا جبريل اذهب إلى محمد -وربك أعلم- فسله ما يبكيه؟ فأتاه جبريل، فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، فقال الله لجبريل: اذهب إلى محمد فقل: إنا **سنرضيك في أمتك ولا نَسُوءُك**[1].

قال الإمام النووي:

«وهذا من أرجى الأحاديث لهذه الأمة، ومنها بيان عظم منزلة النبي عند الله تعالى».

نبينا يدعو لأمته حتى يبلغ به الحد أن يبكي شفقة على أمته، ومن أمته من لا يدعو لنفسه ولا يبكي شفقة بها!!

ولما رأى الله هذا من حبيبه أرسل إليه أفضل ملائكته يسأله عن السبب وهو به أعلم، ثم أبلغه ببشارة من أعظم البشارات: **سنرضيك في أمتك ولا نَسُوءُك.**

وفي الحديث آية قام بها النبي ﷺ الليل كله لم يجاوزها إلى غيرها: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، لماذا إن لم يكن من شده شفقته على أمته وحرصه عليها وحبه لها.

(١) صحيح: صحيح مسلم رقم: ٣٤٦.



وهذه الآية نفسها سيردِّدها النبي ﷺ في موقف آخر عن أناس من أمته تنكبوا الطريق واستبدلوا الخبيث بالطيب، فقال ﷺ مخبرًا عن مشهد من مشاهد القيامة:

«وإنه سيؤتى برجال من أمتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، فيقال هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[(١)].

اللهم لا تجعلنا من هؤلاء.. ولا تحل في الآخرة بيننا وبين نبينا.



٥. يَعِزُّ عليه ما يشقُّ عليك

قال تعالى في وصف نبيه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: شديد عليه ما شقَّ عليكم، رواه الضحاك عن ابن عباس.

لذا جاءنا النبي ﷺ بالتخفيف والتيسير، ومظاهر التخفيف في الشريعة أكثر من أن تحصى حتى جعل العلماء من القواعد الشرعية: (المشقة تجلب التيسير)، وقد ذكر الإمام السيوطي أن تخفيفات الشرع أنواع كما يلي:

- تخفيف الإسقاط: كسقوط الصوم والحج والجهاد عن العاجز عنها.
- تخفيف النقصان: كقصر الصلاة للمسافر.
- تخفيف الإبدال: بانتقال المكلف من الواجب إلى بدله عند قيام العذر، كانتقاله من الوضوء إلى التيمم عند فقد الماء، أو من القيام في الصلاة إلى القعود عند عدم استطاعة القيام.

(١) صحيح: صحيح مسلم رقم: ٣٤٦.



- تخفيف التقديم: كالجمع بين الصلاتين فتقدم صلاة العصر إلى الظهر وصلاة العشاء إلى المغرب.
- تخفيف التأخير: كتأخير صلاة الظهر إلى العصر، وتأخير صلاة المغرب إلى العشاء.
- تخفيف الترخيص: كشرب الخمر لإزالة الغصة أو عند الخوف من الموت عطشا، وكأكل بعض المحرمات للضرورة، والتلفظ بالكفر عند الإكراه.
- تخفيف التغيير: كتغيير هيئة الصلاة كما في صلاة الخوف.

وقاعدة (المشقة تجلب التيسير) تلحق بها قواعد أخرى مثل: (الضرورات تبيح المحظورات)، و(إذا ضاق الأمر اتسع)، و(ما لا يمكن الاحتراز منه معفوٌّ عنه)، وكلها قواعد ترفع راية التيسير ورفع الحرج.

والثاني: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾: شديد عليه ما آثمكم أي وقوعكم في الإثم، رواه أبو صالح عن ابن عباس كذلك.

فمع كل مع معصية تقعون فيها يتأذى رسولكم ويتألم، فما لكم لا تشعرون، ولا على مشاعر الحبيب تحرصون؟!

ولقد بلغ من شدة حرص نبينا على هدايتنا أن يسليه ربه ويعزيه في الألم الذي أصابه من الصد والإعراض عن دعوته، كما في قوله تعالى:

﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل:٣٧].

وقوله تعالى:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣].

وهنا السؤال:

كيف يجتمع التيسير مع التكاليف الشاقة التي امتلأت بها سورة التوبة من فرض الجهاد والنفير في الحر، ولا يقدر على تحملها إلا أقوياء الإيمان؟!



والجواب:

هذا مِثْل الطبيب الماهر يداوي المريض، ويقتلع منه ما يؤذيه، كي ينقذ حياته، وكالأب المشفق على ولده يقسو عليه ليقوى عوده وينصلح حاله، وكذلك النبي ﷺ أمرنا بما يخلِّصنا من العذاب الأليم، ويضمن لنا الفوز بالنعيم المقيم، وكأن رسولنا يخاطبنا بلسان حاله:

لا تهتموا بما شقَّ عليكم اليوم ما دمتم محافظين على طاعتي، فلن يرضيني ولن يهدأ لي بال حتى أراكم معي في الجنة.

أما قوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ والحرص على الشيء: الشح عليه أن يضيع ويتلف، أي حريص على إيمانكم أو شحيح عليكم أن تفلتوا من يديه إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ قال ابن عباس: سماه باسمين من أسمائه، والرأفة أرق من الرحمة؛ ولذا قيل: رؤوف بالمطيعين، رحيم بالمذنبين.

ولذا كان رسول الله ﷺ إذا كان يوم الريح والغيم، عُرِف ذلك في وجهه، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت، سُرَّ به، وذهب عنه ذلك. قالت عائشة: فسألتُه، فقال:

«إني خشيت أن يكون عذابا سُلِّط على أمتي». ويقول إذا رأى المطر: «رحمة»[1].

وكان خوفه ﷺ أن يعاقَبوا بعصيان العصاة، وكان سروره لزوال سبب الخوف، وهو الريح والغيوم.

وكان ﷺ إذا رأى سحابا مقبلا من أفق من الآفاق ترك ما هو فيه، وإن كان صلاتَه، حتَّى يستقبله، فيقول: «اللهم، إنا نعوذ بك من شر ما أُرسِل به». فإن أمْطر قال:

«اللهم صيِّبا أو سيِّبا نافعا» - مرتين أو ثلاثا -. فإن كشفه الله، ولم يُمْطِر حَمِد الله على ذلك[2].

(١) صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن عائشة كما في صحيح مسلم رقم: ٨٩٩.
(٢) صحيح: صحيح ابن حبان رقم: ٩٩٤.





٦. دعاؤه لك:

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لما رأيت من النبي ﷺ طيب نفس، قلت: يا رسول الله.. ادعُ الله عزوجل لي، فقال: «اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر، وما أسَرت وما أعلنت»، فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك.

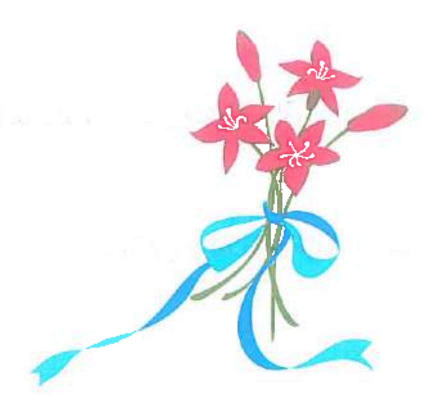
قال: فقال لها رسول الله ﷺ:

«أيسُرُّك دعائي؟!».

قالت: وما بي لا يسرني دعاؤك.

قال: «والله إنها لدعوتي لأمتي في كل صلاة»[1].

إنك اليوم -ومهما بلغت محبتك لأي إنسان- لا تذكره بدعائك في كل صلاة، بل تذكره مرة، وتنساه مرات، فانظر قدر محبة النبي ﷺ لأمته وحرصه عليها، ثم بادله حبا بحب، وحرصا بحرص.



(١) صحيح: صحيح ابن حبان رقم: ٧١١١ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٢٥٤.





١ . شوقك إلى رؤيته

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«من أشد أمتي لي حبا، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني، بأهله وماله»[١].

فأعلى درجات محبة النبي ﷺ توصلك إلى أن تنفق كل مالك وتضحي بجميع أهلك في سبيل الفوز بنظرة واحدة إلى النبي ﷺ بسبب امتلاء قلبك بالشوق إليه، وقد أورد هذا الحديث الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الجنة وصفة نعيمها



(١) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٨٩٣.



وأهلها، وفي هذا إشارة لطيفة إلى أن الشوق إلى رؤية رسول الله ﷺ من طرق الوصول إلى الجنة، فاصدق مع نفسك لتعرف حقيقة حبك من زيفه ووهمه، وسائلها: لو طلب منك التضحية بكل مالك، والتضحية بأهلك في سبيل نيل نظرة إلى النبي ﷺ، فهل كنت فاعلاً؟!

قال ابن حجر في الربط الوثيق بين محبة النبي ﷺ والشوق إلى رؤيته:

«ومن علامة الحب المذكور أن يُعرَض على المرء أن لو خُيِّر بين فقد غرض من أغراضه أو فقد رؤية النبي ﷺ أن لو كانت ممكنة، فإن كان فقدها -لو كانت ممكنة- أشد عليه من فقد شيء من أغراضه، فقد اتصف بالأحبية المذكورة، ومن لا فلا، وليس ذلك محصورًا في الوجود والفقد، بل يأتي مثله في نصرة سنته، والذَّبِّ عن شريعته، وقمع مخالفيها، ويدخل فيه باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

والشوق كما هو واضح في قول ابن حجر ليس شوقًا سلبيًا ولا عاطفة مجرَّدة من البذل والعمل، بل شوق ممتزج بالعمل؛ وبنصر سنته وشريعته، وسلوك طريق الأمر والنهي لإصلاح الخلق وإرضاء الرب.

مع العلم أن أشد الناس له حبا هو أكثرهم في الجنة منه قربا، ألا ما أقل المحبين اليوم وأكثر المُدَّعين.

لكن رسول الله ﷺ ليس بين أظهرنا الآن حتى نراه، فكيف نعرف حقيقة محبتنا له اليوم في ضوء هذا الحديث؟!

أقول:

إن فاتتنا رؤيته في هذه الدنيا الزائلة، وهي مع زوالها دار بلاء وشقاء، فإن لنا أن نحِنَّ ونشتاق إلى رؤيته في الآخرة الخالدة، وهي مع خلودها دار النعيم والهناء، وثمن الرؤية غدا ندفعه من أموالنا وأعمالنا وأهلنا اليوم.

وقوله ﷺ: «يكونون بعدي»: تنبؤ منه ﷺ بأن نفرا من أمته سيسابقون الصحابة، ويبلغون أعلى درجات المحبة، وإن لم يلتقوا برسول الله، فأبشروا معاشر المحبين وسادة المشتاقين.



وسؤال آخر نافع ناجع:



هل لو رآك رسـول الله ﷺ الآن لسـرَّه حـالك؟!

هل فعلت ما يبيِّض وجهك ويرفع هامتك في حضرته؟!

أم ارتكبت مـا يجعلك تختبـئ وتتـوارى عنـه؟!



وإن قد أسأت وعصيت وفرَّطت وجنيت، فإن أمامك اليوم فرصة سانحة للرجوع وتدارك التقصير قبل الانتقال إلى دار تنشر فيها الفضائح، فلا تراجع ولا استدراك.

ما حالنا اليوم؟!

غزا حب الدنيا القلوب، حتى غدا الأبناء والزوجات والأموال أعظم في قلوب الكثيرين منا من حب رسول الله ﷺ؟!

وانغمس نفر من الأمة في حب المال الحرام والعلاقات الحرام حتى لم يبق في قلوبهم مكان لأشرف حب وأسمى عاطفة: حب رسول الله ﷺ.

الغيرة على الحبيب!!

عن جابر بن عبد الله كان رسول الله ﷺ يقوم إلى أصل شجرة -أو قال إلى جذع- ثم اتخذ منبرا، قال: فحنَّ الجذع حتى سمعه أهل المسجد، حتى أتاه رسول الله ﷺ فمسحه فسكن، ثم قال ﷺ: «لو لم أحتضنه، لحَنَّ إلى يوم القيامة»[1].

وكان الحسن البصري إذا ذكر حديث حنين الجذع يقول: «يا معشر المسلمين!! خشبة تحِنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقا إلى لقائه؛ فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه».

ويبقى الجذع سفيرا للمحبة، موقدا لنار الغيرة، دافعا للشوق إلى رؤية الحبيب والسعي إلى لقائه مع أنه جامد أمام للناظرين!! فما بالنا بقلب الحي قاسيا لا يلين؟!

(١) صحيح: رواه الدارمي وابن ماجة وأحمد كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢١٧٤.



يحنُّ الجذع من شوقٍ إليك ويذرف دمعه حزنًا عليك
و يجهش بالبكاء وبالنحيب لفقد حديثكم وكذا يديك
فما لي لا يحنُّ إليك قلبي وحلمي أن أُقبِّل مقلتيك
و أن ألقاك في يوم المعاد وينعم ناظري من وَجْنتيك

٢. أن تدعو إلى ما دعا إليه

من حبك لنبيك أن تدعو إلى الله كما دعا.

أن تحب الخير لغيرك كما أحب..

أن تنسى نفسك في سبيل غيرك كما عاش، فإن كنت لا تُحسن الكلام ولا تجيد فن التأثير في الناس، فانظر إلى من كان مثلك في عي لسانه وضعف بيانه، لكن قلبه امتلأ حبا لله ورسوله، فاقتنى رسائل، وأصبح يُوزِّعها على أقاربه بشكل منتظم، فلتسلك نفس الطريق، وانقل كلمة.. مقالة.. خطبة، ولا تبقَ جامدًا.

لا تكن أرضا تبلع الماء ولا تنبت الزرع.

إلى متى تظل متلقيا لا ملقيا..

مستمعا لا قائلا..

منتفعا لا نافعا..

مادًّا يدك بالسؤال لا معطيا؟!

هل تنفق حياتك كلها في الأخذ مع علمك أن اليد العليا خير من اليد السفلى؟!

أخي..

دخلتَ الجامعة فتلقيت العلم فيها سنوات معدودة، ثم انطلقت في أرض الله الواسعة..

يا من تعلم الطب ثم داوى المرضى..

يا من درس الهندسة ثم شيَّد وبرمج..



يا من أخذ أصول التجارة عن والده ثم ضرب بماله في الأسواق..

لماذا لا يكون هذا شأنك مع دين الله؟!

لماذا يموت كثير من المسلمين اليوم دون أن ينطقوا بكلمة واحدة يرشدون بها من حولهم إلى الخير، ولو كانوا جيرانهم أو زملاءهم أو حتى أولادهم وأزواجهم!

أما آن لقيد اللسان أن ينكسر!!

أما حان لسهم الدعوة أن ينطلق؟!

أما جاء الوقت الذي تتعرض للفضل العظيم الذي دلك عليه نبيك، فتفوز بدعائه:

«نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فبلَّغها، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[1].

والنضارة هي النعمة والبهجة، وتظهر في حسن الوجه وسعادته، وهي إما في الدنيا بسعة الرزق وهناءة العيش، كما قال **سفيان بن عيينة**: «ما من أحد يطلب حديثا إلا وفي وجهه نضرة».

أو في الآخرة بدخول الجنة والتلذذ بالنظر إلى وجه الله الكريم، كما قال ربنا:

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.

فهنيئا لمن حظي ببركة هذا الدعاء النبوي المجاب بتبليغ دعوة النبي وتعاليمه وسلوك طريق الدعوة إلى الله.





اصدق الله في نيتك، واصدق مع نبيك في محبته.

وعندها سيُطلِق الله لسانك، ويجمع عليك قلوب الغافلين، ويُلبس كلامك حلل البهاء، وقوة تأثير الخطباء البلغاء.

(١) صحيح: رواه أحمد وابن ماجة عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٦٧٦٥.



وسائل نفسك اليوم يا كل محبٍّ للنبي:

هل بذلت جهدا لأهدي أحدا ممن حولي؟

هل التزم من أعرف بشرائع الإسلام؟

هل واظبوا على الصلاة؟

وإن فعلوا، فهل نهتهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر؟

يا جندي الدعوة..

المسجد هو مستودع الزاد الذي تملأ به قلبك

لم يكن المسجد يوما صومعةَ الخاملين، إنما مركزا لإصدار الأوامر والتوجيهات إلى المجتهدين المثابرين.

والمنتظر منك بعدها أن تنطلق مسرعا إلى ساحة دعوتك: جامعتك.. مدرستك.. ورشتك.. عمارتك.. عيادتك.

المسجد هو مستودع الزاد الذي تملأ به قلبك؛ لتفرِّغ الشحنة في غيرك، ثم تعود لتملأها من جديد، ولهذا قدم الله في كتابه ذكر زاد الداعية: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ على ذكر دعوته: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾.

أين خزائن البركات!!

قال ابن القيِّم: قال تعالى مخبرًا عن المسيح بن مريم عليه السلام:

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾.

«أي معلِّمًا للخير، داعيا إلى الله، مذكِّرا به مرغِّبا في طاعته، فهذا من بركة الرجل، ومن



خلا من هذا فقد خلا من البركة، ومحقت بركة لقائه والاجتماع به، بل تمحق بركة من لقيه واجتمع به».

ومن هنا رأى عمر بن عبد العزيز أن أحد أهم أسباب بقائه في الدنيا وحبه لهذه الحياة: نشر سنة النبي ﷺ، والدعوة إلى ما دعا إليه، فإن فاته هذا فالموت أَوْلى به، فقال وقد خطب الناس يوما:

«والله.. إني لولا أن أُنعِش سُنَّة قد أميتت، أو أن أُميت بدعة قد أحييت، لكرِهت أن أعيش فيكم فواقا».

والفواق: مقدار حلبة الشاة، فما يعطي للحياة معنى أن يكون الإنسان فيها مؤثِّرا نافعا مصلحا، وإلا فليس للحياة قيمة، والموت أَوْلى بالمرء من حياته.

التعزير!!

قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الفتح:٩].

قال ابن جرير:

«معنى التعزير في هذا الموضع: التقوية والنصرة والمعونة»، ويعرِّف ابن تيمية التعزير بأنه: «اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه».

ومن النيات التي يستحضرها قلبك وأنت تدعو إلى ما دعا إليه حبيبك أنك بذلك تنصره، ولقد كان رسول الله ﷺ وهو في مكة قبل الهجرة يطوف على الناس يطلب النصرة حتى يتمكن من إبلاغ رسالة الله؛ وعندما أراد الهجرة إليهم في المدينة أخذ البيعة عليهم أن ينصروه وأن يمنعوه مما يمنعون منه أهليهم، وقيامك بواجب الدعوة إلى الله فيه نصرة للنبي ﷺ والدفاع عنه، ولأن الله قد بيَّن أنه تكفَّل بنصر رسوله ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٤٠]، كان من تقاعس اليوم عن نصرة نبيه بنشر هديه وشرعه قد أزرى بنفسه، وحرمها من منزلة العز والشرف.



نُصْرةٌ بكلمة!!

يروي الشيخ أحمد شاكر قصة عجيبة عن والده الإمام محمد شاكر والذي كان يعمل وكيلاً للأزهر، فقد سمع أحد خطباء مصر وكان فصيحًا متكلمًا مقتدرًا، وأراد هذا الخطيب أن يمدح أحد أمراء مصر عندما أكرم طه حسين، فقال في خطبته يتملق الأمير وينافقه: «جاءه الأعمى، فما عبس بوجهه وما تولى»، يريد بذلك التعريض برسول الله ﷺ، حيث إن القرآن ذكر قصته مع الأعمى، فقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١، ٢]، فما كان من الشيخ محمد شاكر إلا أن وقف أمام الناس وقال لهم: إن صلاتكم باطلة، وأمرهم أن يعيدوا صلاة الجمعة؛ لأن الخطيب كفر بهذه الكلمة التي تعتبر شتمًا لرسول الله ﷺ تعريضًا لا تصريحًا.

لكن الله تعالى لم يدع لهذا المجرم أن يفلت من عقوبة الدنيا فضلا عن عقوبة الآخرة. يقول الشيخ أحمد شاكر: فأقسم بالله لقد رأيته بعيني رأسي بعد بضع سنين وبعد أن كان عاليًا منتفخًا مستعزًا بمن لاذ بهم من العظماء والكبراء؛ رأيته مهينًا ذليلاً خادمًا على باب مسجد من مساجد القاهرة، يتلقى نعال المصلين يحفظها في ذلٍ وصغار حتى لقد خجلت أن يراني وأنا أعرفه وهو يعرفني - لا شفقة عليه، فما كان موضعًا للشفقة، ولا شماتة فيه، ولكن لما رأيت من عبرة وعظة.



٣. اتباع سنته:

قال رسول الله ﷺ: «... فإنه من يَعِش منكم بعدي فسيري اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ»[1].

هذا شعار المرحلة: «وعضوا عليها بالنواجذ».

وهكذا يجب أن تتعامل اليوم مع دينك ومبادئك في عالمٍ يموج بالفتن وغربة الدين ومحاربة المصلحين.

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن العرباض بن سارية كما في صحيح الجامع رقم: ٢٥٤٩.



تحتاجُ أن تعضَّ على ما لديك بكلِّ ما أوتيت من قوة، رجاءَ ألا تُبَدَّل أو تُستبدَل.

وقد أمر الله نبيه أن يبلِّغ الأمة هذه الرسالة:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾:

قال الحسن البصري: «وكان علامة حبه إيّاهم اتباع سُنَّة رسول الله ﷺ».

فمن اتبع سنة النبي ﷺ فليستبشر بحب الله له، واتباع سنته علامة محبته، ومحبة النبي ﷺ تظهر بجلاء إذا اتبعتَ المستحب من شريعته، أكثر من ظهورها عند أداء الواجبات؛ لأن كثيرا من الناس قد يؤدّون الواجب، لكن قلة منهم يحرصون على النوافل ويحافظون على المستحبات، وعندما ترشدهم إلى سنة من السُّنن يتذرَّعون ويعتذرون قائلين: يا أخي.. هذه سنة وليست بواجب! وهذا من أعظم الجفاء وضعف المحبة.

قال ابن القيِّم: «ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهرا وباطنا، وصدَّقته خبرا، وأطعته أمرًا، وأجبته دعوةً، وآثرته طوعًا، وفنيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبة غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك فلا تتعنَّ، وارجع من حيث شئت، فالتمس نورا، فلست على شيء».

هنا مُحِبٌّ صادق!

كان رسول الله ﷺ يدخل الغرفة من غرفات زوجاته لا يعرف أحد لماذا دخل ولماذا خرج. قال النبي ﷺ يومًا: «**إني لألج هذه الغرفة ما ألِجُها إلا خشية أن يكون فيها مال، فأُتَوَفَّى ولم أنفقه**»(١).

وكان عبد الله بن عمر ﵄ محبًا صادقًا، فاقتفى أثر الحبيب، لا في عباداته فحسب بل وفي عاداته، حتى قال مولاه نافع:

«لو نظرتَ إلى ابن عمر إذا اتبع رسول الله ﷺ لقلتَ: هذا مجنون».

(١) صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٩٢١.



وجاء على المسلمين زمان كان الرجل الصالح فيهم يدعو: «اللهم أبْقِ عبدالله بن عمر ما أبقيتني، كي أقتدي به، فإني لا أعلم أحدا على الأمر الأول غيره».

لكن.. كيف اقتدى ابن عمر بنبيه واتبع سنته في البذل والإنفاق؟

اسمعوا:

قال أيوب بن وائل الراسبي: قدِمتُ المدينة فأخبرني رجل -جار لابن عمر- أنه أتى ابنَ عمر أربعة آلاف من قبل **معاوية**، وأربعة آلاف من قبل إنسان آخر، وألفان من قبل آخر، وقطيفة، فجاءَ إلى السوق يريد علفا لراحلته بدرهم نسيئة، فقد عرفت الذي جاءَه (من المال) فأتيت سُرِّيَّته (جاريته)، فقلت: إني أريد أن أسألك عن شيء، وأحب أن تصدقيني.

قلتُ: أليس قد أتت **أبا عبد الرحمن** أربعة آلاف من قبل **معاوية**، وأربعة آلاف من قبل إنسان آخر، وألفان من قبل آخر، وقطيفة؟!

قالت: بلى.

قلت: فإني رأيته يطلب علفا بدرهم نسيئة (يدفعها دَيْنا لا نقدا).

قالت: ما بات حتى فرّقها! فأخذ القطيفة فألقاها على ظهره، ثم ذهب فوجَّهها ثم جاء؛ فخرج ابن وائل متعجِّبا يضرب كفا بكف، حتى أتى السوق فارتقى موضعا عاليا، ثم صاح في الناس:

يا معشر التجار.. ما تصنعون بالدنيا وابن عمر أتته البارحة عشرة آلاف درهم، فأصبح اليوم يطلب لراحلته علفا بدرهم نسيئة؟!

وصيتان غاليتان لاتباع السنن النبوية!

وأخيرا...

أوصيك أخي في اتباع سنته بوصيتين ذكرهما الإمام النَّووي:

الأولى: لا تدع سُنَّة من السُّنَن إلا وقد كان لك منها نصيب، ولو لمرة واحدة.



قال النَّووي:

«اعلم أنه ينبغي لمن بلغه شيء من فضائل الأعمال أن يعمل به ولو مرَّة واحدة، ليكون من أهله، ولا ينبغي أن يتركه مطلقًا؛ لحديث: «إذا أَمَرْتُكُم بشيءٍ، فأْتوا منه ما استطعتم»».

والثانية: قضاء النوافل

إذا أنعم الله عليك بطاعة، وكنت من المواظبين عليها، وفاتتك يوما، فلا تدعها تفلت من يديك إن كانت مما يُقضى، فإنَّ العبد إذا اعتاد التفويت وتساهل فيه أضاع العمل، وتورَّط في الكسل.

يقول النَّووي في فائدة قضاء الذِّكر:

«ينبغي لمن كان له وظيفة من الذِّكر في وقتٍ من ليلٍ، أو نهار، أو عقب صلاة، أو حالةً من الأحوال ففاتته، أن يتداركها، ويأتي به إذا تمكَّن منها، ولا يهملها، فإنه إذا اعتاد الملازمة عليها لم يعرضها للتفويت، وإذا تساهل في قضائها سهل عليه تضييعها في وقتها».



أمثلة لقضاء النافلة

- فمن ذلك قضاء سنة الفجر، لقول النبي ﷺ:

«من لم يصل ركعتي الفجر، فليصلهما بعد ما تطلع الشمس»(١).

- ومنه أن النبي ﷺ قضى الركعتين اللتين بعد الظهر بعد صلاة العصر لما شغله عنهما أناس من بني عبد القيس.

- ومنه حديث عائشة أن النبي ﷺ كان إذا لم يصل أربعا قبل الظهر صلاهن بعدها.

- ومنه حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«من نام عن الوتر أو نسيه، فليصل إذا ذكره وإذا استيقظ»(٢).

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي هريرة كما في سنن الترمذي رقم: ٤٢٣.

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن أبي سعيد كما في سنن الترمذي رقم: ٤٥٦.



ومنه حديث عمر في وِرد القرآن أو وِرْد القيام: قال رسول الله ﷺ:



«من نام عن حزبه أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كُتِب له، كأنما قرأه من الليل»[1].

ومنه حديث عائشة أن النبي ﷺ:



«كان إذا نام من الليل أو مرض، صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة»[2].

وكل هذه الأحاديث تأخذ بيديك للمداومة على الأعمال، وعدم فتح باب كسلٍ يتسلل منه الشيطان.

٤. إيثاره على ما سواه



ومن علامات المحب إيثار محبوبه على نفسه، وقد جعل الله نبيه أحق الخلق بأن يؤثر على غيره، فقال ﷻ: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب٦].

هذه الآية إخبار عن المكانة التي جعلها الله لنبيه بين المؤمنين، كما أنها أيضا إخبار عن الحال التي ينبغي أن يشعر بها المؤمنون تجاه رسول الله ﷺ، فهو أولى بهم من أنفسهم إن كانوا مؤمنين حقا، ولا يكون كذلك حتى يكون أحب إليهم من أنفسهم.

ويبين ابن القيم أن هذه الآية تتضمن أمرين:

(١) صحيح: رواه مسلم عن عمر كما في صحيح الجامع رقم ٦٥٦١.

(٢) صحيح: رواه مسلم وأبو داود عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٧٨٨.



1 « ... أن يكون أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب إليه من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها، وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

2 ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلا، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده، أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أَوْلى به من نفسه ».

ولاحظ أن الله تعالى وصفهم بالمؤمنين، فمن لم يكن الرسول ﷺ أولى به من نفسه، فليراجع إيمانه، فالمؤمن وحده.. راحة نبيه مقدمة على راحته..

وسلامة نبيه مقدَّمة على سلامته.

وإذا كنت حريصا على حماية نفسك من أي خطر أو أذى، فرسول الله أَوْلى بهذه الحماية.

وإلا ففي إيمانك نقص.. شك.. خدش.

سمِّه ما شئت.

هذا معنى الآية أيها العربي، فلا تغلق أبواب الفهم أمامك كأنك أعجمي، وافهم ما فهمه الإمام الشوكاني، وهو يبسِّط لك الكلام إن استعصى عليك الفهم:

«أي هو أحقُّ بهم في كل أمور الدين والدنيا، وأولى بهم من أنفسهم فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم، وإن كانوا محتاجين إليها.

ويجب عليهم أن يحبوه زيادة على حبهم أنفسهم.

ويجب عليهم أن يقدِّموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم.

وبالجملة فإذا دعاهم النبي ﷺ لشيء ودعتهم أنفسهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدِّموا ما دعاهم إليه، ويؤخِّروا ما دعتهم أنفسهم إليه.

ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم.

ويقدِّموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم وتطلبه خواطرهم».



اللهم صدقا كصدق عُمَر!!

والأمر والله يحتاج إلى وقفة عمرية كالتي وقفها الفاروق بن الخطاب لما أخذ النبي ﷺ يده، فقال له عمر: يا رسول الله.. لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ:

«الآن يا عمر».

وإلى شرح تفصيلي لمعنى كلام عمر رضي الله عنه:

قال الخطابي:

«حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام حب الاختيار، إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه، فعلى هذا فجواب عمر أولا كان بحسب الطبع، ثم تأمَّلَ فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه؛ لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار».

وقد أظهرت هذه الوقفة العُمَرية النفع الحاصل له من جهة الرسول ﷺ الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، فعلم أن رسوله هو سبب بقائه الأبدي في النعيم السرمدي، وأن هذا الفضل أعظم من كل كنوز الدنيا، فاستحق لذلك أن يكون حظه من المحبة أوفر من غيره.

وتقدير كلام النبي ﷺ في الحديث: لا تصدق في حبي يا عمر حتى تؤثر رضاي على هواك، وقد امتثل الفاروق لوصية النبي ﷺ، واسمعوا:

فرض عمر بن الخطاب يوما لابنه عبد الله ثلاثة آلاف، ولأسامة بن زيد في ثلاثة آلاف وخمسمائة، فقال عبد الله لأبيه: لم فضَّلتَه؟ فوالله ما سبقني إلى مشهد، فقال له: «لأن زيدا كان أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك، وأسامة أحب إليه منك، فآثرتُ حُبَّ رسول الله ﷺ على حُبِّي».

يراد منك بعد هذا الحديث أن تُنعِش عبادة التفكر في قلبك، بدلا من أن يمر بك كلام الحبيب مرور الغافلين، بل عليك أن تقارِن بين النفع الذي أصابك من نفسك والنفع الذي أصابك من نبيك ﷺ، لتتوصل بسهولة إلى أن انتفاعك منه أعظم من كل وجوه الانتفاع الصادرةِ عن غيره، لذا يجب أن يكون حظه من المحبة أعظم نصيب، وعليك أن تقدِّم الدليل العملي على إثبات صدق هذه المحبة.

إن نفوس أكثر العباد تتأرجح بين تقديم محبة النبي ﷺ وإيثار محبة النفس، وحين ترجح كفة محبة النفس، فهي النفس الأمارة بالسوء، أما حين ترجح كفة محبة النبي فهذه علامة النفس المطمئنة، وهو ما قرَّره الإمام النووي:

«فيه تلميح إلى قضية النفس الأمّارة، والمطمئنة، فإن من رجَّح جانب (النفس) المطمئنة، كان حبه للنبي ﷺ راجحًا، ومن رَجّحَ جانب (النفس) الأمّارة، كان حكمه بالعكس».

٥. كثرة ذكرك له:

فمن أحب شيئا أكثر ذكره، ولذا عرَّف بعضهم المحبة بأنها دوام ذكر المحبوب.



أخي..

المحب الصادق لا يمل ذكر المحبوب، بل يستعذب الحديث عنه وإن كرَّره وأعاده، وكثير من عُشّاق اليوم لا يجدون في مقابل حبهم غير الهجر والصدود، وذلك حين يكون الحب من جانب واحد، فكيف إذا كان حب الآخر لك أكبر وعاطفته أرق وبذله من أجلك أعظم؟!

كيف تنسى رسولك ولا تذكره؟!



وذكرك لرسول الله ﷺ عن طريقين:

الأول: الصلاة عليه:

أمرنا الله لنا في كتابه بالصلاة على نبيه ﷺ بطريق مباشر وغير مباشر.

الأمر غير المباشر:

قال الله في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٥٦].

أخبرنا الله أن الله وملائكته يصلون على النبي، فكيف لا نصلي نحن عليه؟!

والصيغة أتت بصيغة المضارع: ﴿يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾؛ لتدل على الاستمرار، وتدل كذلك على الاستقبال، أي: أن الله جل جلاله وملائكته يصلون على النبي ﷺ وقت نزول الآية، ومستقبلا وحتى قيام الساعة.

وفُسِّرت صلاة الله عليه بالمغفرة وبالرحمة، لكن الإمام ابن القيم ردَّ هذا الرأي في كتابه (جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام)، فقال:

«بل الصلاة المأمور بها فيها -يعني في آية سورة الأحزاب- هي ثناء عليه، وإظهار لفضله وشرفه، وإرادة تكريمه وتقريبه؛ فهي تتضمَّن الخبر والطلب.

وسُمِّي هذا السؤال والدعاء منا صلاة عليه لوجهين:

أحدهما: أنه يتضمّن ثناء المصلي عليه، والإشادة بذكر شرفه وفضله، وإرادة ومحبة ذلك من الله، فقد تضمنت الخبر والطلب.

والوجه الثاني: أن ذلك سُمِّي صلاة منا لسؤالنا من الله أن يصلي عليه، فصلاة الله عليه: ثناؤه لرفع ذكره وتقريبه، وصلاتنا نحن عليه: سؤال الله تعالى أن يفعل ذلك به».

فمقصود الصلاة على النبي ﷺ التقرب إلى الله بامتثال أمره، وقضاء بعض حق النبي ﷺ علينا، فأرشدنا الله سبحانه وتعالى لما علم عجزنا عن مكافأة نبينا ﷺ إلى الصلاة عليه.



الأمر المباشر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦].

لما أمرنا ربنا: صلوا عليه، قلنا: اللهم صل عليه، مع أن مقتضى ظاهر الآية أن نقول: اللهم إنا نصلي على نبيك، لكننا لا نقول ذلك، بل نطلب من الله سبحانه أن يصلي هو عليه، لماذا، وما السر في هذا؟!

والجواب:

لأننا عاجزون على أن نوفِّي نبينا ﷺ قدره، وحتى أفضلنا وأكثرنا صلاحا لا يصلح لهذه المهمة، ولا يوفي نبينا قدرَه إلا الله سبحانه وتعالى.

ولذا فصلاتنا عليه ليست دعاء له أو شفاعة له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله ﷺ، لكنها ثناء نكِل كيفيته إلى الله سبحانه، فنقول لربنا: اللهم صلِّ على محمد.

قال الإمام الرازي:

«إذا صلّى الله وملائكته عليه، فأي حاجة له إلى صلاتنا؟

نقول: الصلاة عليه ليس لحاجته إليها، وإنما هو لإظهار تعظيمه، كما أن الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه، ولا حاجة له إليه، وإنما هو لإظهار تعظيمه منا، رحمة بنا، ليثيبنا عليه، ولهذا جاء في الحديث: (من صلى عليّ مرة، صلى الله عليه بها عشرا)».

من أفضال الصلاة عليه

جاء رسول الله ﷺ ذات يوم والسرور يُرى في وجهه، فقال ﷺ:

«أتاني جبريل فقال: يا محمد! أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول: إنه لا يصلي عليك من أمتك أحد صلاة إلا صليت عليه بها عشرا، ولا يُسلِّم عليك أحد من أمتك تسليمة إلا سلَّمتُ عليه عشرا، فقلت: بلى أي رب!»[١].

(١) صحيح: رواه أحمد والنسائي وابن حبان عن أبي طلحة كما في صحيح الجامع رقم: ٧١.



فرح النبي ﷺ وشوهد السرور في وجهه، لا لأنه سيربح منك شيئا، بل لأنك أنت الرابح، فأجرك على صلاتك عليه مضاعف، وستُجزَى عليه أحسن الجزاء، وماذا سيربح منك يا مسكين وقد أربحه ربه كل شيء: أعلى درجات الجنة.. الشفاعة.. مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ويؤكِّد على انتفاعك لا انتفاعه، وربحك لا ربحه جملة من الأحاديث تدور حول بعض فضائل الصلاة عليه:



1. «من صلى عليَّ حين يصبح عشرا، وحين يُمسي عشرا، أدركته شفاعتي يوم القيامة»(1).

2. وقد جعل الله من وظائف الملائكة أن تنقل إلى نبينا ﷺ ذكرنا له وتخبره بصلاتنا عليه، وتذكرنا عنده باسمنا واسم آبائنا، وما أحلى سماع صلاتنا عليه لديه، وما ألذها في أذنيه، لذا قال رسول الله ﷺ:

«أكثروا الصلاة عليَّ؛ فإن الله وكَّل بي ملكا عند قبري، فإذا صلى عليَّ رجل من أمتي قال لي ذلك الملك: يا محمد.. إن فلان بن فلان صلى عليك الساعة»(2).

(1) حسن: رواه الطبراني عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٦٣٥٧.
(2) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ١٥٣٠.



وفي لطيفة عجيبة أوردها الشيخ الشنقيطي، قال:

إن الصلاة على النبي ﷺ تُعدُّ من برِّ الرجل بأبيه، وذلك أن المَلَك الذي يبلِّغ النبي ﷺ صلاة الناس عليه يقول: «يا محمد.. إن فلان بن فلان يصلي عليك»، فيكون المرء سببا في ذكر اسم أبيه عند النبي ﷺ، وهذا من أعظم البرِّ والإحسان.

3 وثواب الصلاة عليه مضاعف عشر مرات. قال رسول الله ﷺ:

«من ذُكِرتُ عنده، فليُصلِّ عليَّ، فإنه من صلى عليَّ مرة صلى الله عليه عشرا»[1].

لكن.. ماذا تساوي صلاة العبد الفقير أمام صلاة الرب العظيم؟ كلاهما يحملان اسم الصلاة لكن بينهما أبعد ما بين السماء والأرض.

فإذا امتلأ قلبك طمعا في الثواب، ورغبت في ثواب أكبر وكفة حسنات أرجح، فأحضر قلبك ولا تنشغل بغير صلاتك على حبيبك مخلصا نقيا. قال رسول الله ﷺ: «أتاني آت من عند ربي عز وجل، فقال: من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، وردَّ عليه مثلها»[2].

4 ومن فضائل الصلاة على النبي ﷺ أن الدعاء إذا استُفتِح بها كان أرجى للإجابة، فقد قال أبو سليمان الداراني: «من أراد أن يسأل الله حاجة، فليبدأ بالصلاة على النبي ﷺ، ثم يسأله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي ﷺ، فإن الله عز وجل يقبل الصلاتين، وهو أكرم من أن يدع ما بينهما».

5 ومن فضائل الصلاة عليه: غرس محبته في القلوب، فقال ابن القيم عنها:

«إنها سبب لدوام محبته للرسول، وزيادتها وتضاعفها، لأن العبد كلما أكثر من ذكر المحبوب واستحضار محاسنه ومعانيه الجالبة لحبه تضاعف حبه له، وتزايد شوقه إليه، واستولى على جميع قلبه».

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٦٤٤٦.

(٢) صحيح: رواه أحمد عن أبي طلحة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧.



⑥ ومن فضائل الصلاة عليه تعويض ما فات من الطاعات واستدراك ما ضاع من الصالحات قبل أن يقال عنك: فلان مات!

قال ابن عطاء الله السكندري:

«ومن قارب فراغ عمره، ويريد أن يستدرك ما فاته = فليذكر بالأذكار الجامعة، فإنه إذا فعل ذلك صار العمر القصير طويلاً.

ومن فاته كثرة القيام والصيام = فليشغل نفسه بالصلاة على رسول الله ﷺ.

فإنك لو فعلت في عمرك كل طاعة، ثم صلى الله عليك صلاة واحدة = رجحت تلك الصلاة الواحدة بكل ما عملت في عمرك كله من جميع الطاعات؛ لأنك تصلي على قدر وُسْعك، وهو سبحانه يصلي على حسب ربوبيته، هذا إذا كانت صلاة واحدة، فكيف إذا صلى عليك عشرا بكل صلاة، كما في الحديث؟!».

فلا تكمل قراءتك الآن حتى تُصلي على نبيك في حضور قلب وإخلاص نية عشر مرات، ويا حبذا لو جعلتها مائة!! تنوي بذلك..

أن تزداد له حبا.

أن تنال شفاعته.

أن يرُدَّ الله عليك الصلاة بعشر صلوات.

أن يجيبك رسول الله بنفسه.

أن ترتفع في الجنة درجتك.

أن تنمحي خطيئتك.

أن تصل رحمك وتبر أباك وأمك!

أن تستدرك ما فات.

ونية أخيرة مرتبطة بقراءة هذا الكتاب: أن ينفتح قلبك أكثر وأكثر لما هو آت من الصفحات، فتزداد رغبتك وحرصك على تنفيذ ما في الكتاب وكأنها تعليمات.



وما أجمل معنى الصلاة عليه كما في تعريف الشيخ محمد الغزالي، حين حرَّر معنى الصلاة عليه من أسر الكلمات، وانطلق بها في أسمى المعاني والكمالات، فقال رحمه الله:

«إنني عندما أصلي وأسلِّم على محمد، أصِل نفسي بأشرف ما في الوجود، وأثبِّت خطوي على الطريق المستقيم، وأرتضي قيادة تحتضن الحق، وتؤثِر الرُّشد، وأعلِن أن هواي مع ما جاء به.

إن الصلاة هنا توكيد منهج، وتحمل عبء، ومشاركة قلبية وفكرية للإنسان الذي حرَّر الإنسان من الخرافة، ونقَّى الحق من الشوائب، وربط الفطرة السليمة بالوحي، وصالح بين العقل والدين، وجعل الدنيا مهادا صالحا للأخرى..

صلوا عليه وسلِّموا تسليما».

الثاني: تذكره على الدوام:

كم مرة تذكر نبيك على مدار يومك.. شهرك.. سنتك؟!

هل تذكره وسط الأعباء والأشغال؟!

هل تتوقف مع نفسك لتسألها في مواقف حياتك اليومية:

لو كان النبي ﷺ مكاني.. ماذا كان يفعل هنا؟!

ماذا كان يقول في هذا الموقف؟!

في غضبك.. في سكونك.. في فرحك.. في كربك..

مع زوجك.. مع ولدك.. مع شريكك.. مع جارك.. وهكذا حتى يعيش معك كل يوم لحظة بلحظة، وفي هذا تصحيحُ لمسارك إذا اعوجَّ، وتصرفاتك إذا انحرفت، وهو ما يُلبِس قلبك ثوب الحياء ويرده بسرعة إلى جادة الصواب.



عشرون دليل على محبة النبي

إليك عشرون علامة اقتداء، تختبر ما في قلبك تجاه نبيك من محبة ووفاء، وتستشرف بها موقعك في موكب الأتقياء:

عند حزنك واضطرابك:

١. «كان إذا حزبه أمرٌ صلى»(١).

٢. «كان إذا خاف قوما قال: اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم»(٢).

٣. «كان إذا راعه شيء قال: الله الله ربي لا شريك له»(٣).

٤. «كلمات الفرج: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم»(٤).

٥. «كان إذا نزل به هَمٌّ أو غَمٌّ قال: يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث»(٥).

عند عباداتك:

٦. تتذكر نيتك حين تخطط لعبادتك، وتضع أهدافا لطاعتك، فتذكر قوله ﷺ:

«كان إذا عمل عملا أثبته»(٦).

تطبيق نبوي عملي:

قالت عائشة رضي الله عنها: «لا تدع قيام الليل، فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض أو

---

(١) حسن: رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٧٠٣.
(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن أبي موسى كما في صحيح الجامع رقم: ٤٧٠٦.
(٣) صحيح: رواه النسائي عن ثوبان كما في صحيح الجامع رقم: ٤٧٢٨.
(٤) صحيح: رواه ابن أبي الدنيا في الفرج عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٤٥٧١.
(٥) حسن: رواه الحاكم عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٤٧٩١.
(٦) صحيح: رواه مسلم وأبو داود عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٧٥٦.



كسل صلى قاعدا».

٧. تتذكر نبيك إذا اغتررت بعبادتك، وخُدِعْتَ بمدح من حولك على عملك وطاعتك، فتذكر قوله ﷺ: «لا تُعجَبوا بعمل عامل حتى تنظروا بم يُختَم له»[١].

خطتي العبادية

صيام
قيام
قرآن
صدقة
وتر

تطبيق نبوي عملي:

مع أنه المعصوم إلا أنه قال تواضعا:

«لو يؤاخذني الله وابن مريم بما جنت هاتان -يعني الإبهام والتي تليها- لعذَّبنا، ثم لم يظلمنا شيئا»[٢].

٨. تتذكر نبيك في علاقتك بالقرآن، فتذكر أمره لأمته:

«اقرأ القرآن في كل شهر، اقرأه في عشرين ليلة، اقرأه في عشر، اقرأه في سبع، ولا تزد على ذلك»[٣].

تطبيق نبوي عملي:

كان النبي ﷺ يختم القرآن كل سبعة أيام.

٩. تتذكر نبيك في صيامك تطوعا، فتذكر قول النبي ﷺ:

«وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله»[٤].

(١) صحيح: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٣٦٦.
(٢) صحيح: رواه ابن حبان عن أبي هريرة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٦٥٦.
(٣) صحيح: رواه الشيخان وأبو داود عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ١١٥٨.
(٤) صحيح: رواه أحمد والنسائي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٧٩٤٢.



تطبيق نبوي عملي:

قال أبو الدرداء:

«خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته في حر شديد، حتى إن أحدنا ليضع يده على رأسه، أو كفه على رأسه من شدة الحر، ما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة».

١٠. تتذكر نبيك في صلاتك وخشوعك، فتطيل في صلاتك حين تكون وحدك، وتخففها لو صليتَ إماما بالناس، فتذكر قوله ﷺ:

«كان أخف الناس صلاة على الناس، وأطول الناس صلاة لنفسه»[١].

تطبيق نبوي عملي:

روى الشيخان من حديث البراء رضي الله عنه: «كان ركوع النبي ﷺ وسجوده، وبين السجدتين، وإذا رفع رأسه من الركوع، ما خلا القيام والقعود، قريبا من السواء».

عند معاملاتك:

١١. تتذكر نبيك عند معاملتك لزوجتك، وتذكر قوله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»[٢].



وهكذا يضع النبي ﷺ ميزانًا فريدًا للخيرية، لا يقوم على كثرة الصيام ولا طول القيام، بل يستمد خيريته من الإحسان إلى الزوجةِ خصوصا، والأهل عموما.

---

(١) صحيح: رواه أحمد عن أبي واقد كما في صحيح الجامع رقم: ٤٦٣٦.

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٣١٤.



تطبيق نبوي عملي:

كان النبي ﷺ يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته، مع أنه لو أراد لتسابق آلاف الصحابة على خدمته.

وسئلت عائشة: ما كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ فقالت: كان بشرًا من البشر، يَفْلِي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.

١٢. تتذكر نبيك عند معاملتك لصاحبك أو جارك، وتذكر قوله ﷺ:

«خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»(١).

تطبيق نبوي عملي:

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله.. إن فلانة يُذكر من كثرة صلاتها وصدقتها وصيامها، غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال: «هي في النار»، قال: يا رسول الله، فإن فلانة يُذكر من قلة صيامها وصلاتها، وأنها تتصدق بالأثوار من الأقط، ولا تؤذي جيرانها، قال: «هي في الجنة».

١٣. تتذكر نبيك عند معاملتك لخادمك، وتذكر قوله ﷺ:

«إن إخوانكم خَوَلُكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يديه، فليُطعِمه مما يأكل، وليُلْبِسْه مما يلبس، ولا تُكَلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»(٢).

تطبيق نبوي عملي:

خرج أنس بن مالك رضي الله عنه يوما في حاجةٍ لرسول الله ﷺ، فرأى الصبيانَ يلعبون في السوق فانشغلَ معهم؛ فاستبطأه النبي ﷺ، فخرج يبحثُ عنه، فوجدَهُ يلعبُ مع الصبيان.

قال أنس: فإذا رسول الله ﷺ قد قبضَ بقفايَ من ورائي، فنظرتُ إليه وهو يضحَك،

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والحاكم وأحمد عن عبدالله بن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٣٢٧٠.

(٢) صحيح: رواه البخاري عن أبي ذر كما في الأدب المفرد رقم: ١٨٩.



فقال: «يا أُنيس! أذهَبتَ حيثُ أمرتُك؟». فقلتُ: نعم، أذهبُ يا رسول الله!

فأي لطف ورقة في هذا النداء النبوي: «يا أُنيس» دون أن ينهره أو يوبِّخه، فضلا عن الصراخ واللوم والتعنيف.

١٤. تتذكر نبيك عند معاملتك لمن خالفك وتنازع معك، وتذكر قوله ﷺ: «يا عُقبة بن عامر: صِلْ مَنْ قَطعك، وأَعْطِ مَنْ حرَمك، واعْفُ عمَّن ظلمك»[١].

تطبيق نبوي عملي:

جاء رجل يهودي اسمه زيد بن سعنة يتقاضى دينا على النبي ﷺ، فأخذ بمجامع ثيابه، وأغلظ له، ثم قال: يا بني عبد المطلب .. إنكم قوم مُطُل، أي تماطلون في أداء الحقوق، فانتهره عمر رضي الله عنه، والنبي ﷺ يبتسم، فقال رسول الله ﷺ: أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر، تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي، فأسلم زيد بن سعنة قائلاً: «ما بقي من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في محمد إلا اثنتين لم أخبرهما: يسبق حلمُه جهلَه، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلما، فاختبرته بهذا، فوجدته كما وُصِف».

١٥. تتذكر نبيك عند معاملاتك المالية في البيع والشراء، وتذكر قوله ﷺ:

«رحم الله عبدًا سمحًا إذا باع، سمحًا إذا اشترى، سمحًا إذا قضى، سمحًا إذا اقتضى»[٢].

أي كل من يتعامل بيسر وسهولة ولين في البيع والشراء، وإذا كان قاضيا، أي: يقضي بين الناس، ومقتضيا يعني مطالبا بحقه.

تطبيق نبوي عملي:

حكى لنا أنس رضي الله عنه ما لاقاه من النَّبي ﷺ من حسن المعاملة، فقال: خدمتُ النَّبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت؟[٣].

(١) صحيح: رواه أحمد في مسنده كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٨٩١.
(٢) صحيح: رواه البخاري وابن ماجة عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٣٤٩٥.
(٣) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٦٠٣٨.



عند أخلاقك:

١٦. تتذكره إذا انزلقت لسانك إلى هاوية الكذب، فتذكر أنه «كان أبغضُ الخلُق إليه الكذب»[١].

تطبيق نبوي عملي:

روت عائشة رضي الله عنها:

«كان إذا اطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة لم يزل معرضًا عنه حتى يُحدِث توبة»[٢].

وفي الحديث في النهي عن الكذب عن الأطفال:

«من قال لصبي: تعالَ هاك، ثم لم يعطه فهي كذبة»[٣].

١٧. تتذكره عند غضبك، وحين يطيح الغضب برجاحة عقلك، وتذكر وصيته:

«لا تغضب ولك الجنة»[٤].

تطبيق نبوي عملي:

جاء في وصف النبي ﷺ:

«ولا تُغْضِبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تُعُدِّيَ الحق لم يَقُم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها».

١٨. تتذكره حين تُواجَه بخيانة، فلا





(١) صحيح: رواه البيهقي عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٦١٨.
(٢) صحيح: رواه أحمد والحاكم عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٦٧٥.
(٣) صحيح: رواه أحمد عن أبي هريرة كما في مسند أحمد رقم: ٩٥٢٦.
(٤) صحيح: رواه ابن أبي الدنيا عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٧٣٧٤.



تقابلها بمثلها، وتذكر وصية النبي ﷺ:

«أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»(١).

تطبيق نبوي عملي:

قال النضر بن الحارث لقريش يوما:

«قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم، قلتم إنه ساحر، لا والله ما هو بساحر».

١٩. تتذكر نبيك عند انكشاف عيب مسلم، فتتذكر قول نبيك ﷺ:

«من ستر أخاه المسلم في الدنيا، ستره الله يوم القيامة»(٢).

تطبيق نبوي عملي:

جاء رجل اسمه هَزَّال بن رئاب إلى ماعز الأسلمي بعد وقوعه في الزنا، وأشار على ماعز أن يأتي النَّبي ﷺ فيخبره، فقال له النَّبي ﷺ:

«يا هَزَّال، لو سَتَرْتَه بردائك، لكان خيرًا لك».

قال ابن عبد البر: «وفي هذا الحديث من الفقه: أنَّ السَّتْر أولى بالمسلم على نفسه -إذا وقَّع حدًّا من الحدود- من الاعتراف به عند السُّلطان، وذلك مع اعتقاد التَّوبة والنَّدم على الذَّنب، وتكون نيَّته ومعتقده ألَّا يعود، فهذا أولى به من الاعتراف، فإنَّ الله يقبل التَّوبة عن عباده، ويحبُّ التَّوَّابين».

٢٠. تتذكر نبيك عندما تتلقى إساءة من أخ لك، فتتذكر قول نبيك ﷺ:

«إن الله تعالى عفوٌّ يحب العفو»(٣).

(١) صحيح: رواه أبو داود والترمذي والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٤٠.
(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٦٢٨٧.
(٣) حسن: رواه الحاكم عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ١٧٧٩.



تطبيق نبوي عملي:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله.. كم نعفو عن الخادم؟ فصمت، ثم أعاد عليه الكلام فصمت، فلما كان في الثالثة قال:

«اعفوا عنه (يعني الخادم) في كل يوم سبعين مرة»(١).

كيف تميِّز بين الحق والباطل في زمن غُربة الدين؟!

قال سفيان بن عيينة:

«إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر، فعليه تُعرَضُ الأشياء، على خُلُقه وسيرته وهديه، فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل».

دور مرآة النبوة أن تتفقد فيها هيئتك الإيمانية لتعديل أعمالك وأحوالك

هذه مرآتك التي تنظر إليها من وقت لآخر، لتتفقد هيئتك الإيمانية.

وتراجع شكل قلبك وتراه على حقيقته بلا رتوش.

فكثيرا ما تنال منك عواصف الأهواء وغبار الشهوات والشبهات..

فيسوء منظر قلبك أمام الله وأمام الملائكة.

لذا تحتاج دائما لإعادة النظر في مرآة (النبوة).

لتعدِّل من هيئتك وعبادتك وتصرفاتك.

فترجع -كما أرادك الله- أشبه ما تكون بنبيك محمد ﷺ.

---

(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٤٨٨.



٦. عدم التقدم عليه

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

والمعنى:

لا تقضوا بخلاف أمر الله وأمر رسوله، وفي ذكر اسمي السميع العليم -بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله حث على امتثال تلك الأوامر، وترهيب عن عدم الامتثال.

قال ابن القيم: «وهذا الأمر فرض باق على الأمة إلى يوم القيامة -مثل طاعته ﷺ حيا وميتا- فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته ﷺ كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذوي العقول السليمة، فالأدب كل الأدب معه ﷺ في تقديم سنته وأقواله على كل قول أو رأي».

ومعنى هذا أنه إذا تعارض أمر أحد مع أمر رسول الله ﷺ، فرأي غيره تحت الأقدام، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق أو معصية نبي هذا الخالق!!

المتبرجة.. آكل الربا.. الظالم.. المعتدي.. المتحاكم إلى غير شرع الله.. كل هؤلاء قدَّموا أهواءهم وشهواتهم على أمر الله ورسوله.

وقد نهانا الله عن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ، وأمرنا بعدم الجهر له بالقول مخافة حبوط العمل، لما في ذلك من الجفاء والإيذاء لنبيه، فكذلك رفع الأصوات عند قبره ﷺ في حكم رفع الصوت عنده في حياته؛ لأن حرمة النبي ﷺ ميتا كحرمته حيا.

وقد يكون رفع الصوت على صوته بمخالفة أمره واتباع غيره، ولهذا في قراءة أخرى: ﴿لَا تَقَدَّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، من التقدُّم، أي لا تسبقوا رسول الله، فالمطلوب أن تسيروا خلفه وتتبعوه، في حياته وبعد موته اقتداء واتباعا، ومَنْ أشرف وأكرم وأحب وأغلى من رسول الله حتى تقدِّم أمره على أمر رسولك؟!



واسمع كيف فهم الإمام الشافعي هذه الآية ثم عمل بها؟!

قال الحُمَيْدي: «كنا عند الشافعي رحمه الله فأتاه رجل، فسأله في مسألة؟ فقال: قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال رجل للشافعي: ما تقول أنت؟! فقال: سبحان الله! أتراني في كنيسة! أتراني في بيعة! أترى على وسطي زُنَّارا؟! أقول لك: قضى فيها رسول الله ﷺ وأنت تقول: ما تقول أنت؟!». وقال الربيع بن سليمان صاحب الشافعي:

سمعت الشافعي، وقد روى حديثا، فقال له بعض من حضر: تأخذ بهذا؟ فقال:

«إذا رويتُ عن النبي ﷺ حديثا صحيحا، فلم آخذ به، فأنا أُشهِدكم أن عقلي قد ذهب».

واعلم أن كلام النبي ﷺ المأثور عنه بعد موته في الرفعة والمقام مثل كلامه المسموع منه حيا، فإذا قرئ كلامه عليك وجب عليك أن لا ترفع صوتك عليه وتصغي له بأذنك وجوارحك، كما كان يلزمك ذلك في مجلسه إذا تلفظ به أمامك. قال الإمام الحافظ حَماد بن زَيد في قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات:٢]: «أرى رفع الصَّوت عليه بعد موته كرفع الصَّوت عليه في حياته؛ إذا قُرِئ حديثه، وجب عليك أن تنصِتَ له كما تنصِتُ للقرآن».

بين عمر وابنه وحفيده!

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لا تمنعوا النساء من الخروج إلى المساجد بالليل».

قال ابن لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما واسمه بلال: والله لنمنعهن، لا ندعهن يخرجن فيتخِذْنَه دغلا (والدغل هو الفساد والخداع والريبة)، فغضب عبد الله غضبا شديدا، فأقبل عليه، فلطم صدره، وسبَّه سبا سيئا، ما سبَّه مثله قط، وقال: أُخبِرك عن رسول الله ﷺ وتقول: والله لنمنعهن! قال: فما كلَّمه عبد الله حتى مات!

لقد اجتهد الابن فأخطأ، لأنه رأى المفسدة في إجابة طلب النساء، ورأى المصلحة في منعهن، فقصده صحيح لكنه أخطأ برد الحديث، ولعله قال ذلك لما رأى فساد بعض النساء في ذلك الوقت، أو حملته على ذلك الغَيْرَة، فمنعه أبوه من الكلام، وهجره حتى مات!



وأما موقف الجدّ وهو الفاروق فكان مخالفًا لموقف الحفيد، فقد روى ابن عمر أن امرأة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت تشهد صلاة الصبحِ والعِشاء في الجماعة في المسجد، فقيل لها: لم تخرجين وقد تعلمين أنَّ عمر يكره ذلك ويغار؟ قالت: وما يمنَعُهُ أن يَنهاني؟ قال: يمنعه قولُ رسول الله ﷺ:

«لا تمنعوا إماء الله مساجد الله».

فما كان لعمر أن يقدّم هواه وغيرته على قول رسول الله ﷺ، بل قدَّم رسول الله على رأيه وهواه.



٧. غضبك لغضب الحبيب:

من صدقت محبته لحبيبه غضب لما أغضبه، وحزن لحزنه، وإلا كانت المحبة حبرًا على ورق وادعاء لا حقيقة، ولنقف وقفات مع غضبة النبي ﷺ:

هل غضب النبي يوما لنفسه؟ هل ثأر لها؟! حاشاه وإنما كان غضبه لله، فإذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شيء!!

فهل تقتدي به في ذلك؟ هل أنت تقي الغضب؟!

بمعنى أنك وإن بلغ منك الغضب منتهاه لا تندفع بفعل يُغضِب الله ورسوله؟!

إن المحبة ليست كلمات وأناشيد بل عواطف تأسر القلوب وتمتلك الجوارح، فتوجهها وفق ما يريد الحبيب.

قال الصحابي قيس بن صِرْمَة الأنصاري:

فلما أتانا واستقرت به النوى ... وأصبح مسرورا بطَيْبَة راضيا
بذلنا له الأموال من حِلِّ مالنا ... وأنفسنا عند الورى والتآسيا
نعادي الذي عادى من الناس كلهم ... جميعا وإن كان الحبيبَ المصافيا
ونعلم أن الله لا ربَّ غيره ... وأن رسول الله أصبح هاديا



فهذه دلائل محبة الصحابة لنبيهم وشهود إثباتها؛ يعادون من يعادي رسول الله ﷺ، ويدافعون عنه بالنفس والمال.

عن عائشة أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، فأُتِي بها إلى رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فلما كلمه تلوّن وجه رسول الله ﷺ فقال:

أتشفع في حد من حدود الله؟! فقال له أسامة:

استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ، فأثنى على الله عز وجل بما هو أهله، ثم قال:

«أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم: أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[١].

غضب النبي ﷺ وتلوّن وجهه حين رأى أسامة يسعى في شفاعة محرمة، لأن فيها إضاعة الحقوق وخدش حق المساواة بين الناس ونصب ميزانٍ للتفاضل غير ميزان التقوى، وجدير بكل محب صادق لنبيه أن يغضب حين يرى مثل هذا اليوم، فينطلق آمرا بالمعروف وهو هنا المساواة في إقامة الحقوق، ناهيًا عن المنكر وهو هنا التمييز بين الناس والمحسوبية.

بعث الرسول ﷺ واليا يجمع صدقات قبيلة الأزد، فلما جاء إلى الرسول ﷺ أمسك بعض ما معه، وقال: هذا لكم وهذا لي هدية، فغضب النبي ﷺ، وقال: ألا جلست في بيت أبيك وبيت أمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقا، ثم قال:

«ما لي أستعمل الرجل منكم فيقول: هذا لكم وهذا أُهدي إلي.. ألا جلس في بيت أمه ليُهدَى له، والذي نفسي بيده.. لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حق إلا أتى الله ليحمله يعني يوم القيامة، فلا يأتين أحدكم يوم القيامة ببعير له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تَيْعِرُ، ثم رفع يديه حتى رئي بياض إبطيه، ثم قال: اللهم هل بلغت؟!»[٢].

---

(١) صحيح البخاري رقم: ٤٣٠٤.
(٢) صحيح البخاري رقم: ٢٥٩٧.



كل من قبض رشوة صغرت أو كبرت.. ستأتي مجسمة محسوسة كهيئتها يوم دُفِعت إليه..

سيُعاد المشهد مرة أخرى لكن ليس اليوم..

بل يوم القيامة..

حين يرفع الحجاب وينكشف المرتشون..

وكل من أكل مالاً حرامًا واستمتع به، سينال عقوبته في الآخرة، وسيُفضح بين العباد، وبعد الفضيحة سيصلى جهنم وبئس المهاد، ولا فارق في اللعن بين الراشي والمرتشي: لعن الله الراشي والمرتشي.

عن أبي مسعود أن رجلاً قال: والله يا رسول الله.. إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا، فما رأيت رسول الله ﷺ في موعظة أشد غضبًا منه يومئذ، ثم قال:

«إن منكم منفِّرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة»[1].



- بالتشدد في دين الله.
- باختيار العسر على اليسر.
- بالأخلاق السيئة.
- بنقض العهد.
- بإخلاف الوعد.
- بالإهمال في العمل.
- بسوء معاملة الزوجة والأولاد.

ويتضاعف التنفير ويتفاقم أثره لمن عُرِف بين الناس بتدينه والتزامه حتى جعلوا منك نموذج المسلم القدوة، رافع لواء الإسلام في مكانه الذي هو فيه.

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٧٠٢.



٨. وفرحك لفرح الحبيب

عن جرير قال: كنا في صدر النهار عند رسول الله ﷺ، فجاءه قوم عُراة مجتابي (لابسي) النمار (ثياب صوف) أو العباء (جمع عباءة)، متقلدي السيوف عامتهم من مُضَر، بل كلهم من مضر، فتمعَّر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل، ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام فصلى ثم خطب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ إلى آخر الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، وقرأ الآية التي في الحشر ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾، ثم قال:

تصدَّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره، حتى قال ولو بشق تمرة، فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت. قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله ﷺ:

من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء[1].

وفرح رسول الله ﷺ هنا عائد إلى أمرين:

② ابتداء الخير:

فلتكن أول من يبادر إلى المعروف، فيقتدي بك من يراك ويعمل مثل عملك، لتنال مثل أجر العامل، كما فعل هذا الصحابي مجهول الاسم معلوم



(١) صحيح: صحيح مسلم رقم: ١٠١٧.



القدر عند الله، فقد ابتدأ بنفسه، ثم تتابع الناس من بعده، فلوكنتَ صاحبه في المبادرة، لحرَّكت المياه الراكدة، واستنهضت الهمم الخامدة..

- بإنفاق.
- بتصدي لبذل.
- بكلمة حق.
- بإحياء سنة.
- بنشر معروف.
- بملاحقة منكر..

ليفرح بك الحبيب كما فرح بهذا الصحابي.

② إظهاره وإبرازه:

حين تكون هذه السنة مجهولة تخفى على الكثيرين الناس أو مهجورة لا يعمل بها أحد، فتُظهرها أنت منبِّهًا من جَهَلها أو هَجَرها، فتحيي سنة من سنن الحبيب اندثرت أو كادت، وفي هذا إشارة إلى ضرورة بروز القدوات الصالحة وتصديهم للتأثير في مشاعر الناس وعقولهم، بعد أن غزاها المفسدون بالتافهين والنكرات، ولسان الحال دوما كان أفصح من لسان المقال.

والآن..

أرني كيف ستسعد نبيك وتدخل الفرحة على قلبه بعد قراءة هذه الصفحات يا هُمام؟!





قدّمتُ لحياتي

القبـــر

السؤال الأول: لماذا الحديث عن القبر؟!

السؤال الثاني: ما أدلة عذاب القبر؟ وكيف عرف به الصحابة؟!

السؤال الثالث: هل عذاب القبر على الروح والبدن أم على الروح فقط؟

السؤال الرابع: حدِّثني عن نعيم القبر!

السؤال الخامس: ما فرص التعويض أو الدور الثاني لامتحان الحياة!

السؤال السادس: لم لا نسمع عذاب القبر؟! وهل هناك من يسمعه؟!

السؤال السابع: ما أسئلة القبر الثلاثة؟!

السؤال الثامن: ما ضمة القبر؟!

السؤال التاسع: ما أسباب عذاب القبر؟!

السؤال العاشر: ما المنجيات من عذاب القبر؟!

السؤال الحادي عشر: هل تُعرَض أعمال الأحياء على الأموات؟!



لماذا الموت؟

وما سبب الفراق؟

وسر الانتقال من دار معلومة إلى أخرى مجهولة؟

هذه التساؤلات تأملها ابن الجوزي، ثم أجاب عنها بعد طول تفكُّر، فقال:

«الحكمة في الموت:

وضع عماد المتكبرين، وتنغيص حياة المترفين، وتكذيب ظنون الآملين، وتنبيه عقول الغافلين، وإزعاج قلوب المطمئنين، ورفع أيدي المتسلِّطين، وتخفيف أثقال العبادة عن العاملين، وفوز المحبين بلقاء من كانوا إليه مشتاقين.

ولو لم يكن في الموت إلَّا أنه قضاء رب العالمين، لكان الرِّضا به فرضا لازما لجميع المؤمنين.

الموت انقطاعٌ عن دار الفناء، واتصالٌ بدار البقاء، وخروجٌ من دار العمل، ودخولٌ في دار الجزاء.

الموت راحة المسيء والمحسن، أما الْمُسِيء فينقطع عنه استمرار طغيانه، وأما المحسن



فيفضي إلى دار الجزاء على إحسانه.

الموت فيه لقاء الأحباب، وإحراز الثَّواب، فليس يكرهه إلا مريب مرتاب.

الموت يشتاقه البَرُّ المطيع؛ لأنه يُفْضي إلى زلفى وحسن مآب، ويحيد مِنْهُ كافر أو فاجر قد يخاف بعده سخطه وعقاب».



أولًا: أول منازل الآخرة

عن هَانِئ مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه قال:

كان عثمان بن عفان إذا وقف على قبر يبكي حتَّى يَبُلَّ لحيته، فقيل له: تَذْكُر الْجَنَّة والنَّار ولا تبكي، وتبكي من هذا؟ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ القبر أوَّل منازل الْآخرة، فإن نجا منه، فما بعده أَيْسَرُ منه، وإنْ لم يَنْجُ منه، فما بعده أَشَدُّ منه»[1].

وهذا دليل على أن عذاب القبر أهون كثيرًا من عذاب النار، وأن عذاب النار هو أشد العذاب.

كانوا يرون القبر أول محطة أخروية، والبدايات تدل على النهايات، وتعطي المؤشَّرات على ما هو آت، ولذا لما خرج الحسن البصري في جنازة أخ له، ومُدَّ الثوب على القبر، جاء صِلَة بن أَشْيَم حتى رفع الثوب، ثم قال: يا فلان..

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا أخالُك ناجيا

ثانيًا: وحشة الدنيا وغربتها

تنقطع بلقاء الأصحاب والإخوان، وأما وحشة القبر فلا دواء لها إلا بالعمل الصالح وعُدَّة الإيمان، فمن تجهَّز اليوم آنس وحشة القبر في الغد!

(١) حسن: رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم عن عثمان بن عفان كما في صحيح الجامع رقم: ١٦٨٤.



قال الحسن:

«رحِم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس.

ابن آدم.. إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتُبْعَث وحدك، وتحاسب وحدك..

ابن آدم.. وأنت المعنيُّ، وإياك يُراد».

ثالثًا: لأن القبر زيارة:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، ثم ينطلق منها الزائر إلى منزله، إما الجنة وإما النار.

وتأمل كيف جعل الله حياتهم في القبر مجرد زيارة لا استيطانًا، فهم في المقابر مستودَعون لفترة من الزمن، قبل أن يرحلوا إلى دار القرار، ويسكنوا الجنة أو النار.

وإذا كانت الإقامة في القبر -على طول المكث فيه- مجرد زيارة، فماذا تُسَمَّى الحياة الدنيا وهي أقصر بكثير من ذلك؟ ماذا تساوي دنياك في أخراك؟ هل هي إلا قطرة ماء في بحر ما ينتظرك هناك؟ فما ألهاك!

الدنيا قطرة في بحر الآخرة

سمع الحسن البصري رجلا يسأل رجلاً آخر في جنازة:

من هذا الميت؟

فقال الحسن:

«هذا أنا وأنت! إنهم محبوسون (في قبورهم) على آخرنا، حتى يلحق آخرنا بأولهم».

ووعظنا الخليفة الراشد التقي الزاهد عمر بن عبد العزيز، فقال:

«أهل القبور محبوسون، نَدِموا على ما قدَّموا، وأهل الدور منتظرون، يقتتلون على ما عليه أهل القبور متندِّمون، فلا هؤلاء (الموتى) إلى هؤلاء (الأحياء) يرجِعون، ولا هؤلاء (الأحياء) بهؤلاء (الموتى) معتبِرون».



رابعًا: إعداد مهاد القبر:

قال ابن الجوزي:

«الطَّائِر إذا علم أن الْأُنْثَى قد حملت، أخذ ينْقل العيدان لبِنَاء العش قبل الْوَضع، أفتراك ما علمتَ قرب رحيلك إلى القبر؟!

فهلا بعثت لك فِراش تقوى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾».

ما أحدٌ أكرمُ من راقـــدٍ   في قبره أعماله تؤنِسُـــــه
منعَّمٌ في القبر في روضــةٍ   ليس كعبدٍ قَبرُه مخْبَسُه

> رزق الدنيا مضمون، ودخول الجنة غير مضمون، فلهثنا خلف المضمون على حساب غير المضمون، وسعينا وراء أرزاق الدنيا بقهر الأعذار، لكن مع أرزاق الآخرة تسويف واعتذار.



أخي.. أختي..

كل منا له بيتان، بيت على ظهر الأرض، وبيت في باطنها، أفنعمد إلى الذي على الأرض فنجهِّزه ونزيِّنه، ومقامنا فيه قليل، ثم نعمد إلى الذي في باطن الأرض فنخرِّبه، وفيه مقامنا الطويل، كيف تطيب نفس عاقل بهذا؟!

خامسًا: خير رفيق في حفرة القبر العميق!

قال بعض السلف:

«نظرتُ إلى الخلق؛ فإذا كل شخص له محبوب، فإذا وصل إلى القبر فارَقه محبوبه؛ فجعلتُ محبوبي: حسناتي؛ لتكون معي في قبري».



سادسًا: القبر بداية حياتك الحقيقية!

ليس الموت نهاية بل مجرد بداية. قال إبراهيم بن أدهم:

«دارنا أمامنا، وحياتنا بعد موتنا، إما الجنة، وإما إلى النار».

سابعًا: القبر أقوى داعٍ للإصلاح

قال مصطفى صادق الرافعي: «ينادي القبر: أصلحوا عيوبكم، فإن جاءت إلى هنا كما هي، بقيَتْ كما هي إلى الأبد».

ثامنًا: أهم فوائد تذكر القبور

① مفتاح رياض الجنة:

قال سفيان الثوري: «من أكثر ذِكْرَ القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومن غفل عنه وجده حفرة من حفر النار».

② توسيع عيش الدنيا:

وقال عمر بن عبد العزيز:

«أكثر ذكر الموت، فإنك لا تذكره وأنت في ضيق من العيش إلا وسَّعه عليك».

والمعنى: مهما كنت في ضيق وشدة، فإن ذكر الموت يهوِّن عليك ذلك كله.

فالموت يقطع فقر الفقير، ومرض المريض، وألم المكروبين، ونعيم المترفين.

وبعد الموت للصالحين نعيم ليس كمثله نعيم، يبدأ من حفرة القبر وحتى عبور الصراط إلى جنات عدن، فبدِّد ألم المتاعب والمشاق بذكر الموت والفراق.

③ القبر رادع عن الظلم:

قيل لعمر بن عبد العزيز: ما كان بدأ إنابتك؟ قال: أردت ضرب غلام لي فقال: يا عمر.. اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة (يعني القبر).

④ الطاعات تتفرع عن ذكر الموت والقبور، والمعاصي تتفرع من نسيانهما.





هل تعلم أن بعض العقائد المعروفة لدى المسلمين اليوم لم يعرفها في زمن النبي ﷺ إلا قلة، ومنهم أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ، ومن هؤلاء: عائشة رضي الله عنها، فقد علمت عن عذاب القبر-أول مرة- من امرأة يهودية!

واسمع إليها تقول: «جاءت يهودية فاستطعمت على بابي، فقالت: أطعِموني، إنَّ أهل القبور يُعذَّبون في قبورهم، أعاذك الله من عذاب القبر»[1].

وفي رواية أحمد: أن يهودية كانت تخدمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئًا من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر، قالت عائشة: فكذَّبتُها، فخَرَجَتْ، ودخل عليَّ رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله..

(١) صحيح: رواه أحمد كما في المسند رقم: ٢٥١٣٣.



إن عجوزا من عُجُز يهود المدينة دخلت عليَّ، فزعمت أن أهل القبور يعذَّبون في قبورهم، أيُعَذَّب الناس في قبورهم؟

قالت: فارتاع رسول الله ﷺ، فقام فرفع يديه مدًّا، يستعيذ بالله من فتنة الدجال، ومن فتنة عذاب القبر.

ولم يخبر الرسول ﷺ عامة الناس بعذاب القبر إلا في خطبته عند كسوف الشمس، وقد وافق ذلك موت ابنه إبراهيم عن ثمانية عشر شهرا، وكان هذا في السنة العاشرة من الهجرة، وهو أمر -كما ترى- متأخر جدا، ففي حديث أسماء في الصحيحين أنه ذكر في خطبته عند كسوف الشمس عذاب القبر، وفتنة القبر، فقال: «ولقد أوحي إليَّ أنكم تفتنون في قبوركم مثل أو قريبا من فتنة المسيح الدجال»[1].

وبهذا تعرف فضل الله علينا بأن بلَّغنا كل ما يتعلق بمصيرنا غدا وأحوال الآخرة مما لم يعلمه كثير من الصحابة إلا متأخرا، مما يضاعف الحجة علينا، ويحثنا على البذل والعمل.

لقد بلغهم عذاب القبر، فضجّوا وفزعوا من هول ما سمعوا، فقد أخرج البخاري عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: «قام رسول الله ﷺ خطيبًا، فذكر فتنة القبر التي يُفْتَن بها المرء، فلما ذكر ذلك ضجَّ المسلمون ضجة»[2].

وزاد النسائي: ضجَّ المسلمون ضجَّة حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله ﷺ، فلما سكنت ضجَّتهم قلت لرجل قريب مني: أي بارك الله فيك، ماذا قال رسول الله ﷺ في آخر قوله؟ قال: «قد أوحي إليَّ أنكم تُفتَنون في القبور قريبا من فتنة الدجال»[3].



الدليل الثاني:

قال تعالى عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ

(١) صحيح: روه الشيخان كما عن أسماء بنت أبي بكر كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٢٢.
(٢) صحيح: رواه البخاري عن أسماء بنت أبي بكر كما في صحيح البخاري رقم: ١٣٧٣.
(٣) صحيح: رواه النسائي كما في سنن النسائي رقم: ٢٠٦٢.



﴿آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

قال ابن كثير:

«وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور».

ولذا خصَّ بعض كبار الصحابة هذين الوقتين (الغدو والعشي) بالتحذير من عذاب القبر، فروى ميمون بن مهران أن أبا هريرة ﷺ كان إذا أصبح ينادي:

أصبحنا والحمد لله، وعُرِض آل فرعون على النار، فلا يسمعه أحد إلا تعوَّذ بالله من النار.

وقال محمد بن سيرين:

«كان أبو هريرة ﷺ يأتينا بعد صلاةِ العصرِ، فيقول:

عرجت ملائكةٌ، وهَبَطتْ ملائكةٌ وعُرِضَ آل فرعونَ على النارِ، فلا يسمعُه أحد إلا تعوَّذ بالله من النار».

لكن البعض عارض أن هذه الآية تدل على عذاب القبر بأن الآية مكية، وقد سبق الحديث عن تأخر إخبار النبي ﷺ عن عذاب القبر، فكيف الجمع بينهما؟

أجاب عن هذا الإمام ابن كثير بأن آية سورة غافر دلَّت على عرض الأرواح على النار غدوًا وعشيًا في البرزخ، وليس فيها دليل على اتصال تألمها بالأجساد في القبور، إذ قد يكون ذلك مختصًا بالروح فقط، فأما حصول ذلك العذاب للجسد في البرزخ وتألمه بسببه، فدلَّت عليه الأحاديث بعد ذلك.

وأجاب كذلك بجواب آخر:

أن هذه الآية إنما دلت على عذاب الكفار في البرزخ، ولم تخبر بعذاب المؤمن في قبره، والذي أخبر به النبي ﷺ متأخرًا.

ولذا جاء في بعض الأخبار أن النبي ﷺ أنكر عذاب المؤمنين في قبورهم أولا حتى أخبره الوحي بذلك..



ففي مسند أحمد كما مر بك من حديث عائشة مع اليهودية أن اليهودية كانت تدعو لعائشة:

وقاك الله عذاب القبر، فلما أخبرت عائشة النبي ﷺ بذلك قال:

«كذبت يهود، وهم على الله عز وجل أكذب، لا عذاب دون يوم القيامة».

إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع ولا نقول إلا ما يرضي الرب

قالت: ثم مكث بعد ذاك ما شاء الله أن يمكث، فخرج ذات يوم نصف النهار مشتملاً بثوبه، محمرة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته:

«أيها الناس، أظلتكم الفتن كقطع الليل المظلم، أيها الناس، لو تعلمون ما أعلم بكيتم كثيرا وضحكتم قليلا، أيها الناس، استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق»[1].

فأنكر النبي ﷺ على اليهودية عذاب القبر، ثم أُعلِم به بعد حين، فأَعلَم به الناس.

فائدة!



سئل شيخ الإسلام ابن تيمية: عن بكاء الأم والإخوة على الميت: هل فيه بأس على الميت؟

فأجاب:

«أما دمع العين، وحزن القلب، فلا إثم فيه؛ لكن الندب والنياحة منهي عنه، وأي صدقة تُصُدِّق بها عن الميت نفعه ذلك».

(١) صحيح: رواه أحمد في مسنده رقم: ٢٤٥٢٠.



العذاب والنعيم يقعان على الروح والبدن جميعا على الرأي الراجح، والروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وتتصل بالبدن أحيانا، فيحصل له معها النعيم والعذاب، واتصال الروح بالبدن في القبر ثابت في الأحاديث الصحيحة، فتعاد روح الميت إليه في قبره، ليُسأل عن ربه ودينه ونبيه، وهذه الإعادة ليست كاتصال الروح بالبدن في الدنيا؛ لأنها حياة برزخية خاصة، لا نعلم كُنْهَها وطبيعتها.

قال ابن تيمية:

«والأرواح مخلوقة بلا شك، وهي لا تُعدَم ولا تفنى؛ ولكن موتها مفارقة الأبدان، وعند النفخة الثانية تعاد الأرواح إلى الأبدان».

وهذا دليل على أنه ليس في الكون فناء! وإنما انتقال من دار إلى دار، ومن الحياة الدنيا إلى حياة أخرى هي حياة البرزخ.

ويظل العبد في هذه الحفرة إلى يوم البعث، ولذا قال أبو العلاء المعري:

خُلِقَ الناس للبقاء فَضَلَّت ... أممٌ يحسبونهم للنفـــاد

إنما يُنقَلون من دار أعمال ... إلى دار شقوة أو رشـــاد



حياة من نوع خاص!

لكن حياة البرزخ تختلف عن الحياة الدنيا، فأنواع الحياة التي يمر بها كل عبد ثلاثة:

- الحياة الدنيا: والغالب فيها حياة البدن، فلا يستشعر الإنسان حركات روحه ولا عروجها إلى السماء أو حركتها، وإنما يستشعر بدنه وما يصيب جوارحه من آلام أو لذائذ.

- حياة البرزخ: وتغلب فيها حياة الروح على البدن، فالبدن يأكله التراب إلا عظما واحدا، وهو عَجَب الذنب، وأما الروح فتبقى محبوسة حول القبر أو -كما في الشهداء- في حواصل طير خضر في الجنة.

- الحياة الآخرة: وهي الحياة الحقيقية التي تستوي فيها الروح والبدن:

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

تختلط في القبر الواحد عظام من هو غارق النعيم، ومن هو في غاية العذاب، فلا هذا يحس بنعيم هذا، ولا هذا يحس بعذاب هذا، وقد اختلطت عظامهما وتحللت أجسادهما في حفرة واحدة.

من شبهات الملحدين!

قد يقول قائل:

لو شاهدنا كافرا في قبره وراقبناه، لن نرى من عذابه شيئا، فلماذا يصدِّق الإنسان خلاف ما يرى؟!

طُرِح نفس السؤال على أبي حامد الغزالي، فكان مما أجاب به في سياق كلامه عن الحيات والعقارب التي يُعذَّب بها الميت في قبره: «الأظهر والأصح والأسلم أن تصدِّق بأنها موجودة وهي تلدغ الميت، ولكنك لا تشاهد ذلك، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من علم الملكوت.

أما ترى الصحابة ﷺ كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه.



ويؤمنون بأن النبي عليه السلام يشاهده، فإن كنتَ لا تؤمن بهذا، فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك.

وإن كنت آمنت به وجوَّزْت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة، فكيف لا تُجَوِّز هذا في الميت؟!

وكما أن المَلَك لا يشبه الآدميين والحيوانات، فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا، بل هي جنس آخر، وتُدرَك بحاسة أخرى».

ثم أشار إلى مقام ثانٍ يزيد به يقين الموقنين، وينتزع به شك المتشككين، فيوصيك (أن تتذكر أمر النائم، وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك، حتى تراه يصبح في نومه ويعرق جبينه، وقد ينزعج من مكانه، ويتأذى به كما يتأذى اليقظان، وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواليه حية، والحية موجودة في حقه، والعذاب حاصلٌ، ولكنه في حقك غير مشاهد، والألم واحد، لا فارق فيه بين حية تُتَخيَّل أو تُشاهَد).

ثم قال الغزالي متعمِّقًا في تفكره، ومقارنًا بين الدنيا والآخرة، فقال في ختام فترة تأمل امتدت لأشهر: «فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن، ويقال له عند ذلك: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢]».

ولذا من أصدق ما قيل: الناسُ نيامٌ، فإذا ماتوا تنبَّهوا.

سين وجيم

سين:

إذا كان الميت سيبشَّر عند موته بالجنة أو بالنار، فما سبب فزعه وخوفه عند سؤال القبر، ومن بعد القبر فزعه يوم القيامة؟!

جيم:

لكل موطن من مواطن القيامة فزعته التي تُذهِل العبد عن الحال التي كان عليها قبلها.



كان بشر بن الحارث يقول: «نِعْمَ المنزل القبر لمن أطاع الله».

ألا ما أروع نعيم المؤمن من ساعة موته إلى يوم بعثه!

يبشِّره حشدٌ عظيمٌ من الملائكة ممن حضر نزع روحه: سلامٌ عليك، سلامٌ من عند الله، وسلامٌ من الملائكة، وتناديه الملائكة بأحب أسمائه إليه، ثم يُبشِّرونه بالجنة.

ولاحِظ المعرفة المبكرة بنتيجة الامتحان، أهم امتحان!

قال محمد بن كعب: «لا يموت أحد من الناس حتى يعلم أمِن أهل الجنة هو أو أهل النار».

وهو مصداق حديث رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه»(١).

ولذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأعرف شخصًا من أصحابنا لما حضرته الوفاة جعل يقول: حبيبي ها قد جئتك، حتى خرجت نفسه، ومثل هذا كثير».

---

(١) صحيح: رواه البخاري عن عبادة بن الصامت كما في صحيح البخاري رقم: ٦٥٠٧.



ثم ينزع ملك الموت روحه، فتخرج روحه كأطيب ريح مسك وُجِدَ على وجه الأرض، ويكون خروج روحه سهلا يسيرا، فتسيل كما تسيل القطرة من فم السِّقاء، فإذا أخذها ملك الموت لم تدعها الملائكة في يده طرفة عين حتى يأخذوها، وذلك تأدُّبا معه، أو اشتياقا منهم لاستقبال روح المؤمن، فيجعلون روحه في كفن وحنوط وحرير من الجنة.

ثم يحمل الناس نعشه، فيسمع ثناء الناس عليه وهم يُسرِعون به إلى القبر، فتصيح روحه: قدِّموني.. قدِّموني..

اشتياقًا إلى ما أعدَّه الله له من نعيم، واستعجالا للخير الذي ينتظره والثواب العظيم، فيرى ما أُعِدَّ له في الجنة حتى قبل أن يصل إلى قبره.

ثم تعرج روحه إلى السماء، فتستقبله ملائكة كل سماء، فلا يمر بباب إلا فُتِح له، ولا يقابل ملَكًا إلا صلى عليه، ويصحبه بعد دخوله في كل سماء مقرَّبوها، وذلك إلى السماء التي تليها حتى ينتهي إلى السماء السابعة، حيث أقرب مكان للجنة.

اللهم اغرس اليقين في أرض قلوبنا

ثم تعاد روحه، فيأتيه ملكان يسألان، فيجيبهم عن سؤالهما عن ربه ودينه ونبيه، ثم يسمع ثناء الله عليه بعد أن أجاب: «صدق عبدي».

فوالله.. لو لم يكن ثوابه إلا ثناء رب العالمين عليه لكفاه.

وما أسعد قلب عبد يسمع صوت الملكين يبشِّرانه بنتيجة امتحانه وثمرة اجتهاده: «على اليقين كنتَ، وعليه متَّ، وعليه تُبعَث إن شاء الله».

ثم يسمع أجمل أمر يصدر من الله إلى الملائكة:

«فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابا في الجنة، وألبسوه من الجنة، فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له مد بصره».





قال النبي ﷺ: «إذا رأى المؤمن ما فُسِح له في قبره، فيقول: دعوني أُبَشِّر أهلي، فيُقال له: اسْكُن»[١].

أي لا تعجل، فكل شيء له أجل معلوم، وقدر محتوم لابد منه.

وفي حديث أنس كما في الصحيحين:

«فيقال: انظر إلى مقعدك من النار، أبدلك الله به مقعدا من الجنة، فيراهما جميعا»[٢].

أي يرى مقعده من النار ومقعده من الجنة فيزداد فرحا إلى فرح ويعرف نعمة الله عليه بتخليصه من النار..

وهذا من آيات الله المبهرة، فبينما المؤمن راقد في قبره، يرى الجنة والنار بعينيه، فتنظر أولا إلى مقعدك من النار لتعرف نعمة الله عليك في ما صرف عنك من الجحيم، فكيف إذا كان بعد هذه النجاة:

الفوز بجنات النعيم؟!

فتخيَّل كيف ستكون مشاعرك وشدة فرحتك وعظمة اشتياقك، وأنت ترى هذا الفضل العظيم؟!

وماذا بعد هذا؟!

في سنن الترمذي من حديث أبي هريرة: «ويُقال له: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»[٣].

ولا يدل هذا على أن العبد ينام النوم المعهود في الدنيا، بل أحوال القبور وحياة أهلها تختلف اختلافًا جذريًا عن أحوال الدنيا وأهلها، ولذا جاء في تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي: «وإنَّما شَبَّه نومَه بِنَوْمة العروس؛ لأنه يكون في طَيِّب العيش».

(١) صحيح: رواه أحمد والضياء عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥٧

(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والنسائي عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ١٦٧٥.

(٣) حسن: رواه الترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٢٤.



ليس الموت إذن بعَدَمٍ محض، ولا فناء صرف، وإنما هو تبدُّل حال بحال، وانتقال من دار إلى دار.

موت الصالحين عِتْق



وموت العصاة أسر

بل الموت للصالحين راحة من عناء السفر وجهد المجاهدة، كما وصفه ابن الجوزي في كتابه المدهش (المدهش):

«أول منازل الآخرة القبر، فَمن مات فقد حَطَّ رَحْل السّفر.

من كان فِي سجن التُّقى، فالموت يُطلِقُه.

ومن كان هائمًا في وادي الهوى، فالموت له حبْسٌ يوثِقه.

موت المتعبِّدين عِتْق لهم من استرقاق الكَدِّ (ومرارة الصبر)، ورفقٌ بهم من تعب المجاهدة (ومشقة البلاء).

وموت العصاة أسْرٌ يَشْقَوْن به لطول العذاب (وهول المعاناة).

من كان واثقا بالسلامة من الجِناية، فرِح بفتح باب السِّجْن».

موعظة بليغة!

لما سمع أمير المؤمنين المستضيء ابن الجوزي ينشد تحت داره:

ستنقلك المنايا عن ديــــارك ... وَيُبْدِلُكَ الردى دارا بــــدارك

وتترك مــا عُنيتَ بــــه زمانا ... وتنقل من غناك إلى افتقارك

فدود القبر في عينيك يرعـــى ... وترعى عينُ غيرك في ديــارك

فجعل المستضيء يمشي في قصره، ويقول: أي والله: وترعى عين غيرك في ديارك، ويكرِّرها ويبكي حتى الليل.

السؤال الخامس

ما فرص التعويض أو الدور الثاني لامتحان الحياة!

قَـــدَّمتُ لحيـــاتـــي

أمامك ثلاث محطات، جعلها الله لك منها فرصًا رائعة للتطهر من ذنبك، والتحرر من عقوبات شرِّك، وتفصيلها كما يلي:



المحطة الأولى: التمحيص الدنيوي:

وتمحيص ذنوب العبد في الدنيا يحصل عن طريق أربعة أشياء:

① الاستغفار:

وقد علَّمنا النبي ﷺ أن نحرص على جرعة يومية منه لا تقل عن مائة مرة، وحثَّنا على أن نستفتِح بها كل يوم، فقال رسول الله ﷺ:

«ما أصبحتُ غداة قط إلا استغفرتُ الله تعالى فيها مائة مرة»(١).

والغداة: الوقت ما بين الفجر وطلوع الشمس.

---

(١) صحيح: رواه الطبراني عن أبي موسى كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥٣٠.



ولماذا مائة؟

والجواب: لأن ذنوبنا كثيرة دورية، وذاكرتنا سمكية!

ومن هنا أوصى بكر بن عبد الله المزني:

«إنكم تُكثِرون من الذنوب، فاستكثِروا من الاستغفار، فإنَّ العبد إذا وجد يوم القيامة بين كل سطرين من كتابه اَستغفارا سرَّه ذلك».

وكلما زاد الاستغفار، زادت فرص المغفرة، وكَثُر التعرُّض لأوقات الإجابة، فقد قال لقمان لابنه:

«يا بُنَيَّ.. عَوِّدْ لسانك: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي، فإنَّ لِله ساعاتٍ لا يرُدُّ فيها سائلاً».

وأبشر! هذا الاستغفار سيجاورك في قبرك، ويحرسك بعد موتك، ويؤانسك في وحشتك.

قال أبو المنهال:

«ما جاور عبدٌ في قبره من جارٍ خيرمن استغفار كثير».

الاستغفار في كل صلاة:

عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يُكثِرأن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»[1]، يتأول القرآن، أي يفعل ما أُمِر به، أي قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾.

وعقب كل صلاة مفروضة:

فقد كان رسول الله ﷺ، إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا، فقال: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله.

وفي الأسحار:

لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

(١) صحيح مسلم: ٤٨٤.



وفي ختام كل مجلس:

لقول النبي ﷺ:

«من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك»[1].

وعند الخروج من الخلاء:

علَّمك رسولك أن تقول عند الخروج من الخلاء: «غُفرانك»، فكما مَنَّ الله عليك بطهارة جسدك، فَسَلْهُ أن يُطَهِّر قلبك من الذنوب، ويغفر لك.

وهكذا تتطهر من ذنوبك كلما أخطأت، وتبيَّض صحيفتك على مدار يومك مهما غفلت فأغواك الشيطان ففرَّطتَ.

2 التوبة

والتوبة غير الاستغفار؛ فإن التوبة عمل، والاستغفار قول.

ولذا رأينا أن كعب بن مالك رضي الله عنه أراد أن يتمِّم توبته من التخلف عن غزوة تبوك بالانخلاع من ماله لله ورسوله.

ورأينا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصدق بحائطه الذي شغله عن صلاة العصر.

وابن عمر رضي الله عنه تفوته صلاة الفريضة، فيجعل من توبته أن يصلي إلى الفريضة التي تليها تنفلا.

واسمع لهذه التوبة:

رأى علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً قد فرغ من صلاته وقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك، سريعا، فقال له: يا هذا إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين، وتوبتك تحتاج إلى توبة.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي وابن حبان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦١٩٢.



قال يا أمير المؤمنين: وما التوبة؟ قال:

«اسم يقع على ستة معان:

- على الماضي من الذنوب: الندامة.
- ولتضييع الفرائض: الإعادة.
- وردُّ المظالم إلى أهلها.
- وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية.
- وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية.
- والبكاء بدل كل ضحك ضحكته».

بُعْدٌ غائبٌ في تحقيق التوبة!

قال ابن تيمية:

«وكثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة، أو مقدماتها، أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه، أعظم ضررا عليه مما فعله من بعض الفواحش».

3 الحسنات الماحية:

وهذا من أهم أدوار الحسنات: أن تمحو السيئات وتزيل الخطيئات:

﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]:

وإذهاب السيئات يشمل أمرين:

1. محو إثمها إذا وقعت.
2. ومحو تعلق النفس بها، بحيث يصير انسياق النفس لترك السيئات أسهل.



قال الحسن البصريُّ:

«استعينوا على السيِّئات القديمات، بالحسنات الحديثات، وإنَّكم لن تجدوا شيئًا أذهب بسيئةٍ قديمةٍ من حسنةٍ حديثةٍ، وأنا أجد تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾».



ليست السيئة إذن نهاية المطاف، ولا آخر جولات الصراع مع الشيطان، بل اجعل حسناتك آخر جولات معاركك، فقد قال الله في الثناء على أهل الجنة: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد:٢٢]:

قال ابن عبَّاس في معناها:

«يدفعون بالصالح من العمل السيِّء من العمل».

وعلَّق الإمام البغويُّ على قول ابن عباس، فقال:

«وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]».

بعض الحسنات الماحية!

الأول: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:

«خصلتان، أو خلتان لا يحافظ عليهما عبد مسلم إلا دخل الجنة، هما يسير، ومن يعمل بهما قليل، يسبِّح في دبر كل صلاة عشرا، ويحمد عشرا، ويكبِّر عشرا، فذلك خمسون ومائة باللسان، وألف وخمس مائة في الميزان. ويكبِّر أربعا وثلاثين إذا أخذ مضجعه، ويحمد ثلاثا وثلاثين، ويسبِّح ثلاثا وثلاثين، فذلك مائة باللسان، وألف في الميزان»، فلقد رأيت رسول الله ﷺ يعقدها بيده.



قالوا: يا رسول الله.. كيف هما يسير ومن يعمل بهما قليل؟ قال: «يأتي أحدكم -يعني الشيطان- في منامه، فينوِّمه قبل أن يقوله، ويأتيه في صلاته، فيذكِّره حاجة قبل أن يقولها»[1].

الثاني: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الفجر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العصر غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العشاء غسلتها، ثم تنامون، فلا يُكتَب عليكم حتى تستيقظوا»[2].

الثالث: كفارة سنوية

قال رسول الله ﷺ: «من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»[3].

الرابع: كفارة عُمْرية

وذلك عن طريق الحج. قال رسول الله ﷺ: «من حجَّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[4].

4 المصائب المُكفِّرة:

لقول النبي ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»[5].

أخي الكريم..

هل تعلم أن متوسط الجروح البسيطة التي يتعرض لها الإنسان أثناء حياته هي أربعة آلاف جرح!

(١) صحيح: رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو كما في سنن أبي داود رقم: ٥٠٦٥.
(٢) صحيح: صحيح الترغيب والترهيب رقم: ٣٥٧.
(٣) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة رقم: ١٩٠١.
(٤) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ١٨٢٠.
(٥) صحيح: رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري كما في صحيح البخاري رقم: ٥٦٤١.



كل جرح منها يكفِّر من ذنوبك من حيث لا تدري، فما ألطف الله وأرحمه بمولاه.

رأى أبو الدرداء رضي الله عنه رجلاً فعَجِب من جَلَده، فقال: أما حممتَ قط (أُصبتَ بالحُمَّى)؟ قال: لا.

فقال: أما صدعت قط؟ فقال: لا.

قال أبو الدرداء: «بؤسًا لهذا، يموت بخطيئته».

وهذه أم إبراهيم العابدة تضربها دابة، فتكسر رجلها، فأتاها قوم يعزونها، فقالت لهم في رضا ممتزج بيقين:

«لولا مصائب الدنيا وردنا الآخرة مفاليس».

فإن لم تَفِ هذه الأربعة بتمحيص ذنوب العبد وتخليصه، فلم يكن الاستغفار نافعا، ولا التوبة نصوحا، ولم تكن الحسنات وافية بالتكفير، ولا المصائب كذلك، إما لعظم الجنايات، أو لخفَّة المصائب، كانت المحطة الثانية للعبد للتخلص من الذنوب عن طريق:

المحطة الثانية: التمحيص البرزخي

فمُحِّص العبد في البرزخ بأربعة أشياء:

أحدها: صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه:

وبين أيدينا هنا ثلاثة أحاديث:

الأول:

في صحيح مسلم: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلا، لا يشركون بالله شيئا، إلا شفعهم الله فيه»[1].

(١) صحيح: رواه مسلم عن عبد الله بن عباس كما في صحيح مسلم رقم: ٩٤٨.



الثاني:

في سنن ابن ماجة: قال رسول الله ﷺ:

«من صلى عليه مائة من المسلمين غُفِر له»[1].

الثالث:

في سنن الترمذي: قال رسول الله ﷺ:

«ما من مسلم يموت، فيصلي عليه ثلاثة صفوف من المسلمين، إلا أوجب»[2].

فكان مالك بن هبيرة -راوي الحديث- إذا استقل أهل الجنازة، جزَّأهم ثلاثة صفوف ليصيب الفضل المذكور في الحديث.

الثاني: ما يهدي إخوانه إليه من صالح الأعمال:

ومنه الصدقة والصيام والحج وقراءة القرآن عنه، وقد أجمع العلماء على وصول ثواب الصدقة والدعاء للميت، وما عداهما فيه خلاف، ومذهب الإمام أحمد في هذا أوسع المذاهب، حيث يرى وصول ثواب جميع القربات للميت، بَدَنيِّها وماليِّها.

قال الإمام أحمد:

«الميت يصل إليه كل شيء من الخير، للنصوص الواردة فيه، ولأن المسلمين يجتمعون من كل مصر ويقرؤون، ويهدون لموتاهم من غير نكير فكان إجماعا».

قال ابن القيم في كتاب (الروح) في بشارة رائعة:

«وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج أو قِرَاءَة، تصل إليه من بعض أقاربه أو غيرهم».

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٣٥٦.

(٢) حسن: رواه الترمذي عن مالك بن هبيرة كما في سنن الترمذي رقم: ١٠٢٨.



فإذا قرأت شيئًا من القرآن، ثم قلت: اللهم اجعل ثواب ما قرأته لفلان، فسيصل هذا الثواب له إذا تقبل الله قراءتك، وهذا أرجح قولي العلماء.

دعواتنا تصل لأمواتنا!

وقد تكون سبب تخفيف عذاب المسيئين أو رفعة درجات المحسنين، ويرى الصالحون ارتفاع درجاتهم في الجنة من قبورهم مستبشرين، ولذا كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال:

«استغفروا الله لأخيكم، وسلوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل»[1].

ولذا أوصى عمرو بن العاص رضي الله عنه بينما هو في سياق الموت:

«إذا دفنتموني فأقيموا حول قبري قدر ما تُنحَر جزور ويقسَّم لحمها، حتى أستأنس بكم، وأعلم ماذا أراجع به رُسُل ربي».

وقد شبَّه بعض العلماء الوقوف على القبر للدعاء للميت بمدد ثان للميت بعد مدد صلاة الجنازة عليه، وقالوا أن الصلاة عليه بمثابة من اجتمعوا بباب الملك يشفعون لصاحبهم، وأما الوقوف على القبر للدعاء له فهو بمثابة مدد إضافي.

وقد رأى حاتم الأصم أن مرورك بالقبور مع عدم دعائك لأهلها لون من ألوان الخيانة لهؤلاء الأموات، حيث بخلت عنهم بأعظم الهبات: بعض الدعوات، فقال رحمه الله:

«من مرَّ بفناء القبور، ولم يتفكر في نفسه، ولم يدْعُ لهم، فقد خان نفسه وخانهم».



(١) صحيح: رواه الحاكم عن عثمان كما في صحيح الجامع رقم: ٩٤٥.



واسمع ما ترجم به المؤرِّخ المقريزي لزوجته التي توفيت في عمر الشباب، فقد حكى عن رؤيا مؤثرة رآها لها في المنام، فقال:

«واتفق لي أني كنتُ أكثر من الاستغفار لها بعد موتها، فأريتُها في بعض الليالي، وقد دخلت عليَّ بهيئتها التي كفَّنتُها بها، فقلت لها -وأنا أعرف أنها ميتة-:

يا أم محمد.. الذي أرسله لك يصل؟! أعني: استغفاري لها.

قالت: نعم، في كل يوم تصل هديتك إليَّ، ثم بكت وقالت: قد علمتَ أني عاجزة عن مكافأتك، فقلتُ لها: لا عليك، عما قليل نلتقي».

ما أفضل ما يُهدَى للميت؟!

قال ابن القيم:

«الأفضل ما كان أنفع في نفسه، فالعتق عنه والصدقة أفضل من الصيام عنه.

وأفضل الصدقة: ما صادفت حاجة من المتصدَّق عليه، وكانت دائمة مستمرة.. ومنه قول النبي ﷺ: «أفضل الصدقة سقي الماء»، وهذا في موضع يقل فيه الماء، ويكثر فيه العطش، وإلا فسقي الماء على الأنهار لا يكون أفضل من إطعام الطعام عند الحاجة.



وكذلك الدعاء والاستغفار له، إذا كان بصدق من الداعي وإخلاص وتضرع، فهو في موضعه أفضل من الصدقة عنه».

الثالث: الحسنات الجارية:

ما أروع أن يموت العبد دون أن يتوقف جريان حسناته، وارتقاء درجاته.



قال رسول الله ﷺ: «سبعٌ يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته:

من عَلَّم علما، أو أجرى نهرا، أو حفر بئرا، أو غرس نخلا، أو بنى مسجدا، أو ورَّث مصحفا، أو ترك ولدا يستغفر له بعد موته»[(١)].

أَضِف إلى هذه السبعة اثنان رواهما ابن ماجة:

«أو بيتًا لابن السبيل بناه،....، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته»[(٢)].

والعاشر: الرباط في سبيل الله؛ لقول النبي ﷺ:

«كل عمل منقطع عن صاحبه إذا مات إلا المرابط في سبيل الله فإنه ينمى له عمله ويجرى عليه رزقه إلى يوم القيامة»[(٣)].

وقد نظم السيوطي هذه الحسنات العشر الجارية في أربعة أبيات من الشعر، فقال:

إذا مات ابن آدم ليس يجري ... عليه من فعال غير عشرِ

علومٌ بثها ودعاء نَجْلٍ ... وغرس النخل والصدقات تجري

وراثةُ مصحفٍ ورباط ثغرٍ ... وحفر البئر أو إجراءُ نهرِ

وبيتٌ للغريب بناه يأوي ... إليه، أو بناءُ محلِ ذكرِ

وهذا الذي جعل العلماء يرجِّحون أن الإنسان لا ينبَّأ بعمله إلا بعد انقضاء فترة بقائه القبر، لأن أعمال الميت تصله أثناء فترة القبر من خلال صدقاته الجارية.

(١) حسن: رواه البزار عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٣٦٠٢.
(٢) حسن: رواه ابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٢٣١.
(٣) صحيح: رواه الطبراني عن العرباض كما في صحيح الجامع رقم: ٤٥٣٩.



قال تعالى:

﴿يُنَبَّؤُا الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣].

فهذا الإنباء -على الرأي الراجح- يتم يوم القيامة عند وزن الأعمال.

الرابع: تمحيصه بفتنة القبر:

ومما يكفِّر سيئات الميت روعة الفتَّان أي سؤال الملكين في القبر.

والفتنة هي الاختبار، والكلُّ في القبر مختبر، فالمؤمن يُفتَن فينجو، بعد أن يجيب على سؤال الملكين، والكافر يُفتَن فيهلك، بعد أن يعجز عن الإجابة، فتأتيه العقوبة والعذاب نتيجة فشله في الاختبار.

واختبار المؤمن في قبره وفزعه فيه من مكفِّرات الذنوب، وهو مما يدفع الله به عذاب النار في الآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (منهاج السنَّة) أن مما يكفِّر السيئات:

«ما يُبتلى به المؤمن في قبره من الضغطة وفتنة الملَكين».

فإن لم يكف ما فات لتمحيص الذنوب، وبقيت عليه ذنوب راجحة، عُذِّب في قبره بحسب ذنوبه، قلة أو كثرة.



المحطة الثالثة: تمحيص يوم القيامة!

فإن لم تف الدنيا والقبر بتمحيص ذنوب العبد، مُحِّص بين يدي ربه يوم القيامة بأربعة أشياء:

- أهوال القيامة.
- طول الموقف الذي يبلغ خمسين ألف سنة.
- شفاعة النبي ﷺ التي ادّخرها لأهل الكبائر من أمته.

الله ﷻ الذي قد يكون بسبب وقد يكون بغير سبب!

فإن لم تَفِ هذه المحطات الثلاثة بتمحيصه، فلا بد له من دخول النار ليتخلص ويتمحص، فتكون النار طهرة له وتمحيصا لخبثه، ويكون مكثه في النار على حسب كثرة الخبث وقلته، فإذا خرج خبثه، وصار خالصا طيبا، أُخرج من النار، وأدخل الجنة.

حصار الأمل!

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

«خطَّ رسول الله ﷺ خطًا مربعًا، وخطَّ خطًا في الوسط خارجًا منه، وخط خططًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط، من جانبه الذي في الوسط، وقال: هذا الإنسان، وهذا أجله قد أحاط به، وهذا الخط الخارج: أمله، وهذه الخطط الصغار: الأعراض (الآفات العارضة له)، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»[1].

أمله
الأعراض
الأعراض
أجله
الإنسان

أي: إن سلم من هذا، لم يسلم من هذا، وإن سلم من كلِّ الآفات المؤدِّية إلى الموت، ولم تصبه آفة من مرض أو أزمة قلبية أو حادث مروري، أصابه الهِرَم والشيخوخة، فمات بها، والحاصل أن من لم يمت بالسيف مات بالأجل.

وهذا تنبيهٌ من النبي ﷺ على ضرورة تقصير الأمل الذي يتجاوز غالبًا حدود (مربع) الأجل، ومن غُيِّب عنه أجله، فهو أحوج إلى توقعه، والاستعداد جيدًا لهجمته المباغتة، وعلى حين غِرَّة.

(١) صحيح: رواه البخاري عن ابن مسعود كما في صحيح البخاري رقم: ٦٠٥٤.



وهذا هو الذي أخاف أبا محمد حبيب الفارسي وأبكاه، فعن إسماعيل بن زكريا وكان جارًا لحبيب الفارسي قال:

كنت إذا أمسيتُ سمعت بكاءه، وإذا أصبحتُ سمعتُ بكاءه فأتيتُ أهله، فقلتُ: ما شأنه يبكي إذا أمسى، ويبكي إذا أصبح؟!

فقالت لي:

«يخاف والله إذا أمسى أن لا يصبح، وإذا أصبح أن لا يمسي».

وليس بالبكاء وحده يغرس حبيبٌ في قلوبنا اليقين بالموت، بل بإجراءات عملية رمزية يؤديها كل يوم، فكان يوصي امرأته صبيحة كل يوم:

إذا متُّ في اليوم فأرسلي إلى فلان يغسِّلني وافعلي كذا، واصنعي كذا، فقيل لامرأته: أرأى رؤيا؟!

قالت: هذا يقوله في كل يوم.

أخبرني بالله!

كيف لا يكون غريبًا في هذه الدار، من هو على جناح سفر، وسينزل مُرغَمًا في أي لحظة عن راحلة الحياة إلى حفرة القبر؟ أنت يا أخي مسافر في صورة مقيم، وساعٍ على هيئة راقد، ومن أصدق ما قيل عن حياتك:

وما هذه الأيام إلا مراحـــل ... يحثُّ بها داعٍ إلى الموت قاصد

وأعْجَب شيءٍ لو تأمَّلتَ أنها ... منازل تُطوَى والمسافر قاعد



عذاب القبر من عالم الغيب، فلا يؤذن لأحد من عالم الإنس والجن أن يطلع عليه أو يسمعه، ولم يسمعه إلا النبي ﷺ، ولهذا أدلة كثرة، منها:

عن أبي أيوب الأنصاري قال: خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس (أي غربت)، فسمع صوتا، فقال: «يهود تعذَّب في قبورها»[1].

وهذا الصوت إنما تكَشَّف لنبينا بما أذن الله له، كما كُشِفَ له أمور كثيرة من عالم الغيب، والتي لا ينكشف مثلها إلا لنبي.

لكن ورد في الأحاديث الصحيحة أن عذاب القبر تسمعه البهائم كذلك، والدليل:

حديث زيد بن ثابت قال:

بينما النبي ﷺ في حائط لبني النجار، على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به، فكادت تُلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة،

فقال: «من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟»

(١) متفق عليه.



فقال رجل: أنا.

قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال: ماتوا في الإشراك، فقال:

«إن هذه الأمة تُبتَلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا، لدعوتُ الله أن يُسمِعَكم من عذاب القبر الذي أسمع منه»،

ثم أقبل علينا بوجهه، فقال:

«تعوَّذوا بالله من عذاب النار».

قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار.

فقال: «تعوذوا بالله من عذاب القبر».

قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر.

قال: «تعوذوا بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن».

قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

قال: «تعوَّذوا بالله من فتنة الدجال».

قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال[1].

إن السكون الظاهر من القبور يحكي كثيرًا عما يجري لأهلها، وقد صاح هذه الصيحة العالية محمد بن صُبيْح الشهير بابن السماك، ليوقظ الغفلان، وينبِّه صاحب العصيان:

«لا يغرنك سكوت هذه القبور، فما أكثر المغمومين فيها، ولا يغرَّنَّك استواؤها، فما أشد تفاوتهم».

ولما مرَّ أبو الدرداء رضي الله عنه بين القبور، يلتمس رقة القلب، وتخويف النفس من عاقبة الذنب، ويقول:

«يا بيوت.. ما أسكن ظواهرك، وفي داخلك الدواهي».

(١) صحيح: رواه مسلم عن زيد بن ثابت كما في صحيح مسلم رقم: ٢٨٦٧.



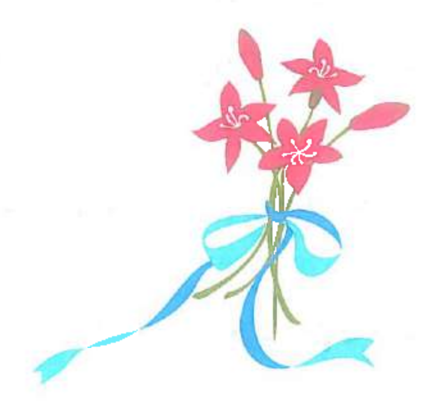
ما الحكمة في إخفاء عذاب القبر؟

كتم الله عنا صوت عذاب القبر حتى نقدر على أن نتدافن، وهذا من حكمته ولطفه البالغ؛ فلو سمع الناس الموتى يُعذَّبون، لغمر الخوف قلوب الخلق، ولم يجرؤ أحد على دفن ميت أو زيارة قبر، بل ولربما مات البعض من سماع عذاب القبر؛ وانظر ما يصيب الناس عند سماع الرعود القاصفة والزلازل المدمرة، وماذا تساوي صعقة الرعد أمام صيحة الميت لما نزل به من عذاب القبر؟!

جاء في صحيح البخاري أن الجنازة إذا كانت غير صالحة، واحتملتها أعناق الرجال، قالت: «يا ويلها! أين تذهبون بها؟!»، فيسمع صوتَها كلُّ شيء إلا الإنسان، ولو سمعها لصَعِقَ، أي لغُشِي عليه ومات، وهذا لأنه سمع قول الميت: «يا ويلها! أين تذهبون بها؟!»، وهو كلام يقوله الميت من غير ضرب ولا عذاب، فكيف إذا نزل به ألوان العذاب والنكال؟!

واشتد عليه الضرب والإيلام؟!

وكيف إذا انطلقت من الميت الصيحة المدوية المصحوبة بضربه (بمطراق من حديد، ضربة بين أذنيه، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين)[1].



(١) صحيح الجامع رقم: ١٦٧٥.



وقد ذكرها النبي ﷺ في حديث الترمذي عن البراء بن عازب حين تكلم النبي ﷺ عن فتنة المؤمن في قبره، فقال:

«فيأتيه ملكان شديدًا الانتهار، فَيَنتهرانه ويُجلسانه، فيقولان له: مَن ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟

وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله عز وجل:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم:٢٧]،

فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيِّ محمد ﷺ،

فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي»[١].

والتثبيت الإلهي في الآخرة هو سؤال العبد في قبره، فيُسأل العبد عن ثلاثة:

---

(١) السلسلة الصحيحة: ٣/١٣٩١.





السؤال الأول: عن ربك

فيجيب عن هذا السؤال مَن عرف الله في الدنيا وعبده حق عبادته.

والإجابة عن هذه الأسئلة اليوم تُسهِّل عليك إجابات الغد:

- هل تعرف الله معرفة تدعوك إلى الخضوع والإذعان له؟
- هل تعرفه معرفة تَردك إلى رحابه إذا أذنبت، وتُشهِدك كرمه وعفوه كلما قصَّرت؟!
- هل معرفته تنتشلك من هاوية اليأس مهما استزلك الشيطان وأغراك بالعصيان؟



السؤال الثاني: عن دينك

الدين الذي تدين لله به، وتخضع له، وتلتزم بأوامره، وتتحاكم إليه في كافة شؤونك، فهل هذا مقام الدين اليوم لديك؟!



السؤال الثالث: عن نبيك

وقد قال النبي ﷺ عن هذا السؤال:

«وأما فتنة القبر في يُفتَنون، وعنِّي يُسألون».

فلا يجيب عن سؤال النبي إلا من عرف نبيَّه حقًّا، واهتدى بهديه، وجعل رسول الله ﷺ إمامه ومُرشِدَه، أما من قلَّد الناس في الدين، واتبع هواه بغير يقين، فيتلعثم في الجواب، ويُخشَى عليه العذاب، وانظر إلى قول هذا العبد:

«سمعت الناس يقولون قولاً فقلتُه»، أو «سمعت الناس يقولون قولا فقلت كما قالوا».



هل يجيب المسلم العاصي على أسئلة القبر؟!

للعلماء في هذه المسألة رأيان:

الأول: أن كل مسلم يجيب على سؤال الملَكين، ولو كان فاسقًا، وأما الكافر أو المنافق فلا يجيب، ويعذَّب إثر ذلك.

قال ابن حجر الهيثمي:

«ومقتضى أحاديث سؤال الملكين: أن المؤمن -ولو فاسقا- يجيبهما كالعدل، ولكن بشارته تحتمل أن تكون (تتفاوت) بحسب حاله».

الثاني: لا يلزم من إجابة المسلم الفاسق على أسئلة الملَكين ألا يعذَّب على الذنوب والمعاصي، بل يعذَّب عليها إن لم يتب منها، وعذاب قد يكون منقطعا أو مستمرا إلى قيام الساعة بحسب ذنوبه، فمستقل ومستكثر.

هل يرى المؤمن العاصي مقعده من الجنة؟!

وهنا كذلك قولان:

الأول: أن كل مسلم يرى مقعده في الجنة باعتباره ليس كافرًا، وأن مصيره -وإن عُذِّب- إلى الجنة.

فيرى المؤمن المخلِّط مقعده في الجنة، ويقال له: هذا مقعدك من الجنة، وستصير إليه بعد مجازاتك بالعقوبة التي تستحقها.

والثاني: إن عرض مقعد الجنة على المؤمن المخلِّط أو المسلم الفاسق هو لإخباره بأن هذا مقعدك في قبرك لولا أنك أذنبت فاستحققت العذاب، ويُعرض عليه مقعده من النار ويُقال له: هذا بسبب ذنوبك.



قال الحافظ ابن حجر:

«يحتمل في المذنب الذي قُدِّر عليه أن يُعذَّب قبل أن يدخل الجنة أن يقال له - مثلاً - بعد عرض مقعده من الجنة: هذا مقعدك من أول وهلة لو لم تذنب، وهذا مقعدك (من النار) من أول وهلة لعصيانك».

توضيحات مهمة

من كثرت حسناته عن سيئاته، وأجاب سؤال الملَكين في القبر، ورأى مقعده من الجنة في قبره، ليس بالضرورة أن ينجو من عذاب القبر إن جاء بما يستحق عليه العذاب دون أن يتوب منه، كما ورد في عقوبة المرابي، وعقوبة الزناة والزواني، والغلول والكذب وعدم الاستبراء من البول، وغيرها من العقوبات التي وردت عن طريق أحاديث صحيحة، فإن شاء الله عذَّبه عليها في قبره، وإن شاء عفا عنه، وتكون رؤيته لمقعده من الجنة -في هذه الحالة- باعتبار مآله أي بعد نيل ما يستحق من العذاب.

ومن حكمة الله أنه لم يجعل ميزان الحسنات والسيئات أول موت العبد؛ وسبب هذا:

أنه يُخفِّف حِمل السيئات على العاصي بما يصيبه من فتنة القبر وعذابه؛ تخفيفًا عنه من عذاب جهنم، ولا شك أن ما يصيب العاصي من عذاب القبر أهون عليه مما يصيبه من نار جهنم.

أنه ليس كل مَن جاء بحسنات ستبقى معه حتى يدخل بها الجنة، ولا من جاء بسيئات ستبقى معه حتى يدخل بها النار، فثمة ما يُسمَّى (المقاصة)، وهو أخذ أصحاب الحقوق من حسنات من ظلمهم، أو إلقاء سيئاتهم عليه، كما في حديث (المفلس)، وهذا إنما يكون قبل الميزان. قال ابن عباس: «من مات وعليه دَيْن حُوسب به يوم القيامة، فيُؤخذ من حسناته، فيُجعل في حسنات غريمه، فإن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحب الدين، فيُجعَل على الغريم».

لا تنقطع الحسنات ولا السيئات بالموت، بل هناك (حسنات جارية)، و(سيئات جارية)، فالموت لا يوقف الكتابة في سجلات الحسنات والسيئات.



عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: لما دُفن سعد بن معاذ ونحن مع رسول الله ﷺ: سبَّح رسول الله ﷺ، فسبَّح الناس معه طويلاً، ثم كبَّر فكبَّر الناس، ثم قالوا: يا رسول الله.. مم سبَّحت؟!

فقال:

«لقد تضايق على هذا الرجل الصالح قبره حتى فرَّجه الله عز وجل عنه»[1].

وفي حديث ابن عباس مرفوعًا إلى النبي ﷺ: «لو نجا أحدٌ من ضمَّة القبر، لنجا سعدُ بن معاذ، ولقد ضُمَّ ضمةً، ثم رُخِّي عنه»[2]. إن كان هذا ما حدث مع سعد بن معاذ الذي اهتز عرش الرحمن لموته.. فماذا سيحدث لي ولك؟!

ولن ينجو من هذه الضمة أحَدٌ حتى الصبي الصغير، فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: دُفِنَ صبيٌّ، فقال رسول الله ﷺ:

«لو أفْلَتَ أحدٌ من ضمَّة القبر لنجا هذا الصبي»[3].

---

(١) صحيح: رواه أحمد عن جابر بن عبد الله كما في مسند أحمد رقم: ١٥٠٢٩.
(٢) صحيح: رواه الطبراني عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٥٣٠٦.
(٣) صحيح: رواه الضياء عن أنس كما في صحيح الجامع: ٥٣٠٧.



ولكن .. هنا بشارة!

شتــــان بيــــن ضمــــة وضمــــة.

وما أعظم الفارق بين ضمة المؤمن وضمة العاصي.

قال الإمام حافظ الدين أبو البركات النسفي:

«إنما أصلها أنها أمهم ومنها خُلقوا، فغابوا عنها الغَيْبة الطويلة، فلما رُدّوا إليها ضمّتهم ضمّة الوالدة غاب عنها ولدها، ثم قدم عليها، فمن كان لله مطيعًا ضمّته برأفة ورفق، ومن كان عاصيًا ضمّته بعنف سخطًا منها عليه لربها».

من عجائب الأموات!

دخل عبيد الجرهمي على معاوية بن أبي سفيان، فقال له معاوية: حدِّثني بأعجب ما رأيت.

قال: مررتُ ذات يوم بقوم يدفنون ميتًا لهم، فاغرورقت عيناي بالدموع، وتمثّلتُ قول الشاعر:

وبينما المرء في الأحياء مغتبِطٌ — إذ صار في الرَّمْس تعفوه الأعاصيرُ
يبكي الغريبُ عليه ليس يعرفه — وذو قرابته في الحي مسرور

فقال لي رجل: أتعرف من قائل هذا الشعر؟

فقلت: لا.

فقال: إنَّ قائله هو الذي دفناه الساعة، وأنت الغريب الذي تبكي عليه، وهذا الخارج من قبره أمسُّ الناس رحما وأسَرُّهم بموته (لما ينالون من ميراثه)، فقال له معاوية: لقد رأيتَ عجبا!





في حديث سمرة في صحيح البخاري في تعذيب من يكذب الكذبة فتبلغ الآفاق.

وتعذيب الزناة والزواني وهم عراة بلهب من أسفل منهم، وعريهم وهم يعذَّبون ليكون فضيحة كفضيحة الزنا، واللهب من تحتهم لكون جريمتهم بأعضائهم السفلى.

وتعذيب آكل الربا بالسباحة في بحر الدم.

ورضخ رؤوس أقوام بالحجر لتثاقلهم عن الصلاة.

ورضخ رؤوس الذين يرفضون القرآن، فلما رفضوا أشرف الأشياء وهو القرآن، عوقبوا في أشرف أعضائهم: الرأس.

وأخبر النبي ﷺ عن صاحب الشملة التي غلها من المغانم (قبل أن تقسَّم) أنها تشتعل عليه نارا في قبره، هذا وله فيها حق، فكيف بمن ظلم غيره في ما لا حق له فيه؟



وفي الحديث: «إن عامة عذاب القبر من البول، فتنزَّهوا منه»[1].

وترجم البخاري في كتاب الجنائز بقوله: «عذاب القبر من الغيبة والبول»، ولذا قال قتادة: «كان يُقال: عذاب القبر من ثلاثة أثلاث: ثلث من الغيبة، وثلث من النميمة، وثلث من البول».

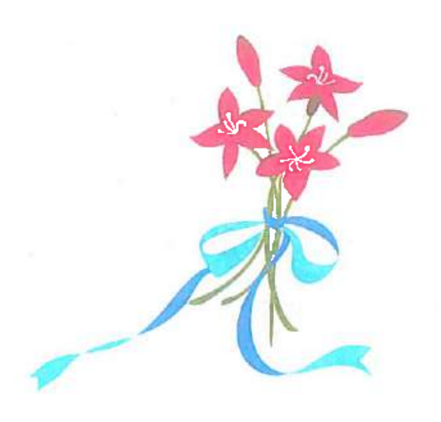
وجاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ:

«أُمِر بعبد من عباد الله أن يُضرَب في قبره مائة جلدة، فلم يزل يسأل ويدعو حتى صارت جلدة واحدة، فجُلِد جلدة واحدة، فامتلأ قبره عليه نارا، فلما ارتفع عنه وأفاق قال: على ما جلدتموني؟ قالوا: إنك صليت صلاة واحدة بغير طهور، ومررتَ على مظلوم فلم تنصره»[2].

وإليك بشارة يسوقها لنا أبو حاتم:

«ألفاظ الوعيد في الكتاب والسنن كلها مقرونة بشرط وهو: إلا أن يتفضل الله جل وعلا على مرتكب تلك الخصال بالعفو وغفران تلك الخصال دون العقوبة عليها

وكل ما في الكتاب والسنن من ألفاظ الوعد مقرونة بشرط وهو: إلا أن يرتكب عاملها ما يستوجب به العقوبة على ذلك الفعل حتى يعاقب إن لم يتفضل عليه بالعفو، ثم يعطى ذلك الثواب الذي وعد به من أجل ذلك الفعل».



(١) صحيح: رواه الطبراني والحاكم عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٢١٠٢.

(٢) صحيح: أخرجه الطحاوي في مشكل الآثار عن ابن مسعود كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٧٧٤



خمس منجيات جمعها الأستاذ علي محمد زينو في قوله:

ويأمَنُ في قبـــرِ لهُ مـــن سؤالِهِ ... كما جاء في الأخبار واحدُ خمسةِ
لَذِيْ في سبيل الله ماتَ مُرابِطًــا ... شهيدٌ، وتالي المُلكِ في كلّ ليلــةِ
وذو مرضٍ في البطن يقتُلُهُ، ومَنْ ... لقد مات في يومٍ وليلةِ جُمْعَـــةِ

وإليكم التفصيل مع الدليل:

الأول: المرابط في سبيل الله

قال رسول الله ﷺ: «من مات مرابطا في سبيل الله أمَّنَه الله من فتنة القبر»[1].

الثاني: الشهيد

قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله سبع خصال:... ويجار من عذاب القبر...»[2].

(١) صحيح: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٥٤٥.
(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن المقدام بن معدي كرب كما في صحيح الجامع رقم: ٥١٨٢.



الثالث: المحافظة على قراءة سورة الملك

قال رسول الله ﷺ:

«سورة من القرآن، ما هي إلا ثلاثون آية، خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة، وهي تبارك»[(١)].

قال المناوي:

«أي قارئها، المداوم على تلاوتها بتدبر وتأمل واعتبار وتبصر، حتى أدخلته الجنة بعد ما كان ممنوعا من دخولها لما اقترفه من الذنوب».

وقال ﷺ: «سورة تبارك هي المانعة من عذاب القبر»[(٢)].

الرابع: المبطون

قال رسول الله ﷺ: «من قتله بطنه لم يُعذَّب في قبره»[(٣)].

الخامس: الميت في يوم الجمعة أو ليلتها

قال رسول الله ﷺ:

«ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله تعالى فتنة القبر»[(٤)].

وهذه الخمسة ثابتة في الأحاديث الصحيحة، وهي من نصوص الوعد والمبشِّرات، والتي يحرص عليها المؤمن الوعد يتحقق باجتماع الشروط وانتفاء الموانع، فلا يعني كون الشخص يحافظ عليها ويقصِّر في غيرها، أن يكون ناجيًا، فالوعد قائم، والوعيد كذلك قائم، وهذا لازم حتى يعتدل رجاء المؤمن وخوفه، فلا يسحبه الرجاء بعيدا عن ميدان العمل اتكالا على الرحمة، ولا يسحبه الخوف نحو هاوية اليأس جزعا من العذاب.

(١) حسن: رواه الطبراني في الأوسط عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٣٦٤٤.
(٢) صحيح: رواه ابن مردوي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٣٦٤٣.
(٣) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن خالد بن عرقطة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٤٦١.
(٤) حسن: رواه أحمد والترمذي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٧٣.



حراسة المؤمن الخاصة!

هل تخاف عذاب القبر؟!

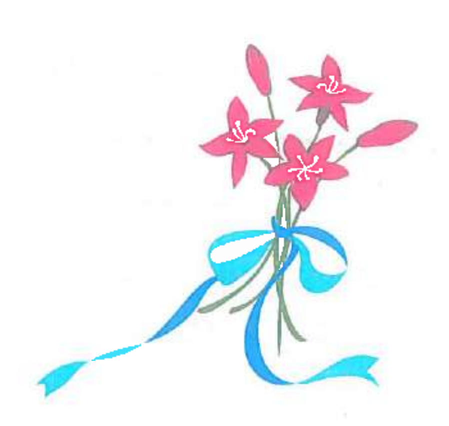
هل تخشى ملائكة العذاب؟!

هل تملكك الخوف من مما بلغك من أخبار عذاب البرزخ؟!

إن حدث لك ذلك، فاعلم أنه ما زال في إمكانك اليوم أن تتخذ حراسة خاصة خاصة، تحوطك في قبرك وتحميك من جميع الاتجاهات، وتضمن لك الأمان التام أثناء إقامتك في قبرك وحتى يبعثك الله يوم يأذن ببعث الأموات.

اسمع ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«إن الميت إذا وضع في قبره، إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنا، كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه، فيؤتى من قِبَل رأسه، فتقول الصلاة: ما قِبَلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه، فيقول الصيام: ما قِبَلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره، فتقول الزكاة: ما قِبَلي مدخل، ثم يؤتى من قِبَل رجليه، فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قِبَلي مدخل...»[1].



(١) صحيح: رواه ابن حبان عن أبي هريرة كما في صحيح ابن حبان: ٣١١٣.



قال رسول الله ﷺ:

«إن أعمالكم تُعرَض على أقاربكم وعشائركم من الأموات، فإن كان خيرا استبشروا به، وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا»[1].

ولذا قال أبو الدرداء:

«إن أعمالكم تُعرَض على موتاكم فيُسرّون، ويُساؤون»، فكان أبو الدرداء يقول عند ذلك:

«اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملا أخزى به عند عبد الله بن رواحة».

ولما دخل عباد الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين، قال له: يا شيخ.. عِظْني، قال عباد:

بلغني أن أعمال الأحياء تُعرَض على أقاربهم من الموتى، فانظر ماذا يُعرَض على رسول الله ﷺ من عملك، قال: فبكى حتى سالت الدموع على لحيته.

(١) صحيح: رواه الألباني في الضعيفة رقم: ٨٦٣ ثم في الصحيحة رقم: ٢٧٥٨.



قدِّمتُ لحياتي

القيامة

أولاً: النفخ في الصور

ثانيًا: الموقف

ثالثًا: الحشر

رابعًا: الشفاعة

خامسًا: العرض والحساب

سادسًا: تطاير الصحف

سابعًا: الميزان

ثامنًا: الحوض

تاسعًا: الصراط

عاشرًا: القنطرة

أولاً

النفخ في الصور

قَدَّمتُ لحياتي

قال الله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

ومعنى الصور في لغة العرب: القرن، وهو شبه البوق، ولما سئل رسول الله ﷺ عن الصور، قال: «قرن يُنفَخ فيه»[(١)].

والصور هو الناقور الذي جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾.



إسرافيل هو الموكَّل بالنفخ في الصور، وهذه مهمته الرئيسة ووظيفته الأولى، وقد شرح رسول الله ﷺ حالة التأهب القصوى التي عليها إسرافيل، واستعداده الشديد لتلقي الأمر

(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ١٠٨٠.



الإلهي بالنفخ في الصور، فقال ﷺ:

«إن طرَف صاحب الصور منذ وُكِّل به مستعدٌ ينظر نحو العرش، مخافة أن يؤمَر قبل أن يرتدّ إليه طرفه، كأنَّ عينيه كوكبان دُرِّيان»[1].

يموت الخلق كلهم بعد النفخة الأولى، ثم يُنفَخ في الصور مرة أخرى، فيقومون لرب العالمين، وهاتان النفختان اسمهما الراجفة والرادفة كما في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾.

فالراجفة: النفخة الأولى، وسُمِّيت بذلك؛ لأن الكون كله يرجف ويتزلزل عندها، والراجفة تميت الأحياء إلا من شاء الله حتى يكون آخر من يموت: ملك الموت.

والرادفة: النفخة الثانية، وسُمِّيَت كذلك لأنها تردف النفخة للأولى أي تأتي بعدها، والرادفة نفخة تحيي الأموات، حيث يكون أول من يُحيي الله إسرافيل، الذي ينفخ النفخة الثانية ليبعث الخلق.

وفي هذا دلالة على عظم خلق إسرافيل ﷺ؛ فبصيحة واحدة منه يموت كل من في السماوات والأرض، وبنفخة أخرى يبعث الله الحياة في كل الخلق ليحشروا إلى أرض المحشر.

وقد كان النبي ﷺ يذكِّر الصحابة كل يوم بهاتين الصيحتين، نعم.. كل يوم؟! فعن أبي بن كعب ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال:

«يا أيها الناس! اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه»[2].

وأن يكون هذا التذكير النبوي يوميا مما يدل على أهميته الشديدة، وينم عن حرص نبوي شديد على الأمة والشفقة البالغة، وإن لم يكتب الله لنا أن نعيش حتى ندرك الصيحة الأولى، فحتما سيدركنا الموت، فهل استعددنا لما بعد الموت؟!

(١) صحيح: رواه الحاكم عن أبي هريرة كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٠٧٨.
(٢) صحيح: رواه الترمذي والحاكم كما في صحيح الجامع رقم: ٧٨٦٣.





كم بين النفختين؟!

في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «ما بين النفختين أربعون».

قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوما؟

قال: أبيت.

قالوا: أربعون شهرًا.

قال: أبيت.

قالوا: أربعون عاما؟

قال: أبيت[1].

قال النووي:

«ومعنى قول أبي هريرة (أبيت) أي أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يوما أو سنة أو شهرا، بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة».



من أول من يسمع النفخة الأولى؟!

قال رسول الله ﷺ:

«وأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُه رَجُلٌ يلوط حَوْضَ إبِلِه فيُصْعَق ويُصْعَق النَّاس حوله».

وحال هذا الرجل الذي يُصعَق يوحي بأن نفخة الصور تأخذ الناس على حين غِرَّة، وهم لاهون عنها وغارقون في الغفلة، وهذا موافق لما ورد في الحديث الصحيح أن الساعة لا تقوم

(١) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح مسلم رقم: ٢٩٥٥.



إلا على شرار الناس.

قال ﷺ:

«ثم يُنزل الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا، وهو عجب الذَّنَب، ومنه يُركَّب الخلق يوم القيامة»[1].

أي يرسل الله سحابا فتمطر، فإذا أصاب الماء عَجْب الذَّنْب نبت منه الجسم كما ينبت النبات، فيرجع كما كان، ثم ينفخ في الصور نفخة البعث الرادفة، فتعود الأرواح على أثرها إلى الأجساد، ليخرج أصحابها من القبور سراعا إلى أرض المحشر.



إذا كان النبي ﷺ -وهو أخشى الخلق لله وأتقاهم- يقول:

«كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ، فينفخ»[2].

فكيف بحال المذنبين المقصِّرين؟!

يقول النبي ﷺ:

كيف يطيب عيشي وقد اقترب موعد النفخ في الصور، وبعده الحساب، وكأن النبي ﷺ خاف على أمته من اقتراب حسابهم مع ضعف استعدادهم، أو لعله أراد حثَّ الصحابة على توصية من يأتي من بعدهم بالتهيؤ ليوم الحساب.

فلما سمع الصحابة هذا التحذير ثقل عليهم، ووجلت قلوبهم، فسألوا رسولهم النصيحة: فكيف نقول يا رسول الله؟

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه رقم: ٤٦٥١، ومسلم في صحيحه رقم: ٢٩٥٥.

(٢) صحيح: رواه أحمد عن ابن عباس كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٠٧٩.



قال: «قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.. توكلنا على الله ربنا».

فأوصاهم بأن يقولوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، وهي كلمة ملؤها التوكل على الله والاكتفاء به، وغالبا ما يستعملها الناس في الأمور الدنيوية ولمواجهة مشاكلهم الحياتية، لكن استعمالها في الشؤون الأخروية والعبادات اليومية أهم، فالله وحده كافي عباده همومهم الدنيوية والأخروية.

في أي يوم يُنفَخ في الصور النفخة الأولى؟!

قال رسول الله ﷺ:

«خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أُهبِط، وفيه تيب عليه، وفيه قُبِض، وفيه تقوم الساعة، ما على وجه الأرض من دابة إلا وهي تصبح يوم الجمعة مصيخة حتى تطلع الشمس، شفقا من الساعة، إلا ابن آدم»[1].

والإصاخة: الاستماع، لكنه استماعٌ بحَذَر وإشفاق، خشية المفاجأة والمباغتة، فأُلهِمَت البهائم أن الساعة تقوم يوم الجمعة، لذا تخاف كل جمعة، وتعرف كذلك أن قيام الساعة بين الصبح وطلوع الشمس، بينما ابن آدم في غفلة عن كل هذا، ويغط في هذا الوقت من كل جمعة في نوم عميق.



(١) صحيح: رواه مالك وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٣٣٤.



وقبل الموقف ينتظرنا هول المطّلع!

لما طُعِن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له رجل: إني لأرجو أن لا تمس جلدك النار، فنظر إليه، ثم قال:

«إن المغرور لمن غررتموه، والله لو أن لي ما على الأرض لافتديت به من هول المُطَّلَع».

وهول المطّلع يريد به عمر ما يشرف عليه العبد من أول مشاهد الآخرة، فشبَّهه بالمُطَّلع وهو مكان الاطلاع من موضع عال، لأننا سنطالع لأول مرة المشاهد التي أخبر الله بها في كتابه عن أهوال يوم القيامة، فلا يدري أحدنا، أيبشَّر برضا الله أو سخطه.

الوقاية من هول المطلع!

لما حضر عنبسة بن أبي سفيان الموت اشتد جزعه، وجاء الناس يعودونه، فجعل عنبسة يبكي ويجزع، فقال له القوم:

يا أبا عثمان..



ما يبكيك وما يحزنك وقد كنت على سمت من الإسلام حسن وطريقة حسنة؟ فازداد حزنًا وشدة بكاء، وقال:

ما يمنعني أن لا أبكي وأن لا يشتد حزني من هول المطلع، وما يدريني ما أشرف عليه غدا، ما قدَّمتُ من كثير عمل تثق به نفسي أنه سينجيني غدا، وإن أوثق شيء في نفسي لكلمات حدثتني بها أختي أم حبيبة بنت أبي **سفيان**، حدثتني أنها سمعت رسول الله ﷺ وهو قاعد على فراشها يقول: «ما من مسلم يحافظ على أربع ركعات قبل صلاة الظهر وأربع بعدها، فتمسُّه النار بعدهن إن شاء الله أبدا»، فما تركتهن بعد إلى ساعتي هذه، وإنها لأوثق خصال في نفسي.





قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُحْشَر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كَقُرصَة النَّقِيّ، ليس فيها عَلَمٌ لِأُحد»[1].

ومعنى عفراء أي بيضاء مشوبة بحُمْرة، وقرصة النقيِّ أي كرغيف مصنوع من دقيق خالص من القش والنخالة، والأرض يومئذ ليس فيها أي علامة يُستَدلُّ بها، وليس فيها ما يعوق البصر.

قال القاضي عياض: «ليس فيها علامة سكنى، ولا بناء، ولا أثر، ولا شيء من العلامات التي يهتدي بها في الطرقات، كالجبل والصخرة البارزة».

(١) صحيح: رواه مسلم في صحيحه رقم: ٢٧٩٠.



قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٤٨]:

وسواء كان التبديل في ذات الأرض أو في صفاتها؛ فإن الذي يعنينا أن أرض الدنيا قد انقطعت العلاقة معها، وأن الأولين والآخرين من جميع الخلائق سيُجمَعون في صعيد واحد على أرض جديدة عجيبة، ومن عجائب هذه الأرض ما ذكره عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«تبدَّل الأرض أرضًا، كأنها فضة، لم يُسفَك فيها دم حرام، ولم يُعمَل عليها خطيئة».

وذكروا في حكمة نقاء أرض المحشر وانبساطها: أن يوم القيامة يوم عدل وظهور حق؛ فاقتضت حكمة الله أن يكون المحل الذي يقع فيه الحساب مطهَّرا من المعاصي والمظالم: ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، وليكون تجلي الله سبحانه على عباده المؤمنين على أرض جديدة طاهرة تليق بعظمته.

نسائم الرحمة يوم الزحمة!

تأمل قول الله سبحانه يصف يوم الحشر بعد ذكر نسف الجبال وتسوية أرض المحشر:

﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

لم يقل: (للجبار)، رغم أن الموقف موقف عظمة وجبروت، بل قال: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾، فجاء بالرحمة في المقام الذي تنخلع فيه القلوب، ليخفف نيران الخوف بنسائم الرجاء، في موقف يسود فيه الخوف بين أهل المحشر، فلا تسمع إلا همس الحديث ووطء الأقدام.



من هو أول الخلق حياة بعد النفخة الثانية؟!

قال رسول الله ﷺ:

«إِنِّي أَوَّل مَنْ يرفع رأسه بعد النَّفْخَة الْآخِرَة»[١].

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٤٨١٣.



وفي صحيح مسلم:

«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر»[١].

ثم يقوم من بعده الخلق أجمعون، ويُحشَر العباد يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً -أي غير مختونين- فحتى هذه الجلدة التي تم نزعها من الرجل والمرأة أثناء الختان ترد إليك لتُبعَث بها، هذه القلفة نزعت منك منذ أربعين أو خمسين أو ستين عاما، وألقيت في القمامة، فذابت وانتهى أمرها منذ عشرات السنين، ثم تبعث وتبعث معك بعد مئات أو آلاف السنين، ألا يدل هذا على أن الله تعالى قادر على الإحياء بعد الموت؟

جاء في الحديث عن عائشة ﵂ أنها قالت: «يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال:

«الأمر أشد من أن يُهِمَّهم ذاك»[٢].

وفي رواية الطبراني عن أم سلمة ﵂ قالت: يا رسول الله، واسوأتاه.. ينظر بعضهم إلى بعض؟

فقال: شُغِل الناس، قلت: ما شُغْلُهم؟

قال:

«نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل».



في صحيح البخاري ومسلم:

«وإن أول الخلائق يُكسَى يوم القيامة إبراهيم»[٣].

---

(١) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح مسلم رقم: ٢٢٧٨.
(٢) صحيح: رواه البخاري في صحيحه رقم: ٦٥٢٧.
(٣) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٤٦٢٥ ومسلم رقم: ٢٨٦٠.



لكن.. ألا يتعارض هذا مع ما جاء في الحديث أن الإنسان يُبعَث في الثياب التي مات فيها:

«إنَّ الْمَيِّت يُبْعَث في ثيابه التي يموت فيها»[١].

جَمع الإمام ابن حجر بين هذه الأحاديث بأن بعض الناس يحشر عاريًا، وبعضهم كاسيًا.

أو يحشرون كلهم عراة، ثم يكون أول من يُكسَى الأنبياء، فأول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

أو يخرجون من القبور بالثياب التي ماتوا فيها، ثم تتناثر عنهم عند ابتداء الحشر، فيُحشَرون عراة، ثم يكون أول من يكسى إبراهيم.



حال الناس مع وقفة يوم القيامة

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال:

«يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه»[٢].

وفي لفظ آخر:

«حتَّى يغيب أَحَدُهم في رَشْحِه إلى أنصاف أذنيه».

وكثرة العرق يوم القيامة لا يتصورها عقل، ففي صحيح مسلم:

«إن العَرَق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعا، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس، أو إلى آذانهم»[٣].

(١) صحيح: رواه أبو داود وابن حبان عن أبي سعيد الخدري كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٦٧١.
(٢) صحيح: رواه البخاري رقم: ٤٩٣٨ ومسلم رقم: ٢٨٦٢.
(٣) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٦٧٩.



أي ينزل فيها من كثرته شيء كثيرجدا، فالسبعين في الحديث للتكثير لا للتحديد.

ويتفاوت الناس في العرق **بحسب معاصي كل عبد، فالغارق في المعاصي يُلجِمه العرق إلجاما**، وتفصيله خرَّجه مسلم من حديث المقداد، عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«فيكونون في العَرَق كقدر أعمالهم،

فمنهم مَنْ يأخذه إلى عَقِبَيه،

ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه،

ومنهم من يأخذه إلى حَقْويْه،

ومنهم من يُلجمه إلجاما»[1].

وورد إشكال هنا:

إن هذا الجمع إذا وقفوا في ماء على أرض معتدلة، فإن الماء يغطيهم على السواء، ولا يتفاوتون، وأجيب عن هذا بأن هذا من خوارق عادات يوم القيامة، والإيمان بها واجب.

وسبب كثرة العرق: دنو الشمس من الرؤوس مع تزاحم الخلق، فتدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، وسواء كان الميل هو وحدة قياس المسافة المعروفة أو الميل الذي تُكْتَحَلُ به العين، فإن المسافة قريبة قريبة، ويستمر هذا الحال خمسين ألف سنة، **لا يذوقون فيها أهل الموقف طعاما، وما شربوا شرابًا حتى تتقطع الأكباد من العطش.**

الأجساد تختلف!

اقتراب الشمس في الدنيا مترا واحدا من الأرض يُحرِق الأرض بمن عليها، لكن اقترابها جدا من الأرض يوم القيامة، لا يُحدِث نفس الأثر، فالأجساد غيرالأجساد، كما أن الأرض غير الأرض.

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن المقداد كما في صحيح الجامع رقم: ٧٧٧.



ومع هذا.. فأبشِروا!

فالمؤمنون في مأمن من كل هذا، ولذا قال سلمان الفارسي رضي الله عنه عن حر الشمس:

«ولا يجد حَرَّها مؤمن ولا مؤمنة».

قال القرطبي وهو يشرح قول سلمان:

«إن هذا لا يضُرُّ مؤمنا كامل الإيمان أو من استظل بالعرش».

ومن استظل بظل العرش سبعة كما ورد في صحيح البخاري:

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله:

الإمام العادل.

وشاب نشأ في عبادة ربه.

ورجل قلبه معلَّق في المساجد.

ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه.

ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله.

ورجل تصدَّق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تُنفِق يمينه.

ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه»[1].



(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٦٦٠.



وهذا حديث عظيمٌ عظيم، قال فيه الإمام ابن عبد البر:

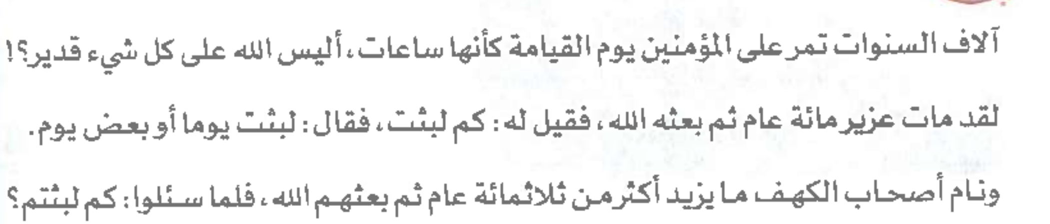
«هذا أحسن حديث يُروَى في فضائل الأعمال وأعمِّها وأصحِّها إن شاء الله، وحسبك به فضلا، لأن العلم محيط بأن كل من كان في ظل الله يوم القيامة لم ينله هول الموقف».

وقد نظم هذا الحديث في أبيات من الشعر الإمام ابن أبي شامة المقدسي، جاء فيها:

وقال النَبِيُّ المُصطفى إنَّ سبعَةً ... يُظِلُّهم الله العظيم بِظِلِّهِ
مُحِبٌّ، عفيفٌ، ناشئٌ، مُتَصدِّقٌ ... وباكٍ، مُصَلٍّ، والإمامُ بِعدلِه

وأضِف إلى هذه السبعة ثامنًا جاء ذكره في حديث:

«من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»(١).



لكن ماذا عن طول يوم القيامة؟!

آلاف السنوات تمر على المؤمنين يوم القيامة كأنها ساعات، أليس الله على كل شيء قدير؟!

لقد مات عزير مائة عام ثم بعثه الله، فقيل له: كم لبثت، فقال: لبثت يوما أو بعض يوم.

ونام أصحاب الكهف ما يزيد أكثر من ثلاثمائة عام ثم بعثهم الله، فلما سئلوا: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم.

وهذا يجعلك تفهم حديث رسول الله ﷺ:

«يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر»(٢).

تعب اليوم وإلا شقاء الغد!

قال الإمام الغزالي: «وكل عرَقٍ لم يخرجه التعب في سبيل الله من حج، وجهاد، وصيام،

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن أبي اليسر كما في صحيح الجامع رقم: ٦١٠٦.
(٢) صحيح: رواه الحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٨١٩٣.



وقيام، وتردد في قضاء حاجة مسلم، وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهي عن منكر، يستخرجه الحياء والخوف في صعيد يوم القيامة».

وهذا مصداق قول الله تعالى عن أهل النار:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية:٢-٣]:

لم يخشعوا في الدنيا، فخشعوا في الآخرة، ولم يتعبوا في الدنيا، فتعبوا يوم القيامة.

عاد النبي ﷺ مريضًا فبشَّره قائلاً:

«أبشِر! فإن الله تعالى يقول: هي ناري أسلِّطها على عبدي المؤمن في الدنيا؛ لتكون حظه من النار يوم القيامة»[١].

أي مرضك هو عقوبتك المعجَّلة لما اقترفت من الذنوب، بدلا من أن تؤجَّل العقوبة إلى الآخرة، حيث العذاب الأبقى والأشد، وأضاف النار إليه بقوله: «ناري»، إشارة إلى أن المرض لطف من الله ورحمة.

ظِلُّ الأعمال يوم القيامة

كل الناس يوم القيامة في أمسِّ الحاجة إلى ظِلٍّ، ولذا يحق لك لنا أن نفرح فرحة شديدة بمثل هذا الحديث: «كل امرئ في ظل صدقته حتى يُقضَى بين الناس»[٢].

سمع أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزني هذا الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، فكان لا يخطئه يوم إلا تصدَّق فيه بشيء ولو بكعكة أو بصلة، وروى عنه يزيد بن أبي حبيب: وما رأيته داخلا المسجد قط إلا وفي كُمِّه صدقة: إما فلوس، وإما خبز، وإما قمح. قال:

حتى ربما رأيت البصل يحمله، قال: فأقول: يا أبا الخير.. إن هذا يُنتِن ثيابك، قال: فيقول: يا ابن أبي حبيب.. أما إني لم أجد في البيت شيئا أتصدق به غيره، إنه حدثني رجل

(١) صحيح الجامع رقم: ٣٢ والصحيحة رقم: ٥٥٧.
(٢) صحيح: رواه أحمد والحاكم عن عقبة بن عامر كما في صحيح الجامع رقم: ٤٥١٠.



من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«ظل المؤمن يوم القيامة صدقته».

ورغم أن الصدقة عمل انقضى إلا أن الله يجسّدها يوم القيامة على هيئة ظل محسوس، يستظل بها صاحبها، وقد تمسَّك بهذا الحديث من فضَّل الغني الشاكر على الفقير الصابر، وإذا كان هذا ظِلَّ الصدقة، فماذا ظنك بظِلِّ عرش الرحمن؟!

قال الإمام القرطبي:

«ويحتمل أنه ليس هناك إلا ظل العرش يستظل به المؤمنون أجمع، ولكن لما كانت تلك الظلال لا تنال إلا بالأعمال، وكانت الأعمال تختلف، حصل لكل عامل ظِلٌّ يخصُّه من ظل العرش بحسب عمله».

قصة عجيبة عن الصدقة!

يقول الشيخ ابن عثيمين:

«وحكى لي بعض الصلحاء أن رجلا كان يمنع أهله من الصدقة من البيت يقول: لا تتصدقوا، وفي يوم من الأيام نام ورأى في المنام كأن الساعة قد قامت، ورأى فوق رأسه ظلا يُظِلُّه من الشمس، إلا أن فيه ثلاثة خروق، فجاءت تمرات، فسدَّت هذه الخروق، فتعجب كيف الثوب متخرق وتجيء التمرات تسد الخروق، فلما قصَّها على زوجته أخبرته أنها تصدَّقت بثوب وثلاث تمرات!

فكان الكساء الأول هو الثوب لكنه مخرَّق، فجاءت التمرات الثلاث فسدَّت الخروق، ففرح بذلك، وأذن لها بعد هذا أن تتصدق بما شاءت».



طرائق الحشر الثلاثة

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يُحشَر الناس على ثلاث طرائق: راغبين راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا»[1].

وهذا الحديث يتعلق بصفة الحشر من القبور إلى أرض الحساب، وهذا التقسيم نظير التقسيم الذي في سورة الواقعة: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، فقوله في الحديث:

«راغبين راهبين»: يريد به عوام المؤمنين، وهم من خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، فيترددون بين الخوف والرجاء؛ يخافون عاقبة سيئاتهم، ويرجون رحمة ربهم، وهؤلاء هم أصحاب الميمنة.

---

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٦٥٢٢.



«واثنان على بعير»: وهم السابقون وأفاضل المؤمنين الذين يُحشَرون -لكرامتهم على الله- ركبانا.

لكن حتى هؤلاء السابقون يتفاوتون، وهذا واضح في اقتسام الثلاثة أو الأربعة أو العشرة للبعير الواحد.

يقول الإمام الغزالي: «يخلق لهم من أعمالهم بعيرا يركبون عليه، وهذا من ضَعْفِ العمل لكونهم يشتركون فيه، كقوم خرجوا من سفرٍ بعيد، وليس مع أحد منهم ما يشتري مطية توصله، فاشترك في ثمنها اثنان أو ثلاثة ابتاعوا مطية يتعقبون عليها في الطريق، ويبلغ بعير مع عشرة، فاعمل هداك الله عملا يكون لك بعير خالصُ من الشركة».

«وتحشر بقيتهم النار»: يريد بهؤلاء أصحاب المشأمة.

وإليك بعض صنوف الحشر:

١. حشر الكافرين!

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلا قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة»[(١)].

قال أبو حامد: «طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به ولم يشاهده، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها لأنكر المشي من غير رجل، والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك، فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفتها قياس الدنيا، فإنك لو لم تكن شاهدت عجائب الدنيا، ثم عُرِضَت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها».

واسمع ما ذهب إليه ابن حجر في بيان حكمة هذا المشي حين قال:

«والحكمة في حشر الكافر على وجهه: أنه عوقِب على عدم السجود لله في الدنيا، بأن يسحب على وجهه في القيامة؛ إظهارا لهوانه، بحيث صار وجهه مكان يده ورجله في التوقي عن المؤذيات».

(١) صحيح البخاري رقم: ٦٥٢٣.



٢. حشر المتكبرين:

روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال:

«يُحشَر المتكبِّرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذُّلُّ من كل مكان»[١].

والذرُّ: جمع ذرة، وهي النملة الصغيرة؛ فصورتهم صورة إنسان، وجثتهم كجثة النمل في الصِّغَر، والمراد بهذا الحديث: أن المتكبرين يكونون يوم القيامة على غاية الذل والحقارة.

وهذه الحالة المخزية تناسب ما كانوا عليه في الدنيا من انتفاش كاذب وغرور مزيَّف.

كانوا في الدنيا يظنون أنفسهم فوق الخلق، فحشرهم الله يوم القيامة تحت أقدام الخلق.

وتصوَّروا أنفسهم أعظم المخلوقات؛ فجعلهم الله في دار الجزاء أذلَّ المخلوقات، فكانوا كالذر في الصغر والحقارة، بحيث لا يحس بهم أحد ما لم تشرق عليهم الشمس، كالذر الذي لا يراه الناس إلا من خلال أشعة الشمس.

ويتضاعف ذلهم ويحاصرهم من جميع الجهات جزاء وفاقا لما عاملوا به الناس.

لكن.. ما الكبر في أبسط تعريفاته؟!

قال عون بن عبد الله: «كفى بك من الكبر أن ترى لك فضلاً على من هو دونك».

ويتضح مفهوم الكِبر بمعرفة ضده، فلما سُئل الفضيل بن عياض عن التواضع فقال:

«يخضع للحق وينقاد له، ويقبله ممن قاله».

٣. حشر السائلين:

في الحديث:

«ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم»[٢].

---

(١) حسن: رواه أحمد والترمذي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٨٠٤٠.
(٢) صحيح: رواه أحمد والشيخان عن أبي هريرة ما في صحيح الجامع رقم: ٥٨١٦.



وفهم الإمام البخاري من الحديث أن هذا الرجل هو السائل تكثرًا بغير ضرورة، ومن سأل تكثرًا فهو غنيٌّ، لا تحل له الصدقة، لذا عوقب في الآخرة.

حين بذل وجهه وعنده كفاية، عوقِب في وجهه بأن جاء بلا لحم فيه، فكان جزاؤه من جنس ذنبه.

أما عن حد الكفاية فقد حدَّده النبي ﷺ في حديث آخر: «من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا أو خموشا أو كدوحا في وجهه».

قيل: يا رسول الله.. وما يغنيه؟ قال: «خمسون درهما، أو قيمتها من الذهب»[1].

عمر ينفِّذ الوصية النبوية

سمع عمر رضي الله عنه سائلاً وهو يقول: «من يُعشِّي السائل؟!»، فقال عمر: «عشّوا السائل»، ثم دار إلى دار الإبل فسمع صوته وهو يقول: «من يَعشِّ السائل؟!»، فقال عمر رضي الله عنه: «ألم آمل أن تُعشوا السائل»، فقالوا: «قد عشيناه»، فأرسل إليه، فإذا معه جراب مملوء خبزًا، فقال: «إنك لست سائلاً، أنت تاجر تجمع لأهلك»، ثم أخذ بطرف الجراب، ثم نثره بين إبل الصدقة.

٤. حشر أصحاب الغلول:

ومن المشاهد كذلك: مشهد أقوام يأتون حاملين أثقالاً على ظهورهم، كالبعير والشاة وغيرهما، وهؤلاء هم أهل الغلول، أي الذين يسرقون من الغنيمة قبل أن تقسَّم، فإنهم يحشرون في هيئة فاضحة، تفضح خيانتهم أمام الخلق أجمعين.

قال رسول الله ﷺ:

«فوالذي نفس محمد بيده، لا يغُلُّ أحدكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيرا جاء به له رغاء، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاة جاء بها

(١) صحيح: رواه الحاكم والترمذي وابن ماجة عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٦٢٧٩.



تيعر، فقد بلَّغْتُ»[1].

قال تعالى عن هذه الفضيحة المكشوفة على أعين الخلق:

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام:٣١].

سيحمل السارق ما سرق على ظهره أمام الخلق يوم القيامة، مهما كان حقيرا.

رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يسرِق قَدَحًا، فقال:

«ألا يَسْتَحِي هذا أن يأتي بإناءٍ يحمله على عُنُقه يوم القيامة».

والمحمول إذا كان مخفيا قيل له: حَمْل بفتح الحاء، كما في حالة الجنين في بطن أمه؛ لأنه لا يُرى، فإذا كان مكشوفا قيل له: حِمْل بكسر الحاء، ومنه قوله تعالى:

﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف:٧٢]؛ لأنه ظاهرٌ.

هدايا العمال غلول!

في الحديث: «هدايا العمال غلول»[2].

وفي الطبراني عن ابن عباس: «الهدية إلى الإمام غلول»[3].

والحديث يشمل الإمام وكذلك نوابه من الوزراء والمحافظين ومديري الهيئات والمصالح العامة.

رُوِي أن عمر رضي الله عنه أهدى إليه رجل فخذ جزور، ثم أتاه بعد مدة ومعه خصمه، فقال: يا أمير المؤمنين.. اقض لي قضاء فصلا كما يفصل الفخذ من الجزور، فضرب بيده على فخذه وقال:

«الله أكبر.. اكتبوا إلى الآفاق: هدايا العمال غلول»

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن أبي حميد الساعدي كما في صحيح الجامع رقم: ١٣٥٧.
(٢) صحيح: رواه أحمد والبيهقي عن أبي حميد الساعدي كما في صحيح الجامع رقم: ٧٠٢١.
(٣) صحيح: رواه الطبراني عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٧٠٥٤.



٥. حشر الغادرين:

قال النبي ﷺ: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يُرفَع لكل غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان ابن فلان»(١).

وهذا الخطاب تفهمه العرب جيدا، لأنهم كانوا يرفعون للوفاء راية بيضاء، وللغدر راية سوداء؛ ليفضحوا الغادر ويعيِّروه، وليحذِّروا الناس منه، فجاء تمييز الغادر في الحديث عن طريق اللواء ليفتضح بهذه العلامة في القيامة، فيذمه أهل الموقف جميعا.

لكن.. أين مكان هذا اللواء؟!

قال النبي ﷺ:

«إن لكل غادر لواء يوم القيامة يُعرَف به عند اسْتِه»(٢).

عومِل الغادر بنقيض قصده، لأن عادة اللواء أن يكون في الأمام، فجُعِل في الخلف ليزداد فضحه وتوبيخه وتعذيبه، وبدلا من أن يحمل اللواء بيديه، ينغرس اللواء في مؤخرته، بحيث لا يملك صاحبه التخلص منه.

والغرض من الحديث التنفير من الغدر، وبيان أنه من أعظم الجرائم عند الله.

لكن الغدر يتفاوت، ومن ثم فحجم اللواء يتفاوت، بحسب قدر الغدرة.

قال رسول الله ﷺ:

«لكل غادر لواء يوم القيامة يُرفَع له بقدر غدرته، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة»(٣).

وتغليظ جريمة الغدر من صاحب الولاية العامة؛ لأن ضرر غدره يتعدى إلى خلق كثير، ولأن الأمير غير مضطر إلى الغدر لقدرته على الوفاء.

---

(١) صحيح: رواه مسلم عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٤٨٣.
(٢) صحيح: رواه الطيالسي وأحمد عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٢١٥٣.
(٣) صحيح: رواه مسلم عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٥١٧٠.



ومن صور الغدر الشنيعة، ما أخبر به النبي ﷺ:

«إذا اطمأن الرجل إلى الرجل، ثم قتله بعدما اطمأن إليه، نُصب له يوم القيامة لواء غدر»[1].

إن الإسلام دين الوفاء، وقد حارب كل صور الغدر، مع المسلم وغير المسلم، ولذا تبرَّأ النبي ﷺ ممن غدر فقتل، فقال:

«من أمَّن رجلا على دمه فقتله، فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافرا»[2].

٦. حشر الظالمين

قال رسول الله ﷺ:

«ما من أمير عشرة إلا وهو يؤتى به يوم القيامة مغلولا، حتى يفكَّه العدل أو يوبقه الجور»[3].



الإمارة والمسؤولية هي قيود تكبِّل صاحبها في الآخرة، فكل مسؤول مقيَّد، لكن صاحب العدل مفكوك محرَّر، والظالم أسير مقيَّد، ولذا زاد في رواية أحمد:

«لا يفُكُّه مِنْ ذلك الغُلِّ إلَّا العدل».

ولذا يحق لكل مظلوم أن يهتف اليوم:

بيني وبينك يا ظلومُ الموقِفُ ... والحاكِم العَدْلُ الجواد المُنْصِفُ

(١) صحيح: رواه الحاكم عن عمرو بن الحمق كما في صحيح الجامع رقم: ٣٥٧.
(٢) صحيح: رواه النسائي عن عمرو بن الحمق كما في صحيح الجامع رقم: ٦١٠٣.
(٣) صحيح: رواه البيهقي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٦٩٥.



وانظروا إلى عمر بن عبد العزيز بعد أن تولى الخلافة، حيث تقول زوجته فاطمة:

دَخَلْتُ يوما عليه وهو جالِسٌ فِي مُصلَّاه، واضِعا خَدَّهُ على يده ودموعه تسيل على خديه، فقلت: مالك؟ فقال:

«ويحك يا فاطمة، قَدْ وُلِّيتُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ما وُلِّيتُ، فَتَفَكَّرْتُ فِي الفقير الجائع، والمريضِ الضَّائع، والعاري المجهود، واليتِيم المكسور، والأرملة الوحيدة والْمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشَّيخ الكبير، وذي العيال الكثير، والمال القليل، وأَشْباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعَلِمْتُ أَنَّ ربِّي سيسألِني عنهم يوم القيامة، وأنَّ خصمِي دونهم محمد ﷺ، فَخَشيتُ أن لا يَثْبُت لِي حُجَّةٌ عند خصومته، فرحِمْتُ نفسي، فَبَكَيْتُ».

خوف القيامة سر عدل الفاروق

قال أسلم مولى الفاروق عمر:

«خرجْنا مع عمر بن الخطَّاب إلى حرَّة واقِم حتَّى إذا كان بصرار إذا نارٌ، فقال: «يا أسلم، إنِّي لأرى هاهنا ركبًا قصَّر بهم الليل والبرد، انطلق بنا»، فخرجْنا نهرول حتَّى دنونا منهم، فإذا امرأةٌ معها صبيانٌ وقدرٌ منصوبةٌ على النار، وصبيانها يتضاغَوْن، فقال عمر: «السلام عليكم يا أصحاب الضوء»، وكره أن يقول: «يا أصحاب النار»، فقالت: «وعليك السلام»، فدنا، وقال: «ما بال هؤلاء الصبية يتضاغَوْن؟» قالت: «الجوع»، قال: «فأيُّ شيءٍ في هذه القدر؟»

قالت: «ماءٌ أُسكِّتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر».

قال: «إي - رحمكِ الله - وما يدري عمرَ بكم؟»

قالت: «يتولَّى أمْرَنا ثمَّ يغفل عنا؟!»

قال: فأقبل عليَّ فقال: «انطلِقْ بنا»، فخرجْنا نهرول حتَّى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيقٍ، وكبَّة شحمٍ، فقال: «احمِلْه عليَّ»، فقلت: «أنا أحمله عنك»، فقال:

«أنت تحمل وزري يوم القيامة - لا أمَّ لك - ؟»

فحملتُه عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا، فجعل يقول لها: «ذُرِّي عليَّ وأنا أُحرِّ لكِ»، (أعمل لك حريرةً)، وجعل ينفخ تحت القدر، ثمَّ أنزلها فقال: «ابغني شيئًا»، فأتته بصحفةٍ فأفرغها فيها، ثمَّ جعل يقول: «أطعِميهم وأنا أسطح لهم»، فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فَضْل ذلك، وقام وقمت معه فجعلت تقول:

«جزاك الله خيرًا، كنتَ أَوْلى بهذا الأمر من أمير المؤمنين».

ثمَّ تنحَّى عنها ناحية، ثمَّ استقبلها، فربض مربضًا، فقلتُ:

«إنَّ لك شأنًا غير هذا!».

فقال: «يا أسلم، إنَّ الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببتُ ألاَّ أنصرف حتى أرى ما رأيت».

وفي رواية:

«.. فلمَّا ضحكوا طابت نفسي».

ولله درُّ حافظ إبراهيم حين قال في «عمريَّته»:

وَمَنْ رآه أَمـام القِـدْرِ مُنْبَطِحًا ... والنَّارُ تأخذُ منه وَهْوَ يُذْكِيها
وقد تخلَّل في أثناء لحيتـه ... منها الدُّخانُ وفوهُ غاب في فيها
رأى هناك أمير المؤمنين على ... حالٍ تَروعُ لَعَمْرُ الله رائيها
يَسْتَقْبِلُ النَّار خَوفَ النَّارِ في غَدِهِ ... والعينُ مِنْ خشيةٍ سالتْ مآقيها

صاحب الزوجتين الظالم!

حتى هذا النوع من يفضحه الله يوم الحشر!

قال النبي ﷺ:

«من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشِقُّه مائل»[1].

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٥١٥.



أي جاء يوم القيامة وأحد جنبيه ساقط؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فلما لم يعدل بين زوجتيه وحاد عن الحق، كان جزاؤه أن يجيء يوم القيامة ونصفه مائل، بحيث يراه أهل الموقف جميعا، فيكون هذا زيادة في تعذيبه؛ لأن الافتضاح لون من أشدِّ ألوان العذاب.

فإن قال قائل: قد قال الله في سورة النساء:

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، فاعلم أن المنفي هنا هو الحب والمودة؛ لأن ذلك مما لا يملكه الرجل ولا هو في قدرته.

قال ابن المنذر: «دلَّت هذه الآية على أن التسوية بينهن في المحبة غير واجبة»، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن عائشة أحب إليه من غيرها من أزواجه، فالمراد بالميل في الحديث: عدم العدل بين زوجتيه في ما يملك من الكسوة والنفقة والمبيت لا المحبة، فهذه مما لا يملكها العبد.

وينبغي قياسا على نفس المبدأ: العدل بين الأولاد، والعدل بين أفراد الرعية إن كنت مديرا أو مسؤولا، فهذا كله مما يجب فيه مراعاة العدل وعدم الميل.

٧. حشر مانعي الزكاة:

مانع الزكاة له عذاب معجل يوم القيامة قبل عذاب النار، وجاءت الأحاديث بأن هذا العذاب سيكون على صورتين:

الصورة الأولى:

قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده -أو: والذي لا إله غيره، أو كما حلف- ما من رجل تكون له إبل، أو بقر، أو غنم، لا يؤدي حقها، إلا أُتِيَ بها يوم القيامة، أعظم ما تكون وأسمنه، تَطَؤُهُ بأخفافها، وتنطحه بقرونها، كلما جازت أُخراها، رُدَّت عليه أولاها، حتى يُقضَى بين الناس»[1].

هذا عذاب الذي منع زكاة ماله من الإبل والأبقار، وذلك أن يبسط لها مكان واسع مستو تجري فيه، وتأتي أعظم ما تكون وأسمنه، حتى ولو كانت هزيلة في الدنيا، كزيادة في عقوبته،

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي ذر كما في صحيح البخاري رقم: ١٤٦٠.



فتكون أثقلَ في وطئها، ويسقط صاحبها تحتها، فتخبط وجهه بأخفافها، وتنطحه بقرونها، وليس مرورها عليه مرة واحدة، بل كلما مرَّت عليه عادت لتمُرَّ عليه مرة ثانية وثالثة وهكذا، فعددها المحدود يصاحبه التكرار غير المحدود؛ ليكون العذاب مستمرا متصاعدا.

الصورة الثانية:

قال رسول الله ﷺ:

«من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته، مُثِّل له يوم القيامة شجاعا أقرع، له زبيبتان، يطوِّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلِهْزِمتيه (يعني شدقيه أو فكَّيه)، ثم يقول: أنا مالُك.. أنا كنزك، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾»[1].

وفي هذا الحديث الثاني لونان من العذاب:

العذاب البدني:

بأن تفترسه حية من أعظم الحيات من فكَّيه، وهما لحم الخدَّين الذي يتحرك إذا أكل الإنسان، لكن تجري قبل الافتراس مطاردة رهيبة.

جاء في رواية للبخاري عن الشجاع الأقرع: «يفِرُّ منه صاحبه، فيطلبه»[2].

وزاد في تفصيل أكبر في صحيح ابن خزيمة:

«فلا يزال يتبعه حتى يُلقِمه يده فيُقَضْقِضُها، ثم يَتْبَعَه سائر جسده»[3].

العذاب النفسي:

بأن يناديه هذا الثعبان بلسان ناطق يسمعه: «أنا مالك.. أنا كنزك».

وفائدة هذا القول: الحسرة وزيادة الإيلام والتعذيب حين لا ينفعه الندم، وفيه نوع من

---

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٤٥٦٥.
(٢) صحيح البخاري رقم: ٦٩٥٧.
(٣) حسن: رواه ابن خزيمة عن ثوبان كما في صحيح ابن خزيمة رقم: ٢٢٥٥.



التهكم ليزداد همُّه وغمُّه.

إن الإسلام لا يحارب الغنى، بل يرفع الغني الشاكر درجات عالية في الجنة، ولك أن تحوز المليارات، شريطة أن تؤدي زكاتها، فإذا أديت زكاتها، فقد رفعت عنها اسم الكنز المذموم الذي ذكره الله في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤].

ومن هنا بشَّرنا النبي ﷺ فقال: «ما بلغ أن تؤدي زكاته فزُكِّي، فليس بكنز»(١).

٨. حشر أهل الصلاة والمتوضئين:

عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«أمتي يوم القيامة غُرٌّ من السجود، محجّلون من الوضوء»(٢).

والغرة بياض في جبهة الفرس، والتحجيل بياض في يديها ورجليها، وسُمِّي النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة غرة وتحجيلا تشبيها بغرة الفرس.

وقد حرص النبي ﷺ على إشعال روح المنافسة بين الصحابة في إحسان الوضوء، فعن نعيم بن عبد الله، أنه رأى أبا هريرة يتوضأ فغسل وجهه ويديه حتى كاد يبلغ المنكبين، ثم غسل رجليه حتى رفع إلى الساقين، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن أمتي يأتون يوم القيامة غرا محجلين من أثر الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»(٣).

٩. حشر الشهداء:

ومن مشاهد يوم القيامة: مشهد أقوام يحشرون ودماؤهم تسيل منهم، وهم الشهداء، وهذا إكرام لهم وبيان لفضلهم، وتشهيرٌ ببذلهم وعلو مقامهم، لأن الجزاء من جنس العمل.

(١) صحيح: رواه أبو داود عن أم سلمة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥٨٢.
(٢) صحيح: رواه الترمذي عن عبد الله بن بسر كما في صحيح الجامع رقم: ١٣٩٧.
(٣) صحيح: رواه مسلم في صحيحه رقم: ٢٤٦.



في الحديث:

«كل كَلْم يكْلَمه المسلم في سبيل الله تعالى يكون يوم القيامة كهيئتها إذا طعنت، تفجَّر دما، واللون لون الدم، والعَرْف عَرْف مسك»[١].

مرَّ رسول الله ﷺ يوم أحد بحمزة رضي الله عنه وقد جُدِع أنفه، ومُثِّل بجثمانه، فقال: لولا أن تجزع صفية لتركته حتى يحشره الله عز وجل من بطون الطير والسباع، وكان هذا دعاء كثير من السلف والصالحين: اللهم احشرني من حواصل الطير وبطون السباع، وسبب ذلك أن يتضاعف أجرهم، ويعلو عند الله قدرهم.

ومثل هذا ما دعا به عبد الله بن جحش يوم أحد، فقال: يا رب.. إذا لقيت العدو غدا، فلقِّني رجلاً شديدا بأسه، شديدا حرده، أقاتله فيك، ويقاتلني، ثم يأخذني، فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدا، قلتَ: يا عبد الله.. من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت.

قال سعد بن أبي وقاص: «فلقد رأيته آخر النهار، وإن أذنه وأنفه لمعلَّقتان في خيط».

١٠. حشر صاحب القرآن

عن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «وإنَّ القرآن يلقى صاحِبَهُ يوم القيامة حين يَنْشَقُّ عنه قَبْرُه كالرَّجُل الشَّاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أَعْرِفُك، فيقول: أنا صاحبك.. القرآن الَّذي أظمأتُك في الهواجر وأسهَرْتُ ليلك، وإنَّ كُلَّ تاجرٍ مِنْ وراء تجارته، وإنَّك اليوم من وراء كل تجارة، فيُعطى الْمُلْكَ بيمينه، والخُلد بِشِماله، ويوضَع على رأسه تاج الوقار، ويُكْسَى والِداه حُلَّتَيْن لا يقوم



(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٤٥٤٤.



لهما أهل الدنيا، فيقولان: بِمَ كُسِينا هذا؟ فيُقال: بِأَخْذ وَلَدِكما القرآن، ثُمَّ يُقال له: اقرأ واصعد في دار الجنَّة وغُرَفِها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هَذًّا كان، أو ترتيلا»[1].

والرجل الشاحب هو الذي تغير لونه، وكأن القرآن يأتي على هذه الهيئة ليكون أشبه بصاحبه في الدنيا، فقد دفعه القرآن لقيام الليل وصيام النهار حتى ظهر أثر ذلك عليه، فلم يكن القرآن ترانيم يتغنى بها صاحبها دون تهذيب سلوك أو تغيير عادات، وهذا دليلٌ على أن القرآن الذي لا تأثير له على عمل العبد وسلوكه لا يكون حجة لصاحبه، وإنما حال صاحب القرآن يجب أن يكون مغايرا لمن حوله، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

«ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرَف بليله إذا الناس نائمون.

وبنهاره إذا الناس مستيقظون.

وببكائه إذا الناس يضحكون.

وبصمته إذا الناس يخوضون.

وبخضوعه إذا الناس يختالون.

وبحزنه إذا الناس يفرحون».

١١ . حشر ذي الوجهين:

قال رسول الله ﷺ:

«من كان له وجهان في الدنيا، كان له يوم القيامة لسانان من نار»[2].



يريد به ذلك الشخص الذي يأتي كل قوم بما يرضيهم، سواء كانوا على خير أم شرٍّ، وهذه هي المداهنة المحرمة، وإنما سُمِّي (ذو الوجهين) مداهنًا؛ لأنه

(١) السلسلة الصحيحة رقم: ٢٨٢٩.

(٢) صحيح: رواه أبو داود عن عمار كما في صحيح الجامع رقم: ٦٤٩٦.



يُظهِر لأهل المنكر أنه راضٍ عنهم، فيلقاهم بوجه سمح بالترحيب والبِشْر، وكذلك يُظهِر لأهل الحق أنه عنهم راض، فبخلطته لكلا الفريقين وإظهار رضاه عن فعلهم، استحق اسم المداهنة، تشبيها بالدهان الذي يظهر على ظواهر الأشياء ويستر بواطنها.

قيل لابن عمر: إنا ندخل على أمرائنا، فنقول القول، فإذا خرجنا قلنا غيره. قال: كنا نعده نفاقا على عهد رسول الله ﷺ.

١٢ . حشر مغتصب الحقوق:

قال رسول الله ﷺ:

«لا يأخذ أحد شبرا من الأرض بغير حقه إلا طُوِّقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة»[١].

وفي معنى «طُوِّقه» قولان:

- أحدها: معناه أنه يُعاقب بالخسف إلي سبع أرضين، فتكون كل أرض في تلك الحالة طوقا في عنقه كالطوق الذي تلبسه المرأة للزينة.
- والثاني: أنه يُكلَّف بنقل ما أخذ ظلما من الأرض في القيامة، فيحمل سبع أرضين في مقابل هذا الشبر الحقير المغصوب، وذلك كما يحمل السارق ما سرق على عنقه يوم القيامة على سبيل الفضيحة والتعذيب.

وكما ترى، فالجزاء من جنس العمل، وذلك أن هذا الظالم لما تحمل هذا الإثم بالنسبة للأرض، جوزي بأن يتحمل العقوبة بمثلها يوم القيامة.

وفي تقييد الأخذ بالشِّبر مبالغة، وبيانُ أن ما زادَ على الشبر أَوْلى بالعقوبة، ونظيرُه قوله ﷺ في اليمين الكاذبة التي يغصب بها صاحبها حقوق الغير: «وإن كان قضِيبًا مِنْ أرَاكٍ»، كما جاء في الحديث:

«من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرَّم عليه الجنة، وإن كان قضيبا من أراك»[٢].

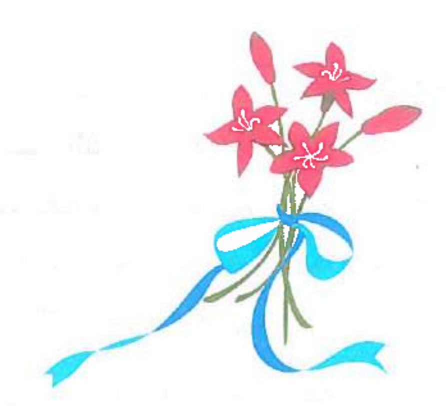
(١) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٥٧٧.
(٢) صحيح: رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أبي أمامة الحارثي كما في صحيح الجامع رقم: ٦٠٧٦.



فما أقبح الظلم، وما أشد وعيد الظالم، وما أغلظ عقوبته، وكل هذا ردع للأمة عن الظلم، ورحمة بها كي لا تقع في براثنه.

وليس الظالم وحده من تناله العقوبة، بل كل من علاه من مدراء أو وزراء أو رؤساء إذا بلغهم ظلمه ولم يردّوه، أرسى هذه القاعدة **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه حين قال:

«أيما عامل لي ظلم أحدا، وبلغتني مظلمته، ولم أغيِّرها فأنا ظلمته».





وهي من الخصال الخمسة التي أُعْطيها النبي ﷺ، ولم يُعْطها أحد من الأنبياء قبله، وقد قال عنها النبي ﷺ:

«أتاني آتٍ من عند ربي، فخيَّرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترتُ الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئا»[1].

وهذا دليل على أن الشفاعة ستشمل أكثر من نصف الأمة، وفي سنن ابن ماجة بسند فيه ضعف:

«خُيِّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة، فاخترتُ الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفى، ترونها للمتقين، لا ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين»[2].

ومن كرم النبي ﷺ أن جعل شفاعته للمذنبين، لكونهم أحوج إليها من الطائعين، كأنَّه هيَّأ فرص النجاة للمقصِّرين ليلحقوا بالمجتهدين.

(١) صحيح: رواه أحمد عن أبي موسى والترمذي وابن ماجة عن عوف بن مالك كما في صحيح الجامع رقم: ٥٦.
(٢) ضعيف: رواه أحمد عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٢٩٣٢.



والشفاعة بين الناس هي التوسط في جلب نفع لهم، أو دفْع ضرٍّ عنهم، في غير معصية، وتَشمل: التحريض على الصَّدقات، وتفريج الكربات، وقضاء الحاجات، والتوسُّط في الإقالة من بيع لمضطرٍّ، وإنظار معسر إلى ميسرة، والتوسُّط في تخفيف الدَّين عن المدين، أو إبرائه منه، أو أدائه عنه.

لكن الشفاعة في حق النبي ﷺ شيء آخر غير كل هذا، ولا تكون إلا يوم القيامة، وهو سبعة أنواع:

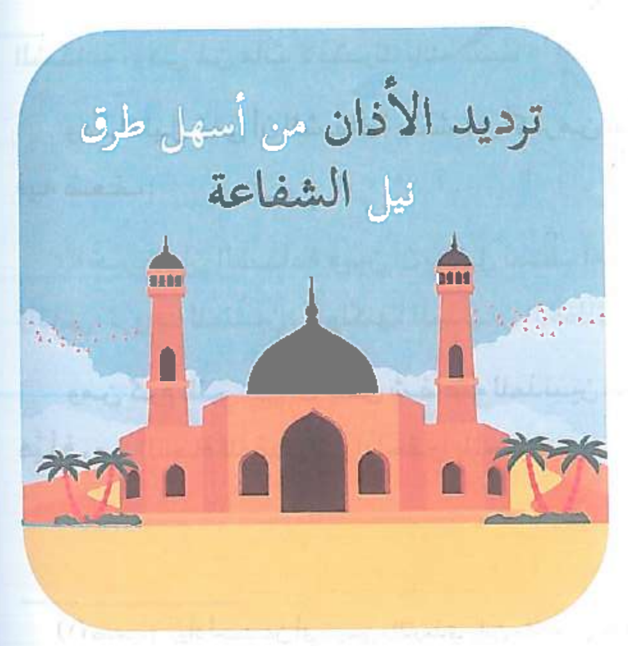


أولها: الشفاعة العظمى

وهي المقام المحمود الذي وعده الله إياه في قوله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء:٧٩].

وهذه شفاعة عامة لأهل الموقف ليعجِّل الله حسابهم ويستريحوا من طول الموقف يوم القيامة وشدة كربه، وهذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ وحده دون باقي الخلق حتى الأنبياء، فيشفع النبي ﷺ للخلائق كلهم، لأمته وغيرها من الأمم، بعد أن جاؤوا إلى كبراء الرسل -عليهم الصلاة والسلام- يسألونهم أن يشفعوا لهم إلى ربهم، لفصل القضاء، فيتدافع الشفاعة أولئك المرسلون، ويتنصلون منها ويعتذرون، حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ، فيتقدم فيشفع، ويسأل فيُعطى، فيحمده كل الخلق لما يرون من فضله عند ربه، ولما وصل إليهم من الخير، وهذا هو المقام المحمود.





وهو ما ندعو به كل يوم خمس مرات! عقب كل أذان! وما أكثر من يضيع سنن الأذان! ومنها هذا الدعاء الثمين الذي علّمنا إياه سيد المرسلين.

في صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، إلا حلَّت له الشفاعة يوم القيامة»[1].

لكن ما الوسيلة؟!

الوسيلة هي المرتبة الزائدة على سائر الخلق، كما في الحديث:

«سلوا الله لي الوسيلة أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو»[2].

وسؤال الوسيلة للنبي ﷺ من أسباب الفوز بشفاعته، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّتْ عليه الشفاعة»[3].

خفة حساب المؤمنين

ومما يخفف موقف يوم القيامة على المؤمنين أن الله يناديهم بنفسه:

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [الزخرف:٦٨].

(١) صحيح البخاري رقم: ٦١٤.
(٢) صحيح: رواه الترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٦٣٦.
(٣) صحيح: رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما في صحيح مسلم رقم: ٣٨٤.



ذكر المحاسبي في الرعاية:

«ينادي المنادي يوم القيامة:

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فيرفع الخلائق رؤوسهم، يقولون: نحن عباد الله، ثم ينادي الثانية:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾، فينكّس الكفار رؤوسهم، ويبقى الموحّدون رافعي رؤوسهم.

ثم ينادي الثالثة:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣]، فينكّس أهل الكبائر رؤوسهم، ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسهم، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم».

ولاحظ أنه لم يقل: يا عبادي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لا خوف عليكم، ليكون ذلك أنكى لقلوب غير المؤمنين، وأشد حسرة عليهم، حيث يطمعون أولا في الدخول تحت مظلة هذه البشارة: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، قبل أن ينزل عليهم نبأ الحرمان كالصاعقة، وعندها ينزل بهم اليأس الشديد.

فإن سألتَ:

لم نفى الخوف بالاسم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾، بينما نفى الحزن بالفعل: ﴿تَحْزَنُونَ﴾؟!

فالجواب:

لأن سبب الخوف مستقبلي، والمستقبل ليس فيه تجدد، بينما سبب الحزن ماض متجدِّد، كلما تذكره الإنسان تجددت أحزانه، فناسب أن يستعمل مع التجدد الفعل المضارع، وما أبرد وقع هذه البشارة الربانية على قلوب المؤمنين، فلا خوف ولا حزن يمسهم ابتداءً من اليوم وإلى الأبد.

لماذا كانت الشفاعة هي المقام المحمود رغم كثرة محامد الرسول؟!

والجواب:

من المعلوم أن حمد الإنسان لغيره على سعيه في تخليصه من العقاب أعظم من حمده



له على سعيه في زيادة ثوابه؛ لأن احتياج الإنسان لدفع الآلام والشدائد أعظم من احتياجه لتحصيل المنافع والفوائد، وأعظم الآلام: آلام الآخرة، وأشد الأهوال: أهوال يوم القيامة، ولذا فهم جمهور المفسرين أن المقام المحمود هو الشفاعة، وهي المراد بقوله عليه السلام:

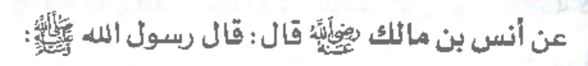
«لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة»[١].

وهذا من حسن رأيه ونظره ﷺ ورحمته بأمته حيث اختار أن تكون دعوته في ما يبقى، والآخرة خير وأبقى.

لكن هل لا يستجاب للأنبياء إلا دعوة واحدة؟!

قال ابن حجر:

«اعلم أن جميع دعوات الأنبياء مستجابة، والمراد بهذا الحديث أن كل نبي دعا على أمته بالإهلاك إلا أنا، فلم أدعُ، فأُعطيتُ الشفاعة عوضا عن ذلك للصبر على أذاهم».



ثانيها: الشفاعة لأهل الجنة لدخول الجنة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أُمِرتُ لا أفتح لأحد قبلك»[٢].

وفي رواية له: «أنا أول شفيع في الجنة»[٣].

ويكون أول من يدخل الجنة فقراء المهاجرين، كما جاء في الحديث:

«أول زمرة تدخل الجنة من أمتي: فقراء المهاجرين، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة، ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أو قد حوسبتم؟ قالوا: بأي شيء نحاسب؟ وإنما كانت

---

(١) صحيح البخاري رقم: ٦٣٠٤.
(٢) صحيح: رواه مسلم رقم: ٣٣٣.
(٣) صحيح: رواه مسلم رقم: ٣٣٢.



أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك؟ فيُفتح لهم، فيقيلون فيها أربعين عاما قبل أن يدخلها الناس»[١].

هذه الزمرة من الفقراء التي لا يأبه الناس لها ولا يعرفون أسماءها، ولم تنل مكانتها في الدنيا لقلة مالها ورِقَّة حالها، هي السابقة يوم القيامة، وفي مقدِّمة صفوف الجنة، وهذا إن دلَّ على شيء، فإنما يدل على أن موازين الآخرة مختلفة، وأننا يجب ألا تخدعنا المظاهر عن الجواهر، فرُبَّ مغمور بين الناس يسبقهم يوم القيامة، ورُبَّ مشهور بين الناس يتقدم بعلمه ودينه، لكن يتأخر الصفوف يوم القيامة.

ثالثها: شفاعة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب

فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ ذكر عنده عمه أبو طالب فقال:

«لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعَل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، يغلي منه أمُّ دماغه»[٢].

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه أنه قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك، فقال ﷺ: «هو في ضَحْضاحٍ مِنْ نارٍ، ولولا أنا لكان في الدَّرك الأسفل من النَّار»[٣].

والضحضاح: ما رقَّ من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين، فاستعير هذا اللفظ لتخفيف عذاب النار.

وهذه الشفاعة ليس معناها أن الكافر ينفعه عمله، لكنها تكريم خاص بالنبي ﷺ، لا يناله غيره، فلا أحد يشفع في كافر أبدًا إلا رسول الله ﷺ، ومع هذا لم تقبل الشفاعة كاملة، وإنما كان أثرها تخفيف العذاب فحسب.

(١) صحيح: رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٩٦.
(٢) صحيح الجامع رقم: ٥٠٨٧.
(٣) صحيح: صحيح مسلم رقم: ٢٠٩.





رابعها: شفاعته ﷺ في دخول أناس من أمته الجنة بغير حساب

لقول النبي ﷺ:

«سألت الله الشفاعة لأمتي، فقال: لك سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. قلت: رب زدني، فحثا لي بيديه مرتين، وعن يمينه وعن شماله»[1].

سبعون ألف
يدخلون الجنة
بلا حساب ولا عذاب

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه:

«وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفا، بلا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفا، وثلاث حثيات من حثيات ربي»[2].

ضَرْب المثَل بالحثيات؛ لأن شأن المُعْطي إذا طُلِب منه الزيادة، أن يحثو بيديه بغير حساب، وهو دليل على المبالغة في الكثرة.

هذا يعني أن عدد من يدخل الجنة بغير حساب هائل، وأن مجموع هؤلاء:

سبعون ألفا + أربعة ملايين وتسعمائة ألف + ثلاث حثيات عظيمة لا يعلم عدد من فيها إلا الله.

(١) صحيح: رواه هناد عن أبي هريرة كما في الجامع رقم: ٣٥٩٠.
(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن حبان عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: ٧١١١.





لقول النبي ﷺ: «يخرج من النار قوم بالشفاعة كأنهم الثعارير»(١).

والثعارير هي صغار القثَّاء (الثوم) أي النبات الصغير، وهذا التشبيه لهم بعد أن ينبتوا بماء الحياة بعد خروجهم من النار، وأما في أول خروجهم من النار، فإنهم يكونون كالفحم.

وتنصرف كلمة الشفاعة إذا أُطلِقت إلى هذا النوع، أي من يشفع لهم النبي ﷺ في الخروج من النار، ولذا لما سَمِع عليٌّ رضي الله عنه امرأة تدعو: «اللهم أدخلني في شفاعة محمد»، قال لها: «إذن تَمَسَّكِ النار».

ومن أدلة هذا النوع من الشفاعة قول النبي ﷺ كما في سنن الترمذي عن عمران بن حصين:

«ليخرجن قوم من أمتي من النار بشفاعتي يسمون الجهنميين»(٢).

وذلك نسبة إلى جهنم، وهذا الاسم مختص بمن شفع لهم النبي ﷺ بالخروج من النار، لكن كأن في إطلاق هذا الاسم نوع انتقاص، لذا جاء في صحيح مسلم:

«فيدعون الله، فيذهب عنهم هذا الاسم»(٣).

ولذهاب هذا الاسم عنهم قصة، وللقصة تفصيل، والتفصيل جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه حين سئل: أسمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢]؟!

فقال: نعم، سمعته يقول:

«يخرج الله أناسا من المؤمنين من النار بعدما يأخذ نقمته منهم. قال: لما أدخلهم الله

---
(١) صحيح رواه الشيخان عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٨٠٥٩.
(٢) صحيح: رواه الترمذي وابن ماجة عن عمران بن حصين كما في صحيح الجامع رقم: ٩٤٩٣.
(٣) صحيح: صحيح مسلم رقم: ٩٤٩٣.



النار مع المشركين، قال المشركون: أليس كنتم تزعمون في الدنيا أنكم أولياء، فما لكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم أذن في الشفاعة، فيتشفع لهم الملائكة والنبيون حتى يخرجوا بإذن الله، فلما أُخرجوا قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم، فتدركنا الشفاعة، فنخرج من النار، فذلك قول الله جل وعلا: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر:٢] قال: فيسمون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: ربنا أذهب عنا هذا الاسم. قال: فيأمرهم فيغتسلون في نهر في الجنة، فيذهب ذلك منهم»[1].

بشرى لأصحاب الكبائر!

جاء في حديث جابر:

«شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»[2].

لذا كان جابر رضي الله عنه يقول:

«من لم يكن من أهل الكبائر، فما له وللشفاعة».

وكان في هذا تربية نبوية في غاية الأهمية لأصحاب النبي ﷺ، فقد أمسك بعض الصحابة عن الاستغفار لأصحاب الكبائر، فأراد النبي ﷺ أن يعلِّمهم أن رحمة الله لا تضيق عن أحد من خلقه، ولعل هذا الإمساك عن الاستغفار يؤدي بهم إلى العُجْب والاستكبار، واسمع ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنه:

«ما زلنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر، حتى سمعنا من نبينا ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة».

وعن ابن عمر رضي الله عنه في رواية أخرى:

«فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا».

(١) صحيح: صحيح ابن حبان رقم: ٧٣٨٩.

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن حبان عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٣٧١٤.



وتبقى شفاعة الله!

في صحيح البخاري عن المؤمنين الذي اجتازوا الصراط، يسألون عن إخوانهم الذين سقطوا في جهنم:

«يقولون: ربنا إخواننا، كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا، فيقول الله تعالى: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرِجوه، ويحرِّم الله صورهم على النار، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه، وإلى أنصاف ساقيه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه، فيُخرِجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا»[1].

قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرؤوا:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ [النساء:٤٠].

ألا ما أروع هذا الحديث..

إن حثَّنا هذا الحديث على شيء، فهو يحثنا على أن نختار صحبتنا اليوم، وأن ندقِّق في اختيار من حولنا، حتى إذا فاتتنا النجاة غدا (لا قدَّر الله)، وجدنا من أهل الجنة من يذكرنا، ولا يلهيه نعيم الجنة العظيم عن ذكر أصحابه من أصحاب الجحيم.

يدخل أهل الجنة الجنة، فيتفقَّدون أصحابهم، فلا يجدونهم معهم، ثم يعلمون أنهم ليسوا من أهل النجاة، فيطلبون من الله أن ينقذ أحبابهم من النار، ويلحقهم بهم في دار الأبرار، فيجيبهم الله إلى ما يريدون.

والمرعب في هذا الحديث أن من سقط في النار كانوا قوما يصلون ويصومون ومع الصالحين يعملون، ومع هذا كان مصيرهم إلى النار، فكيف بمن لا يصلي ولا يصوم؟! وهذا

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رقم: ٧٤٣٩.



والله من أهم دوافع الخوف وأسباب الوجل، مع عدم الاغترار بالعمل.

أما كون المؤمنين يذهبون إلى النار، وكيف يستطيعون الوصول إليها؟

والتعرف على من كان في قلبه مثقال دينار، أو نصف دينار، أو مثقال ذرة من إيمان؟

فهذه كلها من أمور الآخرة، ولا تقاس بما تعارف عليه الناس اليوم في دنياهم، وليس بمستبعد على قدرة الله أن يجعل النار غير مؤذية للمؤمنين الباحثين عن إخوانهم في النار، كالملائكة الذين يعذبون أهل النار.

كلما كثر عدد من عرفت من الصالحين أو أحببت من الشهداء، زادت فرص أن يشفعوا لك، ويكونوا سبب نجاتك، فاستكثِر منهم اليوم ما استطعتَ، واستبشِر!

وتبقى شفاعة الله، وهي فرصة الرحمة الأخيرة!

قال رسول الله ﷺ:

«فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار، فيخرج أقواما قد امْتُحِشُوا، فيلقون في نهر بأفواه الجنة، يقال له: ماء الحياة، فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبة في حميل السيل»[(١)].



سادسها: شفاعته ﷺ لقوم استحقوا النار أن لا يدخلوها

فينجون من النار ببركة الشفاعة، ولا يمسهم العذاب مع استحقاقهم له.

قال الحافظ ابن حجر: «ويشفع في بعض المؤمنين بالخروج من النار بعد أن دخلوها، وفي بعضهم بعدم دخولها، بعد أن استوجبوا دخولها».

(١) صحيح البخاري رقم: ٧٤٣٩.



وساق الشيخ ابن عثيمين ما استدلَّ به على هذه الشفاعة، فقال ﷺ:

«وهذه قد يستدل لها بقول الرسول ﷺ: (ما من مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلا، لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفَّعهم فيه)، فإن هذه شفاعة قبل أن يدخل النار، فيشفِّعهم الله في ذلك».



سابعا: شفاعته ﷺ لرفع درجات أقوام من أهل الجنة

والجنة مائة درجة، فيرفع الله من أهل الجنة إلى درجة من درجات الجنة لا يستحقها بعمله.

قال الإمام ابن القيم في هذا النوع من الشفاعة:

«شفاعته لقومٍ مِنْ المؤمنين في زيادة الثواب، ورفعة الدَّرجات، وهذا قد يُستدلّ عليه بدعاء النبي ﷺ لأبي سلمة، وقوله ﷺ: (اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهْديين)، وقوله ﷺ في حديث أبي موسى: (اللهم اغفر لعُبَيْد أبي عامر، واجعله يوم القيامة فوق كثير مِنْ خلقك)».

شفاعة النبي في ثلاثة!

1 المخلصون:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قيل: يا رسول الله.. من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟!

قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننْتُ يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحَدٌ أول منْك، لما رأيتُ مِنْ حرصك على الحديث، أسعدُ النَّاس بشفاعتي يوم القيامة: مَنْ قال لا إله إلا الله خالِصًا مِنْ قلبه أو نفسه»(1).

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٩٩.



وفي مسند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ:

«وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصا، يُصَدِّقُ قلبُه لسانَه، ولسانه قلبَه»[١].

واستدل شيخ الإسلام ابن تيمية بهذه الأحاديث على فضل الإخلاص، فقال:

«وكلما كان الرجل أعظم إخلاصًا، كانت شفاعة الرسول ﷺ أقرب إليه».

2 المصلون عليه:

قال رسول الله ﷺ:

«من صلى عليَّ حين يصبح عشرا، وحين يمسي عشرا، أدركته شفاعتي يوم القيامة»[٢].

وفي سنن الترمذي:

«إن أَوْلى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة»[٣].

والمراد بقوله: «أَوْلى الناس بي» أي: شفاعتي.

وله شاهد عند البيهقي عن أبي أمامة بلفظ:

«صلاة أمتي تعرض عليَّ في كل يوم جمعة، فمن كان أكثرهم عليَّ صلاة، كان أقربهم مني منزلة»[٤].

لأن كثرة الصلاة على النبي ﷺ دليل محبته، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره، ومن أحب رسول الله ﷺ أكثر من الصلاة عليه، فكلما زادت الصلاة عليه كان هذا دليلا على شدة محبته، وبالحب تتقارب المنازل يوم القيامة، وبالحب يحشرنا الله في زمرة حبيبه ﷺ.

(١) صحيح: مسند أحمد رقم: ٧٧٢٥.
(٢) حسن: رواه الطبراني عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٦٣٥٧.
(٣) ضعيف: ضعيف الجامع رقم: ١٨٢١.
(٤) ضعيف: رواه البيهقي عن أبي أمامة كما في ضعيف الجامع رقم: ١١١٥.



3 من حافظ على الدعاء المأثور بعد الأذان كما تقدم.

ولا يشفع في ثلاثة!

قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، وكلُّ غالٍ مارق»(١).

وهما صنفان -كما ترى- لهما أعظم الضرر على المسلمين، إما بالظلم، وإما بالغلو، فكانت عقوبتهما الحرمان من شفاعة النبي ﷺ.

ومن العجيب أن ديننا حذرنا من الظلم تحذيرا شديدا وبصور متنوعة، لكن أمتنا هي أكثر الأمم في استشراء الظلم وشيوعه.

قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه:

«إنْ طالتْ بِكَ مُدَّةٌ أوْشَكْتَ أن ترى قوما يغدون في سَخَط الله، ويروحون في لعنته، في أيديهم مثل أذناب البقر»(٢).

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ:

«سيكون في آخر الزمان شرطة يغدون في غضب الله، ويروحون في سخط الله»(٣).

وأما الصنف الثالث المحروم من الشفاعة، فقد تحدث عنه أنس بن مالك رضي الله عنه، فقال:

«من كذَّب بالشفاعة فلا نصيب له فيها».

فالجزاء من جنس العمل، فمن كذَّب بالشفاعة وادَّعى بطلانها، كان أَوْلَى الناس بالحرمان منها، جزاءًا وفاقًا.

(١) حسن: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٧٩٨.
(٢) صحيح: صحيح مسلم رقم: ٥١٠٠.
(٣) صحيح: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٦٦٦.



قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا سيكلِّمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر بين يديه، فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة»[1].

جميع الخلق سيكلمهم الله غدا مباشرة بلا ترجمان ولا واسطة، فيسألهم عن جميع أعمالهم، خيرها وشرها، دقيقها وجليلها، ما علمه العباد وما نسوه، وكما خلق الله الناس ورزقهم في ساعة واحدة، سيحاسبهم كذلك في ساعة واحدة.

وليس مع العبد ساعة الحساب أنصار ولا أعوان إلا عمله الصالح، ولذا حثَّ النبي ﷺ على اتقاء النار به ولو بأقل القليل، كنصف التمرة، حتى إن لم يجدها العبد، فبكلمة واحدة.. طيبة.

وإن التفكر اليوم في موقف العرض غدا وساعة الحساب، هو خير ما يقوِّم سلوك العبد ويعين على الاستقامة، ولذا قال الإمام ابن دقيق العيد:

«ما تكلَّمتُ بكلمة؛ ولا فعلت فعلاً؛ إلا وأعددت له جوابًا بين يدي الله عز وجل».

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي عن عدي بن حاتم كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٩٨.



ولذا كان وعاظ الخلفاء يذكِّرونهم دائما بهذا الموقف الرهيب، لتلين قلوب الأمراء مع أفراد الرعية، ويردعهم خوف المساءلة بين يدي الله عن كبيرة الظلم وعدم القسمة بالسوية، فهذا ابن السماك واعظ الرشيد، يقول له يحي بن خالد البرمكي: إذا دخلت على هارون أمير المؤمنين فأوجِز، ولا تكثر عليه، فلما دخل عليه وقام بين يديه، إذا به يذكِّره بعرضه على الله قائلا: يا أمير المؤمنين..

إن لك بين يدي الله تعالى مقاما، وإن لك من مقامك منصرفا، فانظر إلى أين منصرفك، إلى الجنة أم إلى النار؟

قال: فبكى هارون حتى كاد أن يموت.

وعمر بن عبد العزيز يبكي ليلة، فيبكي لبكائه أهل الدار، فتقول له زوجته فاطمة:

بأبي أنت يا أمير المؤمنين.. مم بكيت؟

قال: ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله تعالى: فريق في الجنة، وفريق في السعير. ثم صرخ وغُشِي عليه.

ولذا كان بعض السلف يرى في العرض على الله والوقوف بين يديه أهم أسباب عدم الاستغراق في نعيم الدنيا، فقال:

«شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله عز وجل».

كيف يلذُّ العيش من كان موقنا	بأن المنايا بغتة ستعاجله
وكيف يلذُّ العيش من كان موقنا	بأن إله الخلق لا بد سائله

أول القضايا المعروضة غدا!

قال رسول الله ﷺ: «أوَّل ما يُقضَى بين الناس يوم القيامة في الدِّماء»[(١)].

(١) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والنسائي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٢٥٧٧.



وهذا الحديث من أعظم أحاديث تعظيم أمر الدماء في الإسلام، فإن ابتداء الحساب يكون بالأهم، وليس فيه مخالفة للحديث المشهور: «أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة»؛ لأن حديث الصلاة في ما بين العبد وربه، والحديث الأول فهو بين العباد.

أو أن حديث الدماء مثال لمن فعل السيئات، وحديث الصلاة مثال لترك العبادات.

وفي سنن النسائي ما جمع بين الحسابين:

«أول ما يُحاسَب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء»[١].

وأما صفة الفصل في الدماء، فيشرحها النبي ﷺ في مشهد دقيق يحيط بكل التفاصيل، ويبين لنا ما سيجري يوم القيامة بين كل قاتل ومقتول، فيقول ﷺ:

«يأتي المقتول متعلقا رأسه بإحدى يديه، متلبِّبًا قاتله بيده الأخرى، تشخب أوداجه دمًا، حتى يأتي به العرش، فيقول المقتول لرب العالمين: هذا قتلني، فيقول الله للقاتل: تعست، ويذهب به إلى النار»[٢].

إن قضايا القتل -لشدة أهميتها- لا يفصل فيها غدا إلا الله رب العالمين، فلا يوكِل حساب الدماء إلى أحد من الملائكة، وإنما يستدعي كل قاتل ومقتول للوقوف بين يديه، فيُعرَضون عليه ليفصل بينهم، وأما كيف يتسع يوم القيامة للفصل بين كل قتيل وقاتل من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، فالزمان غير الزمان، والأرض غير الأرض، وأحكام ذلك اليوم لا يحيط بها العقل البشري، لذا ينبغي التسليم للخبر الصحيح المروي.

وأما عن أول أمة تحاسب، فهي أمة النبي ﷺ لقول رسول الله ﷺ:

«نحن الآخِرون من أهل الدنيا، والأوَّلون المقضي لهم قبل الخلائق»[٣].

---

(١) صحيح: رواه النسائي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٢٥٧٢.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في المعجم الكبير والأوسط عن ابن عباس كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٦٩٧.

(٣) صحيح: رواه مسلم والنسائي عن حذيفة كما في صحيح الجامع رقم: ١٠١٧.



أقسام المسلمين في الحساب!

المسلمون على أقسام يوم القيامة:

القسم الأول:

من يدخل الجنة بغير حساب، كما في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهؤلاء هم صفوة الأمة، والقمم الشامخة في الإيمان والتقوى والصلاح والجهاد، ووعد الله أن يدخل مع كل ألف سبعين ألفا ممن يدخل في ركابهم، أي مع كل واحد من السبعين ألفا يدخل سبعين رجلا.

القسم الثاني:

من يحاسب حسابًا يسيرًا، وهو العرض فقط، فلا يحاسَب حساب مناقشة، وهذا من أهل السعادة والسرور. قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:٧-٩].

في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس أحد يُحاسَب يوم القيامة إلا هلك»، فقلت: يا رسول الله.. أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق:٧-٨]، فقال رسول الله ﷺ:

«إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك».

ولم يكن النبي ﷺ يضجر إذا راجعه أحد، وإنما أجاب عائشة حين قابلت السُّنَّة بآيات القرآن.

قال القرطبي في معنى هذا العرض:

«إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تُعرَض أعمال المؤمن عليه، حتى يعرف مِنَّة الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة».



القسم الثالث:

من يحاسب حساب مناقشة، وهذا متعرِّضٌ للخطر لقوله ﷺ:

«من نوقش الحساب عُذِّب».

ومعنى نوقش الحساب، أي حوسب حساب استقصاء، فإنه يعذب، والاستقصاءُ في الحساب هو لا يُترَك منه شيء، يقال: انتقشت منه جميعَ حقي، ومنه: نقْش الشوكة من الرِّجْل، وهو استخراجها منها؛ والمعنى: من دُقِّق في حسابه، فقد هلك.

قال النووي في شرحه للحديث: «قال القاضي:

وقوله: «عُذِّب» له معنيان:

أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ.

والثاني: أنه مفض إلى العذاب بالنار، ويؤيده قوله في الرواية الأخرى: (هلك) مكان (عذب) هذا كلام القاضي».

ثم قال النووي:

«وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب في العباد، فمن استُقصِي علي، ولم يُسامَح هلك، ودخل النار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء».

أمثلة من العرض والنقاش والعتاب!

① مناقشة المرائين:

قال أبي هريرة: حدثني رسول الله ﷺ:

«إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله، ورجلٌ كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟! قال: بلى، يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنتُ



أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك.

ويؤتى بصحاب المال فيقول الله: ألم أوسِّع عليك، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى، يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنتُ أصل الرحم، وأتصدق، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد، فقيل ذلك.

ثم يؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتَيَّ، فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة»(١).

② عرض الرب ذنوب عبده عليه:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم.. أي رب، حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى كتاب حسناته، وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود:١٨]»(٢).

وفي رواية سعيد بن جبير:

«فيلتفت يمنة ويسرة، فيقول: لا بأس عليك، إنك في ستري، لا يطَّلع على ذنوبك غيري».

هذا حديث عظيم، يظهر فيه عظيم فضل الله على عباده المؤمنين وستره لذنوبهم يوم القيامة، فيضع الله كنَفَه على عبده، والكنف مستعار من كنَف الطائر أي جناحه، لأنه يحوط به نفسه ويصون به بيضه، ويستره الله عن أهل الموقف، ويكلِّمه فيها سرا، كي لا يفتضح أمره.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٧١٣.
(٢) صحيح: رواه الشيخان وأحمد والنسائي عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ١٨٩٤.



قال علي القاري:

«هذا في عبد لم يغتب ولم يعب ولم يفضح أحدًا ولم يشمت بفضيحة مسلم، بل ستر على عباد الله الصالحين، ولم يدع أحدًا يهتك عرض أحد على ملأ من الناس، فستره الله وجعله تحت كنف حمايته، جزاء وفاقا من جنس عمله».

والستر في الدنيا يؤنس بحصول المغفرة في الآخرة، وما كان الله ليفضح عبدا من أول زلة، فإذا حصل ستر الله، كان في ذلك إشارة إلى أن لهذا العبد عند الله رصيد من الخير، وأن له من القَدْر عند الله ما يستره.

عن أنس بن مالك ﷺ أن عمر أُتِي بسارق، فقال: والله ما سرقتُ قط قبلها، فقال: «كذبتَ! ما كان الله لِيُسلِّم عبده عند أول ذنبه»، فقطع يده.

وفي رواية: «كذبت وربِّ عمر، ما أخذ الله عبدا عند أول ذنب».

(3) معاتبة الرب عبده فيما وقع منه من تقصير:

في الحديث:

«إن الله تعالى يقول يوم القيامة:

يا ابن آدم.. مرضت فلم تعدني. قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلانا مرض، فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

يا ابن آدم.. استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب.. وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان، فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يا ابن آدم.. استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب.. كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان، فلم تسقه، أما إنك لو سقيته، لوجدت ذلك عندي»[1].

(١) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٩١٦.



لاحظ أنه قال في عيادة المريض: «لوجدْتني عِنْده»، وفي الإطعام والسقي: «لوجدتَ ذلك عندي»، وهذا رمز إلى أفضلية ثواب عيادة المرضى ومواساتهم.

4 معاتبة الرب للعبد لعدم استغلال نعم الله عليه:

قال رسول الله ﷺ:

«يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيُقال له: ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا ومالاً وولدًا، وسَخَّرتُ لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع، فكنت تظن أنك ملاقيَّ يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني»[1].

هنا يعدِّد الله نعمه على كل عبد جحود ظالم لنفسه، وهي نِعَمٌ لا تُعدُّ ولا تُحصَى، وإنَّ نعمة واحدة منها لا يستطيع عبد شكرها حق شكرها، فكيف بسائر النعم؟!

يقول الله يوم القيامة لهذا العبد:

ألم أجعلك رئيسًا مطاعًا في قومك؛ وتربع: أي تأخذ ربع الغنيمة، كما كان سيد القوم يفعل في الجاهلية، وكانوا يسمون هذا الربع: المرباع، أي جعلتك مستريحًا في هذه الدار، فأبيت إلا أن تصيب التعب بعذاب النار!

وبدلا من أن تقابل نعمي عليك بالشكر والعرفان، قابلتها بالجحود والعصيان، فاستحققت عقوبتي: أمنعك اليوم من رحمتي كما امتنعت عن طاعتي.

وأتركك بلا رعاية كما تركت أمري واستمرأت الغواية.

ويكشف لنا هذا الحديث أن استثمار العبد لنعم الله عليه في ما يرضي ربه من فروض الأعمار، وشرط من شروط إعمار هذه الدار، وهو تكليف إلهي واختبار إجباري سيحاسبنا الله عليه يوم القيامة:

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥].

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٧٩٩٧.



⑤ عناية الرب بمن أحسن الظن به:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«يخرج من النار أربعة يعرضون على الله عز وجل، فيأمر بهم إلى النار، فيلتفت أحدهم فيقول: أي رب!! قد كنتُ أرجو إن أخرجتني منها أن لا تعيدني فيها، فيقول: فلا نعيدك فيها»[١].

ذكر من الأربعة واحدًا، وحكم عليه بالنجاة، وسبب هذا: حسن ظنه بالله، وفيه تنبيه على عجز هؤلاء الثلاثة وعدم معرفتهم بالله ﷻ، فقد أخرجهم الله من النار، وعرّضهم لأن يسألوه ويسترحموه، لكنهم لعجزهم وفساد طبعهم لم يفطنوا إلى أن الله تعالى لم يخرجهم من النار ويعرضهم عليه لغير سبب، فأبت عليهم شقوتهم وظلمة قلوبهم إلا الصمت والخذلان، فأعيدوا إلى النار ما عدا ذلك المتيقظ منهم الذي قال: قد كنتُ أرجو إن أخرجتني منها أن لا تعيدني فيها، فإنك أهل لأن تُتبِع النعمة النعمة، وتنقذ من الجحيم إلى الراحة والنعيم.

⑥ مناقشة الأمم الأخرى لإقامة الحجة عليهم

ومن مشاهد يوم القيامة ما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُدعَى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير».

وفي رواية الترمذي: «فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد».

فيقال: من يشهد لك؟!

فيقول: محمد ﷺ وأمته.

فيشهدون أنه قد بلَّغ، ويكون الرسول عليهم شهيدا، فذلك قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]»[٢].

(١) صحيح: رواه أحمد في مسنده ٣/٢٢١.
(٢) صحيح: رواه البخاري في صحيحه رقم: ٣٣٣٩.



جعل الله هذه الأمة الأخيرة هي الأمة الوسط، وهي الأمة الشاهدة على جميع الأمم بما أخبرها الله على لسان نبيها وبلغها من قرآن ربها.

7 سؤال العاصي الخائف من ربه:

قال رسول الله ﷺ:

«كانَ رجلٌ ممَّن كان قبلكم لم يعمل خيرًا قطُّ؛ إلا التوحيد، فلما احتُضر قال لأهله: انظروا.. إذا أنا متُّ أن يحرِّقوه حتى يدعوه حمما، ثم اطحنوه، ثم اذروه في يوم ريح، ثم اذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فوالله؛ لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين، فلما مات فعلوا ذلك به، فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه، فإذا هو قائم في قبضة الله، فقال الله عز وجل:

يا ابن آدم! ما حملك على ما فعلت؟

قال: أي ربِّ! من مخافتك (وفي طريق آخر: من خشيتك وأنت أعلم).

قال: فغفر له بها، ولم يعمل خيرًا قطُّ إلا التوحيد»[1].

غفر الله لهذا العبد -وقد قيل أنه كان نباشا للقبور- لأنه عرف قدر ربه، فخاف منه، والخشية لا تكون إلا من مؤمن مُصدِّق؛ وكل من خاف الله فقد آمن به وعرفه، وأقرب الطرق الموصلة إلى الله: مخافته، وأن لا يأمن العبد مكره.

وقوله: «لئن قدر الله عليَّ»:

قيل أنه جهل منه ببعض صفات الله تعالى، وهو أنه على كل شيء قدير، ولا يُخرِجه ذلك من دائرة الإيمان، أو أنه قال ذلك لفرط خوفه من عذاب الله، فغلب خوفه فهمَه.

(١) صحيح: رواه أحمد عن أبي هريرة كنا في السلسلة الصحيحة رقم: ٣٠٤٨.



أخرج أبو داود والإمام أحمد عن عائشة ﵂ أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟ قلت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال: «أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحدًا:

- عند الميزان حتى يُعْلَم أيخِفُّ ميزانه أم يثقل.
- وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره.
- وعند الصراط إذا وُضِع بين ظهري جهنم حتى يجوز»[1].

وقد قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

والطائر هو عمل العبد؛ وشُبِّه بالطائر لأن العمل يعلو بالإنسان، أو يهوي به.

قال السُّدِّي في تفسير هذه الآية:

«الكافر يخرج له يوم القيامة كتاب، فيقول: رب إنك قد قضيت أنك لست بظلام

(١) صحيح: رواه إسحاق بن راهويه في المسند ٣/ ٧٤٠.



للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي، فيقال: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، لكن..

لكن، ماذا إذا كان العبد أميًا يجهل القراءة والكتابة ؟!

قال قتادة: «يقرأ يومئذ من لم يكن قارئًا في الدنيا».

وحُكِي عن الحسن البصري أنه قال:

«قد عدل -والله- فيك، من جعلك حسيب نفسك».

وقال ﷺ ناصحًا: «أعِدَّ للسؤال جوابا، وللجواب صوابا، وإلا فأعد للنار جلبابا».

وما أصدق وصف ابن المبارك لمشهد تطاير الصحف:

وطارت الصُّحُف في الأيدي مُنَشَّرَة ... فيها السرائر والأخبار تُطَّلعُ
فكيف سهوك والأنباء واقعةٌ ... عما قليل ولا تدري بما تقعُ
أفي الجنان وفوزٍ لا انقطاع له ... أم الجحيم فلا تبقي ولا تدَعُ
تهوي بساكنها طورا وترفعهم ... إذا رجَوْا مخرجا من غَمِّها قمعوا
طال البكاء فلم يُرحَمْ تضرُّعهم ... فيها ولا رقية تغني ولا جزَع
لينفعِ العلم قبل الموت عالمه ... قد سال قوم بها الرُّجْعَى فما رجعوا



الناس في استلام الصحف فريقان:

وينقسم الناس في استلام الصحف إلى فريقين: من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشماله أو وراء ظهره.

قال الطبري:

«وأما من أعطي كتابه منكم أيها الناس يومئذ وراء ظهره، وذلك أن جعل يده اليمنى إلى عنقه، وجُعِل الشمال من يديه وراء ظهره، فيتناول كتابه بشماله من وراء ظهره، ولذلك وصفهم جلَّ ثناؤه أحيانًا أنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم، وأحيانًا أنهم يؤتونها من وراء ظهورهم».



وكونه يؤتى كتابه من وراء ظهره؛ لأنه استدبر كتاب الله وأمره، وأعطاه ظهره في الدنيا؛ فكان من العدل أن يؤتى كتاب أعماله يوم القيامة وراء ظهره.

والمسألة ليست باختيار العبد، فإذا أذن الله لعبد بمد يد تبقى يده الأخرى عاجزة، لا يستطيع مدَّها، ثم الكتاب نفسه هو الذي يطير نحو اليد، فإما أن يذهب إلى اليد اليمنى أو اليسرى.

دقة الكتابة!

قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ [الكهف:٤٩].

كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول:

«يا وليتنا: ضجوا إلى الله من الصغائر قبل الكبائر».



هل يُعطى العاصي كتابه بيمينه أم بشماله؟

يُعطى العاصي كتابه بيمينه، أما الذي يُعطى كتابه يوم القيامة بشماله فهو الكافر.

قال يوسف بن عمرو من المالكية:

«اختُلِف في عصاة الموحدين، فقيل: يأخذون كتبهم بأيمانهم، وقيل بشمائلهم، وعلى القول بأنهم يأخذونها بأيمانهم.

قيل: يأخذونها قبل الدخول في النار فيكون ذلك علامة على عدم خلودهم فيها.

وقيل: يأخذونها بعد الخروج منها، والله أعلم».



وموعد الميزان بعد الحساب، وهو تكملة له، أو بمثابة حساب تفصيلي بعد الحساب الإجمالي. قال الإمام القرطبي:

«وإذا انقضى الحساب كان بعد وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها».

الوزن لإظهار مقادير الأعمال، ليكون الجزاء بحسبها

الشر

الخير

والميزان من عالم الغيب الواجب الإيمان به؛ وذلك لما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالجنة والنار والميزان، وتؤمن بالغيب بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

---

(١) صحيح: رواه البيهقي عن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٢٧٩٨.





حجم الميزان:

حجم هذا الميزان ضخم هائل لا يحيط به عقل بشر، بحيث لو وُضِعَت السموات والأرض في كفة الميزان لوسعها، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:

«إن نبي الله نوحا ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين، آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع، والأرضين السبع، لو وُضِعت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة؛ قصمتهن لا إله إلا الله.

وسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يُرزق الخلق.

وأنهاك عن الشِّرك والكِبْر»[١].



هل هو ميزان واحد أو عدة موازين؟

هذه مسألة خلافية، والأصح أنه ميزان واحد، والمراد بالجمع الذي جاء في سورة الأنبياء: الموزونات، وهي متعددة.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾:

قال ابن كثير:

«الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جُمِع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه».

وقال ابن حجر:

«ولا يُشكِل بكثرة من يوزن عمله، لأن أحوال القيامة لا تُكيَّف بأحوال الدنيا».

---

(١) صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد والبيهقي كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٣٤.





دقة الميزان!

دقة الميزان ذرية، وحساسيته خردلية، فمثاقيل الذر وحبات الخردل من الأعمال توزن بكل دقة على كفتي الميزان.

لذا لما استطعم مسكينٌ عائشة أم المؤمنين، وبين يديها عنب، قالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويعجب، فقالت عائشة: أتعجب؟! كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة؟!

الذرة لها قيمة على الميزان غدا، فلا تستحقر ذرة خير، ولا تستهون بذرة شر، واذكر -كلما نسيتَ- عِنَبة أم المؤمنين، ونافس بها غيرك من المؤمنين.

وما أصدق نصيحة ابن حزم حين أوصاك قائلاً:

«لا تحقر مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث أن تُعجِّله الآن وإن قلَّ، فإنه يحطّ عنك كثيرا مما لو اجتمع لقذف بك في النار».

ذرات الحقوق والواجبات!

والذرات ليست فقط ذرات العمل الصالح الذي ينفع صاحبه، بل ذرات الحقوق والواجبات كذلك، وقد روت عائشة ﵂ أن رجلا قعد بين يدي النبي ﷺ فقال:

يا رسول الله..

إن لي مملوكين يكذِّبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟

قال ﷺ:

«يُحسَب ما خانوك وعصوك وكذَّبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم: كان كفافًا لا لك ولا عليك.



وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم: كان فضلاً لك.

وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتُص لهم منك الفضل».

قال: فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ:

«أما تقرأ كتاب الله ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾؟

فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئًا خيرًا من مفارقتهم، أشهدكم أنهم أحرار كلهم»[1].




الميزان من مواطن الشفاعة!

وزن الأعمال على كفتي الميزان موقف رهيب رهيب، لذا سيقف نبينا ﷺ عند الميزان ليشفع لنا عنده، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة فقال: «أنا فاعل».

قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟

قال: «اطلبني أول ما تطلبني على الصراط».

قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟

قال: «فاطلبني عند الميزان».

قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟

قال: «فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاث المواطن»[2].

(١) صحيح: صحيح الترمذي رقم: ٢٥٣١.
(٢) صحيح: رواه الترمذي وأحمد والضياء المقدسي كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٢٦٣٠.



ولن يقف النبي ﷺ عند الميزان -والله أعلم- إلا ليشفع لأناس خفَّت موازينهم، أو تساوت حسناتهم مع سيئاتهم.



أولا: الأشخاص

يوزن العبد ليظهر قدر ما فيه من إيمان بالله ﷻ، فعن زر بن حبيش رضي الله عنه عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يجتني سواكًا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «مم تضحكون؟» قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد»(١).

وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف:١٠٥]»(٢).

وكما يخف الميزان بالكافرين يثقل بالصالحين، وكلما زاد الإيمان رجحت كفة الميزان، وهل هناك أعظم إيمانًا من الصحابة؟ ولذا فلا موازين أثقل من موازينهم؟!

روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداة بعد طلوع الشمس فقال:

«رأيتُ قبيل الفجر كأني أُعطيتُ المقاليد والموازين، فأما المقاليد فهذه المفاتيح، وأما الموازين فهي التي تزنون بها، فوُضعت في كفة، ووُضعت أمتي في كفة، فوُزنتُ بهم فرجَحْتُ، ثم جيء بأبي بكر فوُزن بهم فوزن، ثم جيء بعمر فوُزن فوزن، ثم جئ بعثمان، فوُزن بهم، ثم رفعت»(٣).

---

(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٢٧٥٠.

(٢) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٤٧٢٩.

(٣) صحيح: رواه أحمد عن ابن عمر كما في مسند أحمد رقم: ٥٤٦٩ وصحَّحه أحمد شاكر والألباني.



وقد سبق أبو بكر الصديق وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، ورجح ميزانهم على الأمة جميعا، وذلك لسابق فضلهم وقوة إيمانهم وعظمة بذلهم، وما اطلع الله عليه من قلوبهم.



والسؤال هنا:

كم تزن أنت عند الله؟

والأولى بك أن تجيب عن هذا السؤال بصورة عملية، ووقفة مع النفس عُمَرية، بما يمكن أن نلخّصه في هذه الوصية:

زن نفسك اليوم قبل أن توزَن غدًا.

ثانيا: الأعمال:

الأعمال توزن، وتُجسَّد قبل أن توزن، فتظهر أعمال الطائعين في صورة حسنة، وأعمال المسيئين في صورة قبيحة، ثم توزن.

ويدل على هذا ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»[١].

وما رواه أبو مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان»[٢].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٢٦.
(٢) صحيح: رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي مالك الأشعري كما في صحيح الجامع رقم: ٣٩٥٧.



وقول النبي ﷺ: «من احتبس فرسًا في سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»[1].

ويرى الحافظ ابن حجر أن قول النبي ﷺ: «وروثه وبوله في ميزانه»: يريد ثواب ذلك لا أن الأرواث بعينها توزن.

ثالثا: وزن صحائف الأعمال

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

«إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً -أي كتابًا- كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة؛ فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فقال: إنك لا تُظلَم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة؛ فلا يثقل مع اسم الله تعالى شيء»[2].

ولا تعارض، فقد يوزن الثلاثة: الشخص والعمل وصحيفة الأعمال.

وهذا ما رجحه الشيخ حافظ الحكمي فقال:

«والذي استظهر من النصوص -والله أعلم- أن العامل وعمله وصحيفة عمله -كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن، قد وردت بكل ذلك، ولا منافاة بينها، ويدل كذلك ما رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، فيوضع ما أحصي عليه، فتمايل به الميزان، فيُبْعَث به إلى النار، فإذا أُدْبِر به إذا صائح يصيح من عند الرحمن، يقول: لا تعجلوا، لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها: لا إله إلا

---

(١) صحيح: رواه أحمد والبخاري والنسائي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٩٦٧.

(٢) صحيح: رواه الترمذي وابن ماجة كما في صحيح الجامع رقم: ١٧٧٦، والصحيحة: ١٣٥.



الله،، فتوضع مع الرجل في كِفَّة، حتى يميل به الميزان».

فهذا يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة، وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن».



ما يثقل الميزان؟

العمل الأول: الإخلاص

عن صهيب الرومي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«صلاة الرجل تطوع حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس خمسًا وعشرين»(١).

وسبب هذا أنها أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء.

ولأهمية الإخلاص بدأ البخاري صحيحه بحديث: «إنما الأعمال بالنيات»، وختمه بحديث: «كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم». فالنية يتوقف عليها صلاح العمل وفساده، والميزان هو ما يتبين به قيمة العمل أو بطلانه، وبالتالي سعادة المرء أو شقاؤه، فكان في هذا الترتيب تنبيها للقارئ إلى إخلاص النية في البداية، لما يترتب عليه من ثقل الميزان في النهاية.

العمل الثاني: الخلق الحسن

عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء»(٢).

---

(١) صحيح: رواه أبو يعلى عن صهيب كما في صحيح الجامع رقم: ٣٨٢١.

(٢) صحيح: رواه الترمذي عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٥٦٣٢.



وعنه أيضا رضي الله عنه أن رسول ﷺ قال: «أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن»[1].

وصاحب الخلق الحسن عمل قليلا وأجر كثيرا، لذا يدرك أصحاب الأعمال الكبيرة والعبادات العظيمة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار»[2].

قال أبو الطيب محمد شمس الدين آبادي رحمه الله: «وإنما أعطى صاحب الخلق الحسن هذا الفضل العظيم؛ لأن الصائم والمصلي في الليل يجاهدان أنفسهما في مخالفة حظهما، وأما من يحسن خلقه مع الناس مع تباين طبائعهم وأخلاقهم فكأنه يجاهد نفوسًا كثيرة فأدرك ما أدركه الصائم القائم فاستويا في الدرجة بل ربما زاد».

العمل الثالث: العمل الشاق على البدن وعلى الروح

قال إبراهيم بن أدهم: «أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان».

كلما ثقل عليك العمل، كان أثقل في ميزانك.

فصدقة الفقير المحتاج من ماله أثقل في الميزان من صدقة الغني الموسر ببعض ماله.

وركعتان من عبد منهك الجسد من السعي على الرزق طوال النهار أثقل من عبادة مستريح البدن.

العمل الرابع: الصبر على فقد الولد

قال رسول الله ﷺ: «بخ بخ لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه»[3].

(١) صحيح: رواه ابن حبان عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ١٣٤.
(٢) صحيح: رواه أحمد والحاكم عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ١٦٢٠.
(٣) صحيح: رواه البزار عن ثوبان والنسائي وابن حبان والحاكم عن أبي سلمى كما في صحيح الجامع رقم: ٢٨١٧.



وبخ بخ.. كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء، وتُكرَّر للمبالغة.

فصبرك على فقد الولد فيه مرارة، كلما زادت رجحت كفة الميزان بحسب مقدار الإيلام، والاحتساب هو رضا القلب بفعل الرب، والرضا مقابل الرضا، فرضا العبد عن قضاء الرب يقابله رضا الرب عن العبد، وإذا رضي الله عن عبده، أدهشه بعطائه.

رُوي أن داود ﷺ سأل ربه أن يريه الميزان، فلما رآه غُشِي عليه، فلما أفاق قال: يا إلهي.. من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات؟! فقال:

«يا داود.. إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة».

العمل الخامس: الحمد لله

«والحمد لله تملأ الميزان»[1].

أي أن عِظَم أجر الحمد يملأ ميزان الحامد لله؛ لأن الحمد تعبير عن الرضا، والرضا أفضل أعمال القلوب، كما أن الجهاد ذروة أعمال الجوارح.

الخامس: الحكمة من الميزان

إن قيل: أليس الله ﷻ يعلم مقادير أعمال العباد، فما الحكمة في وزنها؟

قالوا في ذلك:

- إظهار عدل الله ﷻ، وأنه لا يظلم عباده مثقال ذرة.
- إظهار فضل الله، فلو دخل أهل الجنة الجنة قبل الوزن، فربما ظن الطائع أنه نال درجات الجنة عن استحقاق، فتوزن أعماله؛ ليعلم أن ما ناله سببه فضل الله، ولو دخل أهل النار النار قبل الوزن، لتوهَّم المسيء أن عذابه فوق ما يستحق، فتوزن أعماله؛ ليعلم أن عذابه دون ما ارتكب من الحرام.
- الميزان بمثابة حساب تفصيلي بعد الحساب الإجمالي الذي عُرِف بتناول الصحف.

(١) صحيح: رواه مسلم وأحمد والترمذي عن أبي مالك الأشعري كما في صحيح الجامع رقم: ٣٩٥٧.



- إقامة الحجة على العباد بدقة الحساب.
- تعريف العباد بأثقل أعمالهم من الحسنات والسيئات.
- إظهار علامة السعادة والشقاوة، فيزداد المؤمنون سعادة، ويزداد الأشقياء تعاسة.

السادس: أثر الإيمان بالميزان

إذا آمنت بالميزان، وأنَّه ميزان حقيقي له كفتان، توضع حسناتك في كفة، وسيئاتك في كفة، أن كلَّ عملٍ ستبذله في هذه الحياة سيوزن غدًا، فستزداد إقبالاً على الحسنات، وبعدًا عن السيئات، بل وستصبح فوق ذلك انتقائيًا: تنتقي من الحسنات أثقلها، وتحذر من السيئات أخفها على نفسك وأثقلها في ميزانك.

واذكر الميزان كل يوم، وليكن ذلك عند كل نومة، عن طريق هذا الدعاء النبوي:

«كان إذا أخذ مضجعه من الليل قال:

بسم الله وضعت جنبي، اللهم اغفر لي ذنبي، واخسأ شيطاني، وفُكَّ رهاني، وثقِّل ميزاني، واجعلني في النَّديّ الأعلى»[1].

ومعنى: «واخسأ شيطاني»:

اجعله مطرودا عني ومردودا عن إغوائي، والنديُّ هو المجلس أو القوم، والأعلى: يريد بهم الملأ الأعلى وهم الملائكة.



(١) صحيح: رواه أبو داود والحاكم عن أبي الأزهر كما في صحيح الجامع رقم: ٤٦٤٩.



الحوض موجود الآن:

ثبت عن النبي ﷺ أنه خطب ذات يوم في أصحابه، فأقسم قائلا:

«وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن»(١).

وللنبي ﷺ منبر يخطب به على الحوض، ففي صحيح البخاري:

«ومنبري على حوضي»(٢).

أي يكون للنبي ﷺ يوم القيامة منبر، فينصب على الحوض، ثم يصعد عليه النبي ﷺ، ويدعو أمته إليه: هلموا هلموا، فيتسارع إليه الناس، ويتزاحمون على حوضه.

قال رسول الله ﷺ: «لتزدحمن هذه الأمة على الحوض ازدحام إبل وردت لخمس»(٣).

---

(١) صحيح: رواه البخاري عن عقبة بن عامر كما في صحيحه رقم: ٦٥٩٠ ومسلم رقم: ٢٢٩٦.
(٢) صحيح: رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥٨٧.
(٣) حسن: رواه الطبراني عن العرباض كما في صحيح الجامع رقم: ٥٠٦٨.



أي حُبِسَت هذه الإبل عن الماء أربعة أيام حتَّى اشْتَدَّ عطشها، ثمَّ وردت على الماء في اليوم الخامس، فكما أنَّها تزدحم عليه لشِدَّة ظمئها، فكذلك تزدحم هذه الأمة على الحوض يوم القيامة لشِدَّة الحر وقُوَّة العطش، فتخيل نفسك وأنت في شدة هذا الحر والعطش، تلمح حوضًا ضخمًا، ماؤه من الجنة، ولا تجري ماؤه على طين بل على تربة جنة النعيم.

الحوض
حين يختفي الظمأ إلى الأبد



قال النبي ﷺ: «حوضي كما بين صنعاء والمدينة، فيه الآنية مثل الكواكب»(1).

وقال ﷺ في حديث آخر: «حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء»(2).

وهو هنا يصف شكله، فأضلاع الحوض متساوية، وهو مربع الشكل.

وفي صحيح مسلم: «عرضه مثل طوله»(3).



قال النبي ﷺ:

«وماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكِيزانُه كنجوم السماء، من يشرب منه، فلا يظمأ أبدا»(4).

---

(١) صحيح: رواه الشيخان عن حارثة بن وهب وعن المستورد كما في صحيح الجامع رقم: ٣١٦٠.
(٢) صحيح: رواه الشيخان عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٣١٦١.
(٣) صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما في صحيح مسلم رقم: ٢٣٠٠.
(٤) صحيح: رواه الشيخان عن عبدالله بن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٣١٦١.



هنا الحدُّ الفاصل بين عهدين: عهد العطش المتكرر الدنيوي وعهد الري الأبدي.

هنا يمحو الله الإحساس بالعطش إلى الأبد.

هنا يصبح الشرب للتلذذ فحسب، فكل شراب في الجنة من خمر أو عسل أو لبن أو ماء هو لتذوق ألوان المُتَع ليس غير.

ولكل شارب من الحوض إشراقة وجه مميزة. قال رسول الله ﷺ:

«من شرب منه شربة لم يظمأ أبدا، ولم يسودّ وجهه أبدا..»(١).

فما إن تشرب من الحوض حتى تسري في وجهك إشراقة أبدية وأضواء نورانية رائعة بهية.



منبع الحوض:

قال رسول الله ﷺ: «فيه ميزابان يمدان من الجنة، أحدهما من ذهب، والآخر من ورق»(٢).

من أين ينبع في الجنة؟!

منبع الحوض من نهر الكوثر، حيث يصُبُّ نهر الكوثر ماءه في الحوض عن طريق ميزابين عظيمين عجيبين، ليظل ماء الحوض جاريًا متدفقًا ليس له انقطاع ولا نقصان ولا ركود.



آنية الحوض:

كيف يشرب الناس من الحوض؟!

قال رسول الله ﷺ: «إن في حوضي من الأباريق بعدد نجوم السماء»(٣).

(١) صحيح: رواه ابن حبان عن يزيد بن الأخنس السلمي كما في صحيح ابن حبان رقم: ٦٤٥٧.
(٢) صحيح: رواه ابن حبان عن ثوبان كما في صحيح ابن حبان: ٦٤٥٦.
(٣) صحيح: رواه الترمذي عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٢١٣٤.



وقال ﷺ: «عدد آنية الحوض كعدد نجوم السماء»[1].

أي أواني كثيرة جدا، والمراد المبالغة لا التساوي في العدد في الحقيقة، فلا خوف من التزاحم الذي يقود إلى الحرمان، بل كل عبد له آنيته الخاصة به، وهي في انتظاره، لا يأخذها سواه.

كثرة الواردين على الحوض:

ما نسبة صحابة رسول الله ﷺ إلى كل من يَرِد الحوض؟!

وما هو فرصتنا في الفوز بهذا الكنز؟!

اسمع:

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فنزلنا منزلا، فقال رسول الله ﷺ:

«ما أنتم بجزء من مائة ألف جزء ممن يرِد عليَّ الحوض»[2].

وفي رواية: قيل لزيد: كم كنتم يومئذ؟! قال: كنا سبعَ مائة أو ثمانَ مائة.

وهذه والله بشارة عظيمة عظيمة، تغري اليوم كل مشتاق، وتلهب عزيمة كل كسول.

المطرودون عن الحوض:

عن ابن أبي مُلَيْكَة عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها، قالت: قال النبي ﷺ:

«إني على الحوض حتى أنظر من يَرِدُ عليَّ منكم، وسيؤخذ ناس دوني، فأقول: يا رب.. مني ومن أمتي، فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم»[3].

---

(١) صحيح: رواه مسلم عن أنس والبخاري عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٩٩١.
(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن زيد بن أرقم كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥٥٧.
(٣) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٦٥٩٣.



فكان ابن أبي مليكة -راوي الحديث عن أسماء- يقول:

«اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن عن ديننا».

والذي يمنع هؤلاء من ورود الحوض هم حُرَّاس الحوض من الملائكة، والرجوع على الأعقاب يكون بالكفر والردة عياذا بالله، والفتنة في الدين تكون بالمجاهرة بالكبائر والاستخفاف بالمعاصي واتباع أهل الزيغ والأهواء.

هذا التبديل والتغيير هو الذي يُغضِب رسول الله ﷺ يوم القيامة!

قال عبد الله ابن سلام: «يا رسول الله، إنا نجدك في الكتب قائما عند العرش، محمرة وجنتاك مما أحدثت أمتك بعدك».

ومن المطرودين عن الحوض كذلك:

الظلمة المسرفون في الظلم ومعاداة الحق وحرب أهله وإذلالهم.

أخرج الترمذي والحاكم عن كعب بن عجرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج عليهم يوما، وقال:

«إنه سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني، ولستُ منه، وليس بواردٍ عليَّ الحوض، ومن لم يدخل عليهم، ولم يُعِنْهم على ظلمهم، ولم يصدِّقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه، وهو واردٌ عليَّ الحوض»[1].

والحديث يحذِّر غاية التحذير من أخطار ثلاثة مُحْدِقة بالمؤمن:

- الدخول على الظالمين أي مجالستهم.
- تصديق أكاذيبهم، ومن الأكاذيب: إنجازاتهم الزائفة، وافتراءاتهم على المؤمنين.
- إعانتهم على ظلمهم: وذلك بقول أو فعل أو مجرد رضا قلبي.

والتحذير من هذه الموبقات صحِبه تهديد فاعلها بتبرؤ النبي ﷺ، وحرمانه من ورود الحوض، كما صحِبه تشويق الممتنع عن الوقوع فيها بانتسابه للنبي ﷺ، وشربه من حوضه.

(١) صحيح ابن حبان رقم: ٢٧٩.



ولذا جاء في مسند أحمد:

«ومن أتى أبواب السلطان افتتن، وما ازداد أحدٌ من السلطان قربا إلا ازداد من الله بعدا»[1].

قال الإمام المناوي في سبب هذه الفتنة:

«وذلك لأن الداخل عليهم، إما أن يلتفت إلى تنعمهم فيزدري نعمة الله عليه.

أو يُهمل الإنكار عليهم مع وجوبه فيفسق.

وإما أن يطمع في دنياهم، وذلك هو السُّحت».



لكل مشتاق إلى الشرب من الحوض، ولكل طامع في التخلص النهائي من العطش، لابد من دفع الثمن، والثمن هو العمل، والتعب هو مفتاح الراحة.

قال ابن القيم:

«فله ﷺ حوضان عظيمان:

- حوضٌ في الدنيا، وهو سُنَّته وما جاء به.
- وحوضٌ في الآخرة.

فالشاربون من هذا الحوض في الدنيا هم الشاربون من حوضه يوم القيامة، فشاربٌ ومحروم، ومستقِلٌ ومستكثر».

(١) صحيح: رواه الطبراني عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٦١٢٤ والسلسلة الصحيحة رقم: ١٢٧٢.

تاسعًا

الصـــراط

قَـــدَّمتُ لحيـاتــي



ما الصراط؟!

جسر حسي منصوب فوق جهنم، يعبر الناس عليه على قدر أعمالهم، وأثناء مرورهم عليه، تُبدَّل الأرض غير الأرض، كما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:٤٨]، فأين يكون الناس يا رسول الله؟ فقال: «على الصراط»[1].

ويعمُّ الظلام الأرض في هذا اليوم، لكن يُعطى المؤمنون نورهم بيمينهم وبين أيديهم، ليستضيئوا به على الصراط، وليكون لهم دليلاً إلى الجنة، بينما المنافقون في الظلمات يغرقون.

وعند هذا الموضع يفترق المنافقون والمؤمنون، فيتخلف المنافقون، ويسبق المؤمنون، وعندها يستنجد المنافقون بالمؤمنين وينادون: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد:١٣]، فإذا رأى المؤمنون انطفاء نور المنافقين أشفقوا أن ينطفئ نورهم كذلك، فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾،

(١) صحيح: صحيح مسلم رقم: ٢٧٩١.



ثم يقال للمنافقين: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد:١٣]: أي ارجعوا إلى المكان الذي قُسّمت فيه الأنوار، فيرجعون، فإذا رجعوا، ضُرب بينهم وبين المؤمنين بسور وحاجز منيع يحول بين الفريقين: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣]، فهذا هو الوقت الذي يبدأ فيه افتراق المنافقين عن المؤمنين.

الظالمون في الظلمات!

والظلمة التي يغرق فيها المنافقون هي نفسها التي يغرق فيها الظالمون، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«اتقوا الظلم، فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة»[1].

والظاهر أن عقوبة الظلم يبدأ إنزالها على الظالمين قبل الصراط، حين يفترق المؤمنون عن المنافقين.

قال الإمام القرطبي: «ظاهره أن الظالم يُعاقَب يوم القيامة، بأن يكون في ظلمات متوالية، يوم يكون المؤمنون في نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، حين يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، فيقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾».

لكن لماذا هذه العقوبة الشديدة للظالمين؟!

ذكر الحافظ ابن حجر السبب فقال:

«الظلم يشتمل على معصيتين:

- أخذ مال الغير بغير حق.
- ومبارزة الرب بالمخالفة.

والمعصية فيه أشد من غيرها؛ لأنه لا يقع غالبا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار.

---

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ١٠١.



وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب؛ لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى، اكتنفت ظلمات الظُّلم الظالم، حيث لا يغني عنه ظلمه شيئا».

هل يمر الكفار بالصراط؟!

والجواب: كلا، لأنهم يسقطون في النار قبلها. قال النبي ﷺ:

«ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم، حتى يبقى من كان يعبد الله، من بر أو فاجر، وغبرات من أهل الكتاب (أي بقايا قليلة من اليهود والنصارى الذين كانوا يعبدون الله وحده)، ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها سراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم.

ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة، ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم»[1].



معنى ورود النار:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وأما الورود المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقد فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح: رواه مسلم في صحيحه عن جابر، بأنه المرور على الصراط، والصراط هو الجسر، فلا بد من المرور عليه لكلٍّ من يدخل الجنة».

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري كما في صحيح البخاري رقم: ٧٤٣٩.





وصف النبي ﷺ الصراط بعدة أوصاف:

أولاً: مدحضة مزلة

في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قلنا: ما الجسر يا رسول الله؟ قال: «مدحضة مزلة»[1].

ومعنى مدحضة: يعني تُزْلَق فيه الأقدام، ومزَلَّة تعني: تسقط فيه الأجساد، فالصراط مضروب على متن جهنم، من أولها إلى آخرها، ومن الطرف إلى الطرف.

ثانيًا: حوله كلاليب وخطاطيف

ومن صفات الجسر التي وردت في الحديث الصحيح أن له كلاليب على حافتيه، روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «وفي حافتَي الصراط كلاليب معلقة»، كلاليب فيها حياة وروح، وتتحرك حركة دائبة، ولها تمييز وإدراك، فتميز بين من أمرت بأخذه، ومن أُمِرت بتركه، فهي كائنات مأمورة.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال في صفة الصراط:

«وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان». قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإنها مثل شوك السَّعدان، غير ألا يعلم قدر عظمها إلا الله»[2].

وشوك السعدان نبات له شوك، يرعى البدو إبلهم عنده، وهو مشهور في منطقة نجد، فأراد النبي ﷺ أن يقرِّب لهم صورة تعلق هذه الكلاليب بأجساد الناس، كيف تتخطفهم وتعلق بأجسادهم مثل شوك السعدان الذي يَعْلَق، وإذا نَشَب بالجسم لا يخرج بسهولة.

---

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٧٤٣٩.

(٢) صحيح: رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رقم: ٦٥٧٣.



ثالثا: حد الصراط مثل حد الموسى

جاء في حديث سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«ويوضع الصراط مثل حد الموسى، فتقول الملائكة من تجيز على هذا، فيقول: من شئت من خلقي، فيقولون: ما عبدناك حق عبادتك»(١).

تصور سمك الطريق الذي تسير عليه، مثل حد الموس، وهو مع هذا حوله خطاطيف وكلاليب تنهش من يمر عليه، وتهوي به يمينا وشمالاً، فيتساقط في جهنم إلا من شاء الله.



قال رسول الله ﷺ:

«ويضرب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها»(٢).

وفي رواية أخرى للبخاري:

«فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته»(٣).

وفي رواية أبي هريرة عند مسلم:

«إلى أن تمر أمتي كلها، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم»(٤).

وهذا من شفقته ﷺ على أمته، وكذلك الأنبياء كما جاء في رواية أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «والأنبياء بجنبتي الصراط، وأكثر قولهم: اللهم سلم سلم»(٥).

(١) السلسلة الصحيحة رقم: ٩٤١.
(٢) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة رقم: ٧٤٣٧.
(٣) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٨٠٦.
(٤) صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة رقم: ٣٢٩.
(٥) صحيح: رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة رقم: ٦٣٤.



وعند الصراط لا أحد ينطق من هول الموقف، ولا يتلفظ أحد بكلمة، ما عدا الرسل عندهم القدر على الكلام، لكن كلامهم محدود بعبارة من ثلاث كلمات: «اللهم سلِّم سلِّم».

تفاوت النور وسرعة العبور

في حديث ابن مسعود في مستدرك الحاكم: «ثم يُقال لهم: انجوا على قدر نوركم».

لا يستطيع أحد أن يمشي في الظلمة، والصراط كله ظُلْمة فإذا أضيء له مشى، وإذا أظلم قام واقفا، لأنه إن غامر بالسير في الظلام سقط، فهو يقوم على صراط كشفرة الموسى في الحِدَّة، والكلاليب حوله، يطفئ نوره فيقف، ثم يوقد مرة فيمشي، وذلك بحسب عمله، ولذا تتفاوت أحوال العباد على الصراط في أمرين أساسيين:

في قدر النور، وسرعة العبور.

أما قدر النور، فمنهم من يُعطَى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يُعطَى نوره فوق ذلك، ومنهم من يُعطَى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك، حتى يكون آخر من يُعطَى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة، ويطفئ مرة.

ونور المؤمنين في الآخرة سببه أنوار التقوى والإيمان التي حصَّلوها في الدنيا، وساروا بها ونشروها بين الناس.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨].

قال ابن القيم: «في قوله تعالى: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ نكتة بديعة وهي: أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما مشوا بها بين الناس في الدنيا، ومن لا نور له، فإنه لا يستطيع أن ينقل قدمًا عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه».

وأما سرعة العبور، فتختلف سرعات الناس في المرور على الصراط باختلاف قوة النور الذي يعطونه، فالنور تابع للسرعة.



جاء في حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ: «ويقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرَّجل، يرمل رملاً على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد، وتُعلق يد، وتخر رجل، وتُعلق رجل، وتصيب جوانبه النار».

وجاء في وصف آخر رجل ينجو من الصراط كما في حديث ابن مسعود:

«ثم يكون آخرهم رجلاً يتلبط على بطنه، فيقول: يا رب.. لماذا أبطأت بي؟! فيقول: لم أبطئ بك، إنما أبطأ بك عملك».

والمراد والدرس المستفاد:

كلما كانت حسناتك أكثر كان مرورك أسرع، وكلما كانت أقل كان مرورك أبطأ، وصرتَ إلى الخطر أقرب، وما زال بيدك اليوم أن تحدد سرعة الغد، وبإمكانك وحدك تسريع نجاتك.

الأمانة والرَّحِم:

لما ذكر النبي ﷺ ذهاب الناس إلى آدم وإبراهيم وموسى ثم عيسى، ثم محمد ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام:

«وتُرسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا»[1].

فهما لعظم شأنهما وكبر موقعهما، تصوران مشخصتين على الصفة التي يريدها الله؛ لتطالبا كل من يريد الجواز بحقهما، فتقف الأمانة والرَّحِم هناك للأمين والخائن، والواصل والقاطع، لكن.. ما هي الفائدة؟

يحاجان عن المحق الذي راعاهما فينجو، وعلى المبطل الذي أضاعهما فيهلك، فكل من خان أمانة فليخف، وكل من قطع رحما فلينتبه، والمراد أن من أدى الأمانة ووصل الرَّحِم نجا، ومن فرَّط فيها اليوم لم يسلم غدا.

(١) صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة رقم: ١٩٥.



أحوال الناس على الصراط

قال رسول الله ﷺ: «يوضع الصراط بين ظهراني جهنم، عليه حسك كحسك السعدان، ثم يستجيز الناس، فناج مُسلَّم، ومخدوش به ثم ناج، ومحتبس به، ومنكوس فيها»[1].

أصناف المارين على الصراط أربعة:

الأول: ناجٍ مُسلَّم

أي من الأذى بلا خدوش، وهؤلاء هم صفوة المؤمنين.

أسعد من يعبر الصراط: ناجٍ مُسلَّم

الثاني: ناجٍ مخدوش

أي أصابه لفحة من جهنم أو نالته الكلاليب والخطاطيف بخدوش، قبل أن ينجو، وفي رواية ابن خزيمة: «مخدوجٌ به»، والخدج: النقص أي يُنقَص من جسمه جزءًا، بسبب ما تقتطعه منه الخطاطيف والكلاليب المأمورة به.

الثالث: محتبس به

أي يُحبس على الصراط، فيظل في رعب وخوف حتى يطلق سراحه، فيجتاز الصراط.

والرابع: الهالك في النار

وقد وصفه النبي ﷺ بأوصاف، منها: «منكوس فيها»، ومنها: «مكردس في النار»،

---

(١) صحيح: رواه أحمد وابن ماجة وابن حبان عن أبي سعيد كما في الجامع رقم: ٨١٨٩.



وقال: «مكدوسٌ في نار جهنم» أو «مكدوش».

والمنكوس هو المقلوب على رأسه، فرأسه إلى أسفل، ورجلاه إلى أعلى، ليخر بهذه الصورة إلى قعر النار.

والمكَرْدَس هو من جُمِعَت يداه ورجلاه، قبل أن يُلقَى في جهنم، مِنْ كردست الدواب: إذا ركب بعضها فوق بعض.

والمكدوس هو الذي تكدَّس، أي دُفِع من وراءه، فسقط في النار.

والمكدوش هو الذي يساق سوقا شديدا حتى يُكبَّ على وجهه في النار.

وهي جميعا أوصاف تصف بدقة مصير الهالكين بما يخلع القلب من شدة الخوف، ويردعه عن التقصير والسقوط في هاوية التفريط.

الواجب العملي:

الاستقامة على الصراط المعنوي في الدنيا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، هو شرط عبور الصراط الحسي المنصوب فوق النار في الآخرة، فالصراط الثاني يعبره الناس غدا بحسب أعمالهم وأحوالهم اليوم، وكلاهما صعب، لذا قال الإمام أبو حامد الغزالي: «الاستقامة على الصراط في الدنيا صعب كالمرور على صراط جهنم، وكل واحد منهما أدق من الشعر، وأحدُّ من السيف»، ومما يؤيِّد صعوبة الاستقامة قول النبي ﷺ:

«استقيموا ولن تحصوا».

أي ولن تطيقوا أن تستقيموا حق الاستقامة، ولن تطيقوا عمل كلِّ ما لله عليكم، ولكن اجتهدوا في ذلك قدر الاستطاعة، فما لا يدرك كله لا يُترَك كُلُّه.

ومن أوجه العمل بالحديث ألا يتوهم عبد أنه استقام بالكلية، فيقع في العجب والغرور اللذين هما سر هلاك العبد.



في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيُقصُّ لبعضهم من بعضٍ مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة»[1].

ذكر الإمام القرطبي أن الصراط صراطان، فقال في كتابه التذكرة:

«اعلم - رحمك الله - أن في الآخرة صراطين:

أحدهما: مجاز لأهل المحشر كلهم، ثقيلهم وخفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب، أو من يلتقطه عنق النار، فإذا خلص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه - ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم - حبسوا على صراط آخر خاص لهم، ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله؛ لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه، وأربى على الحسنات بالقصاص جرمه».

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٦٥٣٥.



ومعنى كلام الإمام القرطبي أن الكل سيمر على الصراط، فلا يخلص من الصراط بسلام إلا المؤمنون الذين علم الله أن القصاص لا يستنفد حسناتهم، فإذا مروا على الصراط حُبِسوا بعده على القنطرة، حيث يُقتَصُّ للمظلوم من الظالم.

ولا يرجع أحد من القنطرة إلى النار، فكل من عبَر الصراط المضروب فوق جهنم نجا، ويسقط على الصراط في النار من أثقلته ذنوبه ومظالم العباد، وعلِم الله أنَّ القصاص سيستنفد حسناته حتى ترجح كفة سيئاته، لذا يهوي به في جهنم.

وصدق أحمد بن حرب حين قال:

«يخرج من الدنيا أقوام أغنياء من كثرة الحسنات، فيأتون يوم القيامة مفاليس من أجل تبِعات الناس».

القصاص للبهائم فكيف بالبشر؟!

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:

«لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[1].

والشاة الجلحاء هي الجمّاء التي لا قرن لها، فهذه يقتص الله لها من الشاة التي نطحتها، فكيف لا يقتص الله للمضروب ظلما من عباده، أو للمقتول ظلما من أوليائه؟!

وقد علّم النبي ﷺ الصحابة حتمية القصاص بصورة عملية من خلال تعليقه على موقف من المواقف الحياتية اليومية التي تعرضوا لها، فلم تلفت نظر أحد من الصحابة، إلا رسول الله ﷺ الذي استخلص منها الدروس والعِبَر، ثم أهداها لنا، فعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان، فقال: «يا أبا ذر.. هل تدري فيم تنتطحان؟».

قال: لا. قال: «لكن الله يدري، وسيقضي بينهما»[2].

(١) صحيح: صحيح مسلم رقم: ٢٥٨٢.
(٢) حسن: رواه أحمد في مسنده رقم: ٢١٤٣٨.



وفي موقف آخر حدث أمام أبي ذر ﵁، وفيه أن رسول الله ﷺ كان جالسا، وشاتان تعتلفان (تأكلان)، فنطحت إحداهما الأخرى، فأجهضتها، فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال:

«عجبتُ لها، والذي نفسي بيده، ليُقادنَّ لها يوم القيامة»[1].

وعجيبٌ حالهم اليوم من يظلمون، ثم إلى رحلات الحج والعمرة يتسابقون، وعلى الصدقات يحرصون! وكأنهم ببعض الكتاب يؤمنون وببعضه يكفرون، وتغافلوا عن أن الله قد يتجاوز عن حقه، لكن لا يتسامح في حقوق عباده، فقال رسول الله ﷺ:

«الظلم ثلاثة: فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه.

فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك. قال الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

وأما الظلم الذي يغفره فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم.

وأما الظلم الذي لا يتركه الله، فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدبر لبعضهم من بعض»[2].



واجبك إن كنتَ ظالما!؟

أوصانا رسول الله ﷺ:

«من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه، فحمل عليه»[3].

أي فليبادر إلى استرضاء من ظلمه، ويسأله أن يجعله في حلٍّ، قبل أن لا يكون دينارٌ ولا

---

(١) حسن: رواه أحمد في المسند رقم: ٢١٥١١.

(٢) صحيح: صحيح الجامع رقم: ٣٩٦١ والصحيحة رقم: ١٩٢٧.

(٣) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٢٤٤٩.



درهم، وتكون إعادة الحقوق بالحسنات والسيئات، فإن لم يتمكن من تحلله مما أصاب من عِرْضه بغيبة وغيرها، فليدْعُ له وليستغفر له.

وأعدل خلق الله رسول الله ﷺ، وهو الذي حكم على نفسه قبل أن يحكم عليه غيره، وأنصف الناس من نفسه، فكان في آخر أيام حياته يقول:

«اللهم إنما أنا بشر، فأيما رجل من المسلمين سببته، أو لعنته، أو جلدته، فاجعلها له زكاة ورحمة»[1].

وقد أجاب العلماء عن سؤال: كيف يسُبُّ النبي ﷺ أصحابه أو يلعنهم، فقالوا:

المراد بذلك من استحق منهم السب واللعن بظاهر الأمر، لكنه لم يكن أهلا لذلك في الباطن، والرسول ﷺ مأمورٌ بالحكم بالظاهر، أو أن ما وقع من سبِّه ودعائه عليهم ليس بمقصود، بل مما جرت به عادة العرب في كلامهم بغير نية.

وقد نفَّذ رسول الله ﷺ هذا القصاص بصورة عملية، وأول من نفذه عليه: نفسه! واسمع:

كان النبي ﷺ يسوِّي صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قِدْح (سهم) يعدل به القوم، فمرَّ بسواد بن غزية، وهو متقدم عن الصف، فطعنه في بطنه بالقدح، وقال: «استو يا سواد»، فقال: يا رسول الله! أوجعتَني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقِدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «استقد». فاعتنقه سواد فقبَّل بطنه، فقال:

«ما حملك على هذا يا سواد؟».

قال: يا رسول الله! حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك: أن يمس جلدي جلدك،

فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

انظر لأعظم قائد والنبي المرسل، يكشف بطنه ليقتص منه جندي من جنوده؟

وما الذي فعله رسول الله ﷺ؟

(١) صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رقم: ٢٦٠١.



لقد طلب من جندي من جنوده طلبا مشروعا، وهو الاستواء في الصف.

وبأي شيء أوجع النبي هذا الصحابيَّ؟

بعصا صغيرة أو قضيب سواك!!

فما أعظم ذلك الموقف لو فهمنا مغزاه ومراميه اليوم.

لكن هل عمل الناس بمقتضى هذا الحديث؟

هل تحلل الظالمون من المظلومين؟!

هل ردّوا الحق إلى أصحاب الحقوق المهضومين؟!

انظروا إلى الواقع المشين، يأتكم الرد المبين.

القصاص من صاحب الدَّيْن

بل من مات وعليه دَيْن، يأخذ أصحاب الأموال من حسناته بمقدار ما لهم عنده، ففي سنن ابن ماجة بإسنادٍ صحيح عن ابن عمر رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«من مات وعليه دينارٌ أو درهم قُضِي من حسناته، ليس ثَمّ دينارٌ ولا درهم»[1].



(١) صحيح: رواه ابن ماجة عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٦٥٤٦.



قدمت لحياتي

الجنة والنار

أولا: أبواب الجنة + أبواب النار

ثانيا: رؤية وجه الله الكريم أو الحجاب

ثالثا: رائحة الجنة

رابعا: درجات الجنة + دركات النار

خامسا: فرُش أهل الجنة + فرش النار

سادسا: خيام الجنة وقصورها!

سابعا: أشجار الجنة + أشجار النار (الزقوم)

ثامنا: ثياب أهل الجنة وثياب أهل النار

تاسعا: طيور الجنة

عاشرا: أساور أهل الجنة وأغلال أهل النار!



يعرض هذا الكتاب لاثني عشر وجه مقارنة بين الجنة والنار، ليسهِّل عليك المقارنة والاختيار، والهدف من هذا الكلام: قلبك لا قبل عقلك، فالمطلوب أن تعيش في هذه التفاصيل، وتتأمل طويلا في حياة الغد، لينعكس هذا على حالك اليوم، بل ويقود انقلابا إيمانيا يهدف لترتيب أولوياتك وتنظيم أوقاتك، بما يجعل الآخرة الأعلى والأَوْلى.

واسمعوا ما أتطلع إليه من وراء هذه الرسالة في عبارة واحدة شافية كافية، وهي عبارة وصفت بها أم أبان بنت عتبة بن ربيعة ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقالت:

«قد أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه، كأنما ينظر إلى ربه بعينه».

هيا بنا نقتفي أثر الفاروق في الصفحات المقبلة..

قبل الانطلاق: عشر حقائق كاشفة

بين يديك حقائق لازمة لحسن التعامل مع أمر الجنة والنار، وإبصار القلب لما ينتظر العبد غدا من ثواب أو عقاب في دار القرار.

الحقيقة الأولى: خطاب يناسب العقول والأفهام

خاطبنا الله في كتابه بما يناسب عقولنا، فكل ما خطر ببالك، فالجنة أعلى من ذلك، لذا كان أبلغ ما جاء في وصف الجنة قول الله تعالى:

«أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»[1].

فالله حين عرض لنا عذاب الآخرة أو نعيمها لم يعرض حقيقة هذا العذاب أو النعيم، إنما عرض لنا ما نستطيع فهمه حسب حدود عقولنا ولغتنا، فإذا كانت المعاني لا تطيقها الأذهان كما أخبر بذلك الحديث: «ولا خطر على قلب بشر»، فلا يمكن أن يوجد في هذه المعاني ألفاظ تعبِّر عنها لغات البشر؟!

---

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٣٢٤٤.



لذا كان السبيل الأمثل إلى وصف ما غاب عنا من نعيم الجنة وعذاب النار ضرب الأمثال وصيغ التشبيه لتقريب الصورة التي لا يستطيع الخيال لها تصويرا، ولا يملك اللسان عنها تعبيرا.

الحقيقة الثانية: لن نعرف حقيقة النعيم أو الجحيم حتى نعاينهما!

قال أبو حامد الغزالي:

«الإنسان لا يمكن أن يعرف حقيقة الشيء وتصوره حتى يدركه بنفسه، وإذا لم يدركه ووصف له يجري مجرى صبيّ توصف له لذة الجماع فلا يمكن أن يتصور حقيقته حتى يبلغ فيباشره بنفسه، وكالأكمه توصف له المرأة.

وحالنا في اللذة الأُخروية هكذا، فإننا لا نتصورها على الحقيقة إلا إذا طالعناها، فإذا طالعناها شغلنا الفرح والتلذذ بها عما سواها؛ كما قال ربنا: ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾».

الحقيقة الثالثة: الاستدلال بالقليل على الكثير!

قال ابن كثير كلامًا لطيفًا دلَّل فيه على عظيم نعيم الجنة، وذلك حين تحدَّث عن ثمار الجنة، إذ استنتج أن الله نبَّه بالقليل على الكثير، وبالهين على العظيم، عندما ذكر السدر والطلح، فقال:

«وإذا كان السدر الذي في الدنيا لا يثمر إلا ثمرة ضعيفة وهو النبق، وشوكه كثير، والطلح الذي لا يراد منه في الدنيا إلا الظل، يكونان في الجنة في غاية من كثرة الثمار وحسنها، حتى إن الثمرة الواحدة منها تتفتق عن سبعين نوعًا من الطعوم، والألوان، التي يشبه بعضها بعضًا، فما ظنك بثمار الأشجار، التي تكون في الدنيا حسنة الثمار، كالتفاح، والنخل، والعنب، وغير ذلك؟ وما ظنك بأنواع الرياحين، والأزاهير؟».

مما جعل ابن عباس يقول: «ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء»(١).

(١) صحيح: رواه الضياء عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: ٥٤١٠.



الأسماء واحدة هنا، هنا زوجة وهناك زوجة، هنا نهر وهناك نهر، هنا فاكهة وهناك فاكهة، لكن الحقائق مختلفة تمام الاختلاف.

ويشهد لهذا حديث صلاة الخسوف حين قال الصحابة: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئا في مقامك، ثم رأيناك تكعكعت (تأخَّرتَ)، فقال ﷺ:

«إني أُريتُ الجنة، فتناولت منها عنقودا، ولو أخذتُه لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»[1].

والأكل من هذا العنقود مدة بقاء الدنيا، بأن يخلق الله مكان كل حبة تُقطَف حبة أخرى، أو بصورة أخرى لا يعلمها إلا الله.

ومعنى الحديث: لو أذن الله لي بقطف هذا العنقود لأخرجته إليكم، ولكن لم يُقدِّر الله ذلك لأنه من طعام الجنة، وطعام الجنة لا يفنى، والدنيا فانية، ويلزم من أكل ما لا يفنى ألا يفنى من أكله، وهذا محال في الدنيا.

وقيل: لأنه لو رأى الناس هذا العنقود لكان إيمانهم بالشهادة لا بالغيب، فلا يتميز المؤمن من غير المؤمن، ولا أهل الشقاوة من أهل السعادة، وقد شاء الله أن تكون أمور الآخرة غيبا، وجعل هذا مناط اختبار العباد.

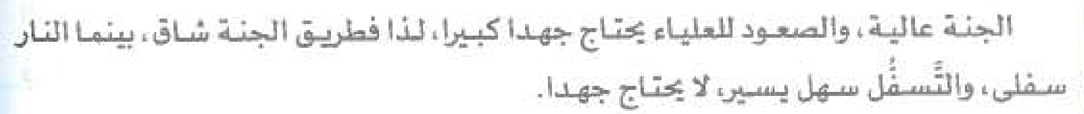
وقيل: لأن الجنة دار جزاء الأعمال، والجزاء لا يقع إلا في الآخرة.

وقيل: لأنه لا يصلح أن يؤكل طعام الجنة في الدنيا، لأن أكل في الدنيا يعود رجيعا وفضلات، وأما أكل الجنة فيخرج على هيئة رشح المسك، فلا يبول أهل الجنة ولا يَتَغَوَّطون.

الحقيقة الرابعة: طريق الجنة عسير وطريق النار يسير:

الجنة عالية، والصعود للعلياء يحتاج جهدا كبيرا، لذا فطريق الجنة شاق، بينما النار سفلى، والتَّسفُّل سهل يسير، لا يحتاج جهدا.

قال رسول الله ﷺ: «حُجِبَت النار بالشهوات، وحُجِبَت الجنة بالمكاره»[2].



(١) صحيح البخاري رقم: ٧٤٨ عن ابن عباس.

(٢) صحيح: رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رقم: ٦٤٨٧.



وفي صحيح مسلم بلفظ:

«حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات»(١).

وفي الحديث حضٌّ بديع على طاعة الله، وإن كرهتها النفوس وشقَّت؛ لأن مكابدة النار أشق، فجاء الخطاب النبوي بلفظ الخبر، وقصَد به الأمر والنهي.

وحجْب الجنة بالمكاره معناه ألا وصول إلى الجنة إلا باقتحام المكاره، أي ما تكرهه النفوس مما كُلِّفَت به من الواجبات، كالعبادة وكظم الغيظ والصبر والرضا واجتناب ما نهى الله عنه، وأطلق عليها المكاره لمشقتها على النفس، وفي الحديث: «وإسباغ الوضوء على المكاره»، أي الوضوء في شدة البرد، لأنه شاق على النفس، فلا يدخل الجنة إلا من تحمل مشقة خرق هذا الحجاب، وإلا لم يدخل الجنة.

ومتعاطي المكاره مؤمن نافذ البصيرة، رأى ما وراء حجاب المكاره من نعيم وجنات، لذا تحمل المشاق وخاض الصعاب حتى وصل إلى مبتغاه، ولولا المكاره لفاز بالجنة كل أحد، وما تأخر عن هذا النعيم أحد.

قال رسول الله ﷺ:

«لما خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفَّها بالمكاره، فقال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد»(٢).

وبالله.. ألم الصبر عن الشهوات اليوم، أم ألم مقاساة النار في الدركات غدا؟!

---

(١) صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رقم: ٢٨٢٢.
(٢) صحيح: رواه أحمد والنسائي والترمذي وأبو داود عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢١٠.



ومن لم يُطِق ألم المجاهدة اليوم، فكيف يطيق عذاب النار غدا؟!

وأما حجْب النار بالشهوات، فمعناه أنه لا يوصَل إلى النار إلا بتعاطي الشهوات المحرَّمة، إذ هي محجوبة بها، فمن هتك حجاب الشهوات وصل إلى المحجوب وهو النار، ومن تجنَّبَه اتقى النار، والشهوات المحرمة كالخمر والزنا وأكل الحرام، وكل ما حرَّم الله وتشتهيه النفس.

ومتعاطي الشهوات المحرَّمة عن طريق الحرام كالأعمى الذي سلب حب الشهوات سمعه وبصره، فهو غارق حتى أذنيه في شهواته، لا يرى النار التي خلفها، كغفلة الطائر حين يرى حبة الطعام، ولا يرى الفخ الذي وراءها، لغلبة شهوة الحبة على قلبه، ولولا حب الشهوات لكان اتقاء النار أسهل ما يكون، ولنجا من النار كل أحد.

إن أمر الشهوات خطيرٌ خطير، وكفيل بأن يحدث انقلابا في قلب أي عبد، فيحرفه عن المسار، وينقله من دائرة الأبرار إلى دائرة الفجار، فيدخل النار، ولقد صدق الإمام أبو بكر ابن أبي شيبة حين وصف الشهوة فقال:

«الشهوة أمرها خطير، وشرُّها جسيم، فكم من عابدٍ لله حوَّلته الشهوة إلى فاسق، وكم من عالم حوَّلته إلى جاهل، وكم أخرجت أناسا من الدين كانوا في نظر من يعرفهم أبعد الناس عن الضلال والانحراف».

وجاء في تتمة الحديث السابق في كلام مخيف، تخشع له القلوب وتخضع:

«فلما خلق الله النار قال: يا جبريل! اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، ثم جاء فقال: وعزتك.. لا يسمع بها أحد، فيدخلها، فحفَّها بالشهوات، ثم قال: يا جبريل.. اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فقال: أي رب وعزتك، لقد خشيتُ أن لا يبقى أحد إلا دخلها».

الحقيقة الخامسة: الجنة والنار عمودا التربية الإيمانية

ولذا أكثر القرآن من ذكرهما، والتعرض لأحوالهما، ليستحث المؤمنين على إجالة الفكر فيهما، والعمل الدؤوب لاتقاء للنار وسعيا وراء الجنة.

قالت أم المؤمنين عائشة ﵂ تكشف منهج التربية القرآنية الأولى فتقول:

«إنما نزل أول ما نزل منه (القرآن) سورة من المفصَّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا



ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل: لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا»[1].

وسُمِّي المفصَّل لقِصَر سوره، وقرب انفصالهن بعضهن من بعض، واختلفوا في أوله، فقال بعضهم: هو سورة ق، وبعضهم: سورة محمد، ويكثر في المفصَّل ذكر الجنة والنار.

وقد لاحظ علماء الإلهيات أن القرآن أكثر من ذكر اليوم الآخر بما لا يوجد مثله في الكتب السماوية الأخرى، كما يقول أبو العباس ابن تيمية:

«وفي القرآن من ذكر المعاد وتفصيله، وصفة الجنة والنار، والنعيم والعذاب؛ ما لا يوجد مثله في التوراة والإنجيل».

ولعل السبب في هذا: التنبيه على أن ذكر الآخرة من أهم أسباب صلاح الأمة وسر تفوقها.

الحقيقة السادسة: الخافضة الرافعة

قال الله تعالى عن الواقعة أو القيامة:

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة:٣].

لكن تخفض من؟! وترفع من؟!

أجاب محمد بن كعب القرظي عن هذا السؤال، فقال:

«تخفض رجالا كانوا في الدنيا مرتفعين، وترفع رجالا كانوا في الدنيا مخفوضين».

وهو خفض ورفع ليس كأي خفض أو رفع، فمن انخفض يوم القيامة لم يرتفع أبدا، ومن ارتفع يومها لم ينخفض أبدا.

وربما خفضت القيامة من لا يتوقع الناس انخفاضهم في الآخرة، ممن هم اليوم ملء السمع والبصر، وحازوا صنوف الأموال وقوة السلطان، فخفضتهم في عذاب النار، وربما

---

(١) صحيح: رواه البخاري عن يوسف بن ماهك رقم: ٤٦٠٩.



رفعت من لا يتوقع أحد ارتفاعه من المغمورين الذين لا يأبه بهم أحد، بأن ترفع درجاته في الجنة.

ومن لطيف ما جاء في صحيح البخاري:

«تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم»(١).

وسقَطهم: أي المحتقرون بين الناس، الساقطون من أعينهم، فهذا بالنسبة لأكثر الناس، أما بالنسبة لما عند الله، فهم عظماء، رفعاء الدرجات، كما قال ابن حجر.

وقيل: سُمّوا سقَطًا؛ لأنهم لا يُكرَّمون بتصدر المجالس، ولا يُفتَقدون إذا غابوا، ولا يُعرَفون إذا حضروا، لكنهم عند الله من المرموقين المكرَّمين.

وهذا الخفض والرفع الإلهي دائر بين دائرتي العدل والفضل. قال عطاء:

«خفضت قوما بالعدل، ورفعت قوما بالفضل».

وهذه إشارة مهمةٌ مهمة، إلى أن الدنيا ليست دار جزاء، وأن الجزاء النهائي إنما يكون يوم القيامة، فلا ييأس المؤمنون اليوم لما وقع عليهم من ظلم وضيم، ولا يغتر الظالمون بما وصلوا إليه من علو وبغي، فإن القيامة ستعكس الأحوال، وتقلب الموازين. قال السُّدِّي:

«خفضَت المتكبِّرين، ورفعت المستضعفين».

وهذا قانون يغفل عنه الكثيرون، فيغترون بنعيم الدنيا ويعتدون، وفي الآخرة يخسرون، ومن بنود هذا القانون نصٌّ نوراني بارز سطَّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال:

«عزُّ الدنيا بالمال، وعزُّ الآخرة بالأعمال».

وآية ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾:

تثبيتٌ لقلوب لصالحين ليستزيدوا من العمل الصالح، ولا يبالوا بما أصابهم من الأذى

---

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٤٨٥٠.



في سبيل الله، ولا يضعفوا ولا يستكينوا لما أصابهم ما أرضوا ربهم، ما داموا سيرتفعون في النهاية.

وهي كذلك تنبيه للمؤمنين كذلك بألا يحقر أحدهم مسلما، فإنه لا يدري مقامه عند الله.

قال رسول الله ﷺ:

«من أمتي من لو جاء أحدكم يسأله دينارا لم يعطه، ولو سأله درهما لم يعطه، ولو سأله فلسا لم يعطه، ولو سأل الله الجنة لأعطاها إياه! ذو طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره»[1].

والآية كذلك إنذار شديد للظالمين من سوء مصيرهم، إذا استمروا في عدوانهم، فلا يغتروا بثناء الحاشية عليهم، فيخافوا من الانخفاض الهائل الذي ينتظرهم يوم القيامة.

الحقيقة السابعة: فقراء وأغنياء على أبواب الجنة

جاء ثلاثة نفر إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، فقالوا:

يا أبا محمد!

إنا والله ما نقدر على شيء، لا نفقة ولا دابة ولا متاع، فقال لهم: ما شئتم، إن شئتم رجعتم إلينا، فأعطيناكم ما يسّر الله لكم، وإن شئتم ذكرنا أمركم للسلطان، وإن شئتم صبرتم، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفا».

قالوا: فإنا نصبر، لا نسأل شيئا[2].

وفي الجامع الصغير: «فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام»[3].

(١) السلسلة الصحيحة رقم: ٢٦٤٣.
(٢) صحيح: صحيح مسلم رقم: ٣٧.
(٣) صحيح: رواه الترمذي عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٤٢٢٨.



وعن سبب هذا الاختلاف في الحديثين بين أربعين وخمسمائة عام قال القرطبي:

«اختلاف هذه الأخبار يدل على أن الفقراء مختلفون في الحال وكذا الأغنياء، والجمع بينهما أن سُبَّاق الفقراء من المهاجرين يسبقون سُبَّاق الأغنياء منهم بأربعين خريفا، وغير سُبَّاق الأغنياء بخمس مئة عام».

ومعنى هذا أن الفقراء متفاوتون في قوة إيمانهم وفضلهم، وكذلك الأغنياء، فإذا كان الحساب باعتبار أول الفقراء دخولاً الجنة وأول الأغنياء دخولا الجنة، تكون المدة بينهما أربعين خريفا، وأما إذا كان الحساب باعتبار أول الفقراء دخولا الجنة وآخر الأغنياء دخولاً الجنة، فتكون المدة بينهما خمسمائة عام.

وقد ورد في صحيح البخاري حبس وتأخر الأغنياء عن دخول الجنة حتى يحاسبوا، فعن أسامة بن زيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«قمتُ على باب الجنة، فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجدِّ محبوسون، غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار»[1].

وأصحاب الجد هم أغنياء المسلمين، فهؤلاء موقوفون حتى يُحاسَبوا على أموالهم، من أين وإلى أين، وبعد الحساب يدخل الصالحون منهم الجنة، وربما كانت درجتهم فيها أعلى من درجات الفقراء بحسب أعمالهم.

الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟!

قال القرطبي:

«في هذه المسألة خمسة أقوال:

- فمن قائل بتفضيل الغني.
- ومن قائل بتفضيل الفقير.
- ومن قائل بتفضيل الكفاف.

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٥١٩٦.



- ومن قائلٍ برد هذا إلى اعتبار أحوال الناس في ذلك.
- ومن قائلٍ بالتوقف، لأنها مسألة لها غور، وفيها أحاديث متعارضة».

وتحرير النزاع في هذه المسألة:

أن الأصل عند المقارنة بين حالين أن نفترض المساواة التامة بين المقارَنَيْن في كل شيء حتى في النية ودرجة الإخلاص، فلا يبقى ما يُفرِّق بينهما إلا صبر الفقير على حاله، وشكر الغني على ماله، وإلا فإن الفقير الصابر أفضل من الغني غير الشاكر، والغني الشاكر أفضل من الفقير غير الصابر.

فماذا إذا استويا في كل شيء، وهو موضع السؤال؟!

حينئذ يوزن الصبر والشكر لا الغنى والفقر، فمن كان شكره أو صبره أعظم، كان هو الأفضل والمُقدَّم، ومن هنا قال ابن تيمية:

«إذا استويا في التقوى، فهما في الفضل سواء».

وبذا يتضح أن المال ليس محذورا لنفسه، بل لكونه يعوق صاحبه عن طريق الله، ومثله الفقر، فكم من غني لم يشغله غناه عن الله، وهذا قد سبق الفقير الذي شغله فقره عن ربه.

وأما إن أخذت بالأعَمِّ الغالب، فالفقير أبعد عن الخطر من الغني لأن فتنة الغنى أشد، والناجون من أهل الغنى ومن يؤدون حق المال أقل، إذ لا يكاد يسلم من آفات المال إلا القليل ممن عصم الله؛ لأن الشيطان يسوِّل للغني:

- الأخذ من المال بغير حقه.
- زيادة ماله بغير حقه.
- منع المال من حقه.
- التجبر والطغيان والتكبر بسبب المال.
- قلة الشكر عليه.
- منافسة غيره في تكثيره بتحصيله من غير حِلِّه.



ولذا قال ابن تيمية:

«والفقر يصلح عليه خَلْق كثير، والغنى لا يصلح عليه إلا الأقل منهم، ولهذا كان أكثر من يدخل الجنة المساكين؛ لأن فتنة الفقر أهون».

أما إذا شكَر الغنيُّ نعمة المال، وتعدَّى نفعُه غيرَه بإخراج الزكاة والصدقات، فعلى هذا النحو يكون أفضل من الفقير الصابر؛ لأن الفقير الصابر خيره ونفعه لم يتعد إلى غيره، وأما الغني الشاكر فخيره متَعَدٍّ إلى الغير.

الحقيقة الثامنة: الحلقة المفقودة والترس الضائع!

لماذا هذا الفصام النكد عند كثير من المسلمين بين الإيمان والسلوك؟

بين العبادات والمعاملات؟

بين حال العبد داخل المسجد وخارج حدوده؟

لماذا يرتشي المصلي؟ ويسرق الحاج؟ ويطلق بصره قارئ القرآن؟ ويغتاب الذاكر؟! ويعتدي على الحرمات الصائم؟!

إن أخبار الجنة والنار ما هي ليست إلا دعوة صريحة للعمل الذي يأخذ بأيدينا للجنة، ونهي صارخ عن العمل الذي يسوقنا إلى النار، فما بالنا لم نأخذ من التشويق إلا الإعجاب، ومن الترهيب إلا التأثر اللحظي دون التغيير العملي! أليس هذا من أعجب العجاب؟!

أليس هذا ترسا مفقودا في آلة الإنسان، تمنعه من القيام بدوره الذي أراده الله له كخليفة له في الأرض.

إن الإيمان ليس بالتمني، ليس الإيمان بالتمني، ولا عشق الجنة بالتغني!

ولذا قال يحيى بن معاذ:

«من أحب الجنة انقطع عن الشهوات، ومن خاف النار انصرف عن السيئات».

وقد كان وجود النبي ﷺ ضرورة بين الصحابة ليقوم بهذا الدور الإيماني نظريا بأقواله، وعمليا بمواقفه الحياتية اليومية.



فأما أقواله، فمنها قوله ﷺ: «إنه ليس شيءٌ يقربكم إلى الجنة إلا قد أمرتكم به، وليس شيءٌ يقربكم إلى النار إلا قد نهيتكم عنه»[١].

وأما مواقفه الحياتية التي ربط فيها النبي ﷺ واقع الصحابة بالآخرة بالجنة، فأكثر من أن تُحصَى، وإليكم منها خمسة مواقف:

الموقف الأول: العبادة ضائعة مع سوء الخلُق

إن العبادة التي لا تُهذِّب سلوكا عبادة منقوصة، ولن تكون طوق نجاة غدا لصاحبها، بل ستكون حجة عليه، والدليل هذا الحديث:

قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله.. إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل وتصدق، وتؤذي جيرانها بلسانها؟ فقال: رسول الله ﷺ: «لا خير فيها هي من أهل النار».

وفلانة تصلي المكتوبة وتصدق بأثوار، ولا تؤذي أحدا؟

فقال رسول الله ﷺ: «هي من أهل الجنة»[٢].

والأثوار: جمع ثور، وهو القطعة من الأقِط، وهو الجبن المجفف الذي يتخذ من مخيض لبن الغنم.

الموقف الثاني: المصلي السارق

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

فلما انصرفنا مع رسول الله ﷺ إلى وادي القرى ونزلنا بها أصيلاً مع مغرب الشمس، ومع رسول الله غلام له أهداه له رفاعة بن زيد، فوالله إنه ليضع رحل رسول الله إذ أتاه سهم غرب (طائش) فأصابه فقتله. فقلنا: هنيئًا له الجنة. قال: «كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أصابها يوم خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارًا»[٣].

---

(١) حسن: السلسلة الصحيحة رقم: ٢٨٦٦.

(٢) حسن: رواه البخاري في الأدب المفرد رقم: ١١٩ وأحمد في المسند رقم: ٩٦٧٣ كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٩٠.

(٣) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح مسلم رقم: ١١٥



هذا خادم رسول الله ﷺ، والمعايش له ليلا ونهارا، والمتبرّك بصحبته صباح مساء، ومع هذا أودت به معصية واحدة إلى عذاب النار، وليست سوى شملة من غنيمة لا يؤبه لها، فلم تشفع له صحبته، ولم تدفع عنه إقامته مع رسول الله ﷺ وخدمته، وقد شهد الصحابة جميعا بأعينهم هذا الموقف الرهيب، ورأوا هذه الخاتمة السيئة، في مشهد رهيب تقشعر منه الأبدان، وترجف له القلوب، فلا تتجرأ بعدها على تناول لقمة حرام، وإلا فالنار تنتظر وتستعر وتلتهم، كما التهمت هذا الغلام.

لقد شهِد هذه الواقعة رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: أصبت شراكين لنعلين لي (أي: من الغنائم)، فقال له النبي ﷺ: «يُقدّ (يُقطع) لك مثلهما في النار».

وكلّف الرسول ﷺ أحد أصحابه بتقسيم الغنائم، فلقي من الحر الشديد ما جعله يعصب رأسه بعصابة من الغنائم يتقي بها الشمس، فقال النبي ﷺ له: «عصابة من النار عصبت بها رأسك».

وتوفي رجل من أشجع فلم يصلِّ عليه، فلما سئل في ذلك قال: «إن صاحبكم غلّ في سبيل الله». ففتّشوه فوُجِد في متاعه خرز لا يساوي درهمين.

أرأيتم ارتباطا بين الدنيا والآخرة خيرا من هذا كهذا؟!

أخبروني بعدها..

هل هناك جهاز رقابة بشري قادر على القيام بدور هذه الرقابة الذاتية والحصانة الإيمانية؟!

وتعلّم تلامذة مدرسة الإيمان الدرس، فكانت من عادة نساء السلف إذا خرج الرجل من منزله، أن تقول له امرأته أو ابنته: إياك وكسب الحرام، فإنا نصبر على الجوع والضر، ولا نصبر على النار.

ودخل عمر بن عبد العزيز مرة على امرأته، فسألها أن تقرضه درهما أو فلوسا يشتري بها عنبا، فلم يجد عندها شيئا، فقالت له: أنت أمير المؤمنين، وليس في خزانتك ما تشتري به عنبًا! فقال:

هذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غدا في جهنم!



الموقف الثالث: التاجر السارق

عن رفاعة بن رافع الزرقي رضي الله عنه قال:

خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المصلى، فرأى الناس يتبايعون، فقال: يا معشر التجار! فاستجابوا لرسول الله ﷺ، ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه، فقال:

«إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارا، إلا من اتقى الله وبرّ وصدق»[1].

وفي رواية قال: «إن التجار هم الفجار»، فقالوا: يا رسول الله.. أو ليس قد أحل الله البيع؟

قال: «بلى، ولكنهم يحدِّثون فيكذبون، ويحلفون فيأثمون»[2].

لاحظ كيف أطلق النبي ﷺ هذه العبارة الصادمة والصرخة الموقظة:

«التجار هم الفجار».

وقطع النبي ﷺ بهذه الكلمة على أهل السوق ما انشغلوا به من دنياهم، وانتشل به أبناء الدنيا من استغراقهم في غفلتهم.

والهدف:

التنبيه على خطورة التقصير في هذا المجال، خاصة حين يتعلق الأمر بالأموال، وإعلامهم

---

(١) صحيح: رواه الترمذي وابن ماجة كما في السلسلة الصحيحة: ٩٩٤ و١٤٥٨ وصحيح الترغيب والترهيب رقم:١٧٨٥.

(٢) رواه أحمد كما في صحيح الجامع: ١٥٩٤ والصحيحة: ٣٦٦.



بأن هذا حال أكثر التجار: يكذبون لترويج سلعهم، فيقسم أحدهم أن سلعته أجود السلع، أو أنه اشتراها بكذا وكذا من الأثمان الباهظة، وهو كاذب في دعواه، فلما التفت أهل السوق إلى رسول الله ﷺ، استثني من فجار التجار المتقين الصادقين الأبرار.

ترى ما حال كل تاجر بعد سماع هذا الإنذار؟

كيف صدقه وأمانته وحرصه على دينه خوفا من النار؟!

ألا قد أعذر من أنذر، فخذوا حذركم يا معشر الأبرار.

الموقف الرابع: الغشاش

ذهب النبي ﷺ يوما بنفسه إلى السوق، ليتفقد أحوال البيع والشراء، فمرَّ ببائع أمامه صُبْرَة طعام، والصُبْرَة: الكومة المجموعة من الطعام بلا كيل أو وزن، وإذا أطلق أهل الحجاز لفظ الطعام، عنوا به البُرّ خاصة، والبُرُّ: حبُّ القمح.

وخوفا من أن يكون الرجل وضع الحب الرديء أسفل من الجيد، ليخفي عيب سلعته، فقد أدخل النبي ﷺ يده في جوفها، فأصابت يده بللا، فقال غاضبا: «ما هذا يا صاحب الطعام؟».

قال الرجل -ولم يكن يقصد الغش-: أصابته السماء (أي ماء السماء) يا رسول الله. قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس، من غشَّ فليس مني»[1].

أي من أخفى عيوب سلعته فقد غش المسلمين، وليس على هدي سيد المرسلين، وهذا الحديث يدخل فيه كل من كتم عيب السلعة، وخلط الجيد بالرديء، ومزج اللبن بالماء، وفيه وعيد شديد لمن غشَّ بأنه ليس من المسلمين، بل وتوعَّده النبي ﷺ في حديث آخر بالنار، ففي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال:

«من غشنا فليس منا، والمكر والخديعة في النار»[2].

---

(١) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح مسلم رقم: ١٠٢.

(٢) صحيح: رواه الطبراني وأبو نعيم عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٦٤٠٨.



وأخذ الإمام الذهبي من هذا التوعد النبوي بالنار على الغش والمكر والخديعة أن الثلاثة من الكبائر.

الموقف الخامس: الفصيح المجادل

قال رسول الله ﷺ:

«إنكم تختصمون إليَّ، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضي لكم على نحو مما أسمع منكم، فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئا، فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتي بها يوم القيامة»(١).

وقول النبي ﷺ: «قطعة من النار».

يعني باعتبار ما سيؤول إليه في الآخرة، فإن صاحبه سيعذَّب بسببه، فسماه نارًا لما كان سبب عذاب صاحبه بالنار.

وتمام الحديث في البخاري: «فليأخذها أو ليتركها».

والأمر للتهديد لا للتخيير، فهو مثل قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾.

وزاد عبد الله بن رافع في آخر الحديث: فبكى الرجلان وقال كل منهما: حقي لك، فقال النبي ﷺ: «أما إذا فعلتما فاقتسما وتوخَّيا الحق، ثم استهما، ثم تحالَّا»(٢).

آه لو عمل الناس بهذا الحديث، إذن لتراجعت القضايا والخصومات في محاكم اليوم إلى العُشر.

الحقيقة التاسعة: هذا للرجال، فماذا للنساء؟!

يتبادر دائما هذا السؤال إلى الأذهان:

إذا كانت الحور العين للرجال في الجنة، فماذا للنساء؟!

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والترمذي كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٤٥٥.

(٢) حسن: رواه أبو داود عن كما في سنن أبي داود رقم: ٣٥٨٤ بتحقيق الأرناؤوط.



سؤال قريب من هذا خطر على ذهن أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية حين أتت النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله.. ما أرى كل شيء إلا للرجال؟ وما أرى النساء يُذكَرن بشيء؟ فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥][1].

إذًا، فكل ما يذكر من نعيم في الجنة للرجال، فإن للنساء مثله.

وعد الله الصالحين بالزوجات الجميلات، كما وعد الصالحات بأنه ليس منهن امرأة عازبة، كما أنه ليس فيها رجل أعزب، فقال ﷺ:

«وما في الجنة أعزب».

فالكل في الجنة ذو أزواج، من النساء أو الرجال، وكل ما تمتع به الرجل في الجنة، فللمرأة مثله لو أرادت.

الحقيقة العاشرة: التعريف الحقيقي للفوز

قال تعالى:

﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ﴾.

وصدق القائل:

ما شِقْوَةُ المرء في فقرٍ يعيش به ... ولا سعادته يومًا بإكثار
إنَّ الشقيَّ الذي في النار مَنْزِلُهُ ... والفوزُ فوزُ الذي ينجو من النَّارِ

وعلى هذا كانت تربية النبي ﷺ لأصحابه منذ السنوات الأولى لبعثته، فقد قال لصهيب الرومي رضي الله عنه -وهو من أول ستة أسلموا- لما هاجر، وترك ماله وأملاكه للمشركين ليسمحوا له بالهجرة: يا أبا يحيى! ربح البيع، ثلاثا.

وهي تهنئة نبوية ليست بصفقة تجارية، ولا قصور كسروية، بل لمن ترك الصفقات وضحى بالثروات والمغريات ليشتري نعيما غائبا اسمه: الجنة.

(١) صحيح الترمذي رقم: ٢٥٦٥.



وعندها تصبح الخسارة الحقيقية: خسران الجنة ودخول النار، وهذا المفهوم مثَّل تحولا جوهريا لدى العرب، وكان تغيرًا محوريًا في منظومة القيم والتصورات عند أهل الجاهلية، واسمع ما قال شُرَيح بن عُبَيد:

«كانت تعزية أهل الجاهلية: كل مصيبة ما عدا النفس جلل، فلما أسلموا وتفقَّهوا قالوا: كل مصيبة ما عدا النار جلل!».

ومن هنا كان المؤمن الحق محبًا للدنيا؛ لأن فيها كثير من فرص الفوز بالجنة! فكيف لا يحبها؟!

قال يحيى بن معاذ:

«كيف لا أحب دنيا قُدر لي فيها قوت أكتسب به حياة، أدرِك به طاعة، أنال بها الجنة».

وبذا تفهم قول عمر رضي الله عنه:

«لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله، ومكابدة الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب التمر».

ومثله قول أبو سليمان الداراني:

«لولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا، وما أحب البقاء في الدنيا لتشقيق الأنهار ولا لغرس الأشجار».





أبواب الجنة ثمانيـة، وأبواب النار سبعة، وهـذا إن دلَّ على شيء فيدل على أن رحمة الله سبقت غضبه، فقد جعل الله أبواب الجنة أزيد من أبواب النار، والباب في الجنة ليس بالأمر الهيِّن، فقد أقسم النبي ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده، إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى»[1].

والمِصراعان: جانبا الباب، وهَجَر مدينة في البحرين، وبُصْرى مدينة معروفة بالشام، وهي مدينة حوران القريبة من دمشق، ومن عجائب الإعجاز أنهم وجدوا أن المسافة من مكة إلى هَجَر ٧٩٤ ميلاً، وهي نفس المسافة بين مكة وبُصرى: ٧٩٤ ميلا.

ومن الأحاديث الدالة كذلك على سعة أبوب الجنة: حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفا، أو سبع مائة ألف - لا يدري أبو حازم أيهما قال - متماسكون، آخذ بعضهم بعضا، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»[2].

---

(١) صحيح رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ١٤٦٦.
(٢) صحيح: رواه البخاري في صحيحه رقم: ٦٥٥٤.

ومعنى متماسكين، أي ممسكٌ بعضهم بيد بعض، ويدخلون الجنة صفًا واحدًا، بعضهم بجوار بعض، وهذا تصريحٌ بعظم سعة أبواب الجنة، وبشارة رائعة بكثرة من يدخل الجنة من العباد من خلال هذه الأبواب.



لمن تفتح أبواب الجنة؟!

وقد أخبرنا النبي ﷺ أن:

- أبواب الجنة تفتح كلَّ عام في رمضان، ومنها باب الريان، والذي لا يدخل منه إلا الصائمون.
- وأن بابا للمكثرين من الصلاة، وبابا للمتصدقين، وبابا للمجاهدين، وأخبر النبي ﷺ أن أبا بكر رضي الله عنه يُدعَى من هذه الأبواب جميعًا.
- وأن الذي يتوضأ فيحسن الوضوء، ثم يقول حين يفرغ من وضوئه: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، تفتح له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها يشاء.
- وأن أبواب الجنة تُفتَح يومي الاثنين الخميس، «فيُغفَر فيها لكل عبد لا يشرك بالله شيئا، إلا رجلا كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: أنظروا هذين حتى يصطلحا»[1].

وفتح الأبواب حقيقي، وقيل: هو بمعنى كثرة الغفران ورفع المنازل ومنح جزيل الثواب.

قال القرطبي مرجحًا الرأي الأول، ومعلقًا على الحديث الأخير:

«الفتح حقيقة، ولا ضرورة تدعو إلى التأويل، ويكون فتحها تأهبا من الخزنة لمن يموت يومئذ ممن غفر له، أو يكون علامة للملائكة على أن الله تعالى يغفر في ذينك اليومين (يوم الاثنين ويوم الخميس)».

(١) صحيح: رواه مسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة كما صحيح الجامع رقم: ٥٢٨١.



والمؤمن يغار، لا ممن فاقه برصيده في البنك من الدولار والدينار، بل من أن يسبقه أحدٌ من الأبرار، لذا يطمع أن يدخل الجنة من أبوابها جميعا، كما طمع في ذلك سالم بن عبد الله بن عمر حين قال:

«رأيتُ في المنام كأن ثمانية أبواب الجنة فُتِحَت إلا بابا واحدا، فقلت: ما شأن هذا الباب؟! فقيل: هذا باب الجهاد ولم تجاهد، فأصبحت وأنا أشتري الظَّهْر».

لماذا تفتيح أبواب الجنة؟!

قال ابن القيم: «تأمَّل قوله سبحانه في سورة ص: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾..

كيف تجد تحته معنىً بديعا، وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تُغلَق أبوابها عليهم، بل تبقى مُفتَّحة كما هي، وفي تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى:

- تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم من الجنة حيث شاءوا.
- ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم.
- ودخول ما يسُرُّهم عليهم كل وقت.

وأيضا أشار إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب، كما كانوا يحتاجون إلى ذلك في الدنيا».

وهذه إشارة أخرى أشار إليها الإمام القرطبي، فقال:

«وإنما قال: ﴿مُّفَتَّحَةٗ﴾ ولم يقل مفتوحة، لأنها تُفتَّح لهم بالأمر، لا بالمسّ».

لكن.. من الآمر بفتحها؟!

هل هو الله جل جلاله؟

أم بعض الملائكة يأمرون خزنة الملائكة الذين على أبواب الجنة؟!

أم خلق من خلق الله مما لا نعلمه؟!



اسرح مع الخيال، وادفع الثمن من صالح الأعمال.



عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«من أنفق زوجين في سبيل الله، دعاه خزنة الجنة، كل خزنة باب: أي فُلْ.. هلم»،

قال أبو بكر: يا رسول الله، ذاك الذي لا توى عليه، فقال النبي ﷺ:

«إني لأرجو أن تكون منهم»[1].

ومعنى «أي فُلْ»: ترخيم فلان، أي: يا فلان.

ومعنى «لا توى عليه»: أي لا ضياع ولا هلاك عليه.

و«في سبيل الله»: معناه الجهاد في سبيل الله، ويحتمل العموم أي في كل وجوه الخير.

ولأن الصحابة كانوا يتلقون كل أمر النبوي للتنفيذ والعمل، فقد روى صعصعة تطبيقًا عمليًا لهذا الحديث، رآه من أبي ذر الغفاري رضي الله عنه:

رأيتُ أبا ذر بالربذة وهو يسوق بعيرا له عليه مزادتان، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من مسلم ينفق من ماله زوجين في سبيل الله إلا استقبلته حجبة الجنة، كلهم يدعوه إلى ما عنده».



(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٢٨٤١.



قلت: زوجين ماذا؟

قال: إن كان صاحب خيل ففرسين، وإن كان صاحب إبل فبعيرين، وإن كان صاحب بقر فبقرتين، حتى عدَّ أصناف المال.

وهذا ترغيب في كثرة الإنفاق في سبيل الله، والتصدق بالكثير طمعا في الثواب الجزيل، وحرصا منك على تسابق خزنة الجنة على حسن استقبالك والترحيب بجنابك، وأنت بَعْدُ على مشارف الجنة.



أبواب النار:

قال تعالى:

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾.

قال ابن كثير في تفسيرها:

«أي قد كُتِب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه، أجارنا الله منها، وكلٌّ يدخل من بابٍ بحسب عمله، ويستقر في دركٍ بحسب عمله».

ورُوِي عن علي بن أبي طالب ﵁ قوله وهو يخطب:

«أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، حتى تمتلئ كلها».

وتفصيلات هذه الأبواب، ومن يدخل من كل باب مما لم نطالَب بعلمه، ولا يلزمنا في هذا الباب إلا ما ورد في كتاب الله وما ثبت عن رسول الله ﷺ.

لكن لنا هنا وقفة:

قارِن هذا بحال المؤمنين الذين لهم كامل الحرية في دخول أبواب الجنة الثمانية.

وأبواب النار مغلقة على الدوام، لا تُفتَح إلا عند مجيء أهلها إليها، وذلك ليفاجئهم



عذابها، فيكون هذا أعظم في نكايتهم، وزيادة في ندامتهم:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، ثم تُغلَق على أهلها بعد ذلك، ومع الإغلاق يكون اليأس من الإفلات، والانقطاع عن كل أسباب النجاة.

إن الباب في الدنيا أملٌ في الفكاك والإفلات، لكن إغلاق أبواب النار يخنق هذا الأمل، ويورث اليأس من النجاة أو الهرب: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾:

قال قتادة في معنى إيصاد الأبواب:

«أي مطبقة، أطبقها الله عليهم فلا ضوء فيها ولا فرج، ولا خروج منها آخر الأبد».

وقد بيَّن ابن رجب أن إطباق أبواب النار نوعان:

أحدهما: إطباق خاص وهو لمن يدخل في النار، أو من يريد الله التضييق عليه أجارنا الله من ذلك.

الثاني: إطباق عام وهو إطباق النار على أهلها المخلدين فيها.

وجاء في صفات أبواب النار قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾:

قال ابن عباس: يعني الأبواب هي الممددة، أو هي صفة للعُمُد، يعني أن العمد التي أوثقت بها الأبواب ممددة مطولة، والعمود الممدود الطويل أرسخ وأثبت من القصير، وبالتالي أحكم في إغلاق الأبواب والتشديد.

وإطباق أبواب النار على أهلها هو جزاء من جنس أعمالهم.

قال تعالى:

قال ابن القيم في تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾:

«لما كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه، وكانوا كلما همُّوا بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته وروحه، رجعوا على حوافرهم، كانت عقوبتهم في الآخرة كذلك، فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه، فلا



يزال في غَمّ ذلك حتى يموت، فإن لم يخرج من غَمّ ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة.

وإن خرج من غمِّه وضيقه ها هنا، خرج منه هناك».





وهو لون من أعلى اللذات الروحية، وهي في الجنة أعظم بكثير من ملذات الجنة الحسية، ولذا كان أعظم النعيم في جنات النعيم: النظر إلى وجه الله الكريم.

قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟

فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم»(١).

وكما قرأتَ في الحديث، فإن رؤية الله هي أحب وأعظم نعيم أهل الجنة، ولذا قال الحسن البصري: «إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى، نسوا نعيم الجنة».

وما كان أبو حامد الغزالي مبالغًا حين قال:

«ولا تظنن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم، بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة مُلْكِ الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق، بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور واللعب به».

---

(١) صحيح: رواه مسلم والترمذي عن صهيب كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٣.



ومنا هنا قال ابن الأثير:

«رؤية الله هي الغاية القصوى في نعيم الآخرة، والدرجة العليا من عطايا الله الفاخرة».

وما ظنك بشدة فرح المؤمنين حين تثقل موازينهم؟

أو قمة سعادتهم حين يستلمون صحفهم بيمينهم؟

أو روعة بهجتهم حين يجتازون الصراط فوق جهنم؟

ثم قمة حبورهم إذا أدخِلوا الجنة وأُعطوا فيها ما أُعطوا من النعيم؟!

لكن كل هذه المباهج والأفراح تتوارى خجلا، ولا تساوي شيئا إذا نظروا إلى وجه الله الكريم.

ولذا كانت هذه الرؤية من أعظم المحفِّزات على العبادة، وأكثر الأسباب تأثيرا في استقامة العبد، ومن هنا كان الإمام الشافعي يقول: «أما والله، لو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى ربه في المعاد، لما عبده في الدنيا».

إن نظرة واحدة إلى وجه الله الكريم، كفيلة بأن تنسيك كل ألم دنيوي مرَّ بك، وكل شدة عصفت بحياتك.

وصدق ابن القيم حين قال في تعليقه على حال النسوة بعد أن رأين جمال يوسف:

«إذا كانت مشاهدة مخلوق يوم أُخرج عليهن استغرقت إحساس الناظرات، فقطَّعْن أيديهن وما شعرن، فكيف بالحال يوم المزيد؟!».

حكمة احتجاب الله عن خلقه؟!

ذكر الإمام الدارِميُّ أن الله احتجب عن خلقه (ليبلوَ بذلك إيمانهم، أيُّهم يؤمن به ويعرفه بالغيب ولم يره، وإنما يجزي العباد على إيمانهم بالغيب، لأن الله عز وجل لو تبدّى لخلقه، وتجلّى لهم في الدنيا، لم يكن لإيمان الغيب هناك معنى، كما أنه لم يكفر به عندها كافر، ولا عصاه عاصٍ، ولكن احتجب عنهم في الدنيا، ودعاهم إلى الإيمان به بالغيب، وإلى معرفته والإقرار بربوبيته، ليؤمن به من سبقت له منه السعادة، ويحق القول على الكافرين.



ولو قد تجلى لهم لآمن به مَن في الأرض جميعًا بغير رسل ولا كتب ولا دعاة، ولم يعصوه طرفة عين. فإذا كان يوم القيامة تجلى لمن آمن به وصدّق رسله وكتبه، وآمن برؤيته، وأقرَّ بصفاته التي وصف بها نفسه حتى يروه عيانًا، مثوبة منه لهم وإكراما؛ ليزدادوا بالنظر إلى مَن عبدوه بالغيب نعيما، وبرؤيته فرحًا واغتباطا، ولم يُحرَموا رؤيته في الدنيا والآخرة جميعا.

وحُجب عنه الكفار يومئذ، إذْ حُرموا رؤيته كما حُرموها في الدنيا؛ ليزدادوا حسرة وثبورًا).



هل سنرى الله غدا حقا؟!

هذا سؤال بادر به أصحاب النبي ﷺ، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أن أناسا في زمن النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله.. هل نرى ربنا يوم القيامة؟

قال النبي ﷺ:

«نعم، هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة ضوء ليس فيها سحاب»، قالوا: لا، قال «وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ضوء ليس فيها سحاب؟»، قالوا: لا، قال النبي ﷺ:

«ما تضارون في رؤية الله عز وجل يوم القيامة، إلا كما تضارون في رؤية أحدهما»[1].

وفي لفظ صحيح البخاري:

«إنكم ترون ربكم عيانا»[2].

شبّه النبي ﷺ رؤية الله برؤية أظهر المرئيات، فليس هناك حجاب يحول دون هذه الرؤية، فرؤيتكم لربكم أمر محقق، كما أن مشاهدة الشمس والقمر أمر محقق.

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٤٥٨١.
(٢) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٧٤٣٥.



وقد سئل الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة عن قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٣]، فقيل: إن قوما يقولون: إلى ثوابه، فقال مالك: كذبوا، فأين هم من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]؟!

وقال ﷺ: «لو لم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة، لم يُعيَّر الله عن الكفار بالحجاب».

تفاوت النظر نوعا وكمًّا !

لكن النظر إلى الله في الجنة يتفاوت باختلاف درجات العباد في الجنة، وهذا التفاوت بسبب أعمالهم، ويقع نوعا وكمًّا.

أما نوعا، فكلما زادت معرفتك بالحبيب، زادت محبتك له، وكلما زادت محبتك، زاد تلذذك بالنظر إليه.

قال ابن القيم:

«لذة النظر إليه سبحانه تابعة لمعرفتهم به، ومحبتهم له؛ فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة، فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب، وأشد محبة له، كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم».

لذة النظر إلى الله سبحانه تابعة من معرفته ومحبته

وأما كمًّا:

فقد قال السعدي عن قول الله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾:

«تنظر إلى ربِّها على حسب مراتبهم: منهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيا، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثله شيء».





أولا: حافظ على هذا الدعاء !

وقد علّمنا رسول الله ﷺ أن ندعو بهذا الدعاء:

«وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك».

وقد جمع هذا الدعاء أطيب وأهنأ شيء في الدنيا، وهو الشوق إلى لقاء الله تعالى، وأنعم وأطيب شيء في الآخرة، وهو النظر إلى وجه الله الكريم، الذي لا شيء أجمل، ولا أنعم، ولا أهنأ من رؤيته.

ثانيا: المحافظة على الصلوات المفروضة..

وبالأخص: صلاة الفجر والعصر، فعن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنه قال:

«كنا عند النبي ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، فقال:

إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]»[١].

والحديث يرشدك إلى طريق سهل للفوز برؤية وجه الله الكريم، وهو المحافظة على هاتين الصلاتين، فهذا عمل مكافأته رائعة ومضمونة، وهي جائزة رؤية الله في الجنَّة.

ثالثا: الابتعاد عن الذنوب والمعاصي

روى مسلم في صحيحه من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم»

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه رقم: ٥٥٤.



قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»(١).

والمسبل:

يريد به إسبال الثوب وإطالته على وجه الكِبْر والخُيلاء، وكان هذا مشهورا عند العرب كعلامة كِبْر واستعلاء، وسر هذه العقوبة الشديدة أن ذرة الكِبْر الواحدة تمنع صاحبها من دخول الجنة، والكِبْر هو الخطيئة التي أخرجت إبليس من الجنة، وكانت سبب خلوده في النار.

والمنان:

يعني الذي يمُنُّ بالصدقة، فينفق صدقته ثم يعيِّر بها من أنفقها عليه.

وأصل المنِّ من أحوال القلب، ثم تفرعت منه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح، فأصله أن يرى المنفق نفسه محسنا إلى الفقير مُنْعِمًا عليه، وكان الواجب عليه: أن يرى الفقير هو المُحسِن إليه بِقبول حَقِّ الله منه، وفي قبول هذا الحق تطهيرٌ لمال الغني ونجاته من النار، ولو لم يقبل الفقير هذه الصدقة لبقِيَ حَقُّ الله معلَّقا في رقبة الغني، فليتعامل كل موسر مع من تصدق عليه على أنه نائب عن الله تعالى في قبض حقه، وبذا لا يبقى في قلبه أي أثر للمنِّ أو الكِبْر، بل يرى الفقير المتفضِّل عليه.

وأما المنفق سلعته بالحلف:

فهذا أيضا محروم من لذة النظر إلى ربه، وهو أن يحلف البائع: لقد أعطيتُ بهذه السلعة كذا وكذا، وما أُعطِيَ، فكذب ليبيع سلعته ويروِّج لها.

روى البخاري عن عبد الله بن أوفى أن رجلاً أقام سلعة في السوق، فحلف بالله لقد أُعطِي بها ما لم يُعْطَه ليوقع فيها رجلا من المسلمين، فنزلت:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العمران:٧٧](٢).

(١) صحيح: صحيح مسلم رقم: ١٧١.
(٢) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٢٠٨٨.



فجمع الله هذه العقوبات كلها في هذه اليمين الغموس، لما جمعت من المعاني الفاسدة، فقد كذب في الحلِف بالله تعالى، وهو أجَلُّ ما يُحلف به، وقام بالتغرير بمسلم بيمينه تلك، واستحلَّ مال غيره بالباطل، وهو الثمن القليل الذي لا يدوم له في الدنيا، وكل ما يزول قليل مهما عظُم..

ودلَّ الحديث على تحريم ترويج السلع التجارية بالأيمان، وما أكثر من يفعل هذا اليوم.

وجاء سبب نزول آخر لهذه الآية، وهو ما أخرج الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان»[1].

فأنزل الله تعالى تصديق ذلك:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

قال عبد الله بن مسعود:

فدخل الأشعث بن قيس فقال: ما يحدِّثكم أبو عبد الرحمن (أي ابن مسعود)؟!

قلنا: كذا وكذا، فقال: صدق، فيَّ نزلت، كان بيني وبين رجل خصومة في بئر، فاختصمنا إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: شاهداك أو يمينه؟ قلت: إنه إذا يحلف ولا يبالى، فقال رسول الله ﷺ:

«من حلف على يمين ليقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان». ونزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ﴾..

والمراد بنفي نظر الله ما يترتب عليه من نفي الإحسان إليه وعدم الاعتداد به، فقد جرت العادة بأن من اهتمَّ بإنسان وعطف عليه التفت إليه.

وقد ورد تغليظ عقوبة الحلف الكاذب في أكثر من حديث، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «مرَّ أعرابي بشاة، فقلت: تبيعها بثلاثة دراهم؟ فقال: لا والله، ثم باعها، فذكرت ذلك

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٢٦٧٣.



لرسول الله ﷺ، فقال: «باع آخرته بدنياه»[1].

رابعا: عبادات السر

قال علي بن المديني:

سألتُ عبد الله بن المبارك عن قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾، فقال:

«من أراد النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى خالقه، فليعمل عملا صالحا ولا يخبر به أحدا».

رحمة الله سر طمع العبد في مولاه

لكن هذه الأعمال لا تعني أنها عِوَضٌ عن رؤية الله في الآخرة، إنما هي مجرَّد أسباب، وتبقى رحمة الله هي طوق النجاة. هذا ما فهمه الإمام أبو زُرعَة الرازي.

قال أحمد بن إسماعيل ابن عم أبي زُرعَة الرازي: سمعت أبا زُرعَة يقول في مرضه الذي مات فيه:

«اللهم إني أشتاق إلى رؤيتك، فإن قال لي: بأي عمل اشتقت إليَّ؟ قلت: برحمتك يا رب».



حجاب أهل النار:

قال تعالى عن أهل النار:

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾.

فأخبر الله أن لهم عذابين، أحدهما عذاب الحجاب عنه، والثاني: صلي الجحيم، وكل من العذابين أشدُّ من الآخر.

(١) السلسلة الصحيحة رقم: ٣٦٤.



بل يرى ابن تيمية عذاب الحجاب أعظم، فقال رَحِمَهُ اللهُ:

«عذابُ الحِجَاب أعظم أنواع العذابِ، ولَذَّةُ النَّظر إلى وجهه أعلى اللَّذَّات».

ولو نظر الله للكفار لرحمهم. قال أبو عِمران الْجَوْني:

«ما نظر الله إلى شَيْءٍ إلَّا رحِمَه، ولو نَظَر إلى أهل النَّار لَرَحِمَهم، لكنَّه قضى عليهم أن لا ينظر إليهم».

وقال ابن المبارك: «ما حجب الله عز وجل أحدا عنه إلا عذَّبه، ثم قرأ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾».

عذاب الحجاب عن الله أعظم من إشعال النار في أجسام أصحاب النار، بل إن التهاب نار الحجاب في قلوبهم: هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم، ويشرح ابن القيم خطورة عذاب الحجاب، وكيفية تأثيره في القلوب في تحليل نفسي رائع، فيقول:

«حب الله والرضا به وعنه والذل له والخضوع والتعبد هو غاية سعادة النفس وكمالها، والنفس إذا فقدت ذلك كانت بمنزلة الجسد الذي فقد روحه وحياته، والعين التي فقدت ضوءها ونورها، بل أسوأ حالا من ذلك من وجهين:

أحدهما: أن غاية الجسد إذا فقد روحه أن يصير معطَّلا ميتا، وكذلك العين تصير معطَّلة، وأما النفس إذا فقدت كمالها، فإنها تبقى معذَّبة متألِّمة، وكلما اشتد حجابها، اشتد عذابها وألمها.

وشاهد ما يجده المحب الصادق من العذاب والألم عند احتجاب محبوبه عنه، ولا سيما إذا يئس من قربه، وحظي غيره بحبه ووصله.

هذا مع إمكان التعوض عنه بمحبوب آخر نظيره أو خير منه، فكيف بروحٍ فقدت محبوبها الحق الذي لم تُخلَق إلا لمحبته؟!

ولا كمال لها ولا صلاح أصلا إلا بأن يكون أحب إليها من كل ما سواه، وهو محبوبها الذي لا تُعوَّض منه بوجه ما، كما قال القائل:

من كل شيء إذا ضيَّعته عِوَضٌ ... وما من الله أن ضيَّعته عِوَضُ

والوجه الثاني:

أن البدن والأعضاء آلات ورَعِيَّةٌ للقلب وخدمٌ له، فإذا فقد بعض البدن كماله، كان بمنزلة هلاك بعض جند الملك ورعيته، وقد لا يلحق الملِك من ذلك ضرر أصلا.

وأما إذا فقد القلب كماله الذي خُلِقَ له وحياته ونعيمه، كان بمنزلة هلاك المَلِك وأسره وذهاب مُلْكه من يديه، وصيرورته أسيرا في أيدي أعاديه، فهكذا الروح إذا عدِمَتْ معرفة فاطرها وبارئها، كانت بمنزلة الملِك الذي ذهب منه مُلكُه، وأصبح أسيرا في يد أعاديه، يسومونه سوء العذاب.

وهذا الألم كامن في النفس، لكن يستره ستر الشهوات، ويواريه حجاب الغفلة؛ حتى إذا كُشِفَ الغطاء، وحيل بين العبد وبين ما يشتهي، وجد حقيقة ذلك الألم، وذاق طعمه، وتجرَّع ألمه عما يحجبه ويواريه».

يا مسكين..
أبعد هذا التفصيل..
تحتـــار؟!
بين النظر إلى وجه الله الكريم،
وحجاب أصحاب الجحيم؟!



ما أطيب ريح الجنة!

إن للجنة رائحة فواحة زكية تفيض على ما حولها، ويجدها المؤمنون من مسافات لا تخطر ببال، ولا يدركها خيال، فإن أهل الجنة يجدون ريحها من مسيرة خمسمائة عام، وفي رواية: من مسيرة مائة عام، وفي رواية: سبعين عاما، وقيل: أربعين، وكلها روايات صحيحة، فكيف الجمع بينها؟!

قال ابن حجر:

«والذي يظهر لي في الجمع أن يُقال:

إن الأربعين أقلُ زمنٍ يُدرِك به ريح الجنة مَنْ في الموقف.

والسبعين فوق ذلك، والخمسمائة، ثم الألف أكثر من ذلك.

ويختلف ذلك باختلاف الأشخاص والأعمال».

أي أن أقل مسافة يجد منها العبد رائحة الجنة أربعون عامًا، وقد توجد ريحها مِنْ مسافة

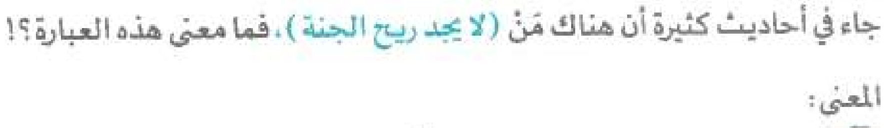


أكبر، وهذا باختلاف الأشخاص ودرجات الأعمال، فكلما قوي إيمان العبد، وارتفعت درجته عند ربه، وجد ريح الجنة من مسافة أبعد.

وهو ما قاله المباركفوري: «الجمع بين هذه الروايات أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص، بتفاوت منازلهم ودرجاتهم».

أخي.. تخيل نفسك!

حين تجد ريح الجنة من مسيرة عشرات الأعوام، فعندها تزول كل الآلام، وتغادرك إلى غير رجعة سائر الأحزان، فما بالك بحالك بعد دخول الجنة، وتمتعك بألوان النعيم، وتلذذك بالنظر إلى وجه الله الكريم؟!



المحرومون من ريح الجنة؟

جاء في أحاديث كثيرة أن هناك مَنْ (لا يجد ريح الجنة)، فما معنى هذه العبارة؟!

المعنى:

- أي لا يدخل الجنة أبدا إن كان مستحِلًا للذنب مع علمه بتحريمه.
- أو لا يجد ريح الجنة مع السابقين إليها، بل يدخل الجنة بعد أن يعذَّب بمقدار ذنبه، إلا أن يعفو الله عنه.
- أو هو من باب المبالغة في التهديد، وخرج مخرج الزجر والتغليظ.

وهؤلاء المحرومين ستة أصناف:

1 من ضيع رعيته:

عن معقل بن يسار قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «ما من عبد استرعاه الله رعية، فلم يحطها بنصيحة، إلا لم يجد رائحة الجنة»[1].

(١) صحيح: رواه البخاري رقم: ٧١٥٠.



وهؤلاء من فرَّطوا في حق الرعية، وخانوا الأمانة التي استرعاهم الله إياها، فلم يقوموا على مصالح العباد، لذا فهُمْ أبعد الناس غدا عن الجنة، ولا يجدون ريحها التي تُدْرَك من أبعد المسافات، وما هذا إلا عقوبة لهم على عظيم جرمهم وفداحة تقصيرهم.

جاءت الروايات بأن معقل بن يسار حدَّث بهذا الحديث عبيد الله بن زياد حين عاده في مرضه الذي مات فيه، وكان ابن زياد أمير البصرة في زمن معاوية وولده يزيد، وكان سفَّاكًا للدماء، ولذا حدَّثه معقل بما يردعه عن ظلم الرعية، ويخوِّفه من العذاب الشديد الذي ينتظر الظالمين، لعل قلوب المجرمين تلين!

2 طلب الطلاق من غير بأس!

لقول النبي ﷺ:

«أيما امرأة سألت زوجها طلاقًا في غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة»[1].

وهذا الحديث متعلِّق بحالة خاصة، وهي أن تطلب المرأة الطلاق من زوجها بغير سبب شرعي معتبَر، كأن تحب رجلا غير زوجها، فتطلب الطلاق لتتزوج منه، أو أن تقيم علاقة برجل أجنبي يعدها بالزواج، فتتخلص من زوجها بطلب الطلاق منه، فهذه ينالها هذا الوعيد الشديد.

وأما من طلبت الطلاق لسبب شرعي، كأذى لحقها من زوجها أو عيب يستحيل معه استمرار الحياة الزوجية، فلا تدخل تحت مظلة هذا الوعيد.

3 تعلم العلم لغير وجه الله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله، لا

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود عن ثوبان كما في صحيح الجامع رقم: ٢٧٠٦.



يتعلمه إلا ليصيب به عوضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[١].

أي لم يَقصد هذا المتعلِّم في تعلُّمه إلا أن ينالَ الحظوظَ الدنيويةَ كالمال والجاه والشهرة وأن يُشارَ إليه بالبنان، ونكَّر «عَرَضًا» ليتناول جميعَ المطامع الدنيوية، قليلَها وكثيرَها.

ومن أهم علامات إخلاص العالم: قبوله النصح، وقبول النصح علامة كمال العقل.

قال الإمام الحافظ المتقن عبد الغني المصري:

«لما رددتُ على أبي عبد الله الحاكم الأوهام التي في (المدخل) بعث إليَّ يشكرني، ويدعو لي، فعلمتُ أنه رجل عاقل».

فكم منا اليوم من يرحِّب النصيحة، أو يشكر عليها من نصحه؟!

4 النسب المزيَّف:

قال رسول الله ﷺ:

«من ادَّعى إلى غير أبيه لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»[٢].

من تنكَّر لنسبه من أبيه، وألحق نفسه بغيره تركا للنسب الأدنى، ورغبة في النسب الأعلى، أو خوفا من الإقرار بنَسَبِه، أو تقربا من السادة والأغنياء، أو لغير ذلك من الأغراض، فهو واقعٌ تحت هذا الوعيد.

5 قتل المعاهد:

قال رسول الله ﷺ:

«من قتل رجلا من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عاما»[٣].

(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦١٥٩.
(٢) صحيح: رواه ابن ماجة عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٥٩٨٨.
(٣) صحيح: رواه ابن ماجة والحاكم كما في صحيح الجامع رقم: ٦٤٤٨.



وفي الحديث:

«من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما»[(١)].

وقيَّد النبي ﷺ هذا القتل المحرَّم بأن يكون بغير حِلِّه، فقال رسول الله ﷺ:

«من قتل نفسا معاهدة بغير حلها حرَّم الله عليه الجنة: أن يشم ريحها»[(٢)].

والمعاهَد هو من عقد مع المسلمين عقدا، كالذي بينه وبين المسلمين عهد، أو هدنة، أو ميثاق، أو أمان من مسلم، ولو أنزلنا هذا الكلام على الواقع المعاصر لقلنا:

حين تأذن الدولة المسلمة لغير المسلمين أن يدخلوها، وتمنحهم تأشيرات دخول، فهذا عهد وميثاق، ولا يجوز لمسلم أن يتعرض للمُعاهَد بالقتل أو الضرب أو الأذى، وشِدَّة العقوبة في الحديث دليلٌ على أنها كبيرة من كبائر الذنوب.

6 الظالمون والمتبرجات:

قال رسول الله ﷺ:

«صنفان من أهل النار لم أرهما بعد:

قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس.

ونساءٌ كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة.

لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»[(٣)].

وقد توعَّد النبي ﷺ في هذا الحديث صنفين من الناس بالحرمان من الجنة:

- الظالمين الذين يعذِّبون الناس بالسياط وغيرها من وسائل التعذيب.
- المتبرجات اللاتي يكشفن عن أجسادهن.

---

(١) صحيح: رواه الحاكم والبخاري والنسائي وابن ماجة عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: ٦٤٥٧.
(٢) صحيح: رواه أحمد والنسائي عن أبي بكرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٤٥٨.
(٣) صحيح: رواه مسلم وأحمد عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣٧٩٩.



قال النووي:

«أما (الكاسيات العاريات)، ففيه أوجه:

- أحدها: معناه كاسيات من نعمة الله، عاريات من شكرها.
- والثاني كاسيات من الثياب، عاريات من فعل الخير.
- والثالث: كاسيات ببعض الثياب، كاشفات بعض أجسادهن إظهارا لجمالها.
- والرابع: تلبس ثيابًا رقاقًا تبين عما تحتها من جسدها».

وأما وصفهن بأنهن (مميلات)، فمعناه: أنهن يكُنَّ سببا في إمالة قلوب الرجال إليهن، أو أنهن يعلِّمن غيرهن من النساء فنون التبرج والزينة المحرمة، فتبوء إحداهن بإثمها وإثم غيرها، مما يضاعِف عذابها.



وأما روائح النار، فهي روائح شواء اللحم، والروائح الكريهة التي تنبعث من الأجساد المعذَّبة، لتزيد أهل النار عذابا فوق العذاب.

قال مكحول الدِّمَشقي:

«يجد أهل النَّار رائحة مُنْتِنَة، فيقولون: ما وجدنا أنتن من هذه الرائحة، فيُقال لهم: هذه ريح فروج الزناة».





قال رسول الله ﷺ: «الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض»(١).

قيل لكعب بن مُرَّة رضي الله عنه: يا كعب، حدِّثنا عن رسول الله ﷺ واحذر، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بلغ العدو بسهم رفع الله به درجة له».

فقال له عبد الرحمن بن النَّحام: يا رسول الله، وما الدرجة؟، قال: «أما إنها ليست بعتبة أمك، ما بين الدرجتين مائة عام»(٢).

إن درجات الجنة بعضها فوق بعض، والفارق بين الدرجة والدرجة يفوق الخيال، وأهل الجنة متفاضلون في ما بينهم بحسب منازلهم فيها، واقتسام الدرجات بحسب أعمالهم، فإن كان دخول الجنة برحمة الله، إلا أن اقتسام درجاتها بأعمال العباد، وبذا تفهم: لم يكسل هذا وينشط هذا؟! فبحسب اجتهادهم يقتسمون منازلهم ودرجاتهم.

إن الجنة مائة درجة يقابلها مائة درجة من درجات البذل، فمِنْ مستمسك بالحق وحده، ومن داعٍ إليه، ومن مضحٍّ في سبيله بوقته، والأعلى منه المضحي بماله ونفسه، والأعلى منهما: من بذل أكثر منهما، وهكذا.

---

(١) صحيح: رواه ابن مردويه عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣١٢٠.

(٢) صحيح: صحيح ابن حبان: ٤٦١٦.



وتفاوت الدرجات في الجنة يتبعه التفاوت في كل شيء، حتى في جمال أهلها، لذا لما عرض الإمام القرطبي لحديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة، وأن وجوههم على صورة القمر ليلة البدر، قال:

«ويؤخذ منه أن أنوار أهل الجنة تتفاوت بحسب درجاتهم، وكذا صفاتهم في الجمال».

وقد قال الله تعالى في التفاوت بين درجات الآخرة ودرجات الدنيا:

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

والعجيب أن القليل منا من يحسد غيره على ربح الآخرة، والأكثرون يحسدون على نعيم الدنيا مع حقارته وتعرضه للزوال عند مقارنته بنعيم الجنة، كما أن نعيم الدنيا على قَدْر إمكاناتك، ونعيم الآخرة على قَدْر الحق سبحانه، فأيهما أولى بالحسَد، والأجدر بالمنافسة؟

وإذا كانت رغبة العبد تشتد في تحصيل النعيم الدنيوي، فإن قوة الرغبة في طلب نعيم الآخرة أَوْلى.

والتفاوت بين أعلى درجة في الجنة وأقل درجة فيها عظيمٌ عظيم!

قال ابن عمر رضي الله عنه: «إن أدنى أهل الجنة درجة: الذي ينظر إلى ملكه مسيرة ألف سنة، وإن أرفع أهل الجنة درجة للذي ينظر إلى ربه بكرة وعشيا».

لكن ألا ينغِّص تفاوت الدرجات على أهل الجنة نعيمهم؟!

والجواب: ليس في الجنة تنغيص، لذا قال الضحاك:

«إن أهل الجنة بعضهم فوق بعض درجات، الأعلى يرى فضله على من هو أسفل منه، والأسفل لا يرى أن فوقه أحدا».

لكن كلام الضحاك يعارضه حديث النبي ﷺ: «إن أهل الدرجات العلى يراهم من هو أسفل منهم، كما ترون الكوكب الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم، وأنعما»[1].

قيل لأبي سعيد (راوي الحديث): وما أنعما؟! قال: أي هما أهل لذلك.

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: ٢٠٣٠.



ومعنى الحديث أن أهل المنـــازل الدنيا يشاهدون عن بُعْدٍ أهل المنازل العليا في الجنة كما كانوا يشاهدون في الدنيا الكوكب البعيد في أفق السماء.



وفي حديث آخر:

قالوا: يا رسول الله.. تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟!

قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين».

لكن: أي نوع من الإيمان والتصديق هذا الذي يرفع العبد إلى هذه المنازل العالية الغالية؟

قال القرطبي: «ولم يذكر عملا، ولا شيئا سوى الإيمان والتصديق للمرسلين، ذلك ليُعلَم أنه عنى الإيمان البالغ لتصديق المرسلين من غير سؤال آية ولا تلجلج، وإلا فكيف تُنال الغرفات بالإيمان والتصديق الذي للعامة؟!

ولو كان كذلك لكان جميع الموحدين في أعالي الغرفات وأرفع الدرجات، وهذا محال، وقد قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان:٧٥]، والصبر: بذل النفس والثبات له وقوفا بين يديه بالقلوب عبودية، وهذه صفة المقربين».



دركات النار

والنَّار دركات سبع، بعضها أسفل بعض، وَسميت طبقاتها دركات؛ لأنها متداركة متتابعة، وكل دركة أشد عذابًا من الدركة التي أعلى منها، ويقتسمها أهل النار بحسب ذنوبهم، فيقتسمون الدركات بقدر الرذائل كما اقتسم أهل الجنة درجاتها بالفضائل.



قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:

«درجات الجنة تذهب علوًا، ودرجات النار تذهب سفلاً».

وقد قال الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، فلما كان المنافقون لهم النصيب الأوفر من العذاب، كانوا في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، ولم يكتفوا بذلك، بل تظاهروا الإسلام لينخروا في جسد الأمة من الداخل، ويفسدوا العقول والضمائر.

قال ابن مسعود رضي الله عنه:

«فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ فِي تَوَابِيتَ مِنْ حَدِيدٍ مُقْفَلَةٍ فِي النَّارِ».

وكان ابن عمر يقول:

«إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون».

تصديق ذلك في كتاب الله تعالى:

- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.
- وقال تعالى في أصحاب المائدة: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.
- وقال في آل فرعون: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾.





قال الله ﷻ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن:٥٤].

بطائنها من استبرق، وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي تمس البشرة؟!

فترك الله للعقل أن يسرح بخياله في ظاهر الفُرُش بأن ذكر الباطن.

وقد قيل لسعيد بن جبير: البطائن من استبرق، فما الظواهر؟

قال: هذا مما قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

وبينما أهل الجنة في وضع الاتكاء الرائع، استقبلوا نعيما آخر أروع: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾.

فلما كان المتكئ لا يتم نعيمه إلا إذا كان مخدوما، فقد قال الله: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي كلما أرادوا شيئا نالوه دون حاجة إلى قيام أو بذل مجهود، بل كل ما يتمناه أهل الجنة يسعى إليهم سعيا وهم متكئون.

والاتّكاء تعبير عن أقصى درجات الراحة والبذخ، كجلوس الملوك على الأسِرَّة، فلا يبذلون أدنى جهد لبلوغ ما يريدون، بل كل شيء حاضر بين أيديهم، ما عليهم إلا أن يطلبوه فيجدوه.

ولا يأكلْ متكئا إلا العزيز الذي ليس عنده جوع يُقعِده للأكل، فطعامه للتفكه والتلذذ لا للجوع والحاجة.



لكن .. ما الأرائك؟!

الأرائك: جمع أريكة، وهي السرير الذي تُرخَى عليه الستائر الشفافة، وتُعلَّق فوق السرير، ترفا وتنعُّما، مثل سرير العروس الذي يزيَّن بألوان الزينة، ولا يسمى السرير أريكة إلا إذا أحاطت به هذه السَّتائر، وكأن الرسالة:

كل يوم تقضيه في الجنة بمثابة عُرْسٍ جديد يستدعي هذا الترفيه والتدليل.

والسُّرُر هي متكأ أهل الجنة، وهي بمنزلة الوسائد في الدنيا، فإن كان أهل الدنيا قد اتخذوا السُّرُر للنوم، فإنهم في الجنة يتخذونها لمجرد الاتكاء والاسترخاء؛ لأنه لا نوم في الجنة.

تفاوت أهل الجنة حتى في الاتكاء!

- وصف الله اتكاء المقربين من أهل الجنتين العاليتين، فقال:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۢ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍۢ﴾.

يتكئ أصحاب هاتين الجنتين على فرش بطائنها من إستبرق، وهذا الاتكاء لا يباعد بينهم وبين ثمار الجنة التي تكون في متناول أيديهم في أي مكان يكونون فيه. قال سبحانه:

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍۢ﴾.

- بينما وصف الله اتكاء أصحاب اليمين في الجنتين الأخريين بقوله:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍۢ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍۢ﴾.

والرفرف: المَسْنَد أو الوسادة، ووصَفَه بلفظ الجمع «خُضر»، فخُضْر جمع أخضر، وفي هذا إشارة إلى أن لكل واحد من أهل الجنة مسندا خاصا به يتكئ عليه، لكن المساند كلها ذات لون أخضر.

والعبقري: الجيد من البُسُط، والخارق للعادة في دقة صنعه وجماله، وقد خاطب الله العرب هنا بما يعرفون، فقد كانوا يطلقون اسم (عبقر) على مدينة الجن، وتنسب العرب كل جميل إليها، ولا تزال هذه التسمية مستعملة إلى اليوم، فيقال لكل شخص فائق الذكاء: عبقري، والمعنى:



نظرا لروعة مساند الجنة، فكأنها ليست من عمل الإنس (وهي كذلك)، وكأن أهل الجنة ظنوا أنها صُنِعَتْ في هذه المدينة الخيالية.

والفارق واضح بين مُتَّكأ أصحاب الجنتين العاليتين، والجنتين الواقعتين تحتهما..

فبينما اتكاء المقربين على فرش بطائنها من إستبرق وهو الحرير السميك، فمتكأ أصحاب اليمين على رفارف ومساند خضر، ولا نعرف هل هي من حرير أم من غيره، لكن لا شك أن الإستبرق أعلى من العبقري.

وبينما اتكاء المقربين لا يحتاجون معه للقيام لقطف ثمار الجنة، فلا نعرف إن كان اتكاء أصحاب اليمين يباعدهم عن ثمار الجنة، فلا تناله أيديهم إلا إذا اعتدلوا في جلستهم، أم أنهم ينالونه من قريب؟

وهذه التفرقة بين المقربين وأصحاب اليمين مما يقتضيه عدل الله الذي لا يظلم مثقال ذرة، ويقسِّم نعيم الجنة بحسب أعمال العباد.



فراش أهل النار:

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾.

والمهاد: الفراش، والغواش جمع غاشية، وهي اللُّحُف، فبئس اللَّحاف وبئس الفِرَاش، أي أن النيران تغشاهم من كل مكان، وتحيط بهم مِنْ فوقهم ومِنْ تحتهم.





أخبرنا الله تعالى أن في الجنة خيامًا، فقال:

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢].

وهي خيام عجيبة، مصنوعةٌ من اللؤلؤ، بل الخيمة من لؤلؤة واحدة مجوَّفة، طولها ستون ميلا، وعرضها ستون ميلا.

في صحيح البخاري عن عبد الله بن قيس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلا، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون»[1].

وجاء طول الخيمة في رواية مسلم: «طولها ستون ميلا»[2].

والستون ميل تعادل: ٩٦٥٦٠ مترا، أي أن مساحة خيمة المؤمن في الجنة: ٩٣٢٣ مليون متر مربع تقريبا!

---

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٤٨٧٩.

(٢) صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه رقم: ٢٨٣٨.



نعم.. أكثر من تسعة آلاف مليون متر مربع هي مساحة خيمة كل مؤمن في الجنة، فتصوَّرْ خيمة واسعة يحتاج فيها المرء إلى وسيلة انتقال للتنقل بين أرجائها، إلا أن يحملك الله فيها على ما شاء من خلقه، كما حدث مع عبد الرحمن بن ساعدة حين قال له رسول الله ﷺ:

«إن أدخلك الله الجنة يا عبدالرحمن كان لك فيها فرس من ياقوت، له جناحان، تطير بك حيث شئت»[1].

أو لعلك ترى في الجنة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه يطير بجناحين، فتطمع أن تكون مثله، فيجعل الله لك جناحين تطير بهما حيث تشاء.

أو لعل الله يجعلك تطير بلا جناحين، وبما لا تحيط به العقول!

فارق آخر هام:

المتر في هذه الخيمة ليس مترا عاديا كما في الدنيا، بل المتر الواحد -والأقل منه- أغلى من الدنيا وما فيها. قال النبي ﷺ: «موضع سوط في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»[2].

ويبلغ من اتساع الخيمة، أن الزوجة فيها لا ترى ما يصنع زوجها مع بقية أهله، ولعل سبب هذا تباعد المسافات بينهم، أو لمراعاة الخصوصية، فإنَّ المؤمن إذا لاطف أهله لم يحب أن يره أحد، ولا تحتاج في الجنة حين تلتقي بأهلك أن يكون هذا خلف جدار أو من وراء باب أو ستار، فقد ضمن الله لك ألا يرى بعضكم بعضا، وهذا من ألطف ألوان النعيم.

ورغم أن نساء المؤمن في الجنة لو رأوا بعضهم، لن يكون بينهم ما بين نساء الدنيا من الغيرة، ومع هذا فإن المؤمن يطوف على أهله، ولا يراه أحد.

وما أجمل قول ابن القيم:

للعبد فيها خيمةٌ من لؤلؤ ... قد جُوِّفَتْ هي صنعة الرحمن
ستون ميلا طولها في الجو في ... كل الزوايا أجمل النسوان
يغشى الجميعَ فلا يشاهد بعضهم ... بعضا وهذا لاتساع مكان

---

(١) صحيح الترغيب رقم: ٣٧٥٥.
(٢) صحيح: رواه البخاري عن سهل بن سعد الساعدي كما في صحيح البخاري رقم: ٣٢٥٠.



وخيمة المؤمن لها أبواب كثيرة، لكن ليس أي أبواب، بل كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه:

«الخيمة: لؤلؤة واحدة، لها سبعون بابا، كلُّها دُرٌّ».

قصور محجوزة مسبقا!

أولها قصر لأحب الخلق إلى رسول الله ﷺ: خديجة رضي الله عنها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

أتى جبريل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله:

«هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام، أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشِّرها ببيتٍ في الجنة من قصَب، لا صخَب فيه، ولا نصب»[1].

وهذه بشارةٌ أرسلها رب العالمين من فوق سبع سماوات لأعظم نساء المؤمنين: خديجة رضي الله عنها، وكان موعد تسليم البشارة: حين كانت تنقل الطعام إلى رسول الله ﷺ وهو يتحنَّث في غار حراء، ونصُّ البشارة:

أن لها في الجنة بيتا خاصا خالصا من قصب، والقصَب: اللؤلؤ العظيم المجوَّف، والصَّخَب: الصوت المزعج والجلَبة، والنَّصَب: التعب، وكل هذا منعدمٌ في الجنة، فما المعنى إذن لنفي الصخب والنصب عن بيت خديجة في الجنة، مع أنه منفي عن كل بيوت الجنة؟!

ذكر السهيلي أن النبي ﷺ لما دعا إلى الإسلام أجابت خديجة طوعًا، ولم تُحوِجه في طاعتها له إلى رفع صوت ولا منازعة، بل أزالت عنه كل نصَب، وآنسته من كل وحشة، وهوَّنت عليه كل عسير، بل وكانت تُتْعِب نفسَها في خدمته غاية التعب، وعانت معه في سنوات الإيذاء، فكان جزاؤها من جنس عملها، وبشَّرَها ربنا بأنها ستستريح في الجنة من هذا كله، وستدخل قصرا من لؤلؤ لا مشقة فيه ولا تعب، ليكون نعيم بالصفة المقابلة لبذلها، جزاءً وفاقًا.

(١) صحيح البخاري رقم: ٣٨٢٠.



لكن: ما السر في قوله: «من قصب»، ولم يقل من لؤلؤ؟

قالوا: لعل هذا لأن خديجة ﵂ حازت قصب السبق إلى الإيمان، فكانت أول من أسلم من النساء، بل أول من أسلم مطلقا على أحد الأقوال، فسابق القوم اليوم سابقهم غدا.

فإن قلت: لم قال «ببيت»، ولم يقل بقصر، مع أن القصر من البيت أعلى وأشرف؟

قالوا بأنها كانت أول ربة بيت في الإسلام، فلم يكن على وجه الأرض في أول البعثة بيت إسلام إلا بيت خديجة، وهي فضيلة ما شاركها فيها غيرها، والجزاء من جنس العمل.

والقصر الثاني صاحبه عمر بن الخطاب.

عن أبي هريرة ﵁ قال: بينا نحن عند رسول الله ﷺ، إذ قال: «بينا أنا نائم رأيتني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا: لعمر بن الخطاب، فذكرت غيرته، فولَّيتُ مدبرا، فبكى عمر، وقال: أعليك أغار يا رسول الله»[1].

لكن.. هل في الجنة وضوء؟!

قيل: المراد بالوضوء هنا المعنى اللغوي: الوَضاءَة، ويكون وضوؤها سببا لزيادة حسنها وإشراق نورها، وليس المرادُ منه إزالة الأقذار، فإن الجنة منُزَّهَة عن كل هذا.

وحقَّ لعمر ﵁ أن يبكي سرورًا بعد سماع هذه البشارة، لما منحه الله أو شوقًا إلى لقاء الله.



ماذا داخل هذه القصور؟!

عن أبي موسى الأشعري ﵁ أن رسول الله ﷺ قال:

«جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[2].

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٣٢٤٢.
(٢) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٤٨٧٨.



قيل: جنتا الذهب للسابقين المقربين، وجنتا الفضة لأصحاب اليمين.

ومقتضى الحديث أن جنتي الفضة لا ذهب فيهما، وجنتي الذهب لا فضة فيهما، وهذا بعكس حديث أبي هريرة رضي الله عنه قلنا:

يا رسول الله.. حدِّثنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال:

«لبنة من ذهب، ولبنة من فضة».

وأجيب عن هذا بأن لبنة الذهب، ولبنة الفضة هي صفة حوائط الجنة، وأما حديث أبي موسى، فهو يتحدث عما داخل الجنة من أثاث ومتاع وغيره.



كيف تبني قصرا في الجنة؟!

1 بناء المساجد:

قال رسول الله ﷺ:

«من بنى لله مسجدًا ولو كمفحص قطاة لبيضها، بنى الله له بيتًا في الجنة»[1].

قال الدميري: «القطا، طائر معروف، واحده قطاة، والجمع قطوات».

ومفحص القطاة هو المكان الذي تفحص القطاة عنه، لتضع فيه بيضها، وترقد عليه.

وهذه بشارة لكل من شارك في بناء مسجد كان له من الأجر على قدر مشاركته، فلو اشترك جماعة في بناء مسجد، لكان نصيب كل واحد منهم من الثواب بمقدار مشاركته.

وذهب بعض العُلَمَاءِ إلى أنَّ الحديث على ظاهره، وأنَّ المراد بذلك ما لو اشترك جماعة في بناء مسجد، بحيث كان نصيب كُلِّ واحد منهم مَفْحَص قطاة، بنى الله لكل واحد منهم بيتًا في الجنة، وفضل الله واسعٌ.

(١) صحيح: رواه أحمد عن ابن عباس كما في صحيح الجامع: ٦١٢٩.



2 قراءة سورة الإخلاص عشر مرات:

عن معاذ بن أنس الجهني عن النبي ﷺ قال:

«من قرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات، بنى الله له قصرًا في الجنة»[1].

ولما سمع عمر الحديث قال: «إذًا نُكثِر؟» أي نقول: عشرة من وراء عشرة من وراء عشرة كي تكثر قصورنا، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكثر وأفضل»، أو قال: «أطيب».

3 صلاة اثنتي عشرة ركعة في اليوم والليلة من غير الفريضة:

وهذه هي السنن الرواتب، قال النبي ﷺ: «ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة، تطوعا غير فريضة، إلا بنى الله له بيتا في الجنة، أو إلا بُني له بيت في الجنة»[2].

ولعل هذا وعد خاص بمن واظب على هذه الركعات، وهو ظاهر ما ذهب إليه ابن أبي شيبة في مصنَّفه حيث بوَّب عليه بقوله: (في ثواب من ثابر اثني عشرة ركعة من التطوع)، والنسائي في السنن الكبرى باب: (ثواب من ثابر على اثنتي عشرة ركعة في اليوم والليلة).

وهذه الرواتب اثنتا عشرة ركعة: أربع قبل الظهر، واثنتان بعدها، واثنتان بعد المغرب، واثنتان بعد العشاء، واثنتان قبل الفجر.



كيف سيعرف كل واحد من أهل الجنة منزله من بين ما لا يحصى من بيوت أهل الجنة؟!

هل سيسألون عن عناوين قصورهم؟!

وهل يحتاجون إلى دليل؟!



(١) صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: ٥٨٩.

(٢) صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن رقم: ١٧٢٩.



والجواب: كلا. قال تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ [محمد:٦].

قال مجاهد: «يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئونها كأنهم ساكنوها منذ خُلِقوا، لا يستدلون عليها أحدا».

وقال ابن عباس: «هم أعرف بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم».



ضيق النار!

إن كانت راحة الجنة مقرونة بسعتها، فإن جحيم النار مقترن بضيقها، فيضيِّق الله على أهل النار أماكنهم، حتى تضيق عليهم نفوسهم، فإن الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة، لذا وُصِفَت الجنة بأن عرضها السموات والأرض.

ومع أن النار واسعة جدا، وقعرها -كما مرَّ بك- بعيد جدا، لكن مع ذلك تضيق على سكانها، ويزداد الضيق كلما ألقِي في النار فوج جديد، والنار مع كل هذا تنطق وتقول: هل من مزيد؟

لما قُرِئَ على عمر بن عبد العزيز -وهو أمير المدينة- قول الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُوا۟ مِنۡهَا مَكَانࣰا ضَيِّقࣰا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡا۟ هُنَالِكَ ثُبُورࣰا﴾، بكى عمر حتى غلبه البكاء، وعلا نشيجه، فقام من مجلسه، ودخل بيته، وتفرَّق الناس.

والتضييق على أهل النار حاصلٌ رغم ضخامة جثة الكافر التي جاء ذكرها في الحديث:

«إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعا بذراع الجبار، وإن ضرسه مثل أُحد، وإن مجلسه من جهنم ما بين مكة والمدينة»[1].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع»[2].

(١) صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢١١٤.
(٢) صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥٩١.



تتضخم جثة الكافر لتصبح مثل سلاسل الجبال الضخمة؛ لتتذوق كل خلية من جسده ألم العذاب وضراوة النيران، فيكون أبلغ في الإيلام، مع ما يعانيه من ضيق المكان، والتقييد بالسلاسل والأغلال.

والضيق يوحي به كذلك السجن الذي خصَّصه الله في جهنم للمتكبرين، وهو سجن بولس، كما جاء في الحديث:

«يُحشَر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بولس، تعلوهم نار الأنيار، يُسقَوْن من عصارة أهل النار طينة الخبال»[1].

ولا تعارض بين حشر المتكبرين كأمثال الذر وضخامة أجساد الكافر في النار، فقد يكون ساعة الحشر في حجم الذر لكن تتضخم جثته حين يدخل النار.

وبولس مشتق من (الإبلاس) بمعنى: اليأس، ولعل هذا السجن سُمِّي به؛ ليأسِ داخلهِ من الخلاص.

وسميت (نار الأنيار) كأن هذه النار لفرط إحراقها وشدة حرها أشد من جميع أنواع نار جهنم.



(١) حسن: رواه أحمد والترمذي عن ابن عمرو كما صحيح الجامع رقم: ٨٠٤٠.

سابعا

أشجار الجنة و أشجار النار

قَـدَّمتُ لحيـاتـي



ما معنى الجنة بغير شجر؟!

لكنه ليس أي شجر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما في الجنة شجرة إلا وساقها من ذهب»[1].

وإليك ثلاثة أنواع من شجر الجنة كما جاء ذكرها في الأحاديث، وهي على سبيل المثال لا الحصر:

1 شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام:

هي شجرة هائلة، لا يعرف قدرها إلا من خلقها، وقد أوضح رسول الله ﷺ عظمة هذه الشجرة، فأخبر أن راكب الفرس المعدَّ للسباق يحتاج لمائة عام حتى يقطعها، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع في ظلها مائة

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٦٤٧.



عام، ما يقطعها»[1].

شجرة عجيبة لا يحيط بعظمتها عقل، ولا يعلم قدرها إلا من رآها، ولن نراها حتى ندخل الجنة.

بلغ هذا الحديث كعب الأحبار، فقال: «صدق والذي أنزل الفرقان على لسان محمد، لو أن رجلا ركب حُقَّه أو جذعه (دابته)، ثم سار في أصل تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط هرما، إن الله تعالى غرسها بيده، ونفخ فيها من روحه، وما في الجنة نهر إلا ويخرج من أصلها».

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]».

واستدِلَّ بهذا على سعة حدائقك في الجنة، فالشجرة الواحدة من أشجارها هذه صفتها.

وتأمل في سعة ممتلكاتك في الجنة بما لا يُعبَّر عنه إلا بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾.

وتسلَّ بسعة الآخرة يا كل من ضاقت به الدنيا.

والظل ممدود هو الذي لا ينحسر كظل الدنيا؛ فظل الدنيا يتقلص، أما ظل الجنة فدائم، لا ينحسر ولا يتقلص.

وهنا يبرز سؤال: كيف يكون في الجنة ظل وليس فيها شمس؟!

والجواب: المراد من قوله «ظلها»: كنفها وما تستره أغصانها.

وقيل: نعيمها، ومنه قولهم: عيش ظليل.

قال زكريا الأنصاري في (فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن):

«الظل يكون من أشجار الجنة لأنها تظللهم من نور العرش، لئلا يُبهر أبصارهم، فإنه أعظم من نور الشمس».

---

(١) صحيح: رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٢١٢٥.



قال القرطبي: «والمُحْوِج إلى هذا التأويل أن الظل في عُرْفِ أهل الدنيا ما يقي من حرِّ الشمس وأذاها، وليس في الجنة شمس ولا أذى».

2 سدرة المنتهى:

وهي الشجرة التي ذكرها الله تعالى في سورة النجم، وأخبر أن النبي ﷺ رأى جبريل على صورته الملائكية عندها، وهي شجرة عظيمة عند جنة المأوى، فوق السماء السابعة: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم:١٣-١٦].

وسميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله من الوحي وغيره.

أو لانتهاء علم الخلائق إليها.

أو لكونها فوق السماوات والأرض، فهي المنتهى في العلو والارتفاع.

أو لأنه لم يجاوزها أحد إلا رسول الله ﷺ.

وقد أخبر الله أن هذه الشجرة يغشاها ما يغشاها من الخيرات التي لا يحيط بها وصف، وذكروا في فائدة عدم تحديد الآية لما يغشى السدرة: الإبهام والتهويل، حتى ولو عُلِم بعضه عن طريق الأحاديث، فإن ما يغشاها أشياء كثيرة لا يمكن أن يحاط بها أو تُستَقْصى، فمنها مثلا:

- فراش من ذهب كما جاء في حديث ابن مسعود.
- ألوان قال عنها النبي ﷺ: «فغشيها ألوان لا يدري ما هي»، يعني لا يستطيع أن يصف هذه الألوان، لأن الجنة تحوي ألوانا جديدة لم يعرفها أهل الدنيا، ولن يعرفوها إلا في الجنة.
- أو غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله، وفيه تشويق.

وقد وصف رسول الله ﷺ بعض أوصاف شجرة سدرة المنتهى، فقال:

«ثم ذُهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيّرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها».



وقال مقاتل في محاولة لوصف جمالها الذي لا يوصَف:

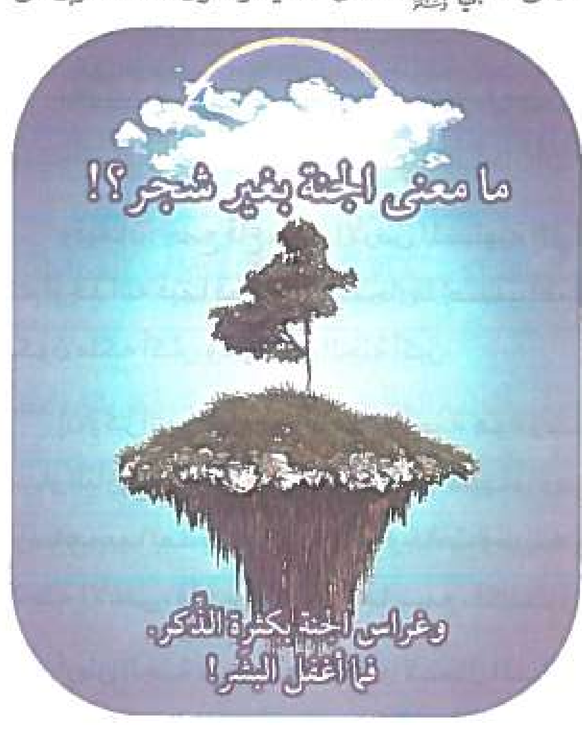
«هي شجرة تحمل الحلي والحلل والثمار من جميع الألوان، لو أن ورقة وُضِعَت منها في الأرض لأضاءت لأهل الأرض».

وقال ابن دحيان في سبب اختيار سدرة المنتهى لرحلة المعراج:

«اختيرت السدرة دون غيرها؛ لأن فيها ثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيذ، ورائحة زكية، فكانت بمنزلة الإيمان الذي يجمع القول والعمل والنية، فالظل بمنزلة العمل، والطعم بمنزلة النية، والرائحة بمنزلة القول».

3 شجرة طوبى:

شجرة طوبى شجرة عظيمة تخرج منها ثياب أهل الجنة، فهي بمثابة مصنع ثياب أهل الجنة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فقال له: يا رسول الله.. طوبى لمن رآك وآمن بك؟ فقال: طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني. قال له رجل: وما طوبى؟



قال:

«شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[1].

وتخيَّل أنك كلما أردت ثوبا جديدًا -مع أن ثياب الجنة لا تبلى- ذهبت إلى حديقة قصرك، فانتقيت منها ثوبا جديدا، تقطفه من شجرة من أشجارك الرائعة.

(1) حسن: رواه أحمد وابن حبان عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع الصغير رقم: ٣٧٢٠.



كيف أزيد غراسي في الجنة؟!

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ به وهو يغرس غرسا، فقال: «يا أبا هريرة.. ما الذي تغرس؟!» قلت: غراسا لي.

قال: «ألا أدلك على غراس خير لك من هذا؟».

قال: بلى يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ:

«تقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، يُغرس لك بكل كلمة منها شجرة في الجنة»(١).

وهي بشارة خليل الرحمن التي نقلها لنا النبي عليه الصلاة والسلام، فقد روى الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لقيتُ إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد.. أقرئ أمتك أن الجنة أرض طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»(٢).

وقيعان: جمع قاع، وهي الأرض المستوية التي لا غرس فيها ولا بناء، فالجنة كانت قيعانا، ثم أوجد الله فيها قصورها وأشجارها بحسب أعمال أصحابها، فمن كان عمله الصالح أكثر، يكون ملكه أكثر، ونعيمه في الجنة أكبر.

إن ذِكْرَ الله ﷻ والعمل للفوز بالجنة هو موضع النقاش الذي جرى بين أعظم نبيين على مدار التاريخ: خليل الرحمن، وخاتم الأنبياء، وهي وصية للأمة جمعاء من أبيها إبراهيم، أوصاهم بها بعد أن سلَّم عليهم، وجاءت وصيته بعد التحاقه بالرفيق الأعلى ومعاينة نعيم الجنة الأغلى، فأخبر بما رأى لا ما سمع، فكانت وصيته أغلى وأوقع!

أرض الجنة قيعان، والأذكار والأعمال الصالحة لها عمران، فبها تبنى القصور، وتُغرَس

(١) صحيح: رواه ابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٦١٣.
(٢) حسن: رواه الترمذي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٥١٥٢.



أشجار الجنان، فإذا تم الغراس وتكامل البنيان، انتقل إليها السكان.

وما أسهل الاستكثار من أشجار الجنة اليوم، فما أسهل قول اللسان! بل هو والله أسهل الأعمال! لكن وراءه أعظم الأجر والثواب!.

ولذا كانت وصية النبي ﷺ: «لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله».

ولما سأله معاذ بن جبل: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال:

«أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»[1].

فالمؤمنون موقنون بالأجر، لذا يستكثرون من الذكر، فلا يفارقهم حتى وهم يجودون بأنفسهم حتى نزول القبر.

جاء في مسند أحمد بإسناد حسن: قال رسول الله ﷺ:

«المؤمن تخرج نفسه من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل»[2].

وسر حمد العبد لربه عند موته أن الله أطلعه على منزلته في الجنة، فيحمد الله عليها.

ومن غفل عن الأجر، انقطع عن الذكر، وكان هذا من علامات جهله غبائه، وقد وصفه بهذا الوصف رسول الله ﷺ، فقال:

«ما تستقلُّ الشمس فيبقى شيء من خلق الله إلا سبَّح الله بحمده إلا ما كان من الشياطين وأغبياء بني آدم»[3].

فغبي كل الغباوة من انقطع عن ذكر الله رغم غنائمه الغالية وأرباحه المغرية، فكل شيء عند ارتفاع شمس النهار يسبِّح الله إلا ما كان من شيطان مريد أو عبد عنيد، وتأمل في الحديث:

كيف كان غياب الذكر سببًا لاقتران العبد بالشيطان، وكأن قيد الشيطان لا يوضع في يد العبد إلا ببعده عن ذكر ربه.

(١) حسن: رواه البيهقي والطبراني عن معاذ كما في صحيح الجامع رقم: ١٦٥.

(٢) حسن: مسند أحمد رقم: ٢٤٧٥.

(٣) حسن: رواه ابن السني عن عمرو بن عبسة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٥٩٩.





شجر النار:

شجرة الزقوم هي شجرة جهنم الأشهر، وهي شجرة فظيعة المنظر، كريهة الطعم والرائحة، غُذِّيَتْ بالنار، وخُلِقَت من نار، وتحيا بالنار كما تحيا الأشجار ببرد الماء، فلا تحترق كسائر أشجار الدنيا بالنار، ويُجبَر على تناولها أهل النار.

قال الله تعالى عنها في سورة الصافات: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٤-٦٨].

وتشبيه طلع شجرة الزقوم أي ثمارها بالشيطان؛ لقبح منظرها، ورعب كل من ينظر إليها، ومع أنه لم ير أحدٌ الشيطانَ حتى يخاف منه، لكن كفى بصورته المجهولة رعبا، فصورة الشيطان أقبح الصور في عُرْف الناس، ويُعلَم بهذا أن العذاب بشجرة الزقوم نوعان:

- نفسي معنوي: بالقبح والخوف والرعب.
- ومادي: بطعمها المُرّ ورائحتها الخبيثة، وغليانها في البطون بعد أكلها كغلي الحميم، ولها من الآثار ما لا يعلمه إلا الله.

قال أبو عمران الجونى: «بلغنَا أن ابْن آدم لَا ينهش مِنْهَا نهشه إِلَّا نهشت مِنْهُ مثلهَا».

لكن رسول الله ﷺ عرض لنا بعض عذابها المادي، فقال ﷺ: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم، فكيف بمن تكون طعامه؟!»[1].



(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٥٠.



تخيّل!

قطرة واحدة من هذه الشجرة كفيلة بأن تفسد كل صور الحياة على وجه الأرض، فلا ينتفع الناس بمياه البحار والأنهار بعد ما أفسدتها قطرة الزقوم، ويتعفن الهواء وتتغير الأجواء بأثر هذه القطرة الخبيثة، وتفسد الأطعمة والأشربة بمرارة قطرة واحدة، فلا يطيق أحد من الناس أكلها.

فكيف بمن كانت هذه الشجرة طعامه الدائم والمستمر؟!

يُلقَى الجوع على أهل النار، فيستغيثون منه، فيغاثون بشجرة الزقوم، ليكون حالهم: كالمستجير من الرمضاء بالنار.

﴿لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾:

ومما يضاعف عذاب أهل النار بشجرة الزقوم: أكلهم المستمر منها حتى تمتلئ بطونهم، لغلبة الجوع المسيطر عليهم، أو لأن ملائكة العذاب يجبرون أهل النار على الأكل منها؛ فيكون هذا عذابا فوق العذاب.

فإذا امتلأت بطونهم منها وغلَبهم العطش، طلبوا السُقيا، واستغاثوا طلبا للماء، وطال انتظارهم هناك، كما تنبئ به كلمة (ثم) التي تفيد التراخي الزماني، فيقدَّم الشراب إليهم -بعد طول انتظار- حميما غاية في الحرارة، يقطّع الأمعاء والأوصال، ثم ماذا؟!

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾.

وفي هذا إشارةٌ إلى إن الزقوم والحميم يقدَّم إلى أهل النار قبل دخولها، فتسوقهم ملائكة العذاب عن منازلهم في الجحيم إلى شجر الزقوم والحميم، فيأكلون منها إلى أن تمتلئ بطونهم، ثم يُسقَون من الحميم، ثم يُردّون إلى منازلهم في جهنم، أو المقصود أن طبيعة عذابهم تتضمن التردد بين منازلهم النارية وبين شجر الزقوم، ذهابا وإيابا، كما في سورة الرحمن:

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾.

لكن.. ما فائدة التأمل في شجرة الزقوم وغيرها من أطعمة أهل النار؟!



الفائدة: إذا انشغلت النفس بالتفكر في لذائذ الدنيا المحرمة، وقضاء الشهوات من غير الحلال، وقبل أن يستزلك الشيطان ويجعلك عبدا لشهوتك وأسيرا عند هواك، تأتي هذه الأحاديث لتخاطبك:

إذا كنتَ لا تصبر اليوم على مقاساة أقل القليل من عذاب السعير، بل تعجز عن الصبر على أدنى آلام الدنيا كوجع الضرس أو صداع الرأس، فكيف تصبر غدا على الأكل من شجرة النار؟!

فيردعك هذا الترهيب، ويحول بينك وبين السقوط في فخاخ الشيطان وهاوية العصيان.





من أين تخرج ثياب أهل الجنة؟!

هناك طريقتان لصناعة ملابس أهل الجنة:

الطريقة الأولى:

ما مرَّ بك من شجرة طوبى التي تخرج ثياب أهل الجنة من أكمامها.

الطريقة الثانية:

تفتق ثمار الجنة عن هذه الثياب، كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! أخبرنا عن ثياب أهل الجنة.. خلقا تخلق أم نسجا تُنسَج؟ فضحك بعض القوم، فقال رسول الله ﷺ: «مم تضحكون؟! من جاهل يسأل عالما؟» ثم أكبَّ رسول الله ﷺ، ثم قال: «أين السائل؟». قال: هو ذا أنا يا رسول الله! قال: «لا بل تشقق عنها ثمر الجنة (ثلاث مرات)»[١].

(١) صحيح: مسند أحمد رقم: ٧٠٩٥.



وقد ذكر ابن أبي الدنيا أن ابن عباس ﷺ سئل عن حُلَلِ الجنة، فقال:

«فيها شجر فيه ثمر كأنه الرمان، فإذا أراد ولي الله كسوة انحدرت إليه من غصنها، فانفلقت عن سبعين حلة ألوانا بعد ألوان، ثم تنطبق وترجع كما كانت».



ثيابٌ لا تبلى:

قال رسول الله ﷺ: «من يدخل الجنة ينعم فيها لا يبأس، لا تَبلَى ثيابه، ولا يفنَى شبابُه»[1].

نفى النبي ﷺ عن أهل الجنة جميع المضرات الروحية والنفسية، فنفى عنهم البؤس، لأن الإنسان في الدنيا قد يتنعَّم فترة قبل أن يصيبه البؤس، فنفى كل ما ينال من نعيم أهل الجنة.

هذا عن الباطن، وأما عن الظاهر، فثيابهم التي يرتدونها لا تبلى مهما طالت إقامتهم في الجنة ودام ارتداؤهم لها، تظل جديدة كأن لم تُلبَس من قبل، وقوله: «لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»: تعريضٌ بالدنيا الفانية، فما عيبت الدنيا بشيء أكثر من فنائها وسرعة زوالها، حتى صدق فيها قول الحسن البصري:

أحلام نوم أو كظل زائــل ... إنَّ اللبيب بمثلها لا يُخْدَعُ



لينُ الثياب:

روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب ﷺ قال: أُهدِيَتْ للنبي ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها ويعجبون من لينها، فقال رسول الله ﷺ:

«أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ خير منها، أو ألين»[2].

وتخيَّل أن مجرد المناديل التي يمسح بها وجهه ويديه أفضل من كل هدايا الملوك وكنوزهم.

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٦٠٨.

(٢) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٣٨٠٢.



هذه وصية نبوية نهديها لمن انبهر بمشاهد القصور الفاخرة، وخطفت بصره المراكب الفارهة، والتوى عنقه لمتابعة ثياب أهل الثراء الناعمة:

ألا تغتر بهذا النعيم الزائل، وتذكَّر دائما ما في الجنة من مناديل سعد بن معاذ، وتأمّل -كلما نسيتَ- روعة نعيمها الأخّاذ.

مم صُنِعَت هذه الثياب؟

أخبر سبحانه وتعالى عن نوعية هذه الثياب فقال: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، وهذا الحرير نوعان: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾.

فالسندس ما رقَّ من الحرير، والإستبرق ما غلُظ منه.

ولأن السندس هو رقيق الديباج، فهو شفاف ترى من ورائه لون البشرة، ليضاعف هذا من جمال أهل الجنة، وهو سندس أخضر، والأخضر أحسن الألوان، وكان شعار الملوك، وهو أمتع للعين، فكان السندس الحريري ألين الثياب للجلد، ولونه أفضل الألوان للعين.

وأما الإستبرق فهو الحرير الغليظ السميك الذي يستر جمال البشرة، فيزيده استتارا وفتنة، والنفس تتشوق دائما إلى ما أُخفِي عنها من الجمال أكثر مما ظهر منه.

والمعنى: أن فوقهم ثيابًا من الصنفين، يلبسون هذا وذاك، جمعا بين محاسن النوعين، وهي أفخر لباس الملوك وأهل الثراء.

ومن ثياب نساء الجنة: الخمار، لقول النبي ﷺ:

«ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[1].

هذا قدر الخمار، فما قدر صاحبة الخمار؟!

وتخيل! كيف أن قطعة قماش واحدة من الجنة أغلى من كل نعيم الدنيا.

---

(١) رواه البخاري رقم: ٢٧٩٦.





وهي نوعان:

النوع الأول: القطران

أما القطران، فكان العرب يطلون به مواضع الجرَب في الإبل بالقطِران كدواء، لكنه يوم القيامة يكون من أشد ألوان الداء وأسباب العذاب. قال إسماعيل حقي:

«يُطلَى به جلود أهل النار، يعود طلاؤه لهم كالسرابيل، ليجتمع عليهم الألوان الأربعة من العذاب:

- لذع القطران وحرقته
- وإسراع النار في جلودهم
- واللون الموحش
- ونتن الريح».

على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، فقد ورد: (وان ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم)، وقِسْ عليها القطران.

وقد ورد التعذيب به للنائحة كما في الحديث: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سِربالٌ مِنْ قَطِران، ودِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ»[1].

والسربال هو القميص، وهو هنا قميص منسوج من قَطِران، ترتديه -كعذاب لها- المرأة النائحة يوم القيامة، وفوق هذا يُسلَّط على أعضائها الجرب والحكَّة، بحيث يغطي الجرب جميع جسدها تغطية الدرع للجسد، والدرع في اللغة: قميص النساء.

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن أبي مالك الأشعري كما في صحيح الجامع رقم: ٦٧٩٢.



فجمع الله على النائحة بين عذاب القطران وحرارته وحرقته ونتنه وسواده واشتعاله، وعذاب الجرب الذي يمزِّق الجلد ويقطع اللحم؛ كما تجمع المرأة بين القميص والدرع.

وذكروا في الحكمة من تخصيص النائحة بدرع الجرب وجهين:

- أحدهما: أن النائحة كانت تخمش وجهها وتلطمه، فابتُلِيت بالجرب الذي لا صبر لها عليه إلا بالخمش والتمزيق.
- والثاني: أنها كانت تجرح بكلماتها قلوب الحاضرين، فعوقبت على ذلك بما يماثله في الصورة، جزاءا وفاقا، والجزاء من جنس العمل.

لكن هل تشمل النياحة البكاء حزنا على فراق الميت؟! وما الفارق بينهما؟!

والجواب:

البكاء معروف، وهو دمع العين.

وأما النياحة، فالمقصود بها ندب الميت، وتعديد محاسنه، أو الرنة وهي النغمة المعروفة للنساء في حالة الندب أو الصراخ، ونحو ذلك من أفعال النائحات المعروفة.

النوع الثاني: ثياب النار

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾.

كان إبراهيم التيمي إذا تلا هذه الآية يقول: «سبحان من خلق من النار ثيابا».

والمعنى أن النيران تحيط بهم إحاطة الثياب، أو أن الله جعل لهم ثياب نارية مفصَّلة على قدِّهم، ليعمهم العذاب من كل جانب، فلا ينجو عضو من النار، ولا خلية من خلايا الجسد من العذاب. قال وهب بن منبِّه:

«كُسِيَ أهل النار، والعري كان خيرًا لهم، وأُعطوا الحياة، والموت كان خيرًا لهم».

ولأن الثياب تشمل جميع الجسد غير الرأس، أفرد الله الرؤوس بالذكر بقوله:

﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.



وهذا عام لكل أهل النار، لكن ورد أن ثيابا خاصة لبعض أصحاب الذنوب، فقد خرَّج أبو داود وغيره من حديث المستورد عن النبيِّ ﷺ قال:

«من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها من جهنم.

ومن اكتسى برجل مسلم ثوبا، فإن الله يكسوه مثله من جهنم.

ومن قام برجل مسلم مقام سمعة ورياء، فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة»[1].

والیکم أمثلة عملية حياتية لأصحاب هذا الحديث:

- رجل غشَّ مسلما في البيع والشراء، فأكل ماله بالحرام.
- رجل غصب مال مسلم بغير وجه حق.
- رجل كسب مالا بسبب غيبته أو قذفه أو وقوعه في عرض أحد.
- رجل عمل عملا أخذ عليه راتبا: لتعرضه لمسلم بالأذى والضرر.
- رجل ذمَّ رجلا عند شخص يعجبه النيل منه؛ ليطعمه شيئا أو ينال رزقا.

كل هؤلاء يعاقبهم الله تعالى بأن يأكلوا في النار مثل الأكلة التي أكلوها، ويلبسوا مثل اللباس الذي ارتدوه، لكن الطعام من نار، والثياب نارية!



(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود والحاكم عن المستورد بن شداد كما في صحيح الجامع رقم: ٦٠٨٣.



في الجنة من الطيور ما لا يعلمه إلا الله تعالى، قال تعالى في بعض نعيم أهل الجنة:

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة:٢١].

قال ابن عباس شارحًا ومشوّقا:

«يخطر على قلبه الطير، فيصير ممثلاً بين يديه على ما اشتهى».

قال الخازن:

«فإن قلت: هل في تخصيص الفاكهة بالتخير، واللحم بالاشتهاء بلاغة؟. قلت:

نعم، وكيف لا؟ وفي كل حرف من حروف القرآن بلاغة وفصاحة، والذي يظهر فيه أن اللحم والفاكهة إذا حضرا عند الجائع تميل نفسه إلى اللحم، وإذا حضرا عند الشبعان تميل نفسه إلى الفاكهة، فالجائع مُشتَهٍ، والشبعان غير مُشْتَهٍ، بل هو مختار، وأهل الجنة إنما يأكلون لا من جوع بل للتفكه، فميلهم إلى الفاكهة أكثر فيتخيرونها، ولهذا ذكرت في مواضع كثيرة من القرآن بخلاف اللحم، وإذا اشتهاه حضر بين يديه على ما يشتهيه، فتميل نفسه إليه أدنى ميل، ولهذا قدَّم الفاكهة على اللحم، والله أعلم».



أي أنهم لما أكلوا من اللحم ما يشتهون أكّد ذلك عدم الجوع والألم، وأن أهل الجنة إنما يأكلون تلذذا وتمتعا، كما ذكر ربنا:

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾.

ومن طيور الجنة ما أخبر عنه النبي ﷺ:

«الكوثر نهر أعطانيه الله في الجنة، ترابه مسك، أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طائر أعناقها مثل أعناق الجزر، آكلها أنعم منها»[1].

والجُزُر جمع جزور، و(آكلها) أي أن أهل الجنة (أنعم منها): أشد نعمة منها.

ولذا لما قال النبي ﷺ:

«إن طير الجنة كأمثال البُخت ترعى في شجر الجنة».

والبُخت نوع من الإبل.

قال أبو بكر: يا رسول الله.. إن هذه الطير ناعمة، فقال:

«أكلتها أنعم منها -قالها ثلاثا-، وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها يا أبا بكر»[2].



طعام أهل النار:

معلومٌ أن مقصود تناول الطعام في الدنيا أحد أمرين:

أن يسد جوع صاحبه، أو يُسْمِن بدنه من الهزال، وطعام أهل النار ليس فيه هذا ولا ذاك، فهو طعام كريه، لا يسد جوعا ولا يُسْمِن بدنا.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦-٧].

(١) صحيح: رواه الحاكم عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٤٦١٤.

(٢) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن أبي بكر كما في صحيح الجامع رقم: ٤٦١٤.



ومن سمات طعام أهل النار أنه ذو غُصَّة:

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾.

أي يغصُّ به آكله، فلا هو نازل عن حلقه، ولا هو خارج منه، وذكر ابن عباس أنه شوك يأخذ الحلق، فلا يدخل ولا يخرج.

أُتِي عبد الرحمن بن عوف بعشائه، وهو صائم، فقرأ:

﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

فلم يزل يبكي، حتى رفع طعامه، وما تعشَّى، وإنه لصائم.

وإذا كان عبد الرحمن بن عوف -المبشَّر بالجنة- يتذكر طعام أهل النار، فكيف بمن انهمك في أطعمته التي اكتسبها من حرام؟!





كما ترى بعض الشباب اليوم يلبسون ما يُسمَّى (الأنسيال)، فكذلك يرتدي أهل الجنة أساور الذهب والفضة للزينة والتأنق، ففي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو أنَّ رجلاً مِن أهل الجنة اطَّلع فبدا أساوِره، لطَمَس ضوء الشمس كما تطمِس الشمسُ ضوء النُّجوم»[1].

لكن من سيحليهم بهذه الأساور التي قال الله فيها: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾، وهو جمع سوار.

هل هم الخدم؟

أم الملائكة؟!

أم الله رب العالمين؟!

قال سعيد بن جبير في أنواع هذه الأساور:

«على كل واحد منهم ثلاثة أسورة: واحد من ذهب، وواحد من ورق، وواحد من لؤلؤ».

(١) صحيح: رواه أحمد والترمذي عن سعد كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٥١.



ويجمعون بين التحلي بالثلاثة لتجتمع لهم محاسن الجنة.

وقيل: حُلِيُّ الرجل الفضة، وحُلِيُّ المرأة الذهب.

أو يتقلبون بين هذه وتلك، فتارة يلبسون الذهب، وتارة يلبسون الفضة.

وقيل: لكل قوم ما تميل إليه نفوسهم.

وقيل: يختلف ذلك باختلاف الأعمال، فبعضهم يُحلَّى بالفضة، وبعضهم بالذهب، وبعضهم باللؤلؤ.

وعلى أي هذه الأقوال، فهو نعيم عظيم لا يخطر ببال.

قال كعب الأحبار: «إن في الجنة مَلَكًا لو شئتُ أن أسميه لسمَّيتُه، يصوغ لأهل الجنة الحُليّ منذ خلقه الله إلى يوم القيامة، لو أبرز قلب منها -أي: سوار منها- لردَّ شعاع الشمس، كما تَرُدُّ الشمس نور القمر».

كيف تشتري الحُليّ في الجنة؟!



قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه:

«تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[1].

فإذا أسبغت وضوءك، وكذلك الأنثى إذا أسبغت وضوءها، فإن الجواهر ستبلغ ما يبلغ الوضوء من المؤمن، فمن أسبغ وضوءه، وبالغ في إيصال الماء لما فوق مرفقي الذراعين وكعبي الرجلين فإن الحلية ستصل إلى ما وصل إليه ماء الوضوء.

(١) صحيح الجامع رقم: ٢٩١١.





أغلال أهل النار:

قال تعالى عن رجل من أهل النار:

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾.

والأغلال: جمع غُلّ، والغُلُّ: هو القيد الذي تربط به اليدان إلى رقبة الإنسان، فكذلك يصنع بهؤلاء، ثم يسلسل الشقي في سلسلة طولها سبعون ذراعا!!

وهل بقي لهذا الشقي قوة حتى يقاوم ملائكة العذاب؟!

وهل يستطيع الفرار حتى يُقيِّدوه؟!

إنه لا يقوى على الحركة، فكيف يفرّ؟

وإن فرّ، فإلى أين؟ وأبواب النار عليه مؤصدة.

إنما وظيفة القيود والأغلال: إذلال صاحبها، ومعاملته معاملة الدابة الذي تقاد من لجامها إلى موضع ذبحها.

لكن، لماذا كان طول السلسلة سبعين ذراعًا؟.

المراد بالسبعين حقيقة هذا المقدار في الطول، أو لعل هذا العدد كناية عن عظيم طولها، لأن العرب تستعمل رقم السبعين للتكثير، لأن السلسلة إذا طالت كان الإرهاق والعذاب أشد.

ومعنى ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾: أي اجعلوه مغلولا في هذه السلسلة، بحيث تحيط به إحاطة تامة، وثُمَّ في كل آية تفيد التراخي في الرُّتبة، لا التراخي في الزمن، لأن كل عقوبة أشد من سابقتها، فإدخاله في السلسلة الطويلة أعظم من إلقائه في الجحيم، كما أن إلقاءه في الجحيم أشد من أخذه وتقييده بالأغلال، ففائدة ﴿ثُمَّ﴾ الدلالة على تفاوت ما بين الغل والتصلية بالجحيم، وما بينها وبين السلك في السلسلة.



وأغلال النار وسلاسلها موجودة ومجهَّزة من الآن لأصحابها، ومسجلة بأسمائهم. قال الحسن البصري:

«ما في جهنم واد ولا غار ولا غل ولا سلسلة ولا قيد إلا واسم صاحبها مكتوب عليه».

كان أبو الدرداء رضي الله عنه يحضُّ امرأته على تكثير المرق لأجل المساكين، وكان يقول:

«خلعنا نصف السلسلة بالإيمان، أفلا نخلع نصفها الآخر؟!».

يشير بهذا إلى قول الله تعالى عن صاحب الأغلال في النار:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾.

يا مسكين..
أبعد هذا التفصيل..
تحتار؟!
بين أساور أهل الجنة،
وأغلال أهل النار؟!





قال الله عن أهل الجنة: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤].

تستطيع التعرف على أهل الجنة بمجرد أول نظرة إليهم، فإذا رأيتهم عرفت أنهم من أهل النعيم، مما ترى من حُسنهم الباهر والنور الذي يفيض من وجوههم.

قال عطاء: «وذلك أن الله تعالى زاد في جمالهم، وفي ألوانهم، ما لا يصفه واصف».

والنضرة في الوجه سببها السرور الذي في القلب، كما ترى في وجوه أهل الثراء أثر الترف والنعمة، بما يدلك على ما هم فيه من النعيم العظيم.

واختير: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ﴾ بدلا من (ترى على وجوههم) مع أن المعرفة تتعلق بالأمور الخفية، والرؤية تتعلق بالأمور الواضحة الجلية؛ لأن ما تفيده المعرفة أعمُّ وأتمُّ مما تفيده الرؤية؛ فإن نعيم الجنة من عظمته يكون مشاهدا ومحسوسا ومعقولا، ولا عجب في ذلك، فهو أعظم نعيم على الإطلاق. قال الزجاج: «نضِرَتْ بنعيم الجنة».

وقال الحسن البصري عن نعيم الجنة الذي أدى لهذه النضرة في الوجوه:

«تنظر إلى الخالق وحقٌّ لها أن تنضر، وهي تنظر إلى الخالق».



وقال آخرون عن سبب النضارة: «تعرف في وجوههم رضا محبوبهم عنهم».

وخصَّ الوجوه بالذِّكر مع أن النضرة تشمل سائر البدن؛ لأن نظرك إلى غيرك يبدأ بتفحص وجهه، ولأن السرور إذا عظم في القلب أثَّر في جمال الوجه، فيكون في ذكر نضرة الوجه إخبار عن غاية ما عليه أهل الجنة من النعيم والسرور.

وما خفي من نعيمهم كان أعظم، وأكبر، وأغلى، وأروع!

وجوه أهل النار

أكرم ما في الإنسان وجهه، ولذا نهانا رسول الله ﷺ عن ضرب الوجه، وجعل الله من إهانة أهل النار أن يحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وصما وبكما ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ [الإسراء:٩٧]. ويلقون في النار على وجوههم ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [النمل:٩٠].



وتلفح وجوههم النار وتغشاها، فلا يجدون حائلا يحول بينهم وبينها ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٤].

تشدُّ أيديهم بالأغلال إلى أعناقهم، فكلما جاءهم نوع من العذاب، اتقوه بوجوههم، ولا يقدرون على اتقاء النار بأيديهم ولا بغير أيديهم.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر:٢٤].

وانظر إلى هذا المنظر الذي تقشعر لهوله الأبدان:

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب:٦٦].



أرأيت كيف يقلَّب اللحم على النار؟! والسمك في المقلاة؟! فكذلك تقلَّب وجوه أهل النار في النار وهم أحياء، ومن الذي يقلِّبها؟!

إنها ملائكة العذاب، تقلِّب وجوههم في النار رغما عنهم، أو يجعل الله تقلب وجوههم ذاتيا لتصل النار إلى جميع أجزاء الوجه، ولو كان لفح النار مقتصرا على أحد جانبي الوجه، لكان للجانب الآخر بعض الراحة.

وخُصَّت الوجوه بالذكر، لأن الوجه أكرم ما في جسد العبد، ولأن حرَّ النار يؤذي الوجوه أشد مما يؤذي بقية الجسد؛ لأن الوجوه موضع الحواس الرقيقة: العيون والأفواه والآذان والأنوف.

رسلة لأصحاب الثراء!

دخل الفضيل بن عياض على هارون الرشيد يوما، فرأى ما حوله من نعيم وأُبَّهة، فأراد أن ينبِّهه من غفلته، ويوقظه من سكرة قوته، فقال له ناصحا: «يا حسن الوجه.. إن قدرتَ أن لا تلفح وجهك النار فتسوِّده فافعل، فوالله لقد قُلِّدتَ أمرا عظيما»، فبكى هارون.

وما أصدق لهجة الأنبياء، وما أخوفهم على أتباعهم، وما أشفقهم على من آمنوا بهم، لذا حذَّر عيسى ﷺ:

«كم من جسم صحيح، ووجه صبيح، ولسان فصيح، غدا بين أطباق النار يصيح».





قال رسول الله ﷺ:

«يؤتى بالموت يوم القيامة فيوقف على الصراط فيقال: يا أهل الجنة! فيطّلعون خائفين وجلين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه، ثم يقال:

يا أهل النار! فيطّلعون مستبشرين فرحين أن يخرجوا من مكانهم الذي هم فيه. فيقال:

هل تعرفون هذا؟

فيقولون: نعم.. هذا الموت. فيؤمر به فيُذبَح على الصراط. ثم يقال للفريقين كلاهما:

خلودٌ في ما تجدون، لا موت فيها أبدا»[1].

وهنا الفرحة الأبدية لهؤلاء المنعَّمين، والحسرة السرمدية على هؤلاء المعَذَّبين.

وما قيمة الدنيا مهما عظم نعيمها إذا كانت إلى زوال، وما قيمة شقائها مهما كان طاغيا إذا كان فانيا.

---

(١) صحيح: رواه أحمد وابن ماجة والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٩٩٩.



رَوَوا أن ملكا من الملوك بنى قصرا، وقال: انظروا من عاب منه شيئا فأعطوه درهمين، وكان في من أتاهم رجل،

فقال: «في هذا القصر عيبان اثنان».

قالوا: وما هما؟

قال:

«يموت الملك، ويخرب القصر».

وصدق الذي قال:

لا طيبَ للعيش ما دامت مُنغَّصةً لذَّاتُه بادِّكارِ الموتِ والهَرَمِ

فكل من باع الخلود بالفاني أحمق، وكل من ضحَّى بآخرته من أجل دنياه، فما فهم التكليف، ولا فهم تكاليف الدين الحنيف.

مَرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بكثيب من رمل فبكى،

فقيل له: ما يبكيك يا أمير المؤمنين؟

قال:

«ذكَرتُ أهلَ النار، فلو كانوا مخلَّدين في النار بعدد هذا الرمل، كان لهم أمد يمدُّون إليه أعناقهم، ولكنه الخلود أبدا».

أخي..

أين لذة الأمس؟!

رحلت.

وما مصير لذة اليوم؟!

سترحل.

وباقي دنياك على القياس! الدنيا خيال، والجنة هي الحقيقة والأساس.



أخي ..

ما قولك في عقل رجل مريض أشار عليه الطبيب بمجهود ثلاثة أيام ليهنأ طيلة عمره على الدوام؟

أيؤثر لذة أيام على نعيم الأبد؟

نعيم الجنة أبد، والدنيا في الآخرة أقل من ثلاثة أيام، بل أحقر من ذلك بكثير.

أحمقٌ من يشترى لذة ساعة بعذاب سنين!!

فوالله ما تساوي لذة سنة في الحرام غم ساعة في النار، فكيف إذا كانت اللذة ساعة والعذاب أبد؟!





رضيتُ بقدَري

أولا: ما القدر؟

ثانيا: ما أركان الإيمان بالقدَر؟

ثالثا: ما مواقف الناس من القدر؟!

رابعا: ما علاقة القدَر بالعمل؟

خامسا: ما حكم الجدال في القدَر؟!

سادسا: ما الرد على هذه الشبهات الثلاثة؟!

سابعا: هل يغيِّر الدعاء القدر؟!

ثامنا: ما الرد على معضلة الشر؟!

تاسعا: ما الرد على من احتجَّ بالقَدَر لترك العمل؟!

عاشرا: ما أثر الإيمان بالقدر على حياة العبد؟!



سئل الإمام أحمد عن القدر، فقال:

«القدر قدرة الله».

فالقدَر من أعظم ما يدل على القدرة، ولله القدرة المطلقة، وقدرته لا يعجزها شيء، ولهذه القدرة الخارقة علامات، منها ما قاله ابن حجر:

«مذهب السلف قاطبة أن الأمور كلَّها بتقدير الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر:٢١]».

القدَر أعظم ما يدل على القدرة، ولله القدرة المطلقة، وقدرته لا يعجزها شيء

وذِكر الخزائن هنا تمثيل، فالله تعالى يقول أنه ما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده والإنعام به، لكن لا نعطيه إلا بمقدار معلوم، نعلم أن فيه المصلحة، فضرَب الله الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور.



قال ابن حجر في تعريف القدر:

«المراد أنَّ الله تعالى علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثمَّ أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدَث صادر عن علمه وقدرته وإرادته».

والبعض قال أن لا فارق بين القضاء والقدر، فإذا أطلق أحد اللفظين شمل معنى الآخر، وبعضهم جعل بينهما فارقا، فالقضاء هو تقدير الله على سبيل الإجمال في الأزل، والقدَر هو الخلق، فإذا قضى الله تعالى أن يكون الشيء المعين في وقته فهذا قضاء، فإذا جاء وقت إيجاده فهو قدر، واستدلوا بحديث:

«لو قُضِيَ كان»[1].

وسببه ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه:

خدَمتُ رسول الله ﷺ عشر سنين، ما بعثني في حاجة قط لم تتهيأ، فلامني لائم إلا قال:

«دعوه، لو قُضِيَ لكان».

أي لو قضى الله بِكَوْن شيء في الأزل لكان واقعا لا محالة، إذ أن الله لا رادَّ لقضائه، ولا مُعقِّب لحكمه.

وتعريفات العلماء للقدر متقاربة فيما بينها، وهي تفيد أن القدر يشمل أمرين:

الأول:

علم الله الأزلي بوجود ما شاء أن يوجده، وحدَّد الله صفات المخلوقات التي يريد خلقها، وكتب كل ذلك في اللوح المحفوظ، فالسماوات والأرض بأحجامهما وأبعادهما وما فيهما وبينهما من خلائق، كل ذلك عِلْمه مُدَوَّنٌ في اللوح المحفوظ تدوينا في غاية الدقة.

والثاني:

إيجاد ما قدَّر الله إيجاده على ما سبق به علمه وجرى به قلمه، ليأتي الواقع مطابقا للعلم السابق المكتوب.

(١) صحيح: رواه الدارقطني عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٩٤٠٦.



يقوم الإيمان بالقدر على أركان أربعة، من أقرَّ بها جميعا كان إيمانه بالقدر كاملا، ومن انتقص واحدا منها فقد اختل إيمانه بالقدر، وهذه الأركان الأربعة هي:

الأول: الإيمان بعلم الله الشامل

علم الله محيط بكل شيء، يعلم ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، ويعلم الموجود والمعدوم، والممكن والمحال.

وهو سبحانه عالمٌ بالعباد وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن منهم من أهل الجنة، ومن منهم من أهل النار قبل أن يخلقهم، بل وقبل أن يخلق أي شيء.

ومن علمه تبارك وتعالى بما هو كائن: عِلْمُه بما كان الأطفال الذين تُوُفُّوا صغارا عاملين، لو أنهم كبروا.



روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال: سُئل النبي ﷺ عن أولاد المشركين، فقال:

«الله أعلم بما كانوا عاملين»[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في قول النبي ﷺ في أبناء المشركين:

«(الله أعلم بما كانوا عاملين): أي يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر لو بلغوا، ثم إنه جاء في حديث إسناده مقارب عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة فإن الله يمتحنهم، ويبعث إليهم رسولاً في عرصة القيامة، فمن أجابه أدخله الجنة، ومن عصاه أدخله النار». فهنالك يظهر فيهم ما علمه الله سبحانه، ويجزيهم على ما ظهر من العلم، وهو إيمانهم وكفرهم، لا على مجرد العلم».

والقول الصحيح أن أطفال المشركين يدخلون الجنة. قال الإمام النووي:

«وهو المذهب الصحيح المختار الذي صار إليه المحقّقون لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وإذا كان لا يعذّب العاقل لكونه لم تبلغه الدعوة، فلأن لا يعذب غير العاقل من باب أَوْلى».



الثاني: الإيمان بكتابة الله في اللوح المحفوظ لما هو كائن إلى قيام الساعة

في صحيح مسلم:

«كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء»[2].

ورواه الطبراني بلفظ:

«فرغ الله من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»[3].

(١) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ١٣٨٤.
(٢) صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو كما في صحيح مسلم رقم: ٢٦٥٣.
(٣) المعجم الكبير للطبراني رقم: ١٤٦٦٥.



لكن كيف كُتبت المقادير؟!

قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب قال: يا رب! وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة، من مات على غير هذا فليس مني»[1].

واللوح المحفوظ هو الكتاب الذي كتب الله فيه مقادير الخلق، وقد سماه القرآن بالكتاب، والكتاب المبين، والإمام المبين، وأم الكتاب، والكتاب المسطور.

وفي تفاصيل هذه الكتابة وموضوعها قال رسول الله ﷺ: «فرَغ الله عز وجل إلى كُلِّ عَبْدٍ مِنْ خَمْس: مِنْ أجله، ورِزْقه، وأثره، ومضْجَعه، وشقيٌّ أو سعيدٌ»[2].

«وأثره»: هو أثر مشي العبد في الأرض.

«ومضجعه»: يعني سكونه ومكان نومه، ومحل موته ودفنه.

كتابة المقادير

كتابة مقادير الشقاوة أو السعادة

الكتابة في اللوح المحفوظ

الكتابة العمرية عند نفخ الروح

الكتابة السنوية في ليلة القدر

الكتابة اليومية

وفي حديث أنس جاء لفظ (الخُلق)، وهو تعبير عن السعادة أو الشقاوة، فقال رسول الله ﷺ: «فرغ الله من أربع: من الخَلْق، والخُلُق، والرزق، والأجل»[3].

والكتابة في اللوح المحفوظ هي الكتابة الأولى والأساسية التي لا تتبدل ولا تتغير، لكن معها أنواع أخرى من الكتابات، مثل:

الكتابة الثانية: النوعية أو المصيرية

وهي كتابة مقادير الخلق من حيث الشقاوة أو السعادة:

---

(١) صحيح: رواه أبو داود عن عبادة بن الصامت كما في صحيح الجامع رقم: ٢٠١٨.

(٢) صحيح: رواه الطبراني عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٤٢٠١.

(٣) صحيح: رواه ابن عساكر عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: ٤٢٠٣.



وجاءت بها أحاديث الميثاق، وأنَّ الله ﷻ استخرج ذرية آدم من صلبه، فنثرهم أمامه كهيئة الذَّر، وأخذ عليه أن لا يشركوا به شيئا، ثم أفاض بهم في كفيه، فقال: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار، ومن ذلك حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال:

«خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى، فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى، فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم (جمع حممة وهي الفحمة)، فقال للذي في يمينه: إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كفِّه اليسرى: إلى النار ولا أبالي»(١).

الكتابة الثالثة: الكتابة العمرية عند نفخ الروح

وهي ما قُدِّر للإنسان وهو جنين في رحم أمه، وقد دلَّ عليها حديث ابن مسعود في الصحيحين مرفوعًا:

«إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتابة رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»(٢).

وهي تفصيلٌ أو تخصيصٌ لما في اللوح المحفوظ، لأنَّ الذي في اللوح المحفوظ شامل لكل المخلوقات، لكن هذه الكتابة مُتعلقة بهذا المخلوق وحده.

الكتابة الرابعة: الكتابة الحولية أو السنوية

ليلة القدر تُكتب فيها مقادير العام القادم

وتُكتَب فيها مقادير تلك السَّنَة، ويكون هذا في ليلة القدر.

قال تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٣-٤].

(١) صحيح: رواه أحمد وابن عساكر كما في السلسلة الصحيحة رقم: ٤٩.
(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ١٥٤٣.



قال ابن عباس: «يُكتَب من أمِّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحج، يقال: يحج فلان ويحج فلان».

والكتابة في ليلة القدر هي إحدى أنواع الكتابات، فيوحي الله إلى ملائكته أن يكتبوا أشياء مما في اللوح المحفوظ الذي فيه مقادير الخلائق، مما سيحصل للناس خلال هذا العام.

قال ابن عباس وغيره:

«تكتب الملائكة أعمال العباد، ثم تصعد بها إلى السماء، فيقابلون الملائكة الذين في ديوان الأعمال على ما بأيديهم مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ في كل ليلة قدر، مما كتبه الله في القِدَم على العباد قبل أن يخلقهم، فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا، ثم قرأ: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾».

الكتابة الخامسة: الكتابة اليومية

عن أبي الدرداء في تفسير ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، قال:

«من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرِّج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين».

وأما عن قول الله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩].

أي: من هذه الآجال والأرزاق مما في أيدي الملائكة من الصحف، ﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وهذه لا محو فيها، لأنها اللوح المحفوظ الذي لا يتغير ولا يتبدَّل.

فهذه أنواع الكتابة الخمسة: كتابة اللوح المحفوظ، وكتابة القبضتين، وكتابة عند نفخ الروح، وكتابة سنوية، وكتابة يومية.



الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة وقدرته التامة:

فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حركة ولا سكون في السماوات ولا في الأرض إلا



بمشيئته وإذنه، فلا يكون في ملك الله إلا ما يريد: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان:٣٠].

وقد صرَّح الله بأن للمخلوقين مشيئة، وأنهم لا يشاءون إلا ما شاءه الله، وسيوفق كُلا منهم إلى ما سبق له به العلم الأزلي في الكتاب.

فإذا عملنا عملاً من الأعمال باختيارنا؛ فإن الله ﷻ يكون قد أراده، وإذا أردنا أن نعمل عملاً من الأعمال، ولكن الله ﷻ لم يشاءه؛ فإنه لا يكون ولا يقع مهما اجتهدنا في تحصيله.

وما أجمل قول الإمام الشافعي:

ما شِئتَ كانَ، وإنْ لم أشَـأْ   وما شِئتُ إن لم تَشأ لم يكنْ

وفيه أن للعبد مشيئة لكنها تابعة لمشيئة الله ﷻ، كما قال تعالى:

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ذكر اللالكائي أن رجلاً طلب من جاريته أن تسقيه، فجاءته بقدح من زجاج، فصبَّت له ماء، فوضعه على راحته، ثم رفعه إلى فمه، ثم قال: يزعم ناس أني لا أستطيع أن أشرب هذا، ثم قال لجاريته: أنتِ حرة إن لم أشرب هذا الماء، فما كان من الجارية إلا ضربت القدح بطرف قميصه، فوقع القدح وانكسر وإهراق الماء.

وهكذا أثبتت الجارية لهذا المسكين أنه لا يقدر على ما يريد ما لم يقدِّره الله، فلقَّنته درسا بليغا، وحرَّرت نفسها من رِقِّ العبودية.

وذكر بعض العلماء المعاصرين أنه كان رجلان في طائرة -مسلم والآخر غير مسلم- والرحلة كانت إلى لندن، فقال غير المسلم للمسلم: كم تبقى من الوقت لنصل إلى لندن؟

قال: تبقى ساعة إن شاء الله -قالها هكذا عادية مثل أي مسلم- فضحك الرجل، وقال: لماذا تقول: إن شاء الله، فالطائرة ذاهبة والمطار موجود؟! بل قل: بعد ساعة ولا تقل: إن شاء الله، فقال له: لا، أنا مسلم، وأقول: إن شاء الله؛ لأننا قد نشاء أشياء نسعى إليها وأسبابها حاضرة، ثم لا تقع، فأبى الرجل أن يقتنع، ثم قدَّر الله عند اقترابنا من لندن، أن نكتشف أن



المطار مقفل؛ فهناك ضباب كثيف والهبوط ممنـــوع، ولا بـد أن يكون الهبـوط في باريس، ولا أعرف كم تبعد باريس عن لندن، فقال المسلم لغير المسلم:

كم بقي حتى نصل إلى باريس، فقال:

ساعة إن شاء الله!

فقلت له: لماذا تقول: إن شاء الله؟

فقال: من يدري، فلعل المطار في باريس يكون مقفلا أيضا!

إرادة الشر!

وقد أراد البعض أن ينزِّه الله عما لا يليق به، فأخطئوا، فذكروا أن الله لا يشاء الشر للعبد، بل العبد يفعل الشر بمشيئته، وهذا أمر باطل، فإن للعبد إرادة مستقلة، لكنها لا تخرج عن إرادة الله، وذكروا في توضيح هذا المعنى: قصة جاثليق النصارى -وهو زعيم من زعماء النصارى- لما سمع عمر بن الخطاب ﷺ يخطب ويقول:

«من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»،

فقال الجاثليق:

إن الله لا يُضِلُّ أحدًا، فقال له عمر:

«كذبتَ، بل الله خلقك، والله أضلك، ثم يميتك، فيدخلك النار إن شاء الله، أمَا والله لولا أن لك عهدًا سبق لضربت عنقك».

وذكروا كذلك أن أعرابيا أتى عمرو بن عُبيد -كبير المعتزلة- فقال له: إن ناقتي سُرقت، فادع الله أن يردها عليّ.

قال عمرو بن عبيد: اللهم إنَّ ناقة هذا الفقير سُرقتْ، ولم تُرِدْ سرقتها، اللهم اردها عليه.

قال الأعرابي: الآن ذهبت ناقتي، وأيِستَ منها.



قال: كيف؟

قال: لأنه إذا أراد أن لا تُسرَق فسُرِقَتْ، لم آمن أن يريد رجوعها فلا ترجع، ونهض من عنده منصرفا.

الرابع: خلق الله لكل موجود

ومما خلق الله أفعال العباد، فهي مخلوقة مقدَّرة لا يخرج العباد وأفعالهم عن غيرهم من المخلوقات، فقد علم الله ما سيخلق من عباده، وعلِمَ ما هم فاعلون، وكتب هذا في اللوح المحفوظ، وخلقهم كما شاء، وعملوا على النحو الذي شاء.

قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:٩٦].

وقال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى صانع كل صانع وصنعته»[1].



(١) صحيح: رواه الحاكم والبيهقي عن حذيفة كما في صحيح الجامع رقم: ١٧٧٧.

ثالثا

ما مواقف الناس من القدر؟!

رَضيتُ بقَدَري

انقسم الناس تجاه القدر إلى طوائف:

١ . المعتزلة:



أثبتوا علم الله بأفعال العباد قبل وجودها لكنها نفَت خلقه لها، ونسبت خلق الأفعال للإنسان، فهو الذي يخلق طاعته ومعصيته بنفسه، ورأوا بذلك أنهم ينزِّهون الله عما لا يليق به.

٢ . الجبرية أو المرجئة:

طائفة ضلت حين فسَّرت القدر بالجبر، فقالت: إن أفعال الإنسان كلها هي من الله



خلقًا وفعلاً، وليس للإنسان فعل أو إرادة واختيار، وإنما هو مجبر على أفعاله وتصرفاته الشخصية، فهو كريشة معلقة في الهواء، أو حجر أُلقِي في الماء، حتى قال قائلهم:

ما حيلةُ العَبْدِ والأقدارُ جاريَة ... عليه في كُلِّ حالٍ أيُها الرائـــي
ألقاهُ في اليَمِّ مكتوفا وقال لـه ... إيَّـــاكَ إيَّاكَ أن تَبْتَلَّ بالمـــاءِ



٣. أهل السنة والجماعة:

وهو المذهب الوسط، ويتلخص في أن الله يعلم بأفعال العباد قبل وجودها، ويخلقها عند وجودها، لكن الإنسان حرٌّ في أفعاله، وهي تصدر عنه بمحض حريته واختياره، فإن لله مشيئته وللإنسان مشيئته، ولا تعارض بين المشيئتين كما قال تعالى:

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

ويرون أن علم الله سبحانه بما سيقع لا تأثير له في إرادة العبد، فإن علم الله صفة كاشفة لا مُرغِمة.

أي أن علم الله سابق لا سائق، بمعنى أن هذا العلم لا يعني أن الله يجبر العبد على فعل شيء، بل العبد حر تمام الحرية في اختياره.





عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال:

كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي ﷺ، فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرَة (قضيب)، فَنَكَّس (أي نكَّس رأسه نحو الأرض كهيئة المهموم المتفكر)، فجعل ينْكُت بمخصرته، ثم قال: ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة إلا كُتِبَ مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتب شقية أو سعيدة. فقال رجل: يا رسول الله.. أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟! فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، وأما من كان منا من أهل الشقاوة، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة.

قال: أما أهل السعادة فيُيسَّرون لعمل السعادة، وأما أهل الشقاوة فيُيسَّرون لعمل الشقاوة. ثم قرأ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾(١).

(١) صحيح: رواه البخاري عن علي بن أبي طالب كما في صحيح البخاري رقم: ١٣٦٢.



فهم البعض هذا الحديث بما يتناقض مع بدهيات العدل، وأن الله خلق أناسًا خصيصًا للنار، فما ذنبهم إذن إن دخلوا النار؟!

وخلق أناسًا خصيصًا للجنة، فماذا فضلهم إذن إذا ربحوا الجنة ؟!

مما أثار بلبلة عند الكثيرين.

هذا الحديث الجليل فيه نَصُّ قانون التيسير:

من عمل صالحًا، خلق الله فيه التيسير لليسرى.

ومن عمل طالحًا، خلق الله له فيه التيسير للعسرى

والتيسير لليسرى أو العسرى بحسب عملكم أنتم، فاعملوا..

قال ابن القيم:

«فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدَر السابق لا يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد.

ولهذا لما سمع بعض الصحابة ذلك قال:

ما كنتُ أشد اجتهادا مني الآن.

وهذا مما يدل على عظيم فقه الصحابة ودقة أفهامهم وصحة علومهم، فإن النبي ﷺ أخبرهم بالقدَر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب، فإن العبد ينال ما قُدِّر له بالسبب الذي أُقْدِر عليه ومُكِّن منه وهُيِّئ له، فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أمّ الكتاب، وكلما زاد اجتهادا في تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه.

- وهذا كما إذا قُدِّر له أن يكون من أعلم أهل زمانه، فإنه لا ينال ذلك إلا بالاجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه.
- وإذا قُدِّر له أن يُرزَق الولد، لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو التسري والوطء.
- وإذا قُدِّر له أن يستغل من أرضه من المغل كذا وكذا، لم ينله إلا بالبذر وفعل أسباب الزرع.



وإذا قُدِّر الشبع والري، فذلك موقوف على الأسباب المحصِّلة لذلك من الأكل والشرب واللبس.

وهذا شأن أمور المعاش والمعاد، فمن عطَّل العمل اتكالا على القدر السابق، فهو بمنزلة من عطَّل الأكل والشرب والحركة في المعاش وسائر أسبابه اتكالا على ما قُدِّر له.

فهكذا الأسباب التي بها مصالحهم الأخروية في معادهم، فإنه سبحانه رب الدنيا والآخرة، وهو الحكيم بما نصَّه من الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسَّر كلا من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة، فهو مهيأ له مُيسَّرٌ له، فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهادا في فعلها من القيام بها منه في أسباب معاشه ومصالح دنياه.

وقد فقه هذا كل الفقه من قال: ما كنتُ أشدَّ اجتهادا مني الآن، فإن العبد إذا علم أن سلوك هذا الطريق يفضي به إلى رياض مؤنَّقة وبساتين معجبة ومساكن طيبة ولذة ونعيم لا يشوبه نكد ولا تعب، كان حرصه على سلوكها، واجتهاده في السير فيها بحسب علمه بما يُفضي إليه.

فالقدر السابق معين على الأعمال وما يحث عليها ومقتض لها، لا أنه مناف لها وصادٌّ عنها، وهذا موضع مزلة قدم، من ثبتت قدمه فاز بالنعيم المقيم، ومن زلَّت قدمه عنه هوى إلى قرار الجحيم».

إن بعض الناس يهمل أسباب النجاة، ثم يتهم القدر، وفيهم يصدق قول القائل:

وعاجزُ الرأي مضياع لفرصته حتى إذا فات أمرٌ عاتَب القدرا

وما أجمل قول محمد إقبال:

«المؤمن الضعيف يتعلل بالقضاء والقدر، والمؤمن القوي هو قضاء الله وقدره».



حذَّر الرسول ﷺ أمته من الجدال في القدر، ولعله أثير في عهد النبوة هذه القضية الجدلية الشائكة: هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟!

فغضب الرسول ﷺ غضبًا شديدًا عندما خرج على أصحابه يوما وهم يتنازعون في القدر، حتى احمرَّ وجهه، ففي مسند أبي يعلى بإسناد فيه ضعف عن أبي هريرة قال:

«خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمرَّ وجهه، حتى كأنما على وجهه حَبُّ الرُّمَّان، فقال: أبهذا أمرتم، أم بهذا أرسلت إليكم؟ إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه».

بل وكأن الله جعل الجدال عقوبة للأشرار، فقال ﷺ:

«أخر الكلام في القدر لشرار أمتي في آخر الزمان»[1].

وأوصانا النبي ﷺ جميعا فقال: «وإذا ذُكر القدر فأمسكوا»[2].

(١) حسن: رواه الطبراني في الأوسط والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٢٦.
(٢) صحيح: رواه الطبراني عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٥٤٥.

لكن أليس في هذا الأمر النبوي حجر على العقل الإنساني؟!

والجواب: كلا، بل فيه صيانة للعقل عما لا يطيقه، وحفظ له عن تبديد قواه، فقد وضع الإسلام معالم الإيمان بالقدر، فعرَّفك أن الله علم ما هو كائن وكتبه وشاءه وخلقه، وسهَّل على العقل البشري أن يفهم هذا، وأما البحث في سر القدر مثل كيفية العلم والكتابة والمشيئة والخلق، والتنقيب لمحاولة إدراك ما في القدر من حِكَم وأسرار، فليس هذا بمقدور العقل، ويشبه البحث فيه البحث في كيفية صفات الله، وهو أمر حجب الله علمه عن العباد، والباحث فيه كالباحث في كيفية استواء الله على العرش، فيصِحُّ أن نقول فيه: أركان القدر معلومة، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة.

لذا روى ابن عبد البر عن جعفر بن محمد قوله:

«الناظر في القدر كالناظر في عين الشمس، كلما ازداد نظرا ازداد حيرة».

ولذا فكثير ممن خاضوا في القدر، ونبشوا فيه، وتكلَّموا فيه بغير علم، انتهى بهم الأمر إلى الضلال، فمنهم..

- من انتهى إلى أن الإنسان يخلق أفعاله بنفسه، وأن الله لا سلطان له على أفعال العباد.
- ومنهم من انتهى إلى أن الإنسان مسيَّر ومجبر على عمله، وأنه لا مشيئة له.
- ومنهم من سخِط على القدر من كثرة ما نزل به من أزمات، فظن بالله ظن السوء.
- ومنهم من اعترض على الأقدار، بعد ما رأى علو المفسدين، وابتلاء المصلحين، فاتهم حكمة ورحمة رب العالمين.





قال الإمام الطحاوي:

«وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه لم يطّلع على ذلك ملك مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسُلَّم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]».

والمؤمنون قوم عمليون، لا ينشغلون بجدليات لا يترتب عليه عمل من الأعمال، ولذا لما سأل بلال بن أبي بردة محمدَ بن واسع:

ما تقول في القضاء والقدر؟

قال:

«أيها الأمير.. إن الله عزَّ وجلَّ لا يسأل يوم القيامة عباده عن قضائه وقدره، إنما يسألهم عن أعمالهم».

وما أصدق قول القائل:

عَجِزَت عقول العالمين جميعِهم ... عن فهم أقدار الحياة الماضية
فلرُبَّ خَيرٍ في ثياب بليَّةٍ ... ولَرُبَّ شَرٍّ في ثياب العافية
والمؤمنون بِنورِ مولاهم هُدوا ... فلَهُم نُفُوسٌ طيِّباتٌ راضية





الشبهة الأولى: معنى المحو والإثبات في الصحف

يتساءل البعض: إذا كان الله يعلم ما هو كائن، وكتب ذلك كله عنده في كتاب، فما معنى قوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩]؟!

وإذا كانت الأرزاق والأعمال والآجال مكتوبة، لا تزيد ولا تنقص، فما وجه قوله ﷺ: «صلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمرن الديار، ويزدن في الأعمار»[1].

والجواب أن الأرزاق والأعمار نوعان:

نوعٌ جرى به القدر، وكُتِب في أُمِّ الكتاب، فهذا لا يتغير ولا يتبدل.

ونوعٌ ثانٍ أعلم الله به ملائكته، فهذا هو الذي يزيد فيه وينقص، ولذلك قال تعالى:

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩].

(١) صحيح: رواه أحمد والبيهقي عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم:٣٧٦٧.



ففي كتب الملائكة يزيد العمر وينقص، وكذلك الرزق، وذلك بحسب الأسباب، فإن الملائكة يكتبون للعبد رزقا وأجلا، فإذا وصل رحمه زيد له في الرزق والأجل، وإلا فإنه يُنْقَص له منهما.

والأجل أجلان:

أجلٌ مطلق لا يعلمه إلا الله.

وأجل مقيَّد، فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعبده أجلا، فإن وصل رحمه، أمر الله المَلَك أن يزيد في أجله، والملك لا يعلم: أيزاد له في ذلك أم لا، لكن الله يعلم منذ الأزل ما سيستقر عليه الأمر، فإذا جاء الأجل لم يتقدم ولم يتأخر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في (مجموع الفتاوى):

«قال العلماء: إنَّ المحو والإثبات في صُحُف الملائكة، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف، ولا يبدو له ما لم يكن عالما به؛ فلا محو فيه ولا إثبات».

الشبهة الثانية: معنى السيئة والحسنة

قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:٧٩].

يظن البعض أن المراد بالحسنات والسيئات في هذه الآية: الطاعات والمعاصي، وهؤلاء أخطئوا الفهم، فالمراد بالحسنات هنا النِّعَم، والمقصود بالسيئات: المصائب، ويدل على هذا سياق النص، فالله يحكي عن المنافقين أنهم كانوا إذا أصابتهم حسنة مثل الرزق والنصر، قالوا: هذه من عند الله، وإذا أصابتهم سيئة مثل مرض أو عدو قالوا: هذه من عندك يا محمد، فأنت الذي جئتنا بهذا الدين الذي عادانا الناس لأجله، وأصابتنا بسببه المصائب.

ثم قرَّر الله سبحانه أن المصائب والنعم لا تخرج عن قدر الله ومشيئته:

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء:٧٨].



ثم بيّن الله تعالى أن السيئات التي هي مصائب، سببها في الأساس ذنوب العبد من نفسه: ﴿فَمِن نَّفْسِكَ﴾، وإن كان هذا مقدّرا، إلا أن الله قدّر أن تكون المصيبة بسبب، والسبب هنا هو الذنب.

وأما ما يصيب العبد من الخير فهو من فضل الله، وقد يحصل بعمل العبد فيكافئه الله عليه، وقد يحصل بغير عمل صالح سابق من العبد، تفضلا من الله عليه، فالواجب على العباد أن يشكروا الله على ما أنعم به عليهم، كما يجب عليهم أن يُكثِروا من التوبة والاستغفار مما اقترفوه من ذنوب، تسبَّبَت في نزول المصائب والخطوب.



الشبهة الثالثة: معنى الحفظ والذمة

ما وجه الجمع بين مقتل عمر رضي الله عنه وهو في المحراب يصلي الفجر، وبين قول رسول الله ﷺ: «من صلى الغداة كان في ذمة الله حتى يمسي»(1).

وكذلك ما حدث مع شيخ المجاهدين الشيخ أحمد ياسين، حيث استشهد على يد اليهود المجرمين بعد صلاة الفجر.

هنا ثلاثة ردود لثلاثة أئمة على ما ظاهره التناقض: ابن رجب وعبد الرؤوف المناوي وابن العربي.

قال ابن رجب في جامع العلوم والحكم: «حفظ الله لعبده يدخل فيه نوعان:

أحدهما: حفظه له في مصالح دنياه، كحفظه في بدنه وولده وأهله وماله، قال الله ﷻ:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

قال ابن عباس: «هم الملائكة يحفظونه بأمر الله، فإذا جاء القدر خلوا عنه»، وقال علي رضي الله عنه: «إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يُقدَّر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه».

(١) صحيح: رواه الطبراني عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: ٦٣٤٣.



النوع الثاني من الحفظ، وهو أشرف النوعين:

حفظ الله للعبد في دينه وإيمانه، فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المحرَّمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإيمان».

وقال الإمام المناوي في فيض القدير:

«والمعنى أن من صلى الصبح فهو في ذمة الله، فلا تتعرَّضوا له بشيء ولو يسيرا، فإنكم إن تعرَّضتم يدرككم الله ولن تفوتوه، فيحيط بكم من جوانبكم».

وقال ابن العربي في عارضة الأحوذي:

«هذه إشارة إلى أن الحفظ سينحلُّ بقصد المؤذي إليه، ولكن الباري سيأخذ حقه منه في إخفار ذمته التي أعلن بها، وهذا إخبار عن إيقاع الجزاء لا عن وقوع الحفظ من الإخفار والإذاية، فلأجل هذا وقع الإخفار، وأفاد الحديث: التهديد والوعيد والتحذير من أن يقع أحد في ذلك، ثم يكون الإقدام والإحجام بحسب القضاء والقدر».

ويشهد لهذا وصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه في مرض موته لسلمان حين قال له:

«واعلم أنه من صلى الصلوات الخمس، فإنه يصبح في ذمة الله، فلا تقتلن أحدا من أهل ذمة الله؛ فيطلبك الله بذمته، فيكبَّك على وجهك في النار».



الشبهة الرابعة: معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

وما معنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر:٨]؟؟

مما لا ريب فيه أن الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويفعل بعباده ما يريد، ولو لم يكن كذلك لكانت قدرته مشوبة بالعجز، ومع هذا فقد جعل الله الإنسان مخيرًا في ما يتعلق به التكليف من تصرفاته وأعماله، وإن قضاء الله هو علم الله الأزلي بما سيختاره الإنسان غير مُكرَه.

وقد جهَّز الله تعالى جميع المكلفين من عباده، بقدر مشترك من الطاقة والعقل والاختيار، وجعله مناط التكليف، فبذلك تتكافأ لديهم فرص المبادرة إلى امتثال أوامر الله تعالى والتزام

شرعه، لكن الناس بعد ذلك، اختلفوا في استعمال الأجهزة التي ملّكهم الله إياها من عقل وإرادة، فسلكوا في ذلك طريقين:

فمنهم من فتح عقله لإدراك آيات الله حوله، واستجمع طاقته وعزمه لتطبيق أوامره واجتناب نواهيه، ومثل هذا تدركه معونة الله وفضله، فيزيدهم إلى هدايتهم هداية أخرى من توفيقه، كما جاء هذا واضحا في كتاب الله:

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

ومنهم من تعمّد وضع عقله في غطاء عن ذكر الله وآياته، وهؤلاء وصفهم الله بقوله:

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾.

فأوقعهم هذا في مزيد الغواية والضلالة، وسببه سوء أعمالهم، وابتداؤهم بالإساءة كما أخبر الله في قوله تعالى:

الناس مع الهداية فريقان:
اهتدوا فزادهم الله هدى
ضلوا فمد لهم في الضلال

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

وربما سأل سائل:

ألم يكن الله قادرا على أن يهدي جميع خلقه، فلماذا لم يفعل؟

ولماذا لم يُزِل عقبات الشهوات والأهواء من طريق الناس جميعا؟

والجواب:

لو فعل، لما كان لتكليف العباد معنى، لأن الطاعات والعبادات ستصبح عندها من مستلزمات الطبع، كالطعام والشراب والنَّفَس، ولما استأهلوا بأعمالهم الأجر والثواب، ولما استقام أن يكونوا أكرم الخلق عند الله، وأن يكون مؤمنهم أكرم عند الله من الملائكة.



يجيب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن هذا السؤال، فيقول:

«لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله عز وجل يمحو بالدعاء ما شاء من القدر».

ولذا كان يحيى بن معاذ يقول:

«إن لَقِيني القضاء بكيد، لقيتُ القضاء بكيدٍ من الدعاء».

وأما قول النبي ﷺ:

«لا يرد القضاء إلا الدعاء»[1].

فيدل على أن الدعاء يرد القدر المعلَّق الذي في صحف الملائكة؛ لأنَّ الدعاء من قدر الله، وهو من جملة الأسباب بل من أقوى الأسباب.

نعم.. الدُّعاء من أسباب ردِّ البلاء قبل وقوعه أو بعد وقوعه، كما أنَّ المطر سبب خروج النبات، والطعام سبب الشِّبَع، والدرع سبب ردِّ سهام العدو.

(١) حسن: رواه الترمذي والحاكم عن سلمان كما في صحيح الجامع رقم: ٧٦٨٧.



وللدعاء مع البلاء أحوال، فإذا كان الدعاء أقوى من البلاء دفَعَه، وإذا كان الدعاء أضعف من البلاء لم يدفعه، لكن خفَّفه وأضعف أثره، وضعف الدعاء سببه عدم حضور قلب الداعي أو كثرة ذنوبه أو استعجال الإجابة، وهذا التدافع بين الدعاء والبلاء عبَّر عنه النبي ﷺ بقوله:

«وإن البلاء لينزل، فيتلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة»[1].

ومعنى «يعتلجان»: يصطرعان.

ولقوة تأثير الدعاء في دفع البلاء، فقد أمر النبي ﷺ المسلمين عند كسوف الشمس بالصلاة والدعاء والاستغفار، وشُرعت صلاة الاستسقاء لاستجلاب المطر عند القحط.

فإذا أصابك ما تكرَه، أوْ خَشِيت أن يصيبك مكروه، فارفع يديك إلى الله بالدعاء، ولا تتهاوَن فيه قبل نزول البلاء أو حتى بعد نزوله، فالدعاء قبل نزول البلاء وقاية، وبعد نزول البلاء علاج، ولذا روى الحاكم عن عائشة أن النبي ﷺ قال:

«والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل»[2].

وقد أمرنا النبي ﷺ:

«تعوَّذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»[3].

وسوء القضاء: كل ما يسوء الإنسان ويحزنه من الأقضية المقدَّرة عليه.

قال ابن بطال:

«سوء القضاء عام في النفس والمال والأهل والولد والخاتمة والمعاد».

فإن قيل: القضاء أزلي، فأي فائدة في الاستعاذة منه؟

فالجواب أن المراد: صرف القضاء المعلَّق في صحف الملائكة، وليس الأزلي المكتوب في اللوح المحفوظ.

(١) حسن: رواه الحاكم عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٧٣٩.
(٢) حسن: رواه الحاكم عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: ٧٧٣٩.
(٣) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٩٦٨ والصحيحة رقم: ١٥٤١.



أي الدعاء أفضل ؟!

لماذا صارت أكثر دعواتنا اليوم دنيوية ؟!

لماذا حين نتساءل عن أوقات الإجابة وأسباب قبول الدعاء، تنصرف أذهاننا دائما إلى حاجاتنا الدنيوية ؟!

عن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ:

اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال النبي ﷺ:

«قد سألتِ الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة، لن يُعَجِّل شيئا قبل حِلِّه، أو يُؤَخِّر شيئًا عن حِلِّه، ولو كنتِ سألتِ الله أن يعيذك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر، كان خيرا وأفضل»[1].

والحقيقة أن النبي ﷺ لم ينه أم حبيبة عن الدعاء بطول العمر والتمتع بمن تحب في الدنيا، وإنما أرشدها إلى ما هو أَوْلى من ذلك وأفضل، وهو التشاغل بالدعاء لأمور الآخرة، فإن التعوُّذ من عذاب القبر والنار يذكِّر المؤمن بهما، فيحذرهما ويتقيهما، فيفوز بخيري الدنيا والآخرة.

وقد يكون النبي ﷺ علم عن طريق الوحي أن أعمار من دعت لهم أم حبيبة لن يزاد عليها بدعائها، فوجَّهها للدعاء بالأَوْلى بسبب ذلك.



(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٤٣٧٤.



ومعضلة الشر هي أول وأهم سبب من أسباب الإلحاد في العالم اليوم.

قد يشغب البعض فيقول:

إنَّ الله مقدَّس عن فعل الشر، والواجب على العباد أن ينزِّهوا ربهم عن الشر وفعلِه، وهؤلاء خلطوا حقا بباطل، فالتبس عليهم الأمر، فَضَلوا الطريق.

ومع أن الله أرشدنا في كتابه أن لا نقحم أنفسنا في تساؤلات لا تبلغها عقولنا، وإنما علينا الانقياد والتسليم لحكمة الله البالغة وعلمه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء:٢٣]، لكن مع ذلك لا مانع من التأمل في حكمة خلق الشر للرد على المشكِّكين وتثبيتا لقلوب المؤمنين.

ولاشك أن انتشار الشرور والحروب والدمار في العالم اليوم ذو وقع شديد على قلب كل إنسان، بل هو من أصعب التكاليف الشرعية التي يتحملها قلب المؤمن، وقديما تأمَّل ابن الجوزي في التكاليف، فرآها في غاية الصعوبة، ليس بسبب العبادات البدنية، لكن بسبب فهم حكمة الأحداث مع التسليم للأقدار، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلام رائع له في كتابه صيد الخاطر:

«من ظنَّ أن التكاليف سهلة فما عرفها.

أترى يظن الظان أن التكاليف غسل الأعضاء برطل من الماء؟!



أو الوقوف في محراب لأداء ركعتين؟!

هيهات! هذا أسهل التكليف!

وإن التكليف هو الذي عجزت عنه الجبال، ومن جملته:

أنني إذا رأيتُ القدَر يجري بما لا يفهمه العقل، ألزمتُ العقل الإذعان للمُقدِّر، فكان من أصعب التكليف، وخصوصًا في ما لا يعلم العقل معناه، كإيلام الأطفال، وذبح الحيوان، مع الاعتقاد بأن المقدِّر لذلك، والآمر به: أرحم الراحمين، فهذا مما يتحيَّر العقل فيه، فيكون تكليفه: التسليم وترك الاعتراض، فكم بين تكليف البدن وتكليف العقل!».

وإليك بعض ما أجيب به عن معضلة الشر في العالم:

١ . لا شرَّ مطلق!

ومن الجواب على هذه الشبهة أن نقول أن الله تعالى لا يخلق شرًا محضا لا خير فيه، ولا نفع فيه لأحد، وليس فيه حِكْمَة ولا رحمة، فالرَّب سبحانه وتعالى مُنزَّه عن هذا، وهذا هو الشر الذي ليس إليه سبحانه.



فالشر يكون شرًا من جهة، وخيرا من جهة أخرى، ولهذا أمثلة:

الأول: القصاص:

فالقصاص مثلا.. شرٌ بالنسبة لمن وقع عليه القصاص من وجه؛ لأن فيه قطع عضو أو تعذيب بدن، لكنه خير لهذا العبد من وجه آخر؛ لأنه يُسقِط عن المذنب عقوبة الآخرة، وهي الأشد.



القصاص كذلك خيرٌ للمجتمع بأسره لما فيه من مصلحة الزجر والردع عن الوقوع في مثل هذه الجريمة، ولذا كان في إقامة الحد خير كثير كما في الحديث:

«حدٌ يُعمل به في الأرض خيرٌ لأهل الأرض من أن يُمطروا أربعين صباحا»[1].

الثاني: الأمراض

والأمراض رغم آلامها لا تخلو من فوائد، ليست فقط أخروية بالصبر والأجر، بل كذلك دنيوية، فقد وُجد أن كثيرًا من الأشخاص المبدعين كانوا مرضى بالاكتئاب المزمن أو أصيبوا به لفترات طويلة ومتواصلة في حياتهم!

هناك في الطب ما يُعرّف باسم: **Post traumatic growth**



ومعناها: تطور ما بعد الإصابة!!

يقول الأطباء: إن البشر حين يتعرضون إلى كوارث أو آلام شديدة مثل حادث أو إعاقة أو فقدان عزيز، يكون لديهم مسارات متعددة تعتمد على شخصية الإنسان وإيمانه وتفاؤله.

- من الناس مَنْ تدَمره المحنة، فيتحول إلى حطام إنسان فاشل يائس.
- ومنهم من يتعافى من محنته بمساعدة الآخرين، ويعود إلى حياته الطبيعية.
- ومنهم من تجعله المحنة أكثر حكمة وإبداعا ونجاحا! وتجعله يرتقي إلى درجة أعلى! وهذا ما يحدث لكثير من العظماء والمبدعين!! نقرأ قصة حياتهم، فنجد أن كارثة تعرضوا لها في مقتبل حياتهم، فكانت نقطة التحول التي بدونها لم يكن لينجح أو ليبلغ ما بلغ.

(١) حسن: رواه النسائي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٣١٣٠.

بعض النقاد مثلا يعتقد أنه لو لم يصب بيتهوفن بالصمم لما ألَّف سيمفونياته الشهيرة.

ولو لم يتجرع ديستوفسكي وتولستوي وتشارلز ديكنز التعاسة في حياتهم لما كتبوا روائعهم الأدبية الخالدة، والأمثلة كثيرة على أن العقبات التي اعترضت طريق المشاهير دفعتهم إلى بداية حياة جديدة ونجاح كبير، والحقيقة أن الخوارق لا تجري إلا بعبور جسر المتاعب.

يقول الشيخ عائض القرني في كتابه (لا تحزن):

«سُجِن أحمد بن حنبل وجلد، فصار إمام السنة.

وحُبِس ابن تيمية فأخرج من حبسهِ علما جمًّا.

ووُضع السرخسيُ في قعْرِ بئْرٍ معطلةٍ فأخرج عشرين مجلدًا في الفِقْه.

وأُقعِد ابن الأثير فصنَّف جامع الأصول والنهاية من أشهرِ وأنفعِ كتبِ الحديثِ.

ونُفِي ابنُ الجوزيِ من بغداد، فجوَّد القراءاتِ السبعِ.

وأصابتْ حمى الموتِ مالك بن الريبِ فأرسل للعالمين قصيدتهُ الرائعة الذائعة التي تعدِلُ دواوين شعراءِ الدولةِ العباسية.

ومات أبناءُ أبي ذؤيب الهذلي، فرثاهمْ بإلياذة أنْصت لها الدهر، وذُهِل منها الجمهور، وصفَّق لها التاريخ».

ونقل الأستاذ سامي العامري عن فيليب يانسي في كتابه (أين الله في وقت الألم) قوله: «في مقالة صدرت في مجلة علمية عن حياة ثلاثمائة قائد ممن كان لهم تأثير بالغ على حركة التاريخ، كشف البحث أنهم كلهم يشتركون في أمر واحد، وهو أنهم كانوا أيتاما، إما أيتام بسبب وفاة الوالدين، أو بسبب حدوث انفصال بينهما، أو أيتام عاطفيا بسبب حرمان قاس في طفولتهم».



الثالث: الموت:

لنُفكِّر في مِثال آخر: تُوُفِّي كبير العائلةِ بعد صراعٍ طويلٍ مع المرض وإقامة أشهر في

المستشفيات، وخلَّف وراءه مليارات الجنيهات لتكون من نصيب الورثة، وموته بلا شك فيه خير لأطراف عدة:

- الأطباء وطاقم التمريض الذين لو اختفت الأمراض؛ لافتقر هؤلاء وتعطلت مصالحهم وأرزاقهم.
- المحامون الذين يحصلون على أتعابهم نظير إنهاء إجراءات تقسيم الميراث.
- مغسِّل الموتى الذي ينتفع من (موت) الناس بدفنهم.

نسبةٌ لا بأس بها من البشر يقوم عملهم ومورد رزقهم على الشرِّ الذي يصيب الإنسان (مصائب قوم عند قوم فوائد).

الرابع: المحن

يقول ابن القيم في بعض فوائد المحن:

«لولا محن الدنيا ومصائبها لأصاب العبد من أدواء الكبر والعُجْب والفرعنة وقسوة القلب ما هو سبب هلاكه عاجلاً وآجلاً، فمن رحمة أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب تكون حميَّة له من هذه الأدواء، وحفظًا لصحة عبوديته، واستفراغًا للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلي بنعمائه».

نعم.. هناك خيرات لا تأتي في حضور الشر، فكيف توجد الشجاعة مثلا دون أخطار؟! وكيف يبرز الصبر بلا آلام وأحزان؟! فلا بد من شر نغلبه حتى نتحلى بفضيلة الانتصار عليه.

ومن أروع ما كتب الجاحظ في كتابه (الحيوان)، بعد أن تفكَّر في حكمة مزج الخير بالشر في الدنيا، ثم أخذ بيد القارئ ليوصله إلى بعض جوانب حكمة الله من خلق الشرور، فقال: «ولو كان الشرُّ صِرْفًا لهلك الخلق».

أي لو ملأ الشر الدنيا ولم يكن معه خير، لهلك الخلق، لأن الخلق ببساطة سيقضي بعضهم على بعض!

أما لو كان الخير محضا، ولم يكن في الدنيا شرور، فلن يكون هناك حافز لأي فضيلة أو



ميلاد فكرة، وفي غياب الفكرة لن توجد الحكمة، واقرؤوا كلام الجاحظ في تأنٍ: «أو كان الخير محضا سقطت المحنة، وتقطّعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة».

والحاصل أن الشر المطلق لا يُنسب إلى الله تعالى، وكل ما في الكون من شر ينطوي على خير خفي، ولذا ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كان يثني على ربه بتنزيهه عن الشر في دعاء الاستفتاح في الصلاة: «لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت»[1].

٢. الإنسان ليس مركز الكون!

إن نصف مليون من البشر يموتون كل عام بسبب الملاريا، وهذا خيرٌ من منظور البعوض!

وأطفالٌ كثيرون يموتون بالسرطان، وهذا خيرٌ مِنْ منظورِ الخلايا السرطانية!

وضحايا آخرين لحيوانات مفترسة، وهذا خير من منظور الحيوانات.

فالثعابين تقتل ما يقارب ٥٠ ألف شخص سنويا.

والعقارب تقتل ٥٠٠٠ شخص سنويا.

وفرس النهر يقتل ٣٠٠٠ شخص كل عام.

والأسد يقتل ١٠٠ شخص سنويا.

لكن.. مهلا! ما هذا الهراء؟ هل نُساوي هنا بين الجماداتِ أو الكائناتِ غير العاقلةِ وبيننا نحنُ البشر؟

إذن نحنُ نعتبرُ أنفسَنا سادة هذا الكوكب، ومنظورنا وحده هو المرجعيةُ العُليا للخيرِ والشر، وهذا غرور لا وجاهة له.

والاعتراضُ على وجود الشر فيه نظرة أنانية، وكأن الإنسان وحده مركز هذا الكون.

(١) صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن علي بن أبي طالب كما في صحيح مسلم رقم: ٧٧١.

٣ . حكمة الإرادة الحرة

إن الاعتراض على الشر الواقع بسبب الظلم هو في حقيقته اعتراض على الإرادة الحرة التي منحها الله للإنسان! ومتى ذهب التخيير لم يكن هناك معنى للاختبار الذي قامت عليه هذه الدار.

وهو اعتراضٌ على بشريَّتِنا التي أدَّت إلى فشلٍ بعضنا في المهمة التي كلَّفه الله بها!

اعتراضٌ على تقصيرنا في إقامةِ العدلِ ومقاومة الظلم، ونشرِ الخير في الأرض ومساعدة الغير.

اعتراض على حرية الاختيار بين الصواب والخطأ.

والمعترضُ شخصٌ فشِل في معرفة الهدف مِن حياته.

وفشل في استغلال الحرية التي منحها الله له.

وفشِلَ في إدراكِ المسؤولية الملقاة على عاتقه باعتباره خليفة الله في الأرض.

والدنيا خلقها الله دار اختبار، بدأ هذا الاختبار منذ نزول آدم إلى الأرض.

اختبر الله الضعيف بالقوي: هل يخضع الضعيف لسطوة القوي، فيطيعه في معصية الله؟

واختبر الله القوي بالضعيف: هل يتجبر القوي على الضعفاء، فيبطش بهم ويظلمهم؟

واختبر الله الفقير بالغني: هل يحسد الفقير الغني؟! وهل يتسخَّط على قدر الله؟





واختبر الله الغني بالفقير: هل يتكبر عليه بماله؟! هل ينسى أن الله مستخلفه فيه لينظر ماذا يصنع فيه؟

وتتكرر هذه المقابلات مع كل سلب وعطاء.

ونتيجة الاختبار في الدنيا إما أن يعدل الناس أو يظلموا، أن يطيعوا أمر الله أو يخالفوا، أن يتقوا ربهم أو يجرموا، ثم تنتهي الحياة، ليبدأ الحساب في الآخرة، وحينها يتحقق العدل الإلهي: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، فيرحم الله من يستحق رحمته، ويعاقب من يستحق العذاب.

ولم يَعِد الله عباده بإقامة العدل الشامل في الدنيا، وإلا فما فائدة يوم القيامة؟

وما قيمة الإيمان بالغيب الذي اختبرنا الله به؟

لقد نصَّ القرآن في بوضوح على قتل الأنبياء بغير حق، وهم أكرم الخلق على الله، وفهم المسلمون الأوائل هذه الحقيقة فهما عميقا، فحين أُشيع أن النبي ﷺ قُتِل في غزوة أحد، لم يرتدوا على أعقابهم، بل تعاهدوا على الموت على ما مات عليه، ولقد قُتل عمر وعثمان وعلي وغيرهم من أكابر الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين، فلم يشكّ المسلمون في دينهم، ولا تساءلوا: أين العدل الإلهي، لأن المعادلة كانت في غاية الوضوح في أذهانهم: ظلم الإنسان في الدنيا يقابله عدل الله المطلق في الآخرة.

المسألة واضحة لا لبس فيها، قد يفلت الظالمون بجرائمهم في الدنيا، لكن لن يفلتوا أبدا من عقوبتهم في الآخرة، وبهذا نزل القرآن، وبهذا خاطب الله سيد الخلق وخير رسله ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر:٧٧].

إلينا يُرْجَعون، فليس أمرهم إليك، بل إلينا، فإن مِتَّ قبل أن ترى عقاب الله لهم، فإنهم راجعون إلينا في الآخرة؛ لنحكم بينك وبينهم بالحق، بتعذيبهم في نار الجحيم، وإكرامك بجوارنا في جنات النعيم.



الدنيا دار اختبار لا دار إسعاد

إن غاية خلق الإنسان في الدنيا ليست إسعاده، بل اختبار عبوديته: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، والمعترض على الشر غافل عن هذه الحقيقة، ووجود الشر في هذا العالم هو جزء أساسي من هذا الاختبار، والسؤال الأساسي في هذا الاختبار:

هل نقاوِم الشر ونكون من جنود الخير لنفوز بالجنة؟!

أم نرسب في الاختبار ونتمادى مع الشر ونجاريه ونصبح جزءًا من منظومته؛ لنصير في النهاية إلى النار؟!

إن الدنيا امتحان لنا جميعا لنجعل من هذا العالم مكانا أفضل وأكثر عدلا، ولولا وجود الشر ما ظهر على وجه الأرض مُحِقٌّ يسعى لنصرة الحق، ولا مُبطِل يتجرع ذِلَّة الباطل، بل ولم تكن للنفوس آمال تسعى لتحقيقها، ولا أحلام تفجِّر طاقاتها، ولصار حال الإنسان أقرب إلى البهائم، وأصبح أقرب إلى الغباوة والبلادة.

وقد جعل الله الحساب الختامي والجزاء النهائي ليس في هذه الدار، بل في الآخرة، فقال تعالى:

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [العمران:١٨٥].

فلا تنتظروا في الدنيا إذن استيفاء جزاء، فهي دار نقص وبلاء، لا يُوَفَّى مؤمنٌ فيها مثوبته، ولا كافرٌ عقوبته، وإنما الوفاء والتمام في الجنة أو في النار.

٤. الظلم مغروس في طبيعة البشر

من أين افترضت أخي المُعترِض أنَّ الدنيا دارُ عدلٍ لا ظلم فيها، وقد أخبر الله في كتابه أن الظلم غائب فقط عن الآخرة:

﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾

وهو نصٌّ واضح صريح ينطق بأن الدنيا ليست عادلة، وأن العدالة المطلقة لا تكون إلا في الآخرة.

ومن هنا قال المتنبي:

والظلم من شِيَم النفوس فإنْ ... تجِد ذا عفة فلعِلَّـة لا يظلم

فأصل الإنسان أنه ظلوم، ولا يمنعه من الظلم إلا وجود عِلَّة.

ويوافق هذا قول الله تعالى عن الإنسان:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.



٥. الشر يدعم الخير

إن وجود الشر ضروري لتدعيم معنى الخير، كما قال الشيخ الشعراوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الباطل جندي من جنود الحق؛ لأن الباطل حين يعربد في الناس يتساءل الناس: متى يأتي الحق لينقذنا؟!

وإنك ساعة ترى مريضًا يتألم، فإياك أن تظن أن الألم قد جاءه بلا سبب، بل الألم جندي من جند الشفاء، وكأن الألم يقول لمن يصيبه: يا إنسان.. تنبَّه أن عطبا في هذا المكان، فسارع إلى علاجه، ولذلك نجد أن أعنف الأمراض وأشرسها وأخبثها، هي الأمراض التي تأتي بلا ألم يسبقها، ولا تظهر أعراضها إلا أن يستعصي شفاؤها، وهكذا نرى أن الألم جندي من جنود العافية».

وسنكتشف يوما أن ما مررنا به من أفراح أو أحزان، من رخاء أو شدة، من صحة أو أمراض، لم يكن سوى أسباب أرسلها الله لنا، لنصبح أكثر قربا منه، أو ليخفِّف بها عقوبة ذنب اقترفناه، وسنكتشف أننا استغرقنا في الدنيا في عمق الحدث ومحدودية اللحظة، وأضعنا بذلك فرصا ثمينة كان من الممكن أن تضعنا في ظل العرش بدلا من الانتظار على الأعراف دهرا، أو ربما ما هو أسوأ من ذلك عذابا في النار وقهرا.



كيف يريد الله أمرا لا يحبه؟!

كيف يريد الله سبحانه أمرا لا يرضاه ولا يحبه؟

وكيف يشاءه؟ وكيف تجتمع إرادة الله له مع بغضه وكراهيته؟

قال ابن القيم في الإجابة على هذا السؤال:

«اعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره.

فالمراد لنفسه: مطلوب محبوب لذاته، ولما فيه من الخير.

والمراد لغيره: قد لا يكون في نفسه مقصودا، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، لكنه مراد من حيث إفضائه إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه، وإرادته، ولا يتنافيان.

وهذا كالدواء المتناهي في الكراهة، إذا علم متناوله أن فيه شفاءه، وكقطع العضو المتآكل إذا عُلِم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة جدا إذا عُلِم أنها توصله إلى مراده ومحبوبه، بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، حتى وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف بمن لا تخفى عليه العواقب؟

فهو سبحانه وتعالى يكره الشيء ويبغضه في ذاته، ولا ينافي ذلك إرادته له، وكونه سببا إلى ما هو أحب إليه من فوته.

مثال ذلك:

أنه سبحانه خلق إبليس، فهو مبغوض للرب سبحانه وتعالى، ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى، ترتبت على خلقه.

ومن هذه المحابّ: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل القهار، والمنتقم، وشديد العقاب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال لا بد من وجود ما يتعلق بها، ولو كان الخلق كلهم على طبيعة الملائكة، لم يظهر أثر هذه الأسماء والأفعال.



ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة لحلمه وعفوه، ومغفرته وستره، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله:

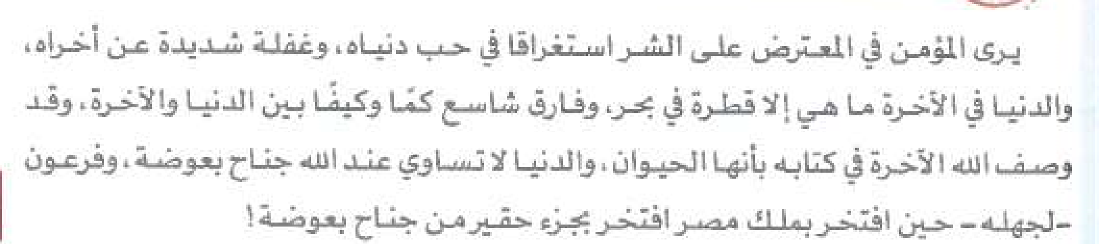
«لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله، فيغفر لهم».

ومنها: ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه، وقد حصلت بسبب وقوع الكفر والشرك من النفوس الكافرة الظالمة، كآية الطوفان، وآية الريح، وآية إهلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار على إبراهيم بردا وسلاما، فلولا كفر الكافرين، وعناد الجاحدين، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة.

ومنها: أن الطبيعة البشرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد، فخلق الشيطان مستخرجا لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل، وأرسل الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل، فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوى هؤلاء من الخير الكامن فيها، (وما في قوى هؤلاء من الشر الكامن فيها)، ليترتب عليه آثاره.

فإن قلت: فهل كان يمكن وجود تلك الحِكَم بدون هذه الأسباب؟

قلت: هذا سؤال باطل، إذ هو فرض وجود الملزوم بدون لازم، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرِّك، والتوبة بدون التائب».



٦. الدنيا ممر لا مقر

يرى المؤمن في المعترض على الشر استغراقا في حب دنياه، وغفلة شديدة عن أخراه، والدنيا في الآخرة ما هي إلا قطرة في بحر، وفارق شاسع كمًا وكيفًا بين الدنيا والآخرة، وقد وصف الله الآخرة في كتابه بأنها الحيوان، والدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، وفرعون -لجهله- حين افتخر بملك مصر افتخر بجزء حقير من جناح بعوضة!

وقد سأل سليمان بن عبد الملك أبا حازم سلمة بن دينار يوما: ما لنا نكره الموت؟!





فقال:

«لأنكم عمَّرتم دنياكم، وخرَّبتم أخراكم، فأنتم تكرهون النُّقلة من العمران إلى الخراب».

وإنا إليه راجعون!

إن يقين المؤمن بحتمية الرجوع إلى الله بعد الموت؛ لتتم المجازاة على الإحسان إحسانا، وعلى السيئات عذابا وهوانا، هو الذي يدفعه إلى الصبر رجاء ما عند الله.

عن أم سلمة، أنها قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:١٥٦]، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرا منها، إلا أخلف الله له خيرا منها».

تذكر الرجوع إلى الله سر استقامة العبد في سيره إلى مولاه

قالت: فلما مات أبو سلمة، قلت: أيُّ المسلمين خير من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ، ثم إني قلتها، فأخلف الله لي رسول الله ﷺ[1].

إن المؤمن لا يختزل دينه أبدا في شعائر تعبدية باردة كما عند الغربيين اليوم، بل ديننا منهج حياة يشمل كل المشاعر الإنسانية، ومنها ما يعتري الإنسان من أحزان، ثم يربط الدين هذه المشاعر ربطا مباشرا بالآخرة.

هكذا ينبغي أن يفهم المؤمن معضلة الشر، وفي هذا السياق يجب أن تُفهَم.

(١) صحيح: رواه مسلم وابن ماجة عن أم سلمة كما في صحيح الجامع رقم: ٥٧٦٤.



عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبي ﷺ ليلة، فقال: «ألا تصليان؟» فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلنا ذلك ولم يرجع إليَّ شيئا، ثم سمعته وهو مُوَلٍّ يضرب فخذه، وهو يقول:

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤][1].

وقد ضرب النبي ﷺ فخذه تعجبا من سرعة جواب علي، وإشارة إلى عدم موافقته له على الاعتذار بما اعتذر به بالقدر عن التخلف عن طاعة ولو كانت نافلة، وأراد منه النبي ﷺ أن ينسب التقصير إلى نفسه.

ولو أن إنسانا فعل معصية وأردنا أن نقيم عليه العقوبة، فقال: مهلاً، هذا شيء كتبه الله عليَّ؟ فسنقول له على الفور: ونحن سنجلدك لأن إقامة الحد شيء كتبه الله علينا.

هذا ما حدث مع الفاروق، فقد ذُكِر أن سارقا رُفع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر بقطع يده، فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، والله ما سَرَقْتُ إلا بقدر الله، فقال عمر: ونحن

(١) صحيح: رواه البخاري في صحيحه عن علي بن أبي طالب كما في صحيح البخاري رقم: ١١٢٧.



لا نقطعك إلا بقدر الله، فغلبه عمر، ولم يجبه عمر بميزان الشرع، بل أراد أن يقابل هذا المحتج بمثل حجته.

وقال رجل لسالم بن عبدالله بن عمر: يا أبا عمر، الزنى بقَدَر؟

قال: نعم. قال: كتبه الله عليَّ؟

قال: نعم.

قال: كتبه الله عليَّ ويعذِّبُ به؟! فأخذ سالمُ الحصا وضرب به وجه الرجل.

ترى اليوم بيننا فريقا من الناس خاضعين للظلمة وأعوان لهم، ويخاطبون الناس قائلين: ليس لكم إلا أن تصبروا على مشيئة الله وقدَره فيكم، بدلا من أن يصدحوا بالنهي عن المنكر والإنكار على الظالم.

وابن القيم يذكر وقائع لأمثال هؤلاء تثير السخرية وتستخف بأصحاب العقول، فيذكر عن واحد من هؤلاء أنه رأى غلامه يفجر بجاريته، فلما أراد معاقبتهما، وكان غلامه يعرف مذهبه في القدَر، فقال له:

إن القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك.

فقال له ذلك الجاهل: لَعِلْمُكَ بالقضاء والقدر أحب إليَّ من كل شيء، اذهب فأنت حرٌّ لوجه الله!

ورأى آخر رجلاً يفجر بامرأته، فقال: ما هذا؟ فقالت: هذا قضاء الله وقدره، فقال: الخيرة فيما قضى الله. فلُقِّب بالخيرة فيما قضى الله!

ولو كان الاحتجاج بالقدر صحيحا لأمكن لكل واحد أن يقتل ويفسد وينهب الأموال ويظلم العباد محتجا بالقدر، وهي حجة مرفوضة عقلا وشرعا.

وقد أنشد بعض هؤلاء الجُهَّال:

جرى قلم القضاء بما يكون ... فسيَّان التحرك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق ... ويرزق في غيابته الجنين



وإن المنهج الذي سار عليه العلماء أنه لا يجوز الاحتجاج بالقدر على ترك العمل، ولا لمخالفة الشرع، وإنما يُحتَج بالقدر على المصائب دون المعايب.



ولعلَّ من أبلغ الردود على هذه التفكير المنحرف: ما أجاب به نبيُّ الله عيسى ﷺ، إذ تمثَّل له الشيطان فقال: يا روحَ الله، كل شيء بقضاء الله وقدَره، فارمِ بنفسك مِن ذروةِ هذا الجبل، فما يصيبُك إلا ما قدَّر الله!

فأجاب ﷺ مِن فوره: اخسَأ يا لعين! فإن الله يمتحنُ عبدَه، وليس للعبد أن يمتحن ربَّه.

وقفة مع حديث!

قال رسول الله ﷺ:

«احتجَ آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قُدر عليّ قبل أن أُخلق»

فقال رسول الله ﷺ:

«فحجَ آدم موسى مرتين»(١).

وهذا الحديث التبس على بعض الناس، وظنوا فيه أن آدم احتج بالقدَر على وقوع المعصية، وليس هذا بصحيح، وإنما احتج آدم بالقدَر على وقوع المصيبة؛ لأن آدم لما سأله موسى كان قد تاب، وتاب الله عليه، وليس في حاجة إلى أن يدافع عن نفسه بوقوع الذنب،

(١) صحيح: صحيح البخاري رقم: ٣٤٠٩.



وموسى ﷺ أعرف بالله وأسمائه وصفاته من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه، فقد اجتباه ربه بعده وهداه، وإنما لامه موسى على المصيبة التي لحقته وذريته، وهي الخروج من الجنة؛ ولهذا قال له: «أخرجتنا ونفسك من الجنة».

وفي لفظ: «خيبتنا». فاحتج آدم بالقدَر، وقال: إن هذه المصيبة التي نالت ذريتي بسبب خطيئتي كانت مكتوبة بقدر الله قبل خلقي، فقال النبي ﷺ: «فحجّ آدم موسى مرتين». وكرّر النبي ﷺ قوله مرتين للتأكيد.

ومن هنا يظهر جواز الاحتجاج بالقدر للمذنب إذا تاب من ذنبه، فالمذنب يرى الذنب في حقه مصيبة، وقد قال ﷺ: «ولا تجعل مصيبتنا في ديننا». فإذا جاءه من يلومه على ذنبه القديم، فله أن يقول له: هذا قدَر قدَّره الله عليَّ، وقد تبتُ منه، وأما المذنب الذي لم يتب، فلا يرى في ذنبه مصيبة، لذا يستمر في ضلاله، فلا يجوز له الاحتجاج بالقدر على عصيانه.

والاحتجاج بالقدر على المصائب لا بأس به، وأما الاحتجاج بالقدر على المعاصي فهو غير جائز.

قال ابن أبي العز الحنفي:

«فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة، فإن القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعائب، وهذا المعنى أحسن ما قيل في الحديث».

وقال الحافظ ابن حجر:

«فإن قيل: فالعاصي اليوم لو قال: هذه المعصية قُدِّرت عليَّ، فينبغي أن يسقط عني اللوم (كما سقط عن آدم)، قلنا:

الفرق أن هذا العاصي باقٍ في دار التكليف، جارية عليه الأحكام من العقوبة واللوم، وفي ذلك له ولغيره زجر وعظة، فأما آدم فميت خارجٌ عن دار التكليف، مُستغنٍ عن الزجر، فلم يكن للومه فائدة، بل فيه إيذاء وتخجيل، فلذلك كان الغلبة له».



تركة آدم وتركة إبليس!

لما أكل آدم وزوجه من الشجرة نسبا المعصية إلى نفسيهما، واعتذرا إلى الله بقولهما:

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

بينما لما وقع إبليس في الذنب، نسب سبب المعصية إلى الله، وبرأ نفسه منها، فقال:

﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾.

يقول الشيخ محمد الغزالي:

«إن قصة الخليقة الناجية -كما مثَّلها آدم- خطأ ومتاب.

وقصة الخليقة الهالكة -كما مثَّلها إبليس- جريمة وإصرار.

فاختر لنفسك ما يحلو، وليس الحساب من مغالطات المنطق والتلاعب بالنصوص، ولكنه إلى الله، وكفى بالله حسيبا».

ومن هنا قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كلام جميل:

«فإن آدم عليه السلام لما أذنب تاب، فاجتباه ربه وهداه.

وإبليس أصرَّ واحتج، فلعنه الله وأقصاه، فمن تاب كان آدميا، ومن أصرَّ واحتج بالقدر كان إبليسيا، فالسعداء يتبعون أباهم، والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس».



عاشرا

ما أثر الإيمان بالقـــدر على حياة العبـــد؟!

رَضيـــتُ بـقَـــدَري

١. التوكل على الله

الإيمان بالقدر هو إيمان بقدرة الله، ويدفع لتعلق القلب بالله وحده، وقد حرص النبي ﷺ على تأكيد نسبة الأمور كلها لله، فقال في الحديث:

«اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان رسوله ما شاء»[1].



وفي حديث آخر: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»[2].

لأنه يلزم من (الواو) الاشتراك والتسوية بين الله وعباده في المشيئة؛ وأما (ثم) فهي للتراخي.

(١) صحيح: رواه الشيخان عن أبي موسى كما في صحيح الجامع رقم: ١٠٠٧.

(٢) صحيح: رواه أبو داود عن حذيفة كما في سنن أبي داود رقم: ٤٩٨٠.



وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «والله المعطي، وأنا القاسم»[1].

فما الرسول إلا قاسمٌ بأمر الله، ويعطي من أراد الله أن يعطيه، ولذا جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «ما أعطيكم، ولا أمنعكم، إنما أنا قاسم، أضع حيث أُمرتُ»[2].

والمعنى أني لا أعطى أحدًا ولا أمنع أحدًا إلا بأمر الله، وفي ذلك إثبات القضاء والقدر، وأنه لا مانع لما أعطى الله، ولا معطي لما منع الله، وفي الدعاء النبوي: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ»[3].

والجَدُّ بفتح الجيم هو الغنى والحظ والبخت، فمهما كان حظ الإنسان من المال والأملاك، فلا ينفعه ذلك ولا يغنيه عن الله ﷻ، فمقاليد كل الأمور بيد الله، ولا يقال: فلان ذو حظ، وفلان تعيس الحظ، لأن المعطي والمانع لكل هذا هو الله وحده.

وللمؤمن بالقدر المتوكل على ربه علامات، من أهمها ما ذكره عز الدين التلمساني: «علامة من اتخذ الله وكيلا أن لا يضطرب عند الفاقة، ولا تختلف حاله عند المصيبة، ولا يتهم الوكيل سبحانه فيما يجد من شدة تعرض، بل يرى أن الوكيل سبحانه قد عوَّضه عن الفانيات خيرا منها من الباقيات».

توكل لا تواكل

جمَع النَّبيُّ ﷺ بين أصلين عظيمين في هذا الحديث الصَّحيح، حيث قال:

«احْرِصْ على ما ينفعك، واسْتَعِنْ بالله، ولا تَعْجِزْ»[4].

فأمره بالحرص على الأسباب، والاسْتِعانة بِالْمُسَبِّب، ونهاهُ عن العَجْز، والعجز نوعان:

تقصيرٌ في الأسباب، وتقصير في الاستعانة برب الأسباب.

(١) صحيح: رواه البخاري عن معاوية كما في صحيح البخاري رقم: ٣١١٦.
(٢) صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: ٣١١٧.
(٣) صحيح: رواه البخاري عن المغيرة بن شعبة كما في صحيح البخاري رقم: ٨٤٤.
(٤) صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح مسلم رقم: ٢٦٦٤.

لما أقبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الشام، قالوا له: إن في الشام طاعونا يفتك بالناس، فجمع الصحابة وشاورهم، فقال بعضهم: نرجع، فعزم على الرجوع، فجاء أمين هذه الأمة أبو عبيدة عامر بن الجراح، فقال: يا أمير المؤمنين! أفرارا من قدر الله؟ فأجاب عمر: «نفِرُّ من قدَر الله إلى قدَر الله»، ثم ضرب له مثلا، قال:

أرأيتَ لو كان لك إبل، فهبطت واديًا له شعبتان، إحداهما خصبة والأخرى جدبة؛ أليس إن رعيتَ الخصبة فبقدر الله، وإن رعيتَ الجدبة فبقدر الله.

وما أروع ما نقل شيخ الإسلام ابن تيمية عن الشيخ عبد القادر الجيلاني: «كثيرٌ من الرجال إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي فيه رَوْزَنة (فجوة في جانب السقف أي مخرج)، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق، والولي من يكون منازعا للقدر لا من يكون موافقا له».

ثم قال ابن تيمية في تعليقه على كلام عبد القادر: «وهذا الذي قاله الشيخ تكلم به على لسان المحمدية، أي أن المسلم مأمورٌ أن يفعل ما أمر الله به، ويدفع ما نهى الله عنه، وإن كانت أسبابه قد قُدِّرت، فيدفع قدر الله بقدر الله».



٢. الرضا بالقضاء

قال ابن عطاء في تعريف الرضا:

«الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد، أنه اختار له الأفضل، فيرضى به».



وضابط الرضا أن يكون القلب غير متسخِّط ولا متبرم بمُرِّ القضاء، والرضا ذروة الإيمان كما قال أبو الدرداء:

«ذروة الإيمان: الصبر للحكم، والرضا بالقدر».



والرضا هو المفتاح المفقود لراحة القلوب؛ وأكثر الناس اليوم يشكو، يشكو من رزقه، من أهله، من عمله، لذا لا يهنأ بعيش، وقد قال إبراهيم بن إسحاق الحربي:

«أجمع عقلاء كل أمة أنه من لم يجر مع القدر لم يتهنَّ بعيشه».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾:

«هي المصائب تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله تعالى فيُسلِّم ويرضى».

وقد مارس ابن مسعود هذا الرضا ممارسة عملية، فقال رضي الله عنه:

«لأن أعض على جمرة وأقبض عليها حتى تبرد في يدي، أحبَّ إليَّ من أن أقول لشيء قضاه الله: ليته لم يكن».

لكن.. هل يعني الرضا عدم الشعور بالألم؟!

والجواب: لا. قال الإمام القرافي:

«إذا ابتُلي الإنسان بمرض، فتألم من المرض بمقتضى طبعه، فهذا ليس عدم رضا بالقضاء، بل عدم رضا بالمقضيِّ، ونحن لم نؤمر بأن تطيب لنا البلايا والرزايا ومؤلمات الحوادث، ولم ترد الشريعة بتكليف أحد بما ليس في طبعه، ولم يؤمَر الأرمد باستطابة الرمد المؤلم ولا غيره من المرض، بل ذمَّ الله قوما لا يتألمون ولا يجدون للبأساء وقعا، فذمهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، فمن لم يستكن ولم يذل للمؤلمات ويظهر الجزع منها ويسأل ربه إقالة العثرة منها، فهو جبار عنيد، بعيد عن طرق الخير، فالمقضيُّ والمقدور أثر القضاء والقدر، فالواجب هو الرِّضا بالقضاء فقط، أما المقضيّ فقد يكون الرضا به واجبا كالإيمان بالله تعالى والواجبات إذا قدرها الله تعالى للإنسان.

وقد يكون مندوبا في المندوبات.

وحراما في المحرمات.

ومباحا في المباحات.

وأما الرضا بالقضاء فواجب على الإطلاق.



وقد حزن رسول الله ﷺ لموت ولده إبراهيم، ورمي السيِّدة عائشة بما رميت به، إلى غير ذلك؛ لأن هذا كله من المقضيّ، والأنبياء عليهم السلام طباعهم تتألم وتتوجع من المؤلمات وتُسَرُّ بالمسرات، وإذا كان الرضا بالمقضيّ به غير حاصل في طبائع الأنبياء، فغيرهم بطريق الأولى».

كيف يرضى القلب الساخط!

ومما يعين العبد على الرضا بالقدر أن يشهد عدل الله في قضائه، وحكمته في جريانه عليه، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإن الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخلق، فقد جف القلم بما يلقاه كل عبد، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»(١).

ويشهد أن القدر ما أصابه إلا لحكمة اقتضاها اسم الله الحكيم، وإن القدر أوجبه عدل الله، وهذه هي الترجمة العملية لأسماء الله الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة، ولولا هذه الأقدار لما تعرف العبد على أسماء الله وصفاته.



٣. عدم الشكوى إلى الخلق

حكم الشكوى إلى الخلق ؟!

الشكوى هي أن تُخبِر أحدا بمكروهٍ أصابَك، وتظهر ما في قلبك من ألم وحزن، وهي ثلاثة أنواع:

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٧٥٨٥.



أولا: الشكوى إلى الله

وتكون بالدعاء والمناجاة، ولا تنافي الصبر، فالدعاء عبادة لا تنافي الرضا.

ثانيا: شكوى تسخط وضجر

واتفق العلماء على كراهة شكوى العبد على سبيل التسخط والتضجر.

ثالثا: شكوى الألم

وتنقسم إلى قسمين: ألم نفسي كالحزن على فقدان عزيز، وألم حسي عضوي، والألم النفسي في كثير من الأحيان يكون أشد من الألم الحسي.

ودلّت النصوص على جواز هذا النوع، ففي الحديث قول النبي ﷺ: «إني أوعك كما يوعك رجلان منكم».

والسلف مختلفون في أنين المريض هل يؤاخذ به أم لا؟ قال شيخ الإسلام:

«لا يأثم مطلقا إلا إذا اقترن به ما يحرم كالمصاب الذي يتسخط».

وحكى الإمام ابن جرير الطبري أن أنين المريض يعود إلى النية، فإذا نوى تسخطا أوجِد به، وإذا كان فيه نوع استراحة جاز.

هذا من الناحية الشرعية عن الشكوى، فماذا عن الدراسات النفسية، خاصة الحديثة منها؟!

لقد وجد العلماء أن نصف ساعة من الشكوى كل يوم تضر بدماغ الإنسان، سواء كنت الشاكي أو المستمع إلى الشكوى، وذلك وفقا لأبحاث أجراها البروفيسور سابولسكي في كلية الطب بجامعة ستانفورد من أن التعرض لمدة ٣٠ دقيقة فقط من الشكوى والأحداث السلبية (بما في ذلك عرض الأخبار السيئة على شاشة التلفزيون)، وذلك بصورة يومية يمكن أن يضر جسديا بالدماغ، ويؤثّر على hippocampus وهو جزء الدماغ المسؤول عن حل المشاكل والوظائف المعرفية كالذاكرة والتفكير الإبداعي، ويؤدي إلى تقلصه، ويُضعف قدرته على خلق الخلايا العصبية الجديدة.

وجدوا كذلك أثرا سلبيا للشكوى؛ وهو أن تنفيس الأحزان في من حولنا يؤدي إلى تدفق الكورتيزول في الدم، وهو هرمون التوتر، ومن آثار الكورتيزول: رفع ضغط الدم وسكر الدم بحيث تكون مستعدا إما للهرب أو الدفاع عن نفسك، أو بالتعبير الإنجليزي: Fight or Flight مما يعني أن استمرار الشكوى يضاعف الضيق بدلا من أن يخفِّفه، وكل كورتيزول إضافي صدر عن شكاوى متكررة، يضعف الجهاز المناعي، ويجعلك أكثر عرضة لارتفاع مستوى الكوليسترول في الدم وأمراض القلب، ويجعل الدماغ أكثر عرضة للسكتات الدماغية.



سبع وصايا نفسية لأصحاب الشكاية اليومية!

١. **حافظ على مشاعر الامتنان:** تذكر أو حتى اكتب الأشياء التي جعلتك ممتنا أثناء يومك، وهذا التفكير الإيجابي يقلِّل من مستوى هرمون الكورتيزول بنسبة ٢٣٪ وفق دراسة بجامعة كاليفورنيا، ولذا كان شريح القاضي يشعر بهذا الامتنان حتى مع المصيبة، فيقول:

«إني لأصاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مرات: أحمده إذ لم تكن أعظم مما هي، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها، وأحمده إذ وفَّقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني».

٢. **اشكر الله باستمرار** على نعمه الدنيوية والدينية -ولو كانت بسيطة- مما يمكِّنك من معادلة التأثير السلبي للآلام والأحزان التي تعاني منها.

٣. **لا تكرِّر الشكوى،** فإنه يترك في النفس شعورا بالعجز واليأس، ويورثك إحساس الضحية بمرور الوقت، وقد نُهينا عن ذلك: (استعِن بالله ولا تعجز)، فلا يحسن بمؤمن أن

يعجز؛ وقد بقي في أمره متسع لاحتيال.

٤. **ارفض الشر في الظاهر**، مع التسليم القلبي في الباطن بأنه وقع بإرادة الله وإذنه، وعلى ألا يكون ذلك كلامًا بل أفعالاً وأحوالاً، فإذا حصل الثاني -وهو التسليم- خفَّف من ضغط الأول وهو وقوع الشر، بل يصير سببا لحماية قلب العبد من تقلبات الزمان وضغوط الأحوال.

٥. **اللجوء إلى الله سيظل صمام الأمان** وطوق النجاة، وما أجمل الدعاء النبوي:

«وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب».

٦. **لا تردِّد أبدا عبارات مثل**: (دائما أقع في كذا) أو (عمري ما انتظمت في كذا)، وبدلا منها استعمِل: (سقطتُ هذه المرة) أو (أحيانا ما أسقط).

مشكلة هذه العبارات السلبية التي تُلصِق بك وصفا ثابتا أنها لا تَدَع لك أي فرصة للتحسين. في صحيح البخاري عن النبي ﷺ:

«لا يقولن أحدكم خبُثت نفسي، ولكن ليقل لقِست نفسي».

فإذا وجد العبد في نفسه تقاعسا عن الطاعة أو ميلا في المعصية، فلا يستعمل لفظ (خبُثتْ) لأنها كلمة خبيثة لفظًا ومعنى، ولكن ليقل: (لقِست)، ولقست وخبثت معناهما واحد، وإنما كره النبي ﷺ وصف الخبث، فاختار لفظة أخرى تؤدي نفس المعنى دون أن تحمل أثرا سلبيا؛ ليعلِّم العبد أن يدفع الشرَّ عن نفسه ما أمكنه، ويقطع الصلة بينه وبين أهل الخبث ولو في الألفاظ! وكان من سنته ﷺ تبديل الاسم القبيح بالاسم الحسن.

٧. **ضع حدا أمام استرسال الشاكين حولك**: قبل أن يقودوك إلى التأثر السلبي بمشاعرهم أو ما يُسمَّى Mirror Neurons، والحل:

أن تسأل الشاكي عن عزمه على حل المشكلة، وما ينوي فعله بالتحديد، وبذلك تقوم بتوجيه المحادثة إلى مسار إيجابي بدلا من الاستغراق السلبي في تفاصيل المشكلة بلا حل عملي.



٤. شجاعة القلب

كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذا أراد المبارزة في الحرب أنشأ يقول:

أيَّ يومَيَّ من الموت أفرّْ ... يومُ لا قُدِّرَ أو يومُ قُدِرْ
يومُ لا قُدِّرَ لا أرهبه ... ومن المقدور لا ينجو الحَذِر

هل يخشى شيئا مَنْ هذا حاله وبذا ينطق لسانه؟!

واسمعوا الحديث الذي تربى ونشأ عليه كل من التحق بمدرسة النبوة:

«إنَّ لِكُلِّ شيْءٍ حقيقةً، وما بلَغ عَبْدٌ حقيقةَ الإيمان حتَّى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه»(١).

وفي هذا الحديث ثلاث تأكيدات هدفها تثبيت قلب كل مؤمن:

- دخول أنَّ التأكيدية: «(أنَّ) ما أصابه».
- ولحوق اللام المؤكدة للنفي على الفعل: «ليخطئه» «ليصيبه».
- وتسليط النفي على الكينونة: «لم يكن» ليفيد الاستحالة.

ومن آثار الإيمان بالقدر شجاعة الداعي إلى الله، وصدعه بكلمة الحق، وعدم هيبته من الظالمين والمجرمين، فلا يخاف في الله لومة لائم، لأنه موقن أن الآجال بيد الله وحده، وأن الأرزاق عنده وحده، وأن البشر والعبيد لا يملكون من أمر أنفسهم فضلا عن أمر غيرهم شيئا.

قال ابن تيمية:

«والعباد آلة، فانظر إلى الذي سلَّطهم عليك، ولا تنظر إلى فعلهم بك، لتستريح من الهَمِّ والغمِّ والحزن».

---

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٢١٥٠.





٥. القناعة

والمؤمن الذي آمن بالقدَر قنوع .. في الحديث:

«إن الله تعالى يبتلي العبد في ما أعطاه، فإن رضي بما قَسم الله له بُورك له فيه ووسَّعه، وإن لم يَرْضَ لم يُبارِك له، ولم يَزِدْ على ما كُتب له»[١].

ولذا كانت وصية النبي ﷺ لحكيم بن حزام بعد أن سأله فأعطاه، ثم سأله فأعطاه:

«يا حكيم..

إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى»[٢].

قال حكيم:

فقلت: يا رسول الله.. والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا.

أي لا أُصيب من أحد شيئا من المال، وقد كان حكيم بن حزام يمتنع من أخذ حقه في الفيء -رغم إلحاح عمر عليه- ويفسِّر ابن حجر سبب ذلك بقوله: «وإنما امتنع حكيم من أخذ العطاء -مع أنه حقه- لأنه خشي أن يقبل من أحد شيئا، فيعتاد الأخذ، فتتجاوز به نفسه إلى ما لا يريده، ففطَمها عن ذلك، وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه».



٦. عزة النفس

من علامات قوة الإيمان والإيمان بالقدَر ألا تكون شكواك إلا إلى الله، وألا تنتظر الفرج إلا

---

(١) صحيح: رواه أحمد والبيهقي عن رجل من بني سليم كما في صحيح الجامع رقم: ١٨٦٩.

(٢) صحيح: رواه البخاري عن حكيم بن حزام كما في صحيح البخاري رقم: ٢٧٥٠.

منه سبحانه، ففي الحديث:

«من أصابته فاقة فأنزلها بالناس، لم تُسد فاقته، ومن أنزلها بالله، أوشك الله له بالغنى: إما بموت آجل، أو غنى عاجل»[1].

ورحم الله الإمام الشافعي، لم يكن له مدح في حاكم ولا أمير ولا صاحب جاه ولا ذي سلطان قط، بل كان يجهر بالبعد عن أولي الأمر، حيث أن الوصول إلى عطائهم لا يكون إلا بإراقة ماء الوجه، فقال رحمه الله:

إن الملــوك بــلاءٌ حيثما حلــوا ... فــلا يكن لك فــي أبوابهم ظِــلُّ
ماذا تؤمِّــل من قــوم إذا غضِبوا ... جاروا عليــك وإن أرضيتهم ملّوا
فاستغــنِ بالله عن أبوابهــم كرما ... إن الوقــوف على أبوابهـــم ذلُّ

وفي ضوء هذا اتخذ ابن المعتز قراره، وحسم أمره قائلا:

سأكتمُ حاجاتي عن النـــاسِ كلهم ... ولكنهـــا لله تـــبـــدو وتَظهـــرُ
لِمَنْ لا يردُّ السائليـــن بخيبـــةٍ ... ويدنو من الدَّاعي ويُعطي فيُكثِرُ



من آثار إيمانك بالقدر: حسن ظنك بالله.

قال الحافظ ابن القيم:

«فأكثر الخلق -بل كلُّهم- إلا من شاء الله، يظنُّون بالله غير الْحَقِّ ظنَّ السوء؛ فإنَّ غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق، ناقص الحظ، وأنه يستحقُّ فوق ما



(١) صحيح: رواه أحمد وأبو داود عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: ٦٠٤١.



أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أستحقُّه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكِرُه، ولا يتجاسر على التصريح به.

ومن فتَّش نفسه، وتغلغل في معرفةِ دفائنها وطواياها، رأى ذلك فيها كامنًا كمونَ النَّارِ في الزناد، فاقدح زناد من شئت، ينبِّئك شراره عمَّا في زنادِه، ولو فتشت من فتشته، لرأيت عنده تعتُّبا على القدر، وملامةً له، واقتراحًا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكونَ كذا وكذا، فمستقلٌّ ومستكثرٌ، وفتِّش نفسك: هل أنت سالمٌ من ذلك؟

فإنْ تنجُ منها تنجُ مِنْ ذي عظيمةٍ   وإلاَّ فإنِّي لا أخالُكَ ناجيا

فليعتنِ اللبيبُ الناصح لنفسِه بهذا الموضع..

وليتب إلى الله تعالى..

وليستغفره كلَّ وقتٍ من ظنِّه بربه ظنَّ السوء..

وليظنَّ السوءَ بنفسِه التي هي مأوى كل سوءٍ، ومنبع كل شرٍّ، المركَّبة على الجهلِ والظلم؛ فهي أولى بظنِّ السوءِ من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغني الحميد الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزَّه عن كلِّ سوءٍ في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه؛ فذاته لها الكمالُ المطلق من كلِّ وجهٍ، وصفاته كذلك، وأفعاله كذلك، كلها حكمةٌ ومصلحةٌ ورحمةٌ وعدلٌ، وأسماؤه كلها حسنى».

٨. الاطمئنان على الرزق

كيف يقلق على رزقه من علم أن رزقه قد فُرغ من تقديره قبل أن يُخلَق؟!

في الحديث: «إن روح القُدس نفث في رُوعي أن نفْسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها، وتستوعب رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته»[1].

(١) صحيح: رواه أبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: ٢٠٨٥.



أي ألقى الوحي في خلدي وبالي أو في نفسي أو قلبي أو عقلي من غير أن أسمعه ولا أراه، والنَّفْث: ما يلقيه الله إلى نبيه ﷺ إلهاما، والنَّفث المذكور أحد أنواع الوحي السبع كما عدَّدها ابن القيم.

فإن الله سبحانه وتعالى قسم الرزق وقدَّره لكل أحد، لا يتقدم ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص، بحسب علمه القديم الأزلي، ولذا سئل حكيم عن الرزق فقال: إن قُسِم فلا تعجل، وإن لم يُقسم فلا تتعب.

ولذا قال:

«وأجملوا في الطلب»:

بأن تطلبوه بالطرق الجميلة الحلال، بغير إرهاق للقلوب، ولا تهافت على الحرام والشبهات.

ومما يضاعف يقينك بالرزق أن الرزق يلاحقك قبل أن تلاحقه. قال النبي ﷺ:

«الرِّزْقُ أشدُّ طلبًا للعبد من أجله»(١).

وحديث آخر يشد من أزرك ويقوِّي من يقينك:

«لو أنَّ ابن آدم هَرب من رزقه، كما يهرب من الموت لأدْركه رزقه كما يُدْركه الموت»(٢).

الإيمان بالقدر يعينك كذلك على التسليم لله بحكمته في توزيع الأرزاق بين الخلق، فليس الرزق بالعقل ولا بالسعي وحده.

قال أبو العلاء المعري وهو يسوِّغ لنفسه الزندقة بسبب ضيق رزقه:

إذا كان لا يحظى برزقك عاقلٌ ... وترزق مجنونًا وترزُق أحمقا

فلا ذنبَ يا رب السماءِ على امرئٍ ... رأى منك ما لا يَشتهي فتزندقا

---

(١) حسن: رواه القضاعي عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: ٣٥٥١.

(٢) حسن: رواه أبو نعيم في الحلية عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: ٥٢٤٠.



فردَّ الإمام الشافعي عليه وعلى أمثاله بقوله:

لو كان بالحِيَل الغِنى لوجدتَني … بنجوم أقطار السماء تَعلُّقي
لكنَّ من رُزق الحِجا حُرم الغنى … ضدان مفترقان أي تفرق
وأحقُّ خلق الله بالهمِّ امرؤٌ … ذو همَّة يُبلى برزقٍ ضيِّق
ومن الدليل على القضاء وحُكمه … بؤسُ اللبيب وطيب عيشِ الأحمق!
إن الذي رُزق اليسار فلم يَنل … أجرا ولا حمدا لَغَيْر مُوَفَّق

فهم الإمام الشافعي أن الله يقسِّم الأرزاق بين العباد لحكمة، فمن أعطاه الله الحِجا أي الذكاء، حُرِم من الغنى، والمصاب بحق هو الذي رُزِق الغنى (اليسار)، وحُرِم من شكر النعمة وحمدها، فهذا التقسيم لحكمة ربانية، فهمها من فهمها، وجهلها من جهلها.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾:

قال فيها قتادة:

«تلقى الرجل ضعيف الحيلة، عِيِّ اللسان، وهو مبسوطٌ له في الرزق.

وتلقاه شديد الحيلة، بسط اللسان، وهو مُقتَّر عليه!».

٩. ترك الحسد

المؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله؛ لأن الله هو الذي رزقهم وقدَّر أقواتهم، ويعلم أنه حين يحسد غيره، فإنما يعترض على قدَر الله، ولذا قالوا:

«الحسود غضبان على القدر، والقدَر لا يُعْتِبه».

أي لا يُزيل عُتْبَه أي لا يُرضيه، وقد أخذ هذا المعنى منصور الفقيه، وصاغه شعرا فقال:

أيا حاسدًا لي على نعمتي … أتدري على من أسأت الأدب؟
أسأتَ على الله في حُكمِه … لأنك لم ترضَ لي ما وهب
فأخزاك ربي بأن زادني … وسدَّ عليك وجوه الطلب



والحاسد لم يخدش إيمانه فحسب، بل خدش بحسده المنطق والعقل، هكذا رآه محمد بن سيرين فقال: «ما حسدتُ أحدا على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى الجنة؟!

وإن كان من أهل النار، فكيف أحسده على شيء من أمر الدنيا، وهو يصير إلى النار؟!».

١٠ . دواء الهموم والأحزان

الإيمان بالقدَر من أعظم أدوية الهموم والأحزان، فلم الحزن على شيء قدَّره الله قبل أن يخلقك، وجفَّ به القلم؟!

ولم الندم على أمر أقدمت عليه بعد استخارة واستشارة، وقد كتبه الله عليك؟

إليكم هذا الدعاء الذي وصفه النبي ﷺ كعلاج لكل من عانى الهموم والغموم والأحزان، ففي حديث عبد الله بن مسعود مرفوعا إلى النبي ﷺ:

«ما أصاب أحدا قط همٌّ ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علمته أحدا من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرجا».

فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: «بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»[1].

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني كما في السلسلة الصحيحة رقم: ١٩٩.

قال ابن القيم عن هذا الحديث:

«وأما حديث ابن مسعود: (اللهم إني عبد ابن عبدك) ففيه من المعارف الإلهية، وأسرار العبودية، ما لا يتسع له كتاب».

ولنا وقفة مع بعض مفردات الحديث:

«ماضٍ في حكمك»: وحُكْم الله يتناول حكمه الديني الشرعي المتعلق بالحلال والحرام، وحُكْمه الكوني القدَري المتعلق بالصحة والمرض، والإحياء والإماتة، والمنع والعطاء.

وكلا الحُكمين نافذان في العبد، ماضيان فيه شاء أم أبى، لكنَّ الحُكْم الكوني لا يمكن للعبد أن يخالفه، أما الحُكْم الديني الشرعي فقد يخالفه، لأن الله منحه حرية الاختيار.

«عدلٌ في قضاءك»: والقضاء هو الإتمام والإكمال، فالحكم الذي أكملته وأتممته يا رب في عبدك عدل منك، ويتضمن القضاء جميع أقضية الله في عبده من كل الوجوه من صحة وسقم وغنى وفقر ولذة وألم وحياة وموت، وسبب أنه عدل أمران:

- أولا: أنك مِلْكٌ لله، وتصرف المالك في مُلْكِه عدل.
- ثانيا: أن مُرَّ القضاء قد يقع بسبب ذنب العبد كعقوبة له.

لا تحزن على ما فات!

واسمع وصية النبي ﷺ:

«وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»[1].

هذه الـ (لو) هي مفتاح عمل الشيطان، فما عمل الشيطان؟

عمل الشيطان هو بث الندم والحسرة في قلب العبد، وهي مشاعر لا تفيد العبد؛ لأن ما

(١) صحيح: رواه أحمد ومسلم وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: ٦٦٥٠.



وقع لا يمكن رفعه بكلمة (لو)، بل وتُضعِف القلب وتستنزف قوته، فإن (لو) تعطي الشيطان مفتاح التسلل إلى القلب، فيوسوس للعبد، ويدفعه للتأسف على ما فات، ومعارضة القدر والتسخط عليه، فلا يزداد إلا ألما.

وقد وجهنا الحديث للوقاية من هذه المكيدة الشيطانية، وقدَّم إلينا درسا تربويا عظيما في كيفية التعامل مع مُرِّ الأقدار:

«قُلْ: قدر الله»:

ورُوِيَت بوجهين:

الأول: قدَّر الله.

بتشديد الدال وفتح القاف، فيكون المعنى: قل: قدَّر الله ذلك، وهذا خارج عن إرادتي، ولله المشيئة التامة والقدرة النافذة، فلا بد أن أرضى بما قدَّره الله لي.

الوجه الثاني: قدَرُ الله.

أي: هذا الذي وقع لي هو قدر الله، وليس باختياري، فلم جلد الذات، واجترار أليم الذكريات؟!

وبذا تقطع الطريق على إبليس الذي من أسمى أمنياته أن يَحزُن الذين آمنوا، عن طريق التحسر على ما فات، والتألم لضياع المكتسبات، فيرجع الشيطان من هجمته عليك ذليلا خائبا بخُفَّي حنين.



صدر للمؤلف

أولاً: الكتب

1) شباب جنان

(كتاب + كتيبات متفرقة: سلامة قلبك - غرامة تأخير - أحلى صحبة - نقطة رجوع):

سلسلة تستهدف الشباب، فالشباب بذرة غالية منحها الله لكم يا شباب، وترك لكم أن تختاروا الأرض التي تبذرون فيها:

إما الأرض الطيبة وهي بيئة الخير على أن ترعوها وتتعاهدوها بغيث الإيمان وزاد الخير، وتحموها من الآفات والمهلكات، وإما أن ترموا بها في أرض بور هي صحبة الشر؛ حيث لا ماء يروي القلب ولا هواء ينعشه ويغذِّيه.

والثمرة الأكيدة: شجرة ساقها من ذهب في الجنة تستظلون تحتها، أو شجرة زقوم ملتهبة في جهنم تُعذَّبون بها، ولكم وحدكم مطلق الاختيار.

2) معًا نصنع الفجر القادم

كتاب يبث الأمل في القلوب ويبشِّر بحتمية الانتصار عن طريق إشاعة: خماسية الألم، وخماسية الأمل، وخماسية السُّنن، وخماسية العمل، وخماسية الهمم.

3) رُدَّ إليَّ روحي (بجزءيه: بأي قلب نلقاه وجرعات الدواء):

موسوعة قلبية شاملة موضوعها القلوب، وتتناول قصة قلب أصيب بأمراض خطيرة أوشك معها على الهلاك، فأُدخِل العناية المركزة الإيمانية، وهناك امتنع عن كثير من آفات عديدة كانت سبب مرضه، ثم تلقى جرعات دواء مكثفة قارب معها على الشفاء، لكنه تعرض لانتكاسة مفاجئة أنقذ منها في آخر لحظة، ثم واظب على العلاج حتى أتم الشفاء، وأنهى فترة النقاهة، ثم خرج بفضل الله أقوى وأفضل مما كان، يُداوي ويشفي بإذن الله غيره بعدما تداوى وشُفي.

4) هبي يا ريح الإيمان (كتاب + كتيبات متفرقة):

كتاب يحوي عشر نسمات تهدف إلى زيادة الرصيد الإيماني ودعم الذاتية التعبدية.

5) سبـاق نحـو الجنــان:

كتاب يتناول صفات القلوب المتسابقة نحو الآخرة، ورسوم الاشتراك في السباق، مع ذكر الواحات التي تأوي إليها القلوب، والعقبات التي تعترضها، مع وصايا عشر تساعد على البدء فورا في السباق.

6) صفقات رابحة (كتاب + كتيبات متفرقة):

عشر صفقات تعبِّر عن عشر عبادات متنوعة تتضمن كل صفقة منها: تسهيلات الصفقة أي ما يعينك عليها، وأرباحها وتشمل ثوابها الذي يدفعك إليها، والشروط الجزائية.

7) رحلة البحث عن اليقـين:

يتناول معنى اليقين، وكيف غرس النبي ﷺ اليقين، والعقبات التي تحول دونه، وتوائم اليقين، وكيف الوصول إليه.

8) أول مـــرة أصلـــي:

وهو هذا الكتاب الذي بين يديك، وهي رائعة من روائع ابن القيم، هذَّبتها وبسطْتها وشرحتها وأضفت إليها أضعاف معانيها، لتجعل بإذن الله لصلاتك طعما آخر ومذاقا أروع، وستحس أنك لم تكن تصلي قبلها، فشتان ما بين صلاتك هذا الكتاب وصلاتك بعده، ومن هنا جاء اسم الكتاب، لأنها تجربتي الشخصية معه التي أردت أن أنقلها لك، ولا أحرمك منها مثقال ذرة، فأقبل على حياتك الجديدة في ظل صلاتك اللذيذة المتلئة بالمعاني الجليلة.

9) ونطـق الحجـــاب:

وهي رسالة تخاطب الأخت المسلمة تعلمها الطريق إلى أفضل حجاب من خلال سردها لثمرات الحجاب المزهرة، وأشواك التبرج المهلكة، ويركِّز الكتاب على الحجاب كسلوك قبل أن يكون زيًا.

10) يا صاحب الرسالــة:

كتاب يخاطب من حمل دعوة الإسلام، واحترق قلبه كمدا على حال أمتنا، فأضاء بهمته ما حوله، وفي الكتاب: علامات حمل هذا الهَمّ النبيل، وكيف يُقدِّم صاحب الرسالة الدعوة في اختياراته من اختيار زوجة وبذل وقت، وكيف يضمن أن لا تفارقه في أي من لحظات حياته، وما

هي الحواجز التي تحول بينه وبين هذا الهدف النبيل، وما الذي يجعل الخير ينتفض من بين جوانحه تهيب بالناس أن يهتدوا، ويلتحقوا بالركب المبارك والقافلة التي يقودها سيد الكونين محمد ﷺ.

ثانيًا: الإصدارات الموسمية

11) المهاجرون الجدد:

دروس ثمانية من الهجرة من تمثَّلها نال أجر المهاجرين وإن لم يقطع الصحارى والقفار.

13) المهاجر:

رسالة صغيرة الحجم مطبوعة في 24 صفحة، بمناسبة العام الهجري الجديد، تتناول معنى الهجرة وأثرها في حياة المسلم بنظرة مختلفة، وخطة عمل تفصيلية عن كيفية الإقلاع عن الذنوب ومحفزات ذلك. وتهدف إلى بدء عام جديد بقلب أنقى وعهد جديد مع الله ﷻ.

14) من الطارق:

هو كتاب يتناول شهر رمضان كزائر عزيز، معه الهدايا الغاليات، والتي تتطلب منا رد الجميل من قيام ودعاء وقرآن.

15) رمضان ثورة التغيير:

كتاب رمضاني يستهدف تعظيم الاستفادة من رمضان باعتباره ثورة حقيقية في كل مجالات الحياة: العاديات والعبادات والسلوكيات والعلاقات، ويستهدف اغتنام رمضان في تغيير لا يتاح في غيره من الأشهر لبركة.

16) الاعتكاف.. تربية الأيام العشرة:

يتحدَّث عن مقاصد الاعتكاف العشرة، مع إبراز أفضل عبادات المعتكف، والتعرُّض لسموم الاعتكاف أي محظوراته.

17) سهام الخير.. عشر ذي الحجة:

يحوي عشر عبادات موزَّعة على الأيام العشر مع التحدُّث عن فضائل هذه العبادات، مع تمهيد بفضل هذه الأيام.

18) رحلة المشتاق.. العمـــرة:

كتاب جديد في موضوعه يحوي فوائد جمّة ومعاني غزيرة تكشف الأسرار الباطنة للعمرة.

20) رحلة المشتاق.. الحج والعمـــرة:

كتاب يشمل أسرار العمرة إضافة إلى أسرار من الحج، وهو ضعف كتاب العمرة تقريبا، وفيه قرابة ضعف فوائده.

21) (10×10).. لمن فاته الحج هذا العام:

رسالة صغيرة الحجم مطبوعة في 24 صفحة، بمناسبة أيام العشر الأوائل من ذي الحجة.. التي هي أعظم أيام الدنيا.. وهي تتحدث عن عشر عبادات هامة تملأ هذه الأيام المباركة.

ثالثـا: قريبـــا

22) بيني وبين ربـي:

كتاب يتناول العلاقة بين العبد وبين الله، وذلك عن طريق تتبع الآيات والأحاديث التي تتناول الإحسان والرضا والمحبة والنصرة وغيرها، مع شرح ما يكون منها من الله وما يكون من العبد، والفارق الشاسع بينهما.. مما يورث العبد عبادة الله بحب وشوق وحياء.

23) المعركـة الأخـيرة:

كتاب يهدف إلى تجسيد عداوة الشيطان لديك إلى عداوة حسية ملموسة، وعلى شكل معركة؛ لأن هذه هي حقيقة العلاقة بينك وبينه، وذلك عن طريق استعراض عداوة الشيطان التاريخية لك، واستعراض أسلحته والأسلحة المضادة لمواجهة كل سلاح من أسلحته، مع وضع خطة تفصيلية خطوة بخطوة للتغلب عليه ودحره ذليلاً صاغرًا.

محتويات الكتاب

عرفتُ الله

صحبتُ الكراما

أخذت الكتاب بقوة


الحمد لله